

حين عاد قلبي

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدماً.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.



❖ الكتاب: حين عاد قلبي

❖ المؤلف: سعاد عمر سواد

❖ نوع العمل: رواية

❖ الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة

❖ الناشر: ببليومانيا للنشر والتوزيع - مصر

❖ رقم الإيداع : 2019 / 26550

❖ الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754- 79-9

❖ الغلاف: شهيرة المصري

❖ اللوحة الداخلية الأولى: هاجر ابيام

❖ اللوحات الداخلية: أمانة المصوفي

❖ تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببليومانيا

❖ المدير العام: جمال سليمان

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق - مول الميريبلاند - مصر الجديدة

❖ عنوان (2): 38 شارع عمر المختار - الأميرية - القاهرة

❖ تليفاكس: 0020226061014

❖ محمول: 00201208868826 - 00201065534541 - 00201210826415

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: <https://www.facebook.com/bibliomania.eg/>

❖ الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة

عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببليومانيا للنشر والتوزيع



+201065534541

+201208868826



fb.com/Books.Bibliomania



fb.com/bibliomania.eg



fb.com/Books.Bibliomania

ببليومانيا - Books

fb.com/groups/Bibliomania-Books



@BibliomaniaEg

حين عاد قلبي

مرواية

سعاد عمر سواد





www.bbibliomania.com

2019

هَذَا

إلى من فتحت ذراعيها في أصعب الظروف لتحتضن أوجاع الأبرياء، إلى من جمعت الجمال
والحب والآلام والأحزان بين ساحلها وواديها
حضر موت الحبيبة

إلى من أثارتنني شجناً، وأعجزت حروفي عن مجازاة رباطة جأش أبنائها
عدن الباسلة.

إلى كل بقعة من أرض السلام استباحتها سطوة الحرب
إلى وطني
إلى أرواح كل الشهداء

الطبيبة الأدبية

د/ سعاد عمر سواد



والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
حين عاد قلبي؛ رواية عربية أصيلة جمعت بين أسلوب قصص الأنمي (الرسوم المتحركة
اليابانية) ذات التصنيف العاطفي، وبين ثقافة الكاتبة المحلية، حيث سلطت الضوء من
خلالها على فترة حرجة مرت بها بلادها (بلاد اليمن السعيد)، في حبكة قصصية محكمة،
تنوعت فيها الشخصيات وتميزت بين دوافع الخير ونوازع الشر، ليعيش القارئ معها بكل
حواسه، فهو يشعر بشعورها، ويتفهم دوافعها، ويمضي معها في مسيرتها متلهفا لمعرفة ما
ستؤول إليه الأمور في النهاية!

رواية تنقلك من عالمك البعيد لتعيش في قلب اليمن، متغلغلا في خضم أحداثها، لترى
وتسمع وتحكم بنفسك على ما يجول فيها، وكأنك فرد من أفرادها، تفهم طبائعهم، وتتعرف
من كتب على عاداتهم! إنها بالفعل فرصة رائعة قدمتها الطيبة الأدبية الدكتورة اليمنية سعاد
سواد؛ لكل قارئ يرغب بالتجول في أنحاء اليمن دون أن يرح مكانه!
من أجل ذلك كله؛ استحق هذا العمل الفوز بجدارة في مسابقة تحدي الأفكار على مجموعة
المانجاكا العربي، تحت شعار: "معا لمكافحة الانحراف ونشر العفاف" والتي كانت تهدف
لتقديم نماذج متميزة تجمع بين القصص العاطفية التي تستهوي القلوب، وبين القيم والمبادئ

العربية والإسلامية السامية، فالعواطف الإنسانية ليست مذمومة بحد ذاتها؛ وإنما أسيء استخدامها حتى نفرت منها الأخلاق والأذواق الرفيعة، وكان لا بد من إعادة الأمور نصابها، فجاء هذا التحدي على ثلاثة مراحل؛ لعله يساهم في سد هذه الثغرة! وبينما فازت "حين عاد قلبي" بصفتها أفضل قصة مشاركة في التحدي؛ فازت "ريحانة قارة عبد الله" عن تصميم شخصية بطل القصة "طارق" فيما فاز "عماد الدين" عن تصميم شخصية البطلة "ضياء"، ومن ثم قامت الفنانة المبدعة "هاجر" بإعادة إخراج الشخصيتين، وتنفيذ لوحة فنية تجمع "ضياء" و"طارق"، في إطار بديع، يعكس أبعاد هذه العلاقة!

من الجدير بالذكر أن مجموعة "المانجاكا العربي" تأسست عام ٢٠١٣/ ٢٠١٤ على يد الشاب الطموح "مهدي سرحان"، بهدف دعم وتشجيع المواهب العربية المتأثرة بفن الأنمي (الرسوم المتحركة) والمانجا (القصص المرسومة) اليابانية، ذلك الفن الذي بات يستهوي قلوب العديد من الشباب عربيا وعالميا، و"المانجاكا" مصطلح ياباني، يُطلق على من يصنع المانجا، والتي تكون عادة اللبنة الأولى لإنتاج الأنمي. وقد لاقى هذا الفن رواجا كبيرا في عالمنا العربي، بداية من الأعمال المدبلجة كالكابتن ماجد قديماً، وحتى الأعمال المترجمة على الانترنت حديثاً.. ونحن نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً لما يحب ويرضى، ويعيننا على استئثار مواهبنا، فيما يعود بالنفع علينا وعلى أمتنا، والعالم أجمع..

زينب جلال - كاتبة "مدرسة الفروسية" إدارة المانجاكا العربي

مكة المكرمة.. الاثنين ٢٨ شوال ١٤٤٠ الموافق ١ - ٧ - ٢٠١٩

د / سعاد عمر سواد

دين عاد قاي



الفصل الأول

المزدوجة

تدافعت الحزم الذهبية معانقة جبال السحاب بشوق لنهار جديد، ناقلة حرارتها للنسائم، مبددة برودتها، مانحة الدفء لأجساد تحركت في مختلف مسارح الحياة طالبة أرزاقها من حيث مكانها، إطلالة الشمس هي أذان لبدء الحياة، تحفز كل خلية في الجسد، وتستنهض الهمة والروح وتدفعها نحو غايتها.

حركة دائبة لسيارات وحافلات شتى في الطرق الخارجية والمؤدية إلى مدينة (المكلا)، منهم من هو ذاهبٌ لمقر عمله، ومنهم من يستعد لبدء يوم دراسي جديد في أحضان جامعة (حضر موت) الواقعة خارج المدينة، في الأنفس أمل تخلفها تباشير الصباح ونسماتها. ومن بين المركبات المارة، سيارة جيب فارهة رمادية اللون استقلها خمسة شبان في طريقهم خلال أيامهم الأولى من الجامعة، وهم يتبادلون الأحاديث بمرح، وتموج أركان السيارة بضحكاتهم المفعمة بالحياة، إلى أن وقعت أعينهم على ما دفعهم للهدوء والصمت، لقد عكر صفوهم المنظر المائل أمامهم.

في منتصف الطريق وعبر منطقة (جول مسحة) الواقعة خارج (المكلا) رأوا صنفاً آخر من البشر، بملاحظتهم كانوا يحاولون قتل كل أمل، بل إفناء الحياة.

وجوه غطاها السواد، لم يظهر منها إلا وهج شرٍ، بريق عيون نافذة في كل ما حولها وما يمر قربها، تود لو تنفذ وتحترق وتحقق لتكتشف أعدائها، أجساد مدججة بالسلاح، تباهى أصحابها بها، وفرضوا جبروت الصمت بقوتهم وعتادهم. كانوا شباباً في ربيع العمر كالشبان الخمسة، هنا تقاطع دربان في مكان واحد، واختلقت المسالك نحو المستقبل.

مسلك يرى المستقبل بالقوة، وآخر يراه في درب العلم والكفاح. كانت تلك العصبة تنتظر الجميع، بعددهم الذي لم يزد عن العشرة يستوقفون كل سيارة تمر، يسألون ويفتشون ما أثار ريبهم وما لم يثره قبل أن يسمحوا لها بالمرور. الكآبة والضيق والخوف والقلق عم جميع المارين، بمن فيهم ركاب السيارة الرمادية الذين انتقل عدوى الصمت إليهم ماعدا قائد السيارة (طارق) الذي قطعه وهو يقول في ضيق: -لو لم تكن تلك السيارات أمامي لانطلقتُ بأقصى سرعة.

قال ناصر -الذي كان يجلس إلى جواره- وهو يربت على يده مهدئاً:

-دعك من الرعونة الآن، ليسوا الدكتور (سامي) حتى تتجاهلهم هكذا.

امثل طارق لأمر ناصر ضجراً، وحين حل دوره لم يهتز قيد أنملة، بل إنه لم ينظر إليهم، واكتفى بفتح زجاج نوافذ السيارة من عنده، حتى أشار له أحدهم بفتح حقيبة سيارته، فقال طارق في حدة:

-وما بها؟

-انهض .

قالها الملثم في حدة، نزل طارق ونفذ أمر الرجل الذي لم يجد بها سوى ثلاثة جوالين فارغة، فتركه، لتمضي السيارة بركابها بعيداً، فتنفس ناصر في ارتياح، بينما قال محمود في ضيق والذي كان يجلس خلف طارق:

-متى سيرحل هؤلاء؟

أطلق ناصر زفرة حارة ثم قال:

-إلى أن يشاء الله.

قال طارق في حدة:

-أكره الغرباء، وأن يفرض أحدهم أوامره علي.

-لقد تجاوزناهم.

قال صبري والذي كان يجلس إلى جوار محمود:

-للأسف سنظل نتعاش معهم، ومع الكثيرين على شاكلتهم، إننا نعاني بسببهم.

كاد محمود أن يتكلم لولا أن ارتفع صوت شخير وليد -رفيقهم الخامس- الذي ترك كل شيء جانباً مستسلماً لنوم عميق، ولم يبدُ عليه أنه انتبه لشيء مما حدث.

انتابت الجميع موجة ضحك عارمة فور انتباههم لأمره، قال طارق وهو يحرق في معالم الطريق أمامه:

-ليتنا نستطيع العودة لبيوتنا لنظفر بشيء مما يناله وليد الآن.

قال ناصر:

-لا تقل هذا، يكفيني إجازة لأكثر من سنة، دعنا نجرب شيئاً جديداً بعيداً عن أجواء الثانوية وجلسات البحر والمقاهي.

-وكأنك تعني بأن الدراسة الجامعية ممتعة؟

قال صبري:

-بالطبع لا يقصد ذلك، وأنت تعلم ما هو الشيء الأكثر متعة في ذهابنا للجامعة يا طارق، استغلال وقت المحاضرات ومغافلة الجميع للظفر برحلات خارج المكلا.

قال محمود في حماس:

-المرّة القادمة يجب أن نذهب لنادٍ رياضي.

رد طارق:

-بل سأذهب لزيارة أية مدينة خارج المكلا، دعونا ننتزه قدراً كافياً.

قال ناصر في نبرة قلق:

-أكثر ما يزعجني في خروجنا من المكلا مرورنا بنقاط التفتيش الكثيرة.

قال طارق في سخرية:

-أتخشى أصحاب الرايات السود يا ناصر؟

-بل أخشى عنجهية هؤلاء.

-لا تقلق، سنمر مثل كل يوم، دعنا نستمتع بوقتنا كل ما أتاحت لنا الفرصة.

قال محمود في ضيق:

- ما بك يا ناصر؟ دعنا منهم، ولنسهم، ولنقطع الطريق في حديث غير هذا.

قال طارق في مرح:

- نعم، لنساهم، ها نحن نقرب من الجامعة، تُرى كيف سنقضي أوقات المحاضرات اليوم؟

ضحك رفاقه لقوله، وأخذت أركان السيارة تموج بأحاديث الشبان الأربعة المرحّة مرة

أخرى.

لسبب ولغير سبب، كان المرح اللا محدود سمة مميزة لطارق.

شابٌ في مقتبل العمر لم يتجاوز الثانية والعشرين ربيعاً، تلازمه ابتسامة مرح عريضة، رفيقة دائمة تجعله كالساخر من الأهوال، تتوارى حيناً لكنه لا يلبث أن يرسمها مجدداً على سحنة وجهه الأبيض لتزيده وسامة وضياء، ومع اختفاء أثر شعرة على وجهه بدا أصغر عن سنه، كمراهق صغير في المرحلة الثانوية.

ويخط الغرور والزهو تضاريسهما على قسّات وجهه بمجرد أن يُقدم على أي عملٍ يدلل به على اعتزازه بنفسه ووسامته وحُسن مظهره وأناقة ملبسه؛ نظارة شمسية أنيقة، سترة ذات الأكمام القصيرة، وبنطالاً من الجينز، أبرزتا معالم جسده حدّدت رياضة دائمة وجعلته لائقاً متناسقاً، وتألفت في معصمه الأيسر ساعة كورين فضية فاخرة، أما التباهي بثرائه فتميزه ابتسامة كبر واضحة، من ضمنها امتلاكه لسيارته الفارحة التي منحها إياه والده (عبد

الكريم) بمناسبة نجاحه وتخرجه من المرحلة الثانوية، بقدر ما كان ضجر طارق من كل ما

يخص مسلك العلم والدراسة، إلا أن الطريقة الوحيدة لإرضاء والده والحصول على ما يريد

منه هي زرع الأمل في نفسه بأنه سيصل إلى (المجد) عبر درجات العلم بين أحضان الجامعة

التي تبعد عن مدينته (المكلا) نحو نصف ساعة، يذهب إليها كل صباح لا شيء سوى

إرضاء والده حيناً، وتحقيقاً لنزواته حيناً آخر مع أقرب الرفاق إلى قلبه.

فلقاءات نور الصباح مع الدوام الجامعي لا تمضي عبثاً بالنسبة له، ها هم رفاقه الأربعة

المقربون برفقته في طريقهم خلال الأيام الأولى من الجامعة، وهم يتبادلون الأحاديث

والضحكات بينهم.

عن يمينه، جلس (ناصر) شاب في الحادي والعشرين، أسمر، نحيف البنية، هادئ الملامح،

أقصر منه طولاً، ذو شعر أسود قصير، ويعتلي شفته العليا شارب قصير، يحدق بعينه

السوداوين مبتسماً لرفاقه الثلاثة الجالسين بالمقاعد الخلفية، وقد أثر الصمت والمراقبة.

و(محمود) يجلس إلى جوار النافذة اليسرى، والذي يكبر طارق بعام، كان يتميز عن رفاقه

بوجهه العريض، وسمرة بشرته وشاربه الخفيف، وبنظرات مغرور تحمل دهاء، لم يكن عليه

سمات التباهي إلا بشيء ما كان يداعب فكره، لن يستطيع أحد إدراكه من أول لقاء، حتى

يبدو للناظر بأنه قائد المجموعة وحكيمها المحنك.

و(صبري) الذي اختار الجلوس في المنتصف حتى يكون الجميع في متناوله، يجول بنظراته

بينهم ويحدثهم، كان أقرب لطارق شبيهاً في العمر والطول والقامة وحتى المرح، إلا أنه بشرته

كانت تميل للسمره، و يترسم على وجهه شارب ولحية قصيرين، ويضع نظارة طبية أمام عينيه السوداوين، وتفرد عن البقية بثرثرته وردوده المستمرة.

وعن يمين صبري كان (وليد) أقصر فرد في المجموعة، ممتلئ الوجه والجسد، وزاد ضياء وجهه الأبيض سواد شعر رأسه القصير وشاربه ولحيته، مدد جسده واسترخى على الكرسي، وسمح لكرشه الصغير بالبروز في هدوء، وترك الثرثرة جانباً مستسلماً للنوم.

انطلق طارق بسيارته لتخترق الريح وهو يعيد الابتسامه لوجهه متجاهلاً ما شاهده قبل لحظات، فبقدر ما كان انزعاجه إلا أنه يجيد إبعاد الضيق عن نفسه، وحين اقترب من أسوار الجامعة أبطأ من سرعة سيارته ثم دلف عبر البوابة.

كان السور يحتضن مدينة جامعية كبيرة قيد البناء في منطقة (فلك)، مساحة صحراوية واسعة تطغى على المكان، تتخللها مجموعات من الأبنية البيضاء، وكل مجموعة بعيدة عن الأخرى عكست حزم الشمس الذهبية فبدت كالآلئ في وسط الصحراء، لا يربط بينها إلا أرصفة طويلة.

اتجه طارق بسيارته نحو أحدها قاطعا الطريق الأسمنتي الطويل، وعن جانبه مر الطلاب والطالبات، الدكاترة والأساتذة وهم يتوافدون إليها إما سيراً على الأقدام، أو بالحافلات، أو بسياراتهم الخاصة لتقف بمرآب خاص بها.

وعند المرآب الملحق بكلية الهندسة، أوقف طارق سيارته فجأة في حركة مقصودة، فارتفع أزيز محركها وصوت عجلاتها على نحو ملفت، متخذة موقعها بين عدد من السيارات الواقفة، على إثرها استيقظ وليد وهو يتمشط ويمدد جسده، ثم قال في تكاسل:

-هل وصلنا؟

قال طارق وهو يلتفت إليه:

-صباح الخير يا سيد وليد، هل أحضر لك الشاي أم أجلب لك البطانية لتكمل نومك؟
ابتسم رفاقه في سرور لطرفته، وخرجوا من السيارة حين قال وليد وهو يتبعهم ويقول:
-بل أرسل لي البطانية وجزاك الله خيراً.

ضحك وهو يجيبه:

-بكل سرور.

قال ناصر:

-ما هذه الحركات والأصوات التي تضح آذاننا بها يا طارق؟
أطل من السيارة وهو يجيب ساخراً:

- وكأنك أول مرة يا ناصر تواجه ذلك؟ هذه أحد فنيات الوقوف بالمرآب.

ضحك زملاؤه على كلماته الأخيرة، بينما حثهم محمود على الإسراع وهو يشير بيده، قائلاً:
- هيا يا شباب إلى القاعة قبل قدوم الدكتور سامي، بقيت دقيقتان على بدء المحاضرة.



أسرع الشباب الخمسة نحو مدخل مبنى الكلية الملاصق للمرآب، أعلاه لافتة كُتب عليها (كلية الهندسة الكيميائية)، كان المدخل مكتظاً بالطلاب والطالبات، بينما تطلع طارق لمحمود وهو يخلع نظارته كاشفةً عن عينيه البنيتين، ثم توج بها رأسه حين وضعها على شعره الأسود القصير الناعم، قائلاً في سخرية:

- سامي أكسيد الكربون، ألن يتبخر هذا العجوز ويتحد مع أي عنصر في الجو بعيداً عن هنا يا محمود؟

انفجر محمود وبقية رفاقه ضحكاً، قال محمود مقاوماً نوبة الضحك:

- سوف تتحد بالباب إن اصطادك الدكتور بعد دخوله.

اتسعت ابتسامة طارق، وهو يقول:

- لن أندم على هذا الاتحاد، على الأقل سأتخلص من ثرثرته.

- ستكون في عداد الغائبين.

- ليست المرة الأولى، ولكن حتى لا يشكوني عند أبي بسبب تكرار غيابي، سأتنجب هذا فقط.

أسرع الخمسة يدخلون القاعة الكبرى من باب أسفل المدرجات التي اكتظت بالطلاب والطالبات، كان اللون الأزرق هو ما يكسو مقاعها التي تتسع لمائتي فرد، وستائر نوافذها التي أطلت على جانبيها، والأحاديث لا تزال تموج بالقاعة، لم يصل الدكتور سامي بعد، سر طارق ورفاقه لذلك، وصعدوا وصولاً إلى المدرج التاسع الأخير، انتبه محمود لوليد وهو يسترخي مجدداً على الكرسي، فابتسم له وقال:

- يبدو بأنك ستعود للنوم مجدداً، إنه مقعدك المفضل يا وليد.
- رغم استرخائي إلا أني لن أنام، فمعدل المزاح اليوم عند طارق مرتفع جداً وأنا متابع لنكاته الآن.

فابتسم طارق له، بينما قال ناصر وهو يلقي ببصره ناحية الطلاب بالمقاعد الأمامية:

- هل رأيتم تلك الفتاة في المدرج الثاني إلى اليمين؟

قال محمود:

- لا، فالقاعة مكتظة بالطالبات، وكلهن يرتدين السواد.

سأل طارق:

- وما بها حتى تهتم بها هكذا؟

- تبدو غريبة عن الدفعة.

- وما المشكلة؟ جديدة سجلت بالكلية لتتبخر مع محاضرة اليوم.

- كان وجهها مكشوفاً رغم أن نصفه بدا محترقاً.

بدا الفضول على وجه طارق وحقق حيث مكانها، فلم يتمكن من رؤيتها وهو بالصف

الآخر، ولا يرى إلا أظهر من هم أمامه، وجموع الطالبات كلهن لا يرتدين إلا العباءات

والحجابات السوداء، فلم يكن يستطيع تمييز شيء، فقال لناصر:

- وكيف استطعت رؤيتها؟

- حين دخلنا القاعة لمحتها، هي الوحيدة بين الفتيات لا ترتدي نقاباً.

رد طارق في سخرية:

- أولى بها أن تخفيه طالما هو هكذا، لم تكشفه إذن؟

هز ناصر رأسه وهو يقول:

- لا أدري.

- ربما تريد إخافتنا.

فابتسم وليد وقال:

-ومن يخيفك أنت؟

لحظتها، أطل الدكتور سامي على القاعة بجسده الذي نُحت بفعل سنوات تجاوزت الخمسة والخمسون عاماً، وتركت معالمها على شعر رأسه وشاربه ولحيته القصيرة فاستحالوا إلى اللون الرمادي، وعلى عينيه السوداوين فأضعفتها مما ألجأه لارتداء نظارة طبية سميكة ظلت ملازمة له وطالع بها الحاضرين وهو يسلم عليهم بصوته الأجش، كل ذلك مع ملامح الجد المرتسمة على محياه وهندام بدلته الأنيقة فرضت هيئته أمام الجميع باستثناء طارق ومجموعته. أمسك الدكتور بمكبر الصوت بادئاً محاضرتة، وهو يقول:

- في محاضراتنا السابقة، تطرقنا لبعض عناصر الجدول الدوري وصفاتها؛ لكنني وجدت معظمكم قد نسوها بسبب استرخائكم سنة كاملة أو ربما أكثر، لذا أرجو أن تعيدوها علي قبل الولوج إلى موضوع اليوم، ستعانون بعض الصعوبات في الدراسة من حيث اللغة

ولاسيما في بداية المشوار، لأن نمط الدراسة هنا مختلف كلياً عن الثانوية، أرجو منكم المثابرة والمتابعة فهذه المادة ممتعة جداً... هيا، لنبدأ.

بدأ الطلاب الموجودون بالمقاعد الأمامية الإجابة والمشاركة مع الدكتور، أما طارق ورفاقه فقد كانوا هادئين في أماكنهم وكأن السؤال لا يعينهم في شيء بل إنهم أرخوا أجسادهم على الكراسي وكادوا يحذون حذو وليد، لولا أن أيقظهم ناصر وهو يقول:

- تلك الفتاة التي تتكلم الآن هي من أخبرتكم عنها.

لم يبدُ الاهتمام على طارق وهو يضع يده أسفل ذقنه ويقول:

- لن أتمكن من رؤية وجهها من هنا ونحن لا نرى إلا أظهر الطلاب.

استمع كل من في القاعة لحديث الفتاة وهي تشرح العناصر وتذكر صفاتها وكأنها حضرت تلك المحاضرات السابقة، مستوى لغتها الانجليزية عالية متقنة، معلوماتها مميزة، ألجمت الجميع وأدهشتهم بحديثها ونبرة صوتها الواثق الرقيق الذي سمعه الحاضرون عبر مكبر الصوت حتى طارق ورفاقه أصابهم الخرس للحظة.

ثم هز صبري رأسه وهو يستمع لإجابة الفتاة وقد بدا على وجهه اهتمام كبير، ولما انتهت، قال في سخرية:

-الظاهر أنها تسترق السمع للمحاضرات، كيف لها أن تحجب بهذه السرعة والإتقان وهي لم تحضر من قبل؟

هز طارق رأسه مؤيداً في ابتسامة، بينما ابتسم الدكتور سامي فخوراً بها، وطلب إليها أن تدون له بعضاً من العناصر التي ذكرتها على السبورة، نهضت من مقعدها في هدوء وخطت خطوات متزنة غير مرتبكة نحو هدفها، ثم تناولت القلم من أستاذها وكتبت ما أراد، كان خطها جميلاً مرتباً، فابتسم الدكتور في رضى، وحين التفتت إليه ظهرت جليلة أمام الجميع وعيونهم تتطلع لتلك الغريبة التي برزت خلال لحظات قليلة من بدء اليوم الدراسي.

شابة عشرينية في مقتبل العمر لم يظهر ذلك إلا من نصف وجهها الأيمن ذو البشرة التي كانت تميل للاسمرار قليلاً، أما نصف وجهها الأيسر فقد اعتلته ندبة حرق قديم بنية اللون التهمت بشرتها وسببت تجاعيدها قبل الأوان وانكماشها وانكماش جفني عينها اليسرى مع اختفاء أثر شعر الحاجب أعلاه، بدا وجهها مع هدوئها وحزمها مخيفاً، أما جسدها النحيل فقد أخفته بحجاب وعباءة غارقين بالسواد.

أثار منظرها الصدمة والارتباك على معظم الحاضرين، كيف جمعت بين النباهة والبشاعة في آن واحد؟!

لم يبدُ على الفتاة أي ارتباك حين علت همهمة خفيفة في القاعة، بينما قال طارق في فضول:

- ما اسمها؟

أجاب ناصر:

- لا أعرف، لم أرها إلا اليوم.

- المزدوجة، هذا هو اسمها.

كاد ناصر ورفاقه يقهقهون ضاحكين لولا أنهم غمّلوا أنفسهم، ووليد يقول:

- قلت لك معدل المزاح عندك مرتفع جداً اليوم، ستوقعنا في ورطة مع الدكتور.

- أنت بالأساس مستيقظٌ لنكاتي.

صمت رفاقه مقاومين لنوبة الضحك مرة أخرى، حين سأل الدكتور سامي الفتاة، وهو

يقول:

- ما اسمك؟

- ضياء.

- تفضلي لمقعدك يا ضياء، لقد أثلجتِ صدري بمعلوماتك القيمة.

- شكراً دكتور.

ابتسمت ضياء لثناء أستاذها، وعادت لمقعداها بكل هدوء ونظرات الجميع لا تزال عالقة بها،

والهمسات قد بدأت تهدأ حين التفت الدكتور لهم، قال طارق ممتعضاً:

- ضياء! ما هذا الاسم الشاذ الذي لا ينطبق عليها أبداً، كان أولى بها أن...

قطع طارق عبارته حين أحس بأن نظرات الدكتور تتوجه نحوه رغم أنه لم يسمع حديثه فهدأ

مكانه، واستأنف الدكتور شرح المحاضرة.

في فترة الاستراحة، كان الطلاب قد غادروا القاعة إلا قلة، ومن بينهم ضياء التي جلست

مكانها تقرأ في أوراق بين يديها وتناقش فتاة في مثل عمرها، ذات بشرة بيضاء لم تبين إلا من

يديها الظاهرتين من جسدها، إذ أن جسدها كله مخفياً بحجابها وعباءتها السوداءوين، وارتدت نقاباً أسدلته على وجهها فلم يظهر إلا عينيها البنيتين الحادتين، أخذت تحدثها بكل سرور وتبتسم رغم أن ابتسامتها لم تظهر كثيراً بسبب نقابها، قالت ضياء لها مبتسمة:

- أشكرك جداً لإفادتي، لن أؤخرك عن الاستراحة، يمكنك الذهاب يا سحر.

- لا مشكلة عزيزتي، يسرني أن أساعدك.

وابتعدت عنها سحر لتغادر القاعة، بينما نظرت ضياء لفتاة أخرى تجلس خلفها وهي تسألها:

- ما هي الموضوعات التي أخذتموها في الفيزياء؟

نهضت الفتاة سريعاً وهي تقول في ضيق:

- سأخبرك لاحقاً.

ابتعدت الفتاة لتتجنب الحديث إليها، فأحست بذلك منها، وأدركت أن منظر وجهها هو ما سيكون سبباً في إبعاد من حولها عنها ونفورهم منها.

كيف لمن حولها وهم أرقى الناس فكراً أن يحكموا بظواهر الأمور قبل أن يدركوا بواطنها؟

تساءلت في نفسها، وكاد الحزن أن يسيطر عليها حتى لمحت في تلك اللحظة نظرات طارق المحدقة بها، تجاهلته وأعادت بصرها إلى مذكرتها وهي تستعيد حزمها وجلدها، ومضت تدون فيها.

قال طارق في ضيق لرفاقه وهم يغادرون القاعة:

- لا أدري لم يحدثها بعض الفتيات بكل طيبة هكذا دون أن يشمتروا من منظر وجهها.

رد محمود:

-سيتجنبها الجميع ثق في هذا، رأيت بنفسك ردة فعل الفتاة الثانية منذ لحظات، فعلاً منظرها يزعجني ويثير اشمئزازي.

فقال صبري:

-دعوكم منها، لدينا اجتماع نهاية الدوام لأجل فريق تنس الطاولة، وأنا سأشارك، هل ستتضمنون معي ممثلين للدفعة؟

رد ناصر:

-بالطبع أنا معك يا صبري، أحب هذه اللعبة.

قال طارق:

-حسنًا لنذهب إلى مقصف الكلية، وهناك سنناقش هذا الموضوع.

- لقد سمعت بأنها من عدن.

- نازحة بسبب الحرب؟

- نعم.

-وجهها مخيف.

- تبدو لي بأنها فتاة ذكية وقوية شخصية.

- أتفق معك، لأنها لو كانت خلاف ذلك لما أجادت الإجابة عن السؤال والنهوض من مقعدها في أول يوم لها بالجامعة بجرأة ودون أي ارتباك رغم وجهها المخيف.

- يبدو لي بأنها فتاة سيئة حتى أصبح وجهها بكل هذا التشوه.

- أتمنى ألا تسيء إلى أحد ذات يوم.

كونها غريبة عن المدينة، غريبة عن الجامعة، غريبة في منظرها، ذات ثقة كبيرة، وهادئة في تعاملها مثيرة به الغموض، متميزة في فطنتها وذكاؤها، تناهشتها عيون الفضول، ولم تسلم من سياط الألسن حولها، صارت منذ أول يوم وجبة حديث دسمة لمعظم شباب وفتيات الدفعة بل ربما كل من في الكلية.

كلما مر طارق ومن معه على مجموعة تناهى إلى أسماعهم حديث بعض الطلاب والطالبات عنها، قال محمود:

-إذن هي نازحة من عدن.

قال ناصر مستدركاً أمراً:

-صحيح طارق، والدك لا يزال...

قاطعها طارق وهو يشير بيده ويقول في عصبية:

-أصمت، قلت لك بأني أكره الغرباء، فلا تذكرني بعمل أبي مع هؤلاء المتطفلين على مدينتنا،

إني أمقتهم مهما كان سبب قدومهم، وأكره هذه الفتاة أيضاً، ما الذي أتى بها إلينا؟ لتعد

لمدينتها.

ثم أبعد ضيقه وهو يقول مبتسماً:

-لكن، وبعد كل هذا، ستعلم بأن أحداً لا يرغب في وجودها هنا، ما هي إلا أيام قليلة وتقرر الرحيل عنا.

لم يكن النهار نهاراً على ضياء، بل ليلاً أضيء بجمرة أرادت حرق كل عزيمة في قلبها وإفناء كل أثر لها.

تناهى إلى سمعها كل تلك السمفونيات التي عُزفت على أوتار الظنون والاحتمالات وهي تقطع طريقها بالمرمر قرب تلك الجموع لوحدها، سمفونيات لم تبث أي سعادة، بل حزناً على قلب أضنته رحلة طويلة لم يُعرف منها إلا القشور.

كان لا بد أن تتجاهل كل شيء، فألقت بكل ما سمعت خلف أذنها، لتمضي نحو ما أرادت وما دفعها للقدوم إلى هنا، مضت بكل ثقة غير عابئة بما يحاول تبديد فكرها عن جو الدراسة ومستقبلها المنتظر.

انتهى اليوم الدراسي مع نهاية الدوام، لكنه لم ينتهِ بالنسبة لها. هو بداية رحلة كفاح ستحتاج فيها إلى شحذ كل حزم وهمة في نفسها لتواجه في كل يوم قادم سيلاً عارماً من النظرات، وهجوماً قاسياً بالأسن لا تدري كيف ستكون شدتها ومداها، شددت على قلبها برباط العزيمة، وغرست فيه الإيمان بهدفها، لتحث نفسها على المضي قدماً في دربٍ تكتنفه الآلام.

وما شد من أزرها وجود سحر بقرها، تلك الفتاة التي لم تتجنبها كما فعل الآخرون، بل رحت بجلوسها إلى جوارها، وحادثتها وكأنها تعرفها منذ زمن، وأثنت على ذكائها وفطنتها متجاهلة ذمامة وجهها، حتى أنها لم تسألها:

-كيف حدثت هذه الإصابة؟ وما هي قصتك؟

أسئلة كانت تلتهم في أعين الجميع والفضول يقتلهم إلا هي.

وحين تؤثر ضياء الصمت لتجلس وحيدة مع مذكراتها ومحاضراتها الجديدة، تجدها تسرع إليها لتمديد المساعدة لها، وتبدد عنها شعورها بالوحدة والغربة، أحست بارتياح بالغ نحوها، وحملت عنها حمل يومها الأول الذي كاد أن يكون ثقيلاً على قلبها. ومع الاستعداد للمغادرة، أخذت ترتب بعض أغراضها في حقبيتها وهي لا تزال جالسة في مكانها، فقالت لها سحر في ابتسامة:

-أرجو أن تكون بيننا لقاءات خارج الجامعة يا ضياء حتى تستطيعين إدراك ما فاتك من محاضرات قبل موعد الامتحانات.

-سأحاول ذلك يا عزيزتي، شكراً لك.

-العفو، والذي سيمر بعد لحظات لاصطحابي بسيارته، دعينا نعد سوياً إلى المكلا.

-لا، سأستقل الحافلة، يمكنك الذهاب، لا أريد أن أكون برفقتك دائماً حتى لا أسبب لك المشاكل بسبب منظري.

عقدت حاجبيها، وقالت في حزم:

- ما هذا الكلام الفارغ؟ أنت فتاة طيبة يا ضياء ولن يدرك الجميع ذلك إلا إذا تعاملوا معك وعرفوا طيبة قلبك ورقي خلقك.
- أجابتها وهي تنكس رأسها في حزن:
- لا أستطيع ذلك وأنا...
- قاطعتها وهي تقول في حماس:
- سأجعلهم يدركون ذلك.
- سألتها في اهتمام:
- كيف؟
- لا تقلقي وثقي بي.
- أشكرك جداً.
- ابتسمت لها وودعتها وهي تصافحها بحرارة ثم انصرفت، بينما عادت ضياء لتكمل ترتيب أغراضها والابتسامة لا تفارقها.
- ومن مقاعدهم، كان طارق ورفاقه يراقبونهم، فقال صبري:
- يبدو بأن المزدوجة لم تظفر إلا بصداقة سحر، الجميع يتجنبها كما توقع محمود.
- لحظتها، قفز طارق من مكانه مسرعاً، فسأله محمود:
- إلى أين يا طارق؟
- راقب فقط.

قال ذلك وهو ينزل درجات القاعة حين نهضت ضياء وهي تحمل حقيبتها، فنادى عليها بصوت هادئ متزن:

-آنسة ضياء.

التفتت له، فقال مبتسماً:

-أهلاً بك بيننا يا أختي.

لم تبتسم وهي تتذكر نظراته نحوها في أول الدوام.

عيناه بجملهما الساحر وحدهما كانتا تفضيان لها بما يكمن في صدره نحوها؛ سخرية واشمئزاز وربما كراهية، بوحهما كان متناقضاً تماماً عما نطق به لسانه الآن؛

(أختي!) ما أجملها من كلمة، وما أقبحها في مقام سادته التهكم والاحتقار، إن للعينين رسائل صادقة لا يستطيع اللسان بخبث أحرفه أن يخفيها، ردت عليه بحزم:

-أهلاً بك.

-لقد عرفت بأنك من عدن وغريبة عن المدينة، لذا إن احتجت لشيء في شأن الدراسة فكلنا سنساعدك، لن شعري بالغربة بيننا.

-لن أشعر بالغربة وبوادر حربٍ باردة عليّ تلوح في الأفق!
قالت ذلك باستنكار في نفسها، لكنها أجابته:

-شكراً لك، ائذن لي.

وانصرفت من أمامه، بينما اقترب ناصر ورفاقه، وهو يسأل:

-ماذا استفدت من هذا؟

هز رأسه، وهو يقول في سخرية:

-لا شيء، وحيدة قلنا نواسيها ونداري حزنها.

ضحك رفاقه، ووليد يقول:

-يا لك من خبيث.

ابتسم وقد راق له كلمته التي جعلته يهز رأسه في زهو زائد، ثم ارتدى نظارته السوداء وغادر مع رفاقه ليعودوا إلى مدينتهم.

المكلا... الملكة الشاخنة في مملكتها المتألقة.

مدينة تتلألأ كل يوم، تستقبل نسائم بحر العرب، وتلتصع على طول شطها عقود الذهب والؤلؤ مزينة صدر تلك المدينة التي حصنتها الجبال الباسقة وأحاطت بها كأسوار قصر عتيد يستقبل زائريها، ويحميها من أعدائها.

لقد حُق لها أن تكون (ملكة) تتجلى لكل ناظر في شموخ ودلال غير عادي.

حملت الطرقات طارق ورفاقه إلى (حصن الغويزي) المعلم الأثري البارز الذي يستقبل الوافدين، ويراقب بحزن تهكمات (العصبة) وهم يستوقفون السيارات والمارة مسببين الازدحام كما كان في الصباح.

ابتلع طارق ضيقه وهو يتجاوز نقاطهم واحدة تلو الأخرى بعد ساعة حيث بلغت فيها الحركة ازدحام الطرق بالسيارات والمارة إلى أوجها، في (الديس) و(باعبود) وصولاً إلى منطقة (أربعين شقة) لكن ضيقه بلغ متناه حين أطل على مشارف منطقة سكنه (فوة)، ووقع بصره على عمارة كبيرة كُتب عليها مؤسسة (الرُّبَا للعقارات والمقاولات العامة) ورأى عدداً من الرجال يدخلون إليها، بينما يقف آخرون حولها، قال وهو يحرق بالطريق أمامه وينظر بين الفينة والأخرى إلى المارة الذين اكتظت الشوارع القريبة من العمارة بهم:

- إلى متى سيظل هؤلاء المتشردون؟

قال محمود في ضيق مماثل حين أدرك مقصده:

- تقصد النازحين؟ لا أدري ما هو السبب الذي يدفعهم للبقاء هنا رغم أسر مدينتنا وتحرر مدينتهم.

- لقد وجدوا من مدينتنا مرتعاً لهم يسرحون ويمرحون فيها، وكل اللوم يقع على من يتعاطف معهم.

قال وليد:

- ووالدك واحدٌ منهم، ألم ترَ كثرة الوافدين إلى مؤسسته (مؤسسة الرُّبَا)؟ والدك عبد الكريم سخي وطيب معهم، يساعدهم ليجد أماكن تؤويهم.

قال صبري في حزم:

-لم تصر دائماً طارق على إزعاج نفسك بهم وقد ألفت وجودهم شهوراً عدة، وألفت عمل والدك؟

أطلق طارق زفرة ضيق قوية وهو يقول:

-تلك الفتاة ذكرتني بهم وبعمل أبي تجاههم، ليته يعرض عنهم ليدركوا بأنهم عبء علينا وعلى مدينتنا.

قال ناصر:

-الوضع الآن صار أهون بكثير مما كنا عليه منذ أبريل العام الماضي، أتذكر ذلك اليوم المشؤوم الذي دوت فيه أصداء الرصاص وطلق النار حين...
قاطعته بحدة وهو يمسك بالمقود بعصبية وقوة:

-تعلم أن هذه الأمور لا تعنيني في شيء، أنا لا أذكر منها إلا اليسير، ولا أريد أن أفكر بها، فلا تروي شيئاً.

تنهد ناصر في عمق وهو يقول:

-نسأل الله أن تنقشع هذه الغمة علينا.

أمن الجميع على كلامه، ثم أوصل طارق رفاقه إلى أماكن سكنهم وودعهم، ثم مضى في طريقه وهو يقول لنفسه:

-أتمنى أن يقتنع أبي وأمثاله، المكلا بهمها لا تتسع للمزيد من حثالة البشر.

الفصل الثاني

جعبة العجز

تكاد عقارب الساعة تدق الثانية بعد الظهر حين أنهى (عبد الكريم) اجتماعاً بمكتبه، ولما انفض موظفيه من عنده استرخى على كرسيه ليرتاح من عناء العمل قليلاً.

رجلٌ خمسيني طويل القامة نحيف الجسد، أصابت ظهره انحناء طفيفة، ذو بشرة سمراء، وعينين سوداوين ارتسمت تجاعيد بسيطة عند زواياها، تميزه نظرات هادئة زادته وقاراً مع لون شعر رأسه الرمادي ولحيته وشاربه القصيرين، كان يرتدي الزي التقليدي الحضرمي؛ (عمامة) مخططة باللونين الأبيض والبني غطت رأسه، وسترة بيضاء ذات أكمام طويلة، و(فوطه) مخططة مختلفة الألوان غطت نصفه السفلي حتى أعلى كعبيه بستيمترات قليلة، اعتزازه بتراث أجداده بادياً عليه رغم رسمية مكانته كمدير مؤسسة كبيرة.

بعد لحظات، دخل عليه رجل ثلاثيني، وهو يقول:

-سيدى، لقد أنهيت عقود إيجارات الشهر الماضى.

رد عليه وهو يعتدل على الكرسي:

-جيد يا سهيل، سأقوم بمراجعتها، ابدأ مباشرة بما يخص الشهر الحالى.

-كما تريد سيدى.

تناول الملف منه وبدأ يتصفحه، لكنه لاحظ بأن سهيلاً لا يزال واقفاً مكانه، فقال له:

-ما الأمر؟ هل هناك مشكلة؟

-لم لا ترتح قليلاً من عناء العمل؟

-لا أستطيع ذلك الآن، الأعمال ستتراكم إن أثرنا الراحة والإقبال على المؤسسة كبير بفضل الله.

-أدرك أن الإقبال كبير يا سيدي، لكنه بسبب تساهلك الدائم مع النازحين، إن استمر الوضع هكذا مع تدهور الوضع الاقتصادي بالبلد أخشى أن تنهار المؤسسة.

-أنا لست متساهلاً، بل أحاول أن أساعد بقدر استطاعتي وأخفف بعض المعاناة عنهم.
-تأخر الدفع لمدة شهر يؤثر سلباً على أرباح المؤسسة، لقد انخفضت إلى خمسة في المائة شهرياً.

-لست مقتراً بحق المؤسسة، أدرك تماماً متى يجب أن تتوقف هذه الآلية، ثم أني لا أعامل الجميع هكذا، بل من يتأكد لي وضعهم وظرفهم الذي دفعهم للقيد للمكلا.
-أنا لا أقول هذا إلا من حرصي على المؤسسة.

ابتسم عبد الكريم ابتسامة صغيرة وقال:

- أشكر لك حرصك يا سهيل لا تقلق، فأنا لن أدخر جهداً لأجلها.

-أعلم هذا يا سيدي، وما تريده سأنفذه.

انصرف سهيل، بينما عاد عبد الكريم لعمله؛ لكنه قطعه حين سمع صوت إطلاق رصاصتين بالخارج، فأسرع نحو النافذة وتطلع نحو الشارع، ورأى حركة الناس المضطربة، ثم وقعت عيناه على سيارتي شاص تحمل عدداً من المثلثين ذو الرايات السوداء وهم يمرون متحفزين

بأسلحتهم متباهين بها حين أطلقوا الرصاصتين في الهواء، قطب جبينه غاضباً وقال لنفسه في حدة:

- متى ستنجو مدينتنا من تسلطكم ويرتاح بالنّا لتعود الحياة لأرواحنا؟
عاد بذاكرته نحو سنة للوراء، إلى أيام كان فيها شيء من الحياة قبل أن يخطفها موت مفاجئ.

في مدينة كبيرة كالمكلا روح الحياة تسري بسرعة فائقة ويدب النشاط فيها قبل شروق الشمس، وبعد الفجر تدب في المنازل لمن ذويهم في ميادين العمل والدراسة، ويرتفع ضجيج السيارات بالشوارع رويداً رويداً.

في منزله الكبير وبغرفة المعيشة، جلس عبد الكريم حول السفرة يتناول إفطاره قبل ذهابه لعمله وبرفقة زوجته (عائشة)؛

امرأة أربعينية شديدة الجمال، اكتسب طارق بياض بشرتها ولون عينيها البنيتين وحدتها، إلا أنها كانت قصيرة القامة قليلاً، معتدلة القوام، شعرها الغزير الملتحف بالسواد ربطته لتسدل بعض أطرافه في رقة خلف ظهرها، تلون خديها بحمرة خفيفة إثر استخدامها لمساحيق التجميل، وزينت نحرها بعقد ذهبي، وأقراط كبيرة تدلت من أذنيها، وترن الأسوار الذهبية حول معصمها، كانت مهمة بمظهرها لتبدو شابة في ربيع العشرينيات.

قال عبد الكريم وهو يتسم:

- متألقة جداً هذا الصباح يا عزيزتي.

بادلته الابتسامة، وهي تقول:

-أشكرُك يا عزيزي.

-أين رُبّا؟ ألن توقظيها الآن لتصحبيها للروضة؟

اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

-كما هي عادتك، تريد قُبْلتها قبل أن تغادر.

-أليست ابتني؟ إنها حياة هذا المنزل، أحمد الله أن رزقني بابنة جميلة كأُمها بعد هذا العمر،

يااه أخاها يكبرها بنحو سبعة عشر عاماً.

-لولا مرضي وحدوث مضاعفات ما بعد ولادة طارق ما كان هذا ليحدث، ظللنا نتظر

طوال تلك السنوات.

-الحمد لله أنك بخير يا عزيزي، والرزق بيد الرحمن، والحمد لله على ما وهبنا إياه.

-الحمد لله.

-لم تجيبي عن سؤالي.

ابتسمت ابتسامة مائلة وقالت:

-تعرف الإجابة مسبقاً، لن أوقظها الآن، لا يزال الوقت مبكراً.

قال في أسف:

-أوووه، هذا يعني بأنك ستمنعيني من تقييلها حتى لا تستيقظ كما حدث من قبل، أود أن

تودعني قبل ذهابي للعمل.

ضحكت وهي تقول:

-ستكون أول من يستقبلك عند عودتك.

-إن شاء الله، كيف حالها مع الدراسة؟

-لست أخشى عليها فهي طفلة مرحلة سريعة الاندماج مع أقرانها؛ لكن المشكلة هي أنها لا تهادأ في الصف أثناء الدرس، شكتها معلمتها أكثر من مرة.

صمت للحظات مفكراً ثم قال:

-إذن يجب عليك أن تعلميها في البيت أيضاً حتى تفهم قوانين الدراسة.

-لا تزال صغيرة يا عبد الكريم، إنها لم تكمل الخامسة، لا أريد أن أرهقها حتى لا تنفر من الدراسة.

-ولأنها صغيرة يجب أن تعلم أن الصف نظام، عليها الالتزام به وأن تكون هادئة، وجهيها دون أن تثقلي عليها.

-لولا إصرارك على إدخالها إلى الروضة ما كنتُ لأفعل، أريدها أن تتمتع بطفولتها.

رد بحزم:

-عائشة، الدراسة والتعود على أجوائها مبكراً سيفيدها ويجعلها تهتم بها.

مطت شفيتها في عدم اقتناع؛ لكنها هزت رأسها مؤيدة لتنهى الحديث، ثم قال في شيء من الضيق:

-وماذا عن طارق؟ هل سيقضي إجازته كلها في النوم والعبث؟

قالت في عتب:

-وماذا تريده أن يفعل؟ إنه في إجازة ما بعد الثانوية وستنتهي بعد شهور قليلة ويلتحق بالجامعة ويعود للدراسة، دعه يسترح ويفعل ما يريد مثل أقرانه.

امتعض وجهه، وهو يقول:

-أها، إذن أنت في صفه، حاولت إقناعه بأن يستغل إجازته ويلتحق بأي دورة يتعلم فيها علم يطور من فكره ويزيد معرفته ولم أفلح، أهديته السيارة بناء على طلبك وكي أمل بأن يتغير فكره ويدفعه ذلك لنيل العلم فلم يفعل، بل لا يزال يقضي كل وقته مع رفاقه في الأندية الرياضية والرحلات هنا وهناك، ليتني لم أمتثل لطلبك، كل هذا التماذي لأنك تقفين في صفه دائماً وتدليلينه كثيراً وتدافعين عنه.

قالت في حدة:

-لم تقول هذا والكثير من رفاقه أباءهم أقل مكانة منك ولم ييخلوا على أبنائهم بشيء؟ أليس من حقه أن نمنحه ما يريد؟

-واليس علينا توجيهه للصواب أيضاً؟

-طارق لم يعد طفلاً، إنه شاب سيلتحق بالجامعة ويصبح رجلاً.

-مهما كان عمره فهو بحاجة للتوجيه، وتحقيق جميع رغباته دون قيد مشكلة يا عائشة.

-طالما أننا نستطيع ذلك لم لا نفعل أم أنك تريده أن يكون أقل شأنًا من أقرانه؟

-لن أبخل عليه بشيء، أريده أن يمثل لأمري، وأريد أن أكون فخوراً به، إنه يتصرف دائماً
بلا مسؤولية في كل شيء من الآن، فكيف في المستقبل؟
-سيكون مثل ما تمنى، لا تقلق.

تنهد وصمت، ثم نهض بعد أن أنهى طعامه وهو يقول:
-سنرى ذلك في حينه، أسأل الله أن يحفظهما ويهديهما، سأصرف لعملي الآن.
-رافقتك السلامة.

وودع زوجته وغادر المنزل، ثم انطلق بسيارته متجهاً إلى مؤسسته.

حين وصل، استقبله سهيل فطلب منه تقريراً عن سير عمله، أجابه وهما لا يزالان يسيران:
-طلبات الإيجار في ازدياد كل يوم يا سيدي.
-هل من النازحين أيضاً؟

-أجل، العقارات تكاد تُشغل، كل هذا بفضل الله، المؤسسة ستحقق أرباحاً كبيرة خلال مدة
قصيرة.

رد متألماً:

-لا يحق لنا أن نفرح في وقت كهذا، ما يحدث في عدن وغيرها من مدن البلاد مؤلم جداً،
ورؤية الناس في شوارع المكلا تزيد ألمي، وضجيج الحرب يرتفع كل يوم، لماذا القتل والقمع
هما الحلان الوحيدان لإثبات القوة وإحلال السلام؟

-أعلم أنه واقع مؤلم؛ لكن يا سيدي، لو لم يكن أولئك النازحون مقتدرون لما تقدموا لطلب إيجارات في شقق مناسبة ولا ثقة.

-ولو كان في مقدورهم البقاء لما غادروا ديارهم، وتركوا ما خلفهم حتى يأتون إلينا، يجب علينا أن نقدر وضعهم ولا نستغل حاجتهم.

-لا يوجد استغلال، إنما هذا حق العمل.

-لا يمكننا التكهن بما هو قادم، الوضع مقلق.

قال دهشاً:

-فيم تفكر؟

دخلا المكتب، فجلس عبد الكريم على كرسيه، وهو يقول بحزم:

-سأخفض الإيجارات لمن نزحوا بسبب الحرب في أول شهر لهم.

-لكن هذا سيسبب خسارة كبيرة لنا.

-قلت سأخفض حتى أستطيع موازنة وضع المؤسسة، بعدها سأقرر خطوتي القادمة.

-هذه مجازفة.

-لا تقلق، سأتدبر الأمر.

-كما تريد سيدي.

-أريد أيضاً مقابلة كل مستأجر يتقدم بطلبه لنا، ثم يرافقهم لأماكن العقارات أحد موظفينا،

قم بعملك على أكمل وجه.

-حاضر.

غادر سهيل، وأخذ عبد الكريم العقود الموجودة ليتفحصها، قبل مدة قصيرة كان غالبية المستأجرين لديه من مدينته، أما الآن فهم من خارجها.

حين تدق نواقيس الحرب لا أحد يدري إلى أين سيصل صوتها ودوي أصدائها، كيف ستنتهي؟ وماذا سنخسر؟

وفي كل مرة ما نخسره ليس ما يتم تعدادة وإحصاء نتائجه المفجعة وحسب، بل يموت معها شيء منا، شيء من إنسانيتنا، شيء من أرواحنا.

من خلف الشاشات وعلى مواقع التواصل وفي أماكن الراحة، اعتادت قلوبنا وعيوننا وأسماعنا كل الأوجاع، نشاهد أبحر الدماء ونرى القتل والجرحى هنا وهناك، ونسمع أصوات البنادق ودوي الصواريخ وصرخات المستغيثين وأنيهم، وقلوبنا تتجرع الآلام كل يوم حتى وصلنا حد الثمالة، وبتنا في حالة سكر لا نحس بشيء، ولا نعي شيئاً، وتعجز عقولنا عن تفسير ما نراه، ما هذا الذي تم؟ ولم؟ لا ندري.

لقد تملك العجز كل ذرة فينا، واعتدنا أن نرى البؤس في ربوع الوطن. تتمم بذلك وهو يتذكر متابعته للأحداث الجارية في كل أصقاع الوطن ولاسيما (عدن)، وحين يتابع ذلك في منزله وعلى شاشة التلفاز لا أحد يشاركه ما يشاهد، حتى عائشة التي كانت تقول له ناهرة إياه في عصية:

-لم تتابع هذه الأخبار التي تسبب الهم يا عبد الكريم؟

يجيبها:

-إن ما يجري هو في وطننا، ولا بد أن نعرف عنه وعن كل شيء حولنا.

تزفر في ضيق، ثم تقول:

-لن تجني شيئاً من معرفتك بكل هذا إلا الكدر، سأذهب لغرفتي.

أما طارق، فكان يجلس برفقته أحياناً غير عابئ بما يشاهده، ينشغل بهاتفه أو حاسبه المحمول ليحدث أصدقائه أو يلعب به وهو يضع السماعة على أذنيه، حضوره حضور جسد لا أكثر، ولم يكن يشغل فكره إلا في كيفية قضاء الإجازة فيما يحب.

حتى خارج منزله، يجد الناس تبحث عما يسري عنها مع تدهور اقتصاد البلد وانقطاعات الكهرباء وسوء الخدمات خلال السنوات الأخيرة، فيرى الكثيرين يهربون من أحاديث الحرب.

وعلى طاولات المقاهي تنعقد جلسات القمة العربية المصغرة التي تحل كل مشكلات البلد في دقائق على إقاعات أحجار الدومينو وأكواب الشاي الدائرة، وينفس الجميع عما في نفسه حول مائدة (النقاشات) دون الوصول لأي شيء.

إنها (جمعجة العجز).

الفصل الثالث

موت مفاجئ

الثاني من أبريل ٢٠١٥م / المكلا

مضى من الليل نصفه، فاشتد سواده، وقطن معه الهدوء والسكينة في أرجاء المدينة، واختفت حركة الحياة إلا من ضياء مصابيح الإنارة بالشوارع تحاول تبديد الظلام، وحشرات الليل تعزف مقطوعات المساء التي صدحت في الأنحاء بين الفينة والأخرى، وأما الناس فقد آووا إلى فُرشهم، وغرقوا في سبات آمنين مطمئنين، مرتقيين ولادة يوم جديد تعود فيها الحياة إليها وإليهم.

فجأة، دوت أصداء الموت دون سابق إنذار.

من نواحٍ شتى، هزت انفجارات عنيفة المدينة كلها، وعلا أزيز الرصاص في كل مكان قض المضاجع، وأفزع القلوب الآمنة، وأرعب الجميع دون أن يدركوا ما يحدث. هل تتعرض المدينة لغزوٍ دون أن تكون هنالك أية بوادر لحربٍ قادمة نحوها؟

استيقظ عبد الكريم وزوجته في هلع على أثر الدوي الأول، هتفت عائشة في زعر:

- ما هذا الصوت؟ ما الذي حدث؟

أجابها في قلق:

- إنه دوي انفجار، لكن ما سببه يا ترى؟

ما كاد يكمل كلمته حتى أجابها صوت دوي آخر هز قلبيهما هذه المرة، ضاعف القلق والخوف في أعماقه؛ لكنه حافظ على رباطة جأشه، أما هي فقد غرس الخوف بأنيابه على صدرها منتزعاً كل ذرة ثبات باقية فيه، فارتجف جسدها في عنف ووضعت يديها على أذنيها وكادت تصرخ، لولا أن احتضنها وهو يقول مهدئاً:

-هدئي من خوفك قليلاً يا عائشة، لا يبدو قريباً منا.

ضمته لها لم تهون ما مس شغاف قلبها وضاعف من اضطرابها؛ بل ظلت ترتجف بين يديه وهي تحببه في نبرة أثقلتها العبرات وبعثرها الذعر:

-كيف تريدني أن أهدأ؟ إنه مرعب جداً أشعر به وكأنه ...

قطعت عبارتها حين تناهى إلى سمعها صوت بكاء رُباً تستنجد بها، هنا استيقظت من دعرها وتناست كل ما بها، وأسرعت بتباعد عن زوجها لتقفز من سريرها وتجري مهرولة لتغادر الغرفة وتترك ابنتها، ولحق بها.

وجدا الصغيرة قد استيقظت؛ جالسة على سريرها وجسدها يرتجف خوفاً، والدموع تتساقط من عينيها العسليتين، وتنهمر على خديها كحباتٍ من اللؤلؤ انسابت على بشرتها البيضاء، أما شعرها البني فقد انسدل خلف ظهرها على شكل ظفيره طويلة واحدة، كانت رُباً طفلة جميلة كلؤلؤة بيضاء صافية.

ما أن اقتحمت أمها الغرفة حتى سطع الأمان في عينيها، فأسرعت إليها لتضمها إلى صدرها وتهون خوفها رغم دعرها واضطراب نفسها.

الأم عطاء لا ينضب مهما كانت حالتها ووضعها، روحها دائماً الملجأ والملاذ في أحلك الظروف حتى وإن لم يكن لها أي ملاذ.

هتفت رُباً بها ودموع الخوف لا تزال تنهمر من عينيها وعبرات تخنق كلماتها:

- ما تلك الأصوات يا أمي؟

أجابتها وهي تمسح دموعها ثم تمسح على رأسها:

- لست أدري يا ابنتي؛ لكن لا تخافي أنا إلى جوارك.

هدأ خوف رُباً قليلاً وهي تعود لترمي رأسها في حضنها، فاطمأن عبد الكريم حين رأى ذلك.. لحظتها أطل طارق عليهم والخوف يسبب ارتجافاً في جسده هو الآخر، ويربك كلماته التي خرجت من حلقه متقطعة:

- هناك مسلحون يهجمون على قصر الرئاسة في المنطقة.

قال والده في قلق:

- من هم؟ وكيف عرفت؟

- لا أدري من هم؛ لكنني عرفت هذا من رسائل عبر (الواتس) لبعض أصدقائي، الهجوم عنيف، وأيضاً في أماكن متفرقة من أحياء المكلا.

قالت عائشة في خوف:

- لطفك ورحمتك يا إلهي، هل ستسجّه أنظار الحرب إلينا؟

- وهل نتوقع الأمن والأطمان تتناهش كل أوصال البلد؟



قال عبد الكريم ذلك في نفسه، ولم يشأ أن يوجع زوجته وولده بكلماته، ثم قال لهما محاولاً بث الطمأنينة فيهم:

-لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، اهدأوا رجاء.

وهو في طريقه للخروج من الغرفة ربت على كتف ابنه ليهدأ من خوفه فابتلع الأخير عبرة خوفه وهز رأسه في صمت وعاد لغرفته، بينما ظلت عائشة جالسة إلى جوار ابنتها لتزيل خوفها ولسانها لا يفتر عن التضرع لربها.

أما عبد الكريم فقد توضأ وصلى ركعتين يلتجئ فيهما إلى الله لتنجلي هذه الصدمة المباغته. طوال ساعات الليل لم تنقطع أصوات الانفجارات حتى الفجر، لم تكن قرية من منطقة سكن طارق إلا أن صوت دويها كان قوياً.

حاول النوم وتجاهل ما يحدث لكنه لم يستطع، الدوي يهز قلبه ويجفله أحياناً إن استسلمت عيناه له للحظات، تقلب يمنة ويسرة واضعاً يديه على أذنيه ثم وضع وسادته لم يفلح أيضاً، وأخيراً وضع السماعة على أذنيه وفتح تسجيلاً لأغنية في هاتفه بأعلى صوت محاولاً تناسي ما يجري وهو يكابد خوفه لوحده.

-تباً لهم، ما الذي يريدونه من تصرفاتهم هذه وفي هذا الوقت؟

تمتم بذلك لنفسه في غضب واستنكار رغم أن الدوي ظل عنيداً يتسلل من تحت سماعته بصوت مكتوم، ويهز جسده ليؤكد له وجوده ويمعن في إيذائه، إلا إنه قرر التجاهل باستماته. الجميع ظل ساهراً في تلك الليلة.

وعند الفجر هدأ كل شيء وانقطعت الأصوات المرعبة، فاستسلمت رُباً لنوم عميق اطمأنت له عائشة، ثم أرخت رأسها على وسادتها ودثرتها، ثم قبلتها وخرجت لتستطلع بقية أفراد عائلتها.

فتحت غرفة طارق فوجدته قد غرق في سبات هو الآخر وهاتفه في يده والسماعة قد أبعدتها عنه، وسريه في حالة فوضى، فاتضح لها كثرة تقلبه ومحاولة النوم مراراً، ابتسمت في إشفاق، وأسرعت تبعد الهاتف والسماعة وتدثره بغطائه، وغادرت الغرفة متجهة إلى غرفتها، وجدت عبد الكريم واقفاً في الصلاة وهو يرتدي ملابس الخروج ويتطلع لساعة الحائط والقلق على محياه.

توقف كل شيء حتى صوت الأذان لم يُسمع من مسجد الحي، ألغته الدرجة الوضع مضطرباً في الخارج؟

تمتم بذلك في نفسه، إلا أنه كان يقرر الخروج لأداء الصلاة، أدركت ما كان يدور في فكره، أسرعت إليه تمسك بذراعه وتمنعه وهي تقول باكية في خوف:
- لا تزدد قلقي وخوفي يا عبد الكريم، إلى الآن لا نعلم بشيء عما حدث، أرجوك، لا تغادر البيت الآن.

لم يرغب في الامتثال لأمرها، وفي الوقت ذاته لم يشأ أن يزيد ما بها، إلا أنه امتثل لطلبها، وأدى هو وطارق صلاتهما في المنزل.

وما أن شمس نور الصباح حتى خرج برفقة ابنه سيراً على الأقدام ليستطلعاً حييها، فشاهدنا أمراً عجيباً جعلها يتطلعان في ذهول واندهاش حولهما!!.

الشوارع خالية من السيارات ومن المارة إلا نفرٌ قليل، المحلات الكبيرة والصغيرة كلها مغلقة، حركة الحياة المألوفة انعدمت فجأة، وكأن المدينة قد تم هجرها منذ عقود، أشعة شمس الصباح بدت باهتة الضياء، وزقزقة العصافير قد اختفت، كل شيء في ذلك الصباح كان باهتاً، لقد اختفى كل أثر لروح الحياة، بعد لحظات، أقبلت في الشارع المقابل لهما عدة باصات تقل على ظهرها رجالاً يرتدون ملابس عادية كبقية السكان، متأهين بأسلحتهم، مثلثمين بعماثهم، يتجولون في الشوارع بحرية وينطلقون بمركباتهم بسرعة، وعيونهم تستطلع كل ما حولهم في حذر، محاولين إثارة الرعب بهيئتهم، وكأن كل الطرقات خلت لأجلهم.

- ما الذي يفعله هؤلاء؟ هل يظنون أن هذه الأرض أرضهم حتى يطوفون في شوارع المدينة بكل ارتياح؟

قالها طارق في ضيق وغضب، بينما تملك القلق عبد الكريم مما رأى، فتمتم في نفسه:

- هل وقعت المدينة في يد هؤلاء العصابة؟

هنا أمسك بيد ابنه وجذبه ليعودا أدراجهما للبيت، فاستقبلتهما عائشة مستفهمة عما حدث؟ أخبرها بما رأى، ثم قال في قلق:

- الوضع لا يبدو مطمئناً يا عائشة، لكنني ذاهب لأستطلع الأمر عن قرب.

-تستطلع ماذا؟ ابقى هنا.

صاحت به في خوف، فقال في حزم:

-لا أستطيع البقاء الآن، لدي عملٌ يجب أن أنجزه أيضاً.

-أي عملٍ هذا في ظل وضع مجهول مقلق يا عبد الكريم؟

-قلتُ لك لا أستطيع يا عائشة، لقد وعدت بعض المستأجرين بأن أزور أماكن سكنهم حين

شكوني من بعض الخلل بالشقق، وأيضاً سأحاول فهم الوضع حولنا، الأمر يثير حيرتي

وقلتي.

قال طارق:

-سأذهب أنا أيضاً لأقابل أصدقائي وأعرف ما يجري.

رد عبد الكريم في حزم:

-لا، أنت لن تغادر المنزل لأي سبب يا طارق.

سأله في حيرة:

-لماذا؟

-قلت الوضع غير مطمئن، سأستطلع الأمر أولاً بعدها سأسمح لك.

قال له في رجاء:

-أرجوك أي.

-قلت لا، ابقى إلى جانب والدتك إلى أن أعود.

امثل لأمر له مرغماً، قالت عائشة:

-أرجوك لا تتأخر.

هز رأسه ثم خرج متجهاً للمرآب، وركب سيارته، وانطلق نحو وسط المدينة، وازداد حيرة وذهولاً وهو يتطلع فيما حوله كلما تقدم مسافة؛

الطرق كلها شبه خالية، حركة المركبات قليلة، المحطات تعج بها في انتظار دورها وكأن الوقود في ظرف ساعات قد نفذ، المحلات على طول الطريق مغلقة. وحين أوشك على الخروج من (فوة) تلقته نقطة تفتيش تزعّمها عدد من أولئك الملثمين متمنطقين ببنادق ورشاشات، تراوحت أعمارهم ما بين العشرينيات والثلاثينيات، شعثاً غبراً، يلوحون بأسلحتهم وأيديهم ليستوقفوا السائقين ويفتشوا مركباتهم، تجلد استعداداً لمواجهةهم، وحين حان دوره اقترب منه شابان أسمران في مثل عمر ابنه طارق، قال أحدهما له في حزم:

-إلى أين؟

-إلى وسط المدينة، أريد زيارة أحدهم.

-ماذا تحمل معك؟

-لا شيء.

-سنفتش السيارة.

دون انتظار إذن، فتح الشاب الآخر حقيبة السيارة وتطلع إلى ما بداخلها، بينما نظر زميله الأول نحو المقاعد الخلفية، وحين لم يجدا ما يلفت انتباههما سمحا له بالمرور ليلتفتا لغيره.

تعاظم الغضب في صدره؛ لكنه كتم غيظه.

كيف كان بالأمس يقطع الطريق، وكيف صار اليوم، لم يكن يتلقى أي سؤال عن وجهته وغايته، مضى لعمله بالأمس فقط وفي مثل هذا الوقت وبكل اطمئنان.

كيف صارت المدينة محتلة بين عشية وضحاها؟ أين الجنود الذين يحمون المدينة ويطوفون بشوارعها؟ أين اختفوا؟

لم يلمح أثراً لأحدٍ منهم حتى اللحظة.

تابع سيره ونقاط التفتيش تتوالى أمامه واحدة تلو الأخرى لتستقبله وغيره بالتحقيقات والتفتيش وكأن هنالك مجرماً فارقاً من العدالة يختبئ بينهم، ثم رأى السكان في وسط المدينة يجوبون الشوارع ليستطلعوا ما يحدث حولهم وحالة من الذهول تعتلئهم مثل ما كان هو ولا يزال.

لقد هل صباح غير عادي على الجميع.

وقعت عيناه على البنوك فوجدها قد دمرتُ ونهبت، منشآت ثقافية صارت أثراً بعد عين، مستشفيات ومحلات لم تسلم من النهب والعبث.

توقف للحظات عند تجمعهم رجال يتحدثون أمام أحد المباني المدمرة، فسمع أن بعض البيوت قد انتهكت حرمتها القذائف محطمة بعض جدرانها، وثمة جرحى وقتلى سقطوا ليلة أمس جراء هجومٍ عشي لم تُعرف له غاية إلا التدمير، وسيطر الغزاة في كل نقطة حيوية بالمدينة هي نفسها التي كان يتمركز فيها الجنود، وانتشروا في مداخلها ومخارجها مطوقين الخناق

عليها، وهم الآن في طريقهم ليحكموا سيطرتهم على ما تبقى من ساحل المحافظة، قال لنفسه:

-عجباً ما يجري هنا، كيف تم كل هذا بسرعة!؟

-سيد عبد الكريم!

انتبه لصوت سهيل ينادي عليه، فنظر إليه، وقال:

-أهلاً سهيل.

-لم أتيت إلى هنا يا سيدي؟

-لقد وعدتُ المستأجرين في حي (الشهيد) بأن أزور شققهم.

-لا تستطيع الذهاب، أولئك المجرمون منتشرون بكثافة هناك، حتى أن الناس نزحت من

بيوتها خوفاً منهم، لقد سيطروا على منطقة عسكرية في (خلف).

-رباه، كيف حدث كل هذا؟ أنا لا أفهم شيئاً، هل كل هؤلاء مختبئين بين الناس؟

-لقد هجموا على السجن المركزي وحرروا رفاقهم، ودمروه وقتلوا كل جندي يعترض

طريقهم، لم يتوانوا ليلة أمس عن إبادة من يعترضهم، وسرقوا ونهبوا ما يريدون، لقد أطبقوا

على أنفاسنا فجأة.

عقد عبد الكريم حاجبيه، وقال في حدة:

-قلة تفعل ذلك! أين الجيش؟ أين محافظتنا؟ أين مسؤولينا؟ أين هم من هذا الوضع؟

هز سهيل رأسه وهو يقول في أسف:

- لا أحد، لا أثر لأي منهم، جميعهم فروا من المدينة، أشعر بأننا تركنا لنستقبل الموت بأنفسنا بدلاً عنهم.

مع كل هذه الظروف أدرك أن المدينة أصبحت في حالة احتضار، غزو وقلق وخوف ودمار، أمات الحياة فيها على حين غرة، موت مفاجئ سلب منها روحها فأحزن ساكنيها، فقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ما العمل الآن؟

- ارحل يا سيدي..

- ارحل!!

- نعم، كل من له أقارب خارج المكلا أو يستطيع الإقامة بعيداً عن مكائد هؤلاء رحل، الناس تبحث عن الأمان والطمأنينة.

ران الصمت عليه، بينما قال سهيل:

- إن كنت تخشى على العمل فأنا سأتابعه لأنني لا أستطيع مغادرة المدينة فلا أحدي خارجها وليس لدي القدرة على ذلك، ولا أعتقد بأن أحدهم سيجرؤ على فتح مقر عمله حتى تستقر الأمور.

- ولا أحد يدري ماذا سيحدث بعد هذا أو متى سيرحل هؤلاء، سأفكر فيما قلت، دعني أتصل بالمستأجرين الآن وأعتذر لهم عن الحضور بسبب ما يحدث هناك، وأريد أن أعقد اجتماعاً عصر اليوم بالمؤسسة، اتصل بجميع الموظفين.

حين عاد قلبي

د / سعاد عمر سواد

-اجتماع!!

-نعم، اجتماع طارئ.

-حاضر، سأبلغ الجميع.

الفصل الرابع

صراع

طوال الطريق والتفكير يعصف بذهنه دون أن يجد له رادعاً. أشباه الرجال من تلك العصبية كانوا يظهرون بين فينة وأخرى منذ بدأ الصراع في ٢٠١١؛ قتال وقتل، اغتيالات لأبرياء هنا وهناك، واشتباكات بينهم وبين الجنود من حين لآخر، بدا للجميع وكأنهم نفرٌ قليلون من السهل تدارك أمرهم؛ لكنهم اليوم يثبتون عكس توقعاتهم؛ ها هم قد ظهرُوا أمامهم فجأةً وبقوة احتلوا بها كل أرجاء المدينة في ساعات، فكانت الصدمة قاتلة.

كيف سيكون الوضع بعد أن صار كل شيء مستباح أمامهم؟ وهل سيستمر طويلاً؟ لم يكن بباله أية إجابة أو حتى تكهنٌ بسيط بما سيحدث في المستقبل. قطع حبل أفكاره حين لفت انتباهه مؤشر خزان الوقود بسيارته، إنه يوشك على النفاذ ولم ينتبه لذلك قبل خروجه، لن توصله الكمية المتبقية إلى البيت، فاتجه إلى أقرب محطة وقود من منزله لتتخذ سيارته دورها بين بقية السيارات المنتظرة على طول الشارع القريب الذي عج بها، المحطة لا تزال مغلقة ومعظم السيارات خالية من سائقيها، من الواضح أن أمر تزويدها بالوقود لن يكون قريباً مع هذا الوضع، نزل من سيارته وأكمل طريقه راجلاً ليعود أدراجه إلى البيت... حين دخل، وجد طارِقاً جالساً على أريكة بالصالة والمثل وقلق الانتظار باديان على وجهه، وحين رآه هب من مكانه منتظراً ما سيقوله، في تلك اللحظة أطلت عائشة من

غرفة رُبًا وإمارات الخوف على وجهها وكأنها سمعت صوت فتحه للباب فأسرعت لتستقبله،
وسألها:

-هل ما تزال رُبًا نائمة؟

-نعم إنها غارقة في النوم، الحمد لله أنها هدأت منذ أن انقطعت أصوات الانفجارات.

تنفس في ارتياح وهو يقول:

-الحمد لله.

اقتربت منه وأمسكت بيده وهي تقول في رجاء وخوف:

-عبد الكريم، لنغادر المكلا.

سألها مندهشاً:

-لماذا تقولين هذا الآن؟

أجابته والخوف يربك كلماتها:

-اتصلت بي إحدى صديقاتي بعد مغادرتك بلحظات وهي تستعد للرحيل مع أسرتها، لقد

أخبرتني بكل شيء، المدينة كلها محاصرة، لا نعلم ماذا سيحدث بعد ذلك، أرجوك، دعنا

نذهب إلى مكان آمن.

-مكان آمن! هؤلاء بكل مكان.

-لكن مدينتنا هي هدفهم.

-كل شيء مستهدف بالمحافظة يا عائشة.

-لا، القرى أكثر أماناً من هنا، دعنا...

-لن أغادر.

قالها في حزم، ردت عليه في نبرة مرتجفة امتدت لجسدها ويدها الممسكة به:

-لم؟ الوضع مخيف هنا، المدينة في أيديهم، أولئك سيتحكمون في مصيرنا وسيسيرون حياتنا،

وربما ينوون قتلنا وتدمير مدينتنا كما يفعل (المتردون) في عدن وغيرها.

رغم عدم تأييده لرأي زوجته ورغبته في البقاء إلا أنه في قرارة نفسه مُقر بصحة قولها، طالما

أن الأرض قد صارت في يد من كان يسفك الدماء من قبل حين (كان) لها (حُماة)، فهل

سيثورعون عن ذلك وقد خلا كل شيء لهم؟

هل يمكن لأبناء المدينة أن يقرروا دحرهم ومقاومتهم كمقاومي عدن؟ هل سيكون في

مقدورهم مواجهتهم وفك أسر هذا الاحتلال؟ عندها فقط ستحدث حرب حقيقية

وتتحول الأرض لساحة تغرق بالدماء لن يتكهن أحد بنتائجها.

صمت للحظات مفكراً والعيون ترقبه، ثم قال في هدوء:

-لن أغادر مدينتي وأترك بيتي لعبثهم، هذه أرضي وسأبقى بها حتى أموت.

أمسكت بيديه بقوة وهي تقول في رجاء:

-عبد الكريم، أرجوك، لا تفكر هكذا، دعنا نرحل.

-إن كنتِ مصرة على ذلك فسأستأجر لكم شقة في (غيل باوزير)، يمكنكم البقاء هناك والعودة متى ما سنحت الظروف، أما أنا فسأبقى هنا، لدي التزامات لا أستطيع تركها خلفي.

عادت تقول له في توسل ودموع الخوف تنهمر من عينيها:

-أية التزامات وفي هذا الوقت؟ المهم هي حياتك يا عبد الكريم، أنت سندننا وعزوتنا، لا أحد لنا غيرك.

-لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، لذا سأحارب هؤلاء بطريقتي.

اتقدت نظراته حزماً وهو يقول ذلك، بينما ازدادت رعباً من قوله وملاحه، ورغم خوفها لم تجرؤ على جداله، فقال لها في رفق مطمئناً وهو يربت على يديها:

-في وسعي إخراجكم من المدينة، لا تقلقي.

أخذت تمسح دموعها وهي تقول محاولة استجماع رباطة جأشها:

-لن أغادر دونك، إما كلنا أو لا.

ابتسم في سرور لقولها، وقال لها:

-ويسعدني أن تكوني إلى جانبي يا عائشة، سنتنظر وسنراقب ما سيحدث، أسأل الله أن يمر هذا الوضع بسلام.

هزت رأسها مؤيدة، ثم التفت لطارق فhez رأسه بدوره مؤيداً، وهو يقول وعلى وجهه ابتسامة صغيرة:

-كنتُ أتمنى أن تتخذ هذا القرار يا أبي؛ لكنني حين رأيتُ خوف أمي لم أستطع البوح بها في نفسي، ولم أحاول إقناعها بأمر العدول عن الرحيل قبل قدومك.
هتفت به في ضيق:

-طارق! كنتُ أنتظر منك أن تقف في صفي وتقنع والدك.
رد في ثقة:

-أعتذر أمي، أنا لستُ خائفاً منهم، إنهم مجرد شرذمة سيتهي أمرهم خلال أيام، اطمئني.
تمتم عبد الكريم في نفسه:
-شرذمة! أنت تجهل الكثير يا ولدي.
ثم التفت لزوجته وقال:

-سأبقى في المنزل اليوم إلى وقت العصر، بعدها سأذهب للمؤسسة، سنرى كيف سأرتب أمورها بعد ذلك.

-أريد زيارة أصدقائي.

أجابه عبد الكريم حازماً:

-لن تغادر لوحديك يا طارق حتى تهدأ الأمور في الخارج؛ لكن في وسعك مرافقتي إن أردت ذلك.

قال في ضيق:

-لماذا يا أبي؟ أنتوي حبسي هنا؟ أصدقائي كلهم قد خرجوا مثلك ونقلوا لي كل ما حدث.

-قلت لن تغادر، كما أني سأستعير سيارتك منك، فسيارتي قد تركتها بالمحطة وسأحاول أن أتدبر وقوداً لها.

واتجه لغرفته وهو يشعر بهم كبير مما رأى، بينما التفتت عائشة لابنها وقالت:

-امثل لأمر والدك يا طارق، لا أحد يعلم ماذا يمكن أن يحدث اليوم، أخشى أن ينفجر الناس فجأة.

رد عليها في استياء:

-ولكن رفاقي كلهم خرجوا من بيوتهم، لم أنا؟

-ألا تفهم؟ إنه خائف عليك، لذا كن عاقلاً واجلس.

قالت كلمتها ثم اتجهت للمطبخ لتعد الغداء، بينما ألقى طارق بنفسه على الأريكة والغضب والضيق يملكانه.

الأرض باتساعها تطبق على الأنفاس، الهواء النافذ للصدور اعتلاه دخانٌ أثار حشجة الكدر.

تمنوا لو تبتلع الأرض أولئك الغزاة إلى باطنها، أو لتقيم لهم مساكن يطمئنوا فيها، أو تمنحهم الحياة أجنحة ليحلقوا بعيداً عن سطحها القاتم وصخب الظلم الذي قتل في الأرواح كل رغبة في الحياة، ومع ذلك ظل الصراع لأجلها.

هناك من حلق بأجنحة الواقع فاراً بنفسه، عله يجد الحرية والأمان، وإن كان كل من في الوطن سجين.

مع وقت العصر، قاد طارق سيارته وخرج برفقة أبيه وانطلقا في طريقهما إلى المؤسسة؛ الشوارع بدأت تدب فيها الحياة، الناس بدأوا يتحركون ليقضوا حوائجهم، حركة السيارات تعود بالتدريج لها رغم وقوف معظمها بالمحطات، المدينة تحاول أن تتنفس الحرية قليلاً رغم معالم الأسر؛ رجال العصبة على أبواب المؤسسات الحكومية التي سقطت في أيديهم، وفي نقاط التفتيش وأسئلتهم لا تنتهي ولا تتوقف.

عند النقطة قرب قصر الرئاسة، سأل أحد المثلثين طارق:

-إلى أين؟

رد عليه في حدة:

-أذهب إلى حيث أشاء ما شأ...

أمسك عبد الكريم بيده مهدئاً، وقال للملثم:

-زيارة بوسط المدينة.

عقد الملثم حاجبيه، وقال في حزم:

-حسناً، سأسمح لكما هذه المرة في المرور؛ لكن في المرة القادمة تعلم كيف تعاملان من يحاولون حمايتكم بأدب.

احتقن وجه طارق غضباً، وكاد يرد لولا أن عاد والده ليجذبه بقوة مرة أخرى وهذا من غضبه، ثم مضى في طريقهما، فقال لوالده:

-لم منعني يا أبي؟ هؤلاء لا يجب أن نسكت على وقاحتهم، ماذا يعني بسؤاله إلى أين...

-هذا ما كنت أخشاه منك، أن تتصرف بطيش وعصبية، الوضع الآن بحاجة للهدوء والتفكير في كيفية الخروج منه والتعامل معه.

-كيفية الخروج منه؟! ألم ترَ مسؤولينا وأصحاب الأمر كيف فروا وتركوا كل شيء وراءهم؟ فكيف سنخرج نحن من هذا الوضع؟ ألم ترَ بنفسك يا أبي، أي مؤسسة تابعة للدولة سقطت في أيديهم، معظم الناس لم يستطيعوا مغادرة المدينة بعد نفاذ الوقود من كل محطاتها بسببهم، إنهم يرغموننا على البقاء، ومحاولون سجننا ليدلونا، هم الآن يظنون أنفسهم أسياداً علينا رغم أنهم نفر لا وزن لهم، كيف نهاهم؟

-أفهم جيداً ما تقوله يا ولدي؛ لكن الغضب والتهور لن يفيدانا في شيء، كن عاقلاً. أطلق طارق زفيراً قوياً ثم قال:

-حاضر؛ ولكن أرجوك، اعدل عن قرارك ودعني أرى رفاقي.

-إلى الغد فقط إن شاء الله، دعنا نذهب إلى المؤسسة الآن، لا بد أن ننهي بعض الأعمال. -لا أريد البقاء في المؤسسة.

-إذن عد للبيت وإياك والرعونة والطيش، وعندما أنتهي سأصل بك. -حسناً.

امتعض وجهه وهو يهز رأسه؛ وامتثل لأمره وصحبه إلى حيث يريد، وفي طريق عودته، قال لنفسه في ضيق:

-الوقت لا يزال مبكراً، لم لا ألتقي برفاقي؟

أسرع يخرج هاتفه من جيبه ويتصل، فأجابه ناصر وهو يقول:

-أهلاً طارق.

-أين أنت الآن يا ناصر؟

-أنا في مقهى قريب من منزلنا مع بقية الرفاق.

-حسناً، سأتي إليكم، وأخبر البقية بأننا سنقوم بجولة في المدينة، ولا بد أيضاً أن نرى ما

سنفعله الآن مع وجود هؤلاء المزعجون.

أجابه ضاحكاً:

-أخيراً سمح لك والدك؟

رد عليه ضاحكاً بدوره:

-لا، لم يسمح لي بعد، إنه خائف من هؤلاء لكنني لست مثله، لن أسمح لأحد بأن يفرض

أوامره علي.

-إن كان الأمر كذلك فمعه حق، يجب أن تكون حذراً، هؤلاء لا يخافون الله في أفعالهم، ألا

يكفي ما رويته لك، والرعب الذي عشناه ليلة أمس.

- دعك من هذا، أكمل لي حديثك عندما نلتقي.

- كلنا في انتظارك.

أغلق طارق الهاتف مبتسماً وانطلق بسيارته في حماس نحو هدفه.

توالى ساعات العمل إلى قرب وقت أذان العشاء، وعبد الكريم لا يزال في مكتبه ورفقته سهيل يحمل بعض الأوراق ويخبئها في الدولاب، ثم قال له عبد الكريم:

-هل غادر الجميع؟

أجابه في أسى:

-نعم، يعز عليّ أن تبقى المؤسسة مغلقة.

-هي فترة مؤقتة حتى نرى كيف ستكون الأمور حولنا، ما دفعني للاجتماع هو وضع النازحين المستأجرين لدينا، المهم أي شكوى أو طلب لأي مستأجر أبلغني مباشرة.

-حاضر، الأمور مستتبة معهم إلى الآن ولن نستلم الإيجار إلا نهاية الشهر.

تنهد بعمق وهو يرد في ألم:

-مع وضعنا الحالي هذا لن تكون الأمور مستتبة أبداً.

-أسأل الله ألا تزيد الأمور تعقيداً عما هي عليه.

-أتمنى ذلك.

فجأة، دخل حارس المؤسسة عليهما وعلامات القلق على وجهه حتى أنه لم يستأذن في الدخول، نظر الاثنان نحوه في دهشة، فأسرع بتدارك خطأه وهو يقول مرتبكاً:

-معذرة سيدي، أحد رجال العصابة يود مقابلتك.

عقد حاجبيه وقال في حدة:

-ألم أمرك بإبقاء باب المؤسسة مغلقاً؟

-فعلت يا سيدي، حتى بعد مغادرة الموظفين؛ لكن أحدهم أسرع إليّ حين رآهم يغادرون وقد كنتُ على وشك إغلاقه، وطلب لقاءك وكأنه كان ينتظر لحظة فتح الباب.

-كان ينتظر ويستأذن ليقابلني! هل يمكن أن يكون واحداً منهم وهو بهذه اللباقة؟ من يكون؟

غزت الحيرة والقلق فكر الجميع، إلا أن عبد الكريم سمح للحارس بإدخاله، فامثل لأمره، وما هي إلا لحظات حتى دخل شابٌ أكبر من طارق سناً، ذو بشرة بيضاء وبشارب قصير ولحية طويلة تدلت إلى أعلى صدره، ويرتدي الزي التقليدي الحضرمي؛ سترة طويلة الأكمام ذات لون أبيض، وفوطة وعمامة سوداوين عليهما بعض النقوش الملونة بألوان داكنة، وعلق على كتفه بندقية، وفي حزامه مسدس.

بدت الصدمة على وجه عبد الكريم واتسعت عيناه في ذهول وهو يقول:

-أنت... يحيى؟!

ابتسم يحيى وهو يقول:

-يبدو أنك لازلت تذكرني يا عم عبد الكريم.

رد عليه بلهجة فرح:

-كيف لا أذكرك يا ولدي ووالدك صديقي، وتزورنا دوماً برفقته، وتلعب مع طارق في منزلنا حين كنتما لا تزالين صغيرين، كنتما كأخوين.
-نعم... كنا.

-أين كنت طوال الثلاث السنوات الماضية وتركت...
لم يكمل عبارته حين هدأ من اضطرابه ووصلت الإجابة إلى فكره سريعاً فتبدلت ملامح وجهه كلياً، قال يحیی في حزم:
-كنتُ أفعل ما أراه صواباً يا عم.
-هل الصواب أن...
أشار له بيده مقاطعاً ثم قال:

-لست هنا لتشرح لي شيئاً، أو تعيد كلمات أبي علي لتخبرني عما تراه مناسباً بالنسبة لك.
رد في حزم:

-لا أشرح لك وأنا أراك تختار الطريق الخطأ؟ تركت أهلك ودراستك الجامعية وطموحك في أن تكون ذا شأن لأجل أن تأتي غازياً اليوم؟
أجابه بثقة وزهو:

-أنا ذو شأن كبير لكنك تجهل ذلك.

رد ساخطاً:

-بين من؟ بين القتلة؟ جئت إلى هنا لتقتل أهلك وأبناء بلدك لتثبت مكانتك بينهم؟

هز رأسه في لا مبالة وقال:

-أنا لن أقتل إلا من يستحق ذلك ومن سيقف في وجه الحق، نحن هنا ضد فساد السلطة.

-أهكذا يكون الحق؟ بالترهيب والغزو وبث الرعب في الأبرياء؟

-لا يهمني ما تقول، أنا هنا لأوجه لك نصيحة عليها تثبت لك شيئاً من صدق كلامي.

عقد حاجبيه، وقال في حدة ونفاذ صبر:

-ما هي؟

-أخبر طارق أن يتبعد عن تجمعات رجالنا في نقاط التفتيش ولا يجادلهم، وينفذ أوامرهم

وإلا فإنه سيكون مستهدفاً.

رفع حاجبيه في دهشة وقال:

-طارق! وما علاقته بكم؟

-رأيتَه قبل ساعتين يراقب رفاقي لمدة، ويرمقهم بنظرات ساخطة، ويتحدث مع مجموعة

منهم عند أحد النقاط بحدة، لولا أني عرفته وطلبت منهم أن يتركوا أمره لي لكانوا الآن

يجومون حوله ليعرفوا كل شيء عنه، لذا إن أردت سلامته فدعه يفعل ما قلته لك.

ولم يبق يحیی بعد كلمته طويلاً وغادره المكان، بينما صدم عبد الكريم لما سمع والتقط هاتفه

في سرعة وخوف وثم اتصل بطارق، فأجابه:

-أهلاً أي، هل آتي إليك؟

صاح به في عصبية:

-أين أنت؟

-في البيت، ما الأمر؟

-متى عدت؟

ارتبك طارق؛ لكنه أسرع يقول:

-منذ أن أوصلتك.

-كاذب عنيد، ستسبب المشكلات لنا ولك، إياك أن تأتي إليّ، سأطلب من سهيل أن يوصلني.

-ما الأمر أبي؟

-حين أعود ستعلم كل شيء.

وأغلق الخط، فقال سهيل مطمئناً:

-الحمد لله أنه بخير.

-طلبت منه أن يعود للبيت، لقد خالف أمري، لولا أن سيارتي دون وقود لما سمحتُ له بالخروج، إني في حاجة لها.

-في وسعي مساعدتك سيدي.

-كيف ذلك؟

-لدي جالون منه يمكن أن يفي بالغرض حتى تصل الناقلة للمحطة.

-شكراً لك، لننهي عملنا بسرعة يا سهيل ونعد لبيوتنا.

أنهى عبد الكريم كل أعماله وعاد لمنزله بسيارته، ولما دخل رأى عائشة جالسة بالصالة وحدها، استقبلته مرحبة، إلا أنه سأها على الفور بانفعال:

-أين طارق؟

مالت برأسها وسألته في حيرة:

-في غرفته، ما الأمر؟ ألم تتفق معه على أنه سيعود لاصطحابك من المؤسسة؟

-نعم، ولكنه أخل باتفاقنا.

واتجه نحو غرفته ولحقت به عائشة والتساؤلات تملأ فكرها وحين فتح الباب هتف في غضب:

-ما هذا الذي فعلته يا طارق؟

في تلك اللحظة كان طارق مستلقيا على سريره يعبث بهاتفه في سرور لم يقطعه إلا اقتحام والده، فأبعد السماعات عن أذنيه، وقال في ارتباك:

-ما الأمر أبي؟

-لا تتغابي، أين ذهبت بعد أن أوصلتني للمؤسسة؟ أخبرني الحقيقة.

بدت عائشة متفاجئة لقول زوجها، فقالت:

-ما بك يا عبد الكريم؟ ألم يكن من المفترض أن يبق معك بالمؤسسة؟

-نعم هذا في البداية، لكنه رفض، طلبت إليه أن يعود للبيت، ويدو بأنه لم يستمع لكلامي، وقام بجولة في المدينة، هذا الأمر لم يكن يزعجني بل تهوره وطيشه في تعامله مع الغازين.

-ماذا تعني؟

-حين كنت في المؤسسة قدم إليّ يحيى ابن صديقي أشرف الذي اختفى منذ ثلاث سنوات تاركاً أهله خلفه وهو يعمل معهم.

وأخذ يروي عليهما ما قاله يحيى، فازداد خوف عائشة وكذلك طارق.

حين يغرق القلب في العتمة، وتتيه معالم الطريق لن يكون للفكر أي خيار سوى الغرق معه، القلب هو نبراس الجسد الذي يقوده نحو طريقه؛ طريق العلم والكفاح والحياة، أو طريق تفوح برائحة الدماء والموت.

قالت عائشة في ألم:

-يا إلهي، كان طالبا مجداً، والداه فخورين به، لقد حطم آمالهما، أمه لا تزال تبكيه وتحلم في أن تزوجه وترى أولاده.

قال عبد الكريم:

-للأسف، لم يعد يحيى الذي نعرفه، لقد تغير كثيراً.

ثم التفت لطارق وأضاف:

-قلت لك عاملهم بحذر، هل تظن بأنك ستصل لنتيجة بتصرفك ذاك؟ هل سيخافون منك؟ إلى أين ذهبت؟

صمت للحظات ثم أجاب:

-التقيت برفاقي ثم ذهبنا في جولة للمدينة، أنا آسف، كنت أشعر بالضيق لمجرد التفكير أن أولئك سيقيدون حياتنا.

-هم سيفعلون ذلك، ولن يتورعوا عن قتلك، لذا علينا أن نتمالك أنفسنا ونرى ما هو الحل الأنسب للخروج من هذا القيد وكيف نتعامل معه، لكنني لا أضمن تصرفاتك بعد الآن، لذا ستبقى هنا ولن تخرج إلا برفقتي.

-لا يا أبي أرجوك، أعدك بأني لن أعيدها ثانية، أعدك أعدك أقسم لك.

تنهد بعمق ثم قال وهو يربت على كتف ابنه:

-الناس كلها متضايقة ومتألمة من هذا الوضع ولست تعيش لوحدك، لذا اصبر وكن حكيماً وصبوراً.

-سأبذل جهدي لأجل ذلك.

الفصل الخامس

مقاومة عارية

أشرقت الشمس بكآبة في صباح اليوم التالي، لا جديد سوى المزيد من الفواجع. جموع العصبة لا يزالون يتغلغلون في المدينة بأسلحتهم وسيارتهم، ويستحذون دون أن يجدوا رادعاً لهم، بصيص من الأمل لتوقف عبثهم كان مفقوداً، مفاتيح السلطة قد آلت إليهم؛ لكن ما حدث في ذلك الصباح أوقد وهج الغضب الخامد. مع وقت صلاة الجمعة، اتجه عبد الكريم وابنه طارق لأداء الصلاة بالجامع الموجود بالحي، وبعد أن انتهت الصلاة فوجئ المصلون بمجموعة ملثمة منهم يقتحمون المسجد ببنادقهم وأسلحتهم، انتشروا في المكان وتتفرقوا عند كل زاوية بالمسجد وعند أبوابه، ارتبك الجميع وامتزجت مشاعرهم بين الفرع والغضب، هل ينوون قتلهم دون جريرة واضحة؟ قال طارق لوالده:

-أي، أليس هذا يحیی؟

نظر حيث ينظر، انتبه إلى أن يحیی هو قائدهم، ثم رآه وهو يزيع العمامة عن وجهه ويعتلي المنبر وهو يقول مهدداً:

-لا تضطربوا ولا تخافوا، لن نؤذي أحداً، استمعوا إليّ فقط.

تحدث بصوت جهوري في هدوء وثقة ودون ارتباك من نظرات الناس، تتم طارق في غضب:

-استمع إليك وأنت تهددني بالقتل؟ هذا لن يكون.

أعرض بوجهه وأخرج هاتفه لينشغل به متجاهلاً إياه، بينما قال يحیی:

-بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

بسم الله ندعوكم لمساندتنا، بسم الله نناشدكم لأجل مدينتنا، لأجل أن نطبق شرع الله ونهجه القويم في أرضنا، لذا نريدكم أن تفقوا معنا، لأجل أمن مجتمعنا الحضرمي، ونعيش حياة كريمة هائلة وندحر كل الفاسدين والطامعين، ولأهلاً أمرنا لا يريدون إلا تطبيق دستور اعتمدوه من الغرب فصارت العدالة حلمًا والحقوق منتهكة زائلة، الحكومة لا ترى الحق إلا معها وما عداه فهو باطل.

يا أهل مدينتنا الطيبة، إنا نعدكم بأنكم إن وقفتم معنا سيحل عهد جديد في كل ربوع محافظتنا، ستردهر، وليكن رضى الله هو كل ما نأمله ونرتجيه في كل خطوة نخطوها، فكونوا معنا نكون معكم، نحن أبناء هذه الأرض ولا نريد لها إلا كل خير، وما حدث قبل ليلة الأمس شر لا بد منه لإزالة كل جردان السلطة والخونة والمندسين، فلا تقلقوا منا ولا تغتروا بمن يغوروا صدوركم ضدنا، فنحن منكم وأنتم منا.

ومضى يحیی يروي مفاسد السلطة وما يستطيع هو وجماعته تقديمه لأجل المدينة رغبة في كسب الناس، لحظتها اتقد مرجل الغضب في صدر عبد الكريم؛

أبعد كل هذا الرعب والقتل والتدمير والحصار يدعون بأنهم مع الله ولأجله ولأجل الناس؟
أبعد قتل كل المدينة في ظرف يوم واحد يطلبون المساندة؟
أبعد إطلاقٍ لوحوش من سجونها هاجت وماجت وقتلت يطلبون سند الضحايا؟
أبعد تلقيه تهديد صريح بقتل فلذة كبده لمجرد نظرات وكلمات جدال لا تستهويهم يحبر مع
غيره ليستمع إلى ندائهم؟
ما أوجعه أكثر هو أن يكون أبناء الوطن جزءاً من منظومة القتل والظلم، مغسولي الأدمغة
بكلمات الدين وظواهره على الجسد دون أن يكون للقلب نصيب منه.
احتقن وجهه وتصاعدت أنفاسه واصطكت أسنانه لدرجة أنه لفت انتباه طارق وظنه سيرد
على حديث يحیی؛ لكن شيئاً لم يحدث بل تمالك نفسه، ماذا ستفيد الكلمات دون استخدام
العقل؟ فتمتم:

-أنتم للأسف منا لكننا لسنا منكم.

تطلع طارق حوله رأى معظمهم حالته كحالة والده، وإن كان البعض هادئاً منسجم مع
الحديث.

مرت عشرون دقيقة على الكلمات المنمقة كعشرين دهرأ، خرج المصلون بعدها ليعودوا إلى
بيوتهم.

من هذه اللحظة، بدأت العصبة تحاول غرس جذورها وتثبيت قواعدها ليس على الأرض بل في قلوب الناس، إذا كانوا قد استطاعوا استمالة الشباب في وقت السلم، فلن يكون من العسير عليهم خداعهم وغسل أدمغتهم في وقت الحرب وانتشار الفقر والفساد. فكر عبد الكريم في ذلك والغضب يهيج نفسه وهو يجلس إلى جوار طارق الذي يقود السيارة وهم في طريق عودتهم للبيت، والأخير يراقبه في صمت، حتى قطعه وهو يقول:

-لا يجب أن نسكت، لا يجب.

-وما الذي في وسعك فعله يا أبي؟

انتبه له، فتنفس بعمق ثم قال:

-بالمقاومة.

-مقاومة!! هل ترى إننا نستطيع ذلك دون سلاح؟

-نستطيع، المقاومة ليست بالسلاح وحده يا ولدي، هناك طرق أخرى.

-وما هي؟

-ستعرف في حينه، ولا تنسى أهم سلاح.

-وما هو؟

-الدعاء.

رد طارق في سخرية:

-أعتقد أن هذا الشيء الذي سيستطيع الجميع فعله دون غيره.

-طارق!!

-أعتذر أبي، طالما أن من بيدهم القوة قد فروا من أمام هؤلاء الشرذمة، فلا أعتقد بأننا نستطيع فعل شيء سوى المراقبة.

-المراقبة لن تجدي الآن، هؤلاء كما أفسدوا الأرض سيفسدون البشر.

-سأراقب ما سيحدث مع إنه لم يعد يهمني ما قد يحدث، فأنا في إجازة ولا أريد أن يقلقها شيء.

تنهد عبد الكريم بعمق وهو يقول:

-هداك الله يا ولدي.

يوماً بعد آخر كانت الأمور تزداد تقيداً، لم تترك الحرب بقعة من المحافظة ليشعر أحد بالطمأنينة.

تهاوى ما تبقى من مراكز الشرطة والمواقع العسكرية والمطار والميناء في أيدي الغزاة خلال أيام، واستحوذوا على الوقود الواصل لها، فوصل للمحطات ولمراكز توليد الكهرباء دون الحاجة، وظل الناس في توجس من كل يوم يقبل عليهم، أغلقت المدارس، وتعثرت أعمالهم، وأصبحت سحب الكدر تلبد السماء كل يوم لتخفي شعاع الأمل كل صباح، وتغرق المدينة كل يوم وليلة في سبات الظلم والظلام، لقد توقف نبض الحياة المعتادة.

إحباط وبأس وغيظ اجتمعوا في النفوس، وتيقنوا أن ما قيل لهم ولا يزال يُقال عقب كل صلاة ما هي إلا دعوة مبطنة للانضمام لمشروع فساد ممتد منذ سنوات طويلة وليس من سبيل للخروج من ضيق الوضع وسوءه للحصول على نعيم إلا بالانضمام إليهم.

لم يكن عبد الكريم وعائلته ببعيدين عن حال بقية السكان، فبعد إغلاق المؤسسة، يقضي معظم وقته في البيت يتابع أمور المستأجرين هاتفياً مع مساعده سهيل، ويوزوهم ويستطلع أمورهم إن لزم الأمر فقط، ويتابع ما يجري على شاشة التلفاز في ألم، وكالعادة بقية أفراد العائلة في هروب من الجلوس معه في تلك اللحظة؛ بل الهروب من واقع الحياة المرير؛ فتشغل عائشة إما بتعليم ابنتها بسبب إغلاق روضتها، أو بزياراتها لصديقاتها أو التسكع في الأسواق برفقتهم، أما طارق فهووس المرح واللعب والحديث لرفاقه لا يفارقه، لم يعد يستطيع الجلوس مع أبيه لحظة مشاهدته التلفاز بل يعزل نفسه في غرفته ولا يخرج منها إلا وقت العصر ليلتقي بهم بالمقهى أو على شاطئ البحر، كل الأندية التي كانوا يزورونها ظلت مغلقة، وهذا ما رسم الضيق على محياه أحياناً كثيرة، وعند الغرق في عتمة الظلام مع تقطعات الكهرباء الكثيرة يبلغ الاختناق والضجر منه مبلغهما فيخرج على الفور من منزله رغم عتاب والديه، إلا أنه كل مرة يتملص منها، محاولاً باستماتة أن يجنب نفسه كل ما قد يعكر صفوه ليتعايش مع الوضع، أما رُبا فهي الوحيدة التي لا تعي شيئاً مما يحدث قد تشتكي أو تتذمر حين لا تستطيع مشاهدة برامجها المفضلة فتشغلها والدتها بشيء آخر لتنسى وتعود كما كانت؛ فرحة بشوشة وكأنها لم تواجه شيئاً منذ أيام.

و ذات صباح، حين كان عائداً بسيارته من جولة عند بعض المستأجرين وإلى جانبه سهيل وهما يمران قريباً من خور المكلا لمحا عدداً من العصابة على مسافة منهما مجتمعين قرب بنك و عيونهم تتفحص المبنى، قال سهيل في غضب:

-إنهم ينوون إعادة الكرة، لا شك في أنهم يريدون السرقة.

بادله عبد الكريم نفس الشعور وهو يقول بنفس نبرته:

-وفي وضح النهار؟ ما أوقفهم، لكن اللوم يقع علينا.

-لم يقع اللوم علينا وهم مدججين بالسلاح ونحن لا نملكه؟ سييدوننا.

-نحن نباد بالتدريج يا سهيل، أشعر بأني سأحذو حذو طارق.

وتحرك بسيارته نحوهم، فقال في فزع:

-ماذا ستفعل يا سيدي؟

-سأوقفهم.

-تمهل، ليس هكذا.

-كفى صمتاً أرهقنا.

أمسك سهيل بيده في قوة فمالت السيارة عن الطريق إلا أنه استطاع أن يعيدها لمسارها ثم

أوقفها وهو يقول في حزم:

-لن أتوقف، قلت لك كفى صمتاً.

-تريث يا سيدي، ليس...



لم يكمل كلمته حين رآه يخرج من سيارته، أسرع يلحق به وهو يصيح به أن يتوقف ليشنيه عما عزم عليه فلم يفلح، اقترب عبد الكريم منهم، كانوا عشرة شبان ملثمين، فصاح بهم في غضب:

-مالذي تحاولون فعله هنا؟

التفت أحدهم إليه وهو يقول في حدة:

-وما دخلك أنت أيها العجوز؟ ابتعد من هنا.

-لن أفعل، المال هنا هو ملك الناس وليس لكم.

-بل هو ملك لمن بيده السلطة.

رد في لهجة حملت شيئاً من السخرية:

-وهل من بيده السلطة سيحتاج لكسر الباب واقتحام المكان؟

رد الشاب في غضب:

-لا شأن لك، ابتعد، نحن نقرر ما هو الأنسب فعله لأجل المدينة.

-السرقة ليست لأجل أحد بل لأجل أنفسكم، إلى هنا وكفى، هذه مدينتنا وأنتم لا هم لكم

إلا تكديس الأموال في جيوبكم وليس لأجلها، هذا حقنا، كفاكم نهياً.

-هذه مدينتنا أيضاً، وسنعمل أي شيء لأجلها.

-بل لن تفعلوا أي شيء إلا لأنفسكم، لن نخدعني بكلماتك هذه.

شهر ثلاثة بنادقهم في وجه عبد الكريم لإخافته؛ لكنه لم يخف ولم يهتز؛ بل ظلت نظراته النارية الحازمة مصوبة نحوهم، ارتجف سهيل من المشهد وهو يرى الشاب وقد عقد حاجبيه وقال في سخرية:

-وكانها المرة الأولى الذي نفعل هذا، أين كنت؟

-كنت في غيبوبة الصدمة، كنت مثل البقية أنتظر أن يقوم جنودنا باستئصال شركم، كنتُ أنتظر ممن وثقتا بهم أن يكونوا في صفنا لكن يبدو أن الانتظار كان عبثاً.

ضحك الشاب وقال:

-رائع، إذن من ولي الأمر هنا؟

-قل من فرض نفسه بالقوة هنا، الناس لا ترتجي منكم خيراً، فانقلع أنت ومن معك.

اقترب الشاب أكثر من عبد الكريم، وقال في لهجة تحدي:

-يبدو بأنك لا تفهم موقفك، نحن سنفعل ما نريد.

أسرع سهيل يبعد خوفه ليقرب وهو يصيح في حدة:

-بل توقفوا عن عبثكم.

-ارحلوا من هنا.

-لن نسمح لكم بالسرقه.

-نحن سنمنعكم وإن كنا دون سلاح.

انتبه أفراد المجموعة لعدد من الناس يقتربون منهم وهم يقولون تلك الكلمات فالتفتوا إليهم، نظرات غضبٍ ساطعة في عيونهم وهم لا يزالون يبتفون منددين بتصرفهم، ومنهم من حمل عصا كأنها كان مستعدا لقتالهم.

رويداً رويداً زاد التجمهر حولهم وإلى جانب عبد الكريم الذي ابتسم.
نيران الألم أوقدت نور ثورة، قرروا رفض الظلم وسطوة احتلال وإن لم يكن في أيديهم أي سلاح، وهجّ سطع في العيون لم يستطع شباب العصبة إخماده وهم من يحملون السلاح.
تلبك الشاب ورفاقه حين هاجتهم نظرات الناس العزل، بينما قال أحدهم في غضب وهو يضع سبابته على زناد بندقيته:

-هؤلاء لا ينفع معهم إلا...

عندها أشار الشاب لهم بأن يخفضوا أسلحتهم وهو يقول:

-لنتوقف.

-ولكن...

رد أحدهم بذلك فقاطعه وهو يتمتم له:

-لسنا هنا بصدد قتل أحد، وإن فعلنا سنقع في مشكلة، إنهم أهل مدينتنا ونعرفهم وسيعرفوننا، لنسحب الآن.

فأيد رفاقه رأيه إلا أنه حذج عبد الكريم بنظرات غضب، وقال بعد زفير:

-لن أنساك يا هذا.

وغادر المكان مع رفاقه، في تلك اللحظة نظر الناس لبعضهم وتبادلت نظراتهم تساؤلات:
 أيعقل أن يظلوا صامتين على الظلم؟
 أيعقل أن تظل المدينة مبعثرة دون والٍ إلا هؤلاء؟
 غادر الجميع المكان لكن شيئاً غريباً في النفوس ومن بين براثن اليأس اتقد، إنها صرخات
 المقاومة التي لم تتأخر كثيراً بعد ذلك.
 ففي اليوم التالي مباشرة، انطلقت وتناقل سكان المدينة حيثياتها.
 انتفض الشيوخ وأئمة المساجد للثبات في المحنة وبث الأمل في السكان، وحثهم على حماية
 كل ممتلكات المدينة في ظل انعدام الأمن واختفاء المسؤولين عنه، فبادر الشباب لحماية
 أحيائهم وممتلكاتهم، كلٌ في حيه تطوعاً، وتم الإعداد لحراسات ليلية بكل المدينة.
 أنشأت (هيئة) من وجهاء البلد وشخصيات لها دورها في المجتمع لأجل تيسير أمور المدينة
 والتفاوض مع العصبة لتجنب الجميع ويلات القتال ومآسي القتل وإيقاف أعمال النهب.
 المدينة الآن مسؤولية تقع على عاتق الجميع.
 رغم أن الوضع لن يتحسن بسهولة وسط فوضى الحرب العارمة في أصقاع الوطن، إلا أنه
 لا بد من مقاومة لأجل الأرض، وإن كانت مقاومة عارية مجردة من السلاح.
 ضجت كل مواقع التواصل وأفواه الناس بها، وطارق ورفاقه يستمعون في صمت
 لأحاديثهم في مقهاهم المعتاد، فنظروا لبعضهم البعض في صمت وغادروا ليركبوا سيارة
 طارق الذي قال في سخرية:

-حراسات! الآن؟ هل هم مغفلون؟

رد ناصر:

-هذا الإجراء لمنع المزيد من التهاذي من قبل أولئك الأوغاد، وأيضاً من أي لصوص، لن يحمينا أحد.

-لا فائدة منه، لقد سبق السيف العذل، لقد استولوا على كل شيء وانتشروا بكل زاوية بالمدينة.

قال محمود:

-حسب ما سمعت أيضاً، يُقال بأن لهم علاقة بالتمرديين في عدن يمدونهم بالوقود والسلاح إن لزم الأمر، ولهم جواسيس هنا يحاولون معرفة ثغرات المدينة ليتسللوا بمساعدتهم، الحراسة ستكون لأجل هذا أيضاً.

قال وليد في قلق:

-وماذا في وسعنا أن نفعل؟ نحتاج لسلاح أثناء الحراسة، كما أني لم أمسك به ولا مرة في حياتي، كيف سأقاتل به؟ هل أقاتل بعضاً؟

ضحك رفاقه لقوله، بينما عقد حاجبيه وقال في حدة:

-أنا لا أمزح، والذي أجبرني على المشاركة.

هز طارق رأسه وقال ضاحكاً:

-أخبر والدك أن الحراسة للمسلحين، ماذا لو هاجمك أحدهم ستقف كالأبله، لا أستطيع تخيلك جندياً يا وليد بكرشك الكبير هذا.

قال صبري:

-أظن أن أمر المشاركة سيكون إجباراً يا شباب.

-ماسيبي. (ماسيبي كلمة عامية باللهجة الحضرية اليمنية وتعني لا شأن لي)

-والدك يساند (هيئة المدينة) يا طارق ويساعد في كل ما من شأنه تحسين وضعها، أعتقد بأنه من غير اللائق ألا تفعل ذلك.

فرد عليه في ضيق:

-والدي يحشر أنفه في كل شيء، لم أعد أراه في البيت إلا بعد صلاة العشاء، تارة مع النازحين والآن مع الهيئة، آه منه، يجب أن يدخر المال لأجل توفير الوقود للبيت مع تقطعات الكهرباء هذه لكنه لم يفعل، وأيضاً لأجل نفقات البيت مع قلة العمل، لست موظفاً لأساعده في شيء.

قال ناصر:

-كان الله في عونك، إنه رجل طيب.

-طيب أكثر من اللازم، سيستغله الجميع.

قال وليد في استياء:

-أفتوني يا جماعة، ماذا أفعل مع أبي؟

صمت الجميع للحظات، ثم قال محمود:

-إذا لم نجد مهرباً من آبائنا فليعمل كل واحد منا مع فرقة ثم نهرب منهم ونلتقي في مكان نتفق عليه، ثم نذهب عند شاطئ البحر لنقضي الليل هناك حتى الفجر، أعتقد بأنها فرصة لن نجد مثلها، وإن سألنا أحد أين كنتم سنخبره بأننا كنا نطوف حول الحي نحرس ونراقب، وهكذا نتخلص من ثرثرة الجميع.

أيد رفاقه فكرته ما عدا طارق الذي قال:

-أنا لن أقوم بأية حراسة، ولن أغادر البيت وقت نومي، وسأخبر أبي بذلك، فأنا لن أحمي أحداً رضي بالذل منذ البداية.

قال محمود: سنحوها إلى متعة.

-لن أنجو من توبيخ أبي لذا سأكون صريحاً معه، فمصير هذه المدينة أو حتى البلد برمته ليس من شأني.

-كما تريد، كنت أتمنى مشاركتك.

-في أي وقت أنا معكم يا رفاق، وبما أننا ذكرنا البحر لنذهب إليه الآن.

الفصل السادس

ما يسمونه...

زحفت الساعة نحو التاسعة مساءً، حين عاد عبد الكريم لمنزله، أخذ نفساً عميقاً كأنها يطلب من الراحة القاطنة في أرجائه أن تدلف إلى صدره وتزيح عنه مشقة يومه، أغلق الباب الخارجي، ودلف الصالة الواسعة سريعاً باحثاً ببصره عن الأريكة القريبة ليلقي بجسده عليها ولو للحظات، استقبلته عائشة عند باب غرفتها مرحبة به، ولم تضيف كلمة حين رأت ملامح وجهه، تأملته وهو يتجاوز المساحة الفارغة بمقدمة الصالة قرب مدخلها، ويتجه نحو الأرائك الخمس أمامه ذات اللون البنفسجي المتناسقة في لونها مع ألوان الجدار البنفسجي والأبيض والوردي الداكن والمرتبة في نقوش جميلة، اصطففت في حلقة شبه دائرية قطع اتصالهن مساحة تُركت لأجل التلفاز المعلق بالجدار، توسطهن طاولة زجاجية فاخرة عكست الأضواء الساطعة من مصابيح الصالة ونجفاتها.

اختار الأريكة الأقرب ليمناه وهو يرد عليها دون أن ينظر إليها، لم يتوقف للحظة، حتى ألقى بجسده، وخلع عمامته، وأرخى رأسه على ظهرها، وأغمض عينيه وهو يمرر يده بين شعيرات رأسه الرمادي ويسمح لبعض النسائم الباردة بأن تنفذ لفروة رأسه. لم تنطق صبراً حتى تنتظره لتطمئن عليه، فسألته:

-كيف تسير الأمور معك؟

نظر إليها، وقال في وهن:

-جيدة بحمد الله، اجتمع مسؤولي الهيئة بالتجار ليروا كيف سيساهمون في الأزمة الحالية.
ردت في قلق:

-عبد الكريم، أجبرتني على البقاء ووافقت لأجلك، تعرضت لرجال العصابة ومنعتهم من
السرقه ومر الأمر بسلام، والآن ستعمل ضدهم علناً؟ أنا خائفة عليك.
هز رأسه مطمئناً:

-لا تخافي، أنا لا أعمل ضد أحد بل مع الجميع لأجل المدينة، لا بد أن نواجه هذا الواقع بكل
ما نستطيع لا أن نقف مكتوفي الأيدي.

-ألم تمنع طارق في أول يوم جاءوا فيه من أن يعترضهم؟ لم لم تتجنبهم أيضاً؟
-طارق يتصرف بطيش لا هم له إلا تحقيق نزواته وإرضاء غروره، وتنفيذ ما يوافق هواه، ما
قمت به لم يكن لأجل نفسي، الناس كلها وقفت إلى جانبي حينها.
دمعت عينها وهي تقول في خوف وقلق تضاعفا من نبرة صوتها:

-أنا خائفة عليك يا عبد الكريم، لا أريد أن يصيبك مكروه لا سمح الله.
أمسك بيدها وأجلسها على الأريكة إلى جواره، وهو يربت على كفها ويقول مطمئناً إياها:
-لا تجزعي هكذا يا عزيزتي، اطمئني، الكل يعمل مثلي، ولن يصيبنا شيء إلا بأمر الله.
حاولت أن تغالب خوفها لكن الدموع غلبتها فلم تنطق حبساً وانهمرت على خديها مدراراً،
أحاط كتفها بذراعه وقربها إليه أكثر حتى أسند رأسها إلى كتفه، ومسح دموعها بيده الأخرى
وهو يقول:

-عائشة، كفي عن البكاء، سيكون كل شيء على ما يرام، كوني قوية.

هذأت من نشيجها، وهي تقول:

-سأحاول ذلك، كن حذراً، أرجوك.

-سأفعل إن شاء الله.

ظل يراقبها حتى شعر بأنفاسها قد انتظمت واضطراب صدرها قد اختفى، وابتعدت عنه،

ابتسم لها لتبادلته بأخرى مثلها، بعد لحظات، دلف طارق، فسلم على والديه في مرح وهمّ

ليدخل غرفته، إلا أن عبد الكريم استوقفه وهو يقول في حزم:

-أين كنت يا طارق؟ أراك تتأخر هذه الأيام.

-كنتُ مع رفاقي عند شاطئ البحر.

-البحر! وإلى هذه الساعة؟ المدينة ليست آمنة حتى تذهب لمكان منعزل كالبحر وفي هذا

الوقت.

-ما من خوف يا أبي، لا تزال الحركة في الشوارع قريبة.

-حسنًا، أريد أن أحدثك في أمر، اجلس قليلاً.

امثل لأمر أبيه، وجلس على الأريكة مقابلاً لوالديه، بينما ظلت عائشة تراقبها في اهتمام حين

رأت ملامح الجد على وجه زوجها، فقال عبد الكريم:

-لقد تقدم مجموعة من الشباب بمقترح حماية ما يمكن حمايته بالمدينة من عبث العصابة،

وأيضا هناك أنباء تفيد بوجود وجوه غير مألوفة في نواحي المدينة وهؤلاء ليسوا منهم، بل

يُعتقد بأنهم من المتمردين الغازين في عدن، إنهم يحاولون التسلل إلى هنا، لذا سيعمل شباب كل حي على حماية حيه في نوبات حراسة ليلية.

رفع طارق حاجباه وصاح في استنكار:

-حراسة! الآن؟

-نعم.

-في ماذا ستفيد الحراسة بعد أن توغل الغزاة في المدينة واستولوا عليها؟

-الحراسة ستنتقد ما يمكن إنقاذه، سيدركون بأن الناس لن تسمح بمزيد من التماهي، وستحمي المدينة من خلاياهم النائمة الراغبة في استفحال دائهم، وأيضا مسؤولي الهيئة سيحاولون التفاوض معهم لاستعادة منشآت الحكومة لتعود الحياة للمدينة وإزالة هذا الخناق عنها.

قال في سخرية:

-هه، تفاوض! الآن بعد أن وقع كل شيء في أيديهم؟ أين هم منذ البداية عندما هجموا وسرقوا ونهبوا؟

رد عليه في حزم:

-طارق، السكان يحاولون تجنب سفك الدماء، هؤلاء إن وجدوا مقاومة بالسلاح لن يتورعوا عن فعل ما يفعله المتمردون، والأمر الآخر هو سقوط المدينة المفاجئ، كيف تريد هم أن يقاتلوا بعد أن انسحب الجنود المدافعون عنها؟

- لا يهم كيف يا أبي، الأمر الآن قد انتهى و....

قطع كلماته وهو يقول في عصبية:

-لم ينتهِ الأمر، الناس قد أدركوا الآن بأنه لن يدافع أحد عن أرضهم غيرهم.

-دون سلاح؟!

-قلت لك المقاومة لا تشتترط وجود السلاح، هذه نمط مقاومتنا.

هز رأسه وهو يقول في ضيق:

-اعذرني يا أبي، أرى بأن الحراسة في هذا الوقت غير مجدية، وحتى إن كانت كذلك، فلن

أخاطر بنفسي لأجل من تعيش مع الذل منذ البداية.

-لا حول ولا قوة إلا بالله، ألا تفهم يا ولدي؟ يجب أن يعمل الجميع لأجل المدينة مهما كانت الظروف.

رد في حزم:

-وأنا لا أريد ذلك، قلت لن أخاطر بنفسي.

تدخلت عائشة وهي تقول في عصبية:

-لا يا عبد الكريم، لا أريد أن يُشارك طارق في الحراسات الليلية.

ازدادت لهجة عبد الكريم حدة وهو يقول:

-لا تتدخل يا عائشة.

-بل سأدخل، طارق ولدي ولا أريده أن يخاطر بنفسه، أرجوك لا تفجعني أكثر من هذا.

سر طارق في نفسه لتدخل والدته، بينما قال عبد الكريم في غضب:

- هذه المدينة للجميع ويجب عليهم أن ينهضوا لأجلها، هذا وطننا ويجب أن يحميه الصغير والكبير.

- وطن! عن أي وطن نتحدث وسادته لا يعملون إلا لأجل أنفسهم لا لأجله، نحن مجرد أكباش فداء لحظيرة الوطن حتى يعلنوا تسيدهم علينا لا أكثر، نحن الحلقة الأضعف والأسهل في التضحية لأجل ما يسمونه بالوطن.

- هل سأدخل في جدال آخر بعيد عن صلب الموضوع؟
تمتم بذلك لنفسه في ضيق، وأشار لطارق بالذهاب لغرفته ففعل، ولما خلا المكان لهما، قال لها في حزم:

- من تتحدثين عنهم لا يحبون إلا أنفسهم يا عائشة، نحن نحب وطننا ولذا سنفعل ما في وسعنا لأجله.

- وفي ماذا سيفيدني حب الوطن إن فقدتُ ابني الوحيد؟ لن تعوضني كل كنوز الأرض عنه، لا أريد لطارق أن يشارك في شيء.

- يجب عليه أن يُشارك مثل الجميع، هذا هو واجبه، ما الفرق بينه وبين باقي شباب المدينة؟
هل يقل شهامة عنهم؟ هل هو جبان، أم أن تدليلك له سيجعله غيباً؟

- طارق ليس جباناً، وليفعلوا ما يحلو لهم، لا أريده أن يشارك أبداً أنا خائفة عليه، فلا توجع قلبي أكثر مما أنا فيه، يكفيني ما تقوم به.

-مهما كانت الظروف التي قد تحيط بنا أو تجعلنا نكره اليوم الذي ولدنا فيه هنا، سبتقى هذه الأرض أرضنا، ولن يحميها غيرنا.

-الظروف التي تكالبت على البلاد هي من دفعت بأخيك وأهله للسفر إلى الكويت وتركه خلفه، ليتك فعلت مثله، حب الوطن ليس سوى شعار لا يعد يردده إلا أمثالك.

زفر في ضيق حين أدرك بأن لا طائل من حديثه، فقال لها:

-وماذا عمن نهضوا الآن رغم الحصار؟ شباب أصغر من طارق وفي مثل عمره كانوا مستعدين للمبادرة ولفعل أي شيء لأجل الجميع.

صاحت في عصبية وتوتر:

-لا يهمني ما تقوله يا عبد الكريم فلن أو لم قلبي بفاجعة قد تحل بولدي بسبب شعاركم ذاك، رجاء لا تحاول إقناعي، اسمح لي في الذهاب الآن لإعداد العشاء لكم.

وانصرفت، بينما هز رأسه وهو يقول في انزعاج:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، الآن لن أتمكن من إقناع طارق ورأي أمه بهذا الشكل، ستزيد من تماديه.

في تلك اللحظة، رن هاتفه فالتقطه ليجد المتصل سهيل، فأجابه:

-هل من جديد؟

-هناك نازحة من عدن تود مقابلتك يا سيدي.

-أتبحث عن سكن؟

-نعم.

-أليس في مقدورك أن توفر لها شقة؟

-بلى، ولكنها طلبت مقابلتك الآن دون أن تخبرني السبب.

-الآن؟

-نعم.

-لم؟ هل الأمر مستعجلٌ إلى هذه الدرجة؟

-لا أدري، لم تخبرني بشيء.

-حسنًا، لنتقي في المؤسسة، أنا قادم.

-سأبلغها بذلك.

وأغلق الخط، ثم عدلَ عمامته على رأسه ونهض من مكانه وهتف مخاطباً عائشة:

-سأخرج الآن يا عائشة.

أطلت عائشة من باب الممر المؤدي للمطبخ والذي كان مقابلاً للأريكة التي جلس عليها عبد

الكريم، سألته في استغراب:

-إلى أين؟

-هناك عمل مفاجئ، لا تقلقي، لن أتاخر.

-حسنًا، انتبه لنفسك.

-سأفعل إن شاء الله.

عندما أعلن عقربا ساعة يده وصولها إلى التاسعة وخمسي وأربعون دقيقة، وصلت سيارته إلى مقر المؤسسة، نسبات الليل الباردة قليلا كانت تخفف عنه بعضا من عناء اليوم، وأصوات موسيقى الحشرات كانت تملأ المكان، الناس تحاول قدر المستطاع العودة لبيوتها مبكرا في ظل الظروف غير الآمنة، خرج من السيارة ودخل المبنى ليجد سهيلاً في استقباله في صالة الاستقبال، والمرأة جالسة على كرسي بها وبرفقتها أربعة أطفال، كانت ترتدي عباءتها وحجابها ونقابها السود، مخفية بهم كل جسدها، أما الأطفال فكانوا طفلتين وولدين، الطفلة الكبرى في نحو الخامسة عشر، والصغرى في العاشرة، والولدين في نحو السادسة، والخمسة بدا على عيونهم الإجهاد، وثيابهم المغبرة تحكي رحلة معاناة طويلة، لم ينتظر طويلاً فرحب بالمرأة وطلب منها أن تلحق به إلى مكتبه ففعلت وارتباك يسطع من عينيها المرهقتين، تقدمها وقادها إليه، ولحق بهم سهيل ثم انتظر في الخارج.

ولما جلسوا جميعهم، قالت المرأة في ارتباك وبنبرة مجعدة:

-أعتذر لأني جشمتك عناء القدوم إلى مقر عملك وفي وقت متأخر.

رد عليها مطمئناً:

-لا عليك، تفضلي يا أختي، أخبرني سهيل بأنك تبحثين عن سكن.

أجابته هذه المرة بنبرة لم تخل من الحزن:

-نعم، ليس لي أحدٌ هنا، ودلني بعض الناس عليك فور وصولي، وأيضاً ليس معي معيل، أنا المسؤولة الوحيدة عن هؤلاء الأطفال، أخبرني مساعدك بنظام مؤسستكم؛ فخشيتُ ألا ... أستطيع دفع أي شيء لكم بعد انقضاء الشهر، وأنا حتى لا ...

لم تكمل المرأة عبارتها حين ألجمت لسانها غصة أفقدتها القدرة على الكلام ، لم يحتاج عبد الكريم للمزيد من الشرح ليفهم حالها؛ كسرت الحرب عزة نفسها واضطرتها للهرب بنفسها وأولادها نحو مجهول لم تدر كيف سيكون، ودون أي شيء سيعينها في ملجئها، هذه طقوس الحرب وهكذا هم ساستها لا تخلف وراءها فقد المال والضحايا فقط بل انكسارات النفس وهزائم الروح، وربما كانت الماثلة أمامه ستتخذ من العفة طريقاً لها لولا أن أثقل كاهلها أربعة أطفال لم يبصروا سنداً لهم إلاها، أشفق عليها وامتدت جحافل آلام قلبها إلى قلبه، قال متداركاً إياه:

-أين تسكنين الآن؟

ابتلعت غصتها بصعوبة لتجيبه:

-وصلت منذ لحظات للمكلا، الحمد لله أني استطعت الوصول بها تبقى معي، الحرب تشدد رحاها في عدن، والناس في نزوح، الحمد لله على كل حال.
قال لها مواسياً:

-طبيبي نفساً يا أختاه، سنقدم ما يلزم لأجلك فلا تقلقي.

-شكراً جزيلاً يا سيدي، لا أدري كيف أجازيك على هذا.

- لا تشكريني، أسأل الله أن يزيع الغمة عن بلادنا كلها.

أمنت المرأة على قوله، ثم نادى على سهيل فدخل من فوره، قال له:

-دون بعض بيانات المرأة وأطفالها لتكملها في الصباح، ثم خذها لمقر سكنها، وانظر ما تحتاج.

هز رأسه إيجاباً، ثم نهض عبد الكريم مودعاً المرأة وهي لا تزال تشكره وتقاوم سيل دمعاتها، ابتسم لها، ثم غادر المؤسسة واقترب من سيارته وهو يفكر، أوضاع الحرب اشتدت ولا شك بأن الأيام القادمة لن تكون سهلة أبداً على المكلا أيضاً، نازحين وغزاة ودسائس تدور رحاها في الخفاء لا يعلم عنها أحد، سيحتاج الجميع للمزيد من شحذ الهمة والكفاح غير العادي والصبر على ظروف ستشتد قسوة، ابنه الذي هو من صلبه يتهرب من هذا، كان يتمنى لو يشد ساعده به ويؤازره كما يؤازر أهل بلاده في محنتهم.

لم يقطع شروده وتفكيره وهدوء الليل حوله إلا أزيز رصاصة تخرق أذنيه بغتة، ثم تخرق بجسدها المعدني باب سيارته أسفل مقبض الباب الذي همّ بفتحه، توافق ذلك مع ألم فظيع ينهش جنبه الأيسر وتسبب في إضعاف جسده، وشهق شهقة مختنقة قبل أن يدور ما حوله أمامه ويسقط أرضاً بعد لحظات.

واسترخى جسد طارق على فراشه الوثير فور دخوله غرفته، وغرق في غياهيب نومٍ لم يتشله منه إلا رنين هاتفه، رفع يده اليمنى في تكاسل لتتحسس المنضدة القريبة من سريره، وهو لا يزال مغمض العينين حتى وصل إليه والتقطه، وبنصف عينه اليمنى قرأ اسم (ناصر) على شاشته، أسرع يرد عليه في تكاسل وهو يعيد إغماض عينه:

-مرحباً.

رد عليه ناصر في قلق:

-أين أنت يا طارق؟

-أنا بالبيت، ما بك؟ مالذي يقلقك؟

تلثم للحظات ثم قال:

-والدك...

فتح عينيه، وقال في استغراب:

-والدي؟ ما به؟

-إنه في المستشفى الآن.

هب من سريره فزعاً وقال:

-ما به؟ أخبرني.

-تعرض له رجلان من العصابة وأطلق أحدهما النار عليه.

-وكيف حاله الآن؟

- لا أدري، تناقل الناس الخبر بسرعة ولم يصلني إلا منذ لحظات عبر (الواتس) لهذا اتصلت بك كي أطمئن عليه.

- يا إلهي، سأذهب للمستشفى حالاً، أفدني بالعنوان.

أسرع بإخباره، ثم أضاف:

- سألق بك لأطمئن عليه.

- شكراً.

قفز من سريره فوراً، وأسرع يرتدي ملابس الخروج، ثم نظر لساعة الحائط ووجدها تقترب من الحادية عشر، في تلك اللحظة قرعت أمه الباب فأذن لها، ولما فتحته بدا عليها وكأنها تود قول شيء، توقفت للحظة حين رآته بكامل هندامه، ثم سألته في قلق:

- إلى أين؟

تلبك قليلاً، لم يكن يرغب في أن يفاجئها بما حدث لو الده، فقال:

- سأذهب إلى ناصر، لقد طلب رؤيتي، لا شك بأن لديه أمراً هاماً.

- الآن؟ لن تخرج يا طارق، يكفيني تأخر أبيك، اتصل به حالاً واعتذر منه.

أسرع يتدارك الأمر وهو يقول:

- صحيح، أبي يريدني أيضاً، طلب حضوري للمؤسسة.

مطت شفيتها في استنكار وهي تقول:

- مالذي تخفيه يا طارق؟

رد بسرعة حتى لا تلاحظ ارتباك أعماقه:

- لا شيء أمي.

ردت عليه في حزم:

- لا، أنت تحاول إخفاء أمر عني، هيا، أخبرني حالاً.

- لقد أخبرتك بكل شيء، دعيني أخرج الآن وأنفذ أمر أبي.

- لا، لن تخرج، سأتصل بوالدك وأعرف سبب تأخره أيضاً وطلبه لك الآن.

أسرعت تبعد لتتصل من هاتف المنزل، ازداد ارتباكاً فلحق بها بسرعة وهو يقول:

- أمي، هكذا ستحرجين أبي إنه في اجتماع مع عماله، دعيه وسأذهب إليه، وسأخبرك عن كل

شيء، لن أتأخر، أعدك.

تنهدت بعمق ثم قالت في خوف:

- لقد قال لي كلماتك نفسها، القلق ينهش قلبي، لا أحتمل الانتظار يا بني.

قبّل رأسها وقال:

- لا تقلقي، لن أتأخر وإن اضطررت لذلك سأتصل بك مباشرة.

هزت رأسها في عدم اقتناع:

- حسناً.

ابتسم لها وسراً أنه استطاع طمأنتها، وغادر على الفور وهو يتنفس الصعداء ويقول:

- الحمد لله أنني نجحت في إقناعها، أرجو أن تكون بخير يا أبي.

الفصل السابع

حاضنة الوجع

تجلى بوادر الصحوه وارتفاع نداءاتها لأجل الخير، لا بد أن يلحق بها كيان الشر ليخمد شأفة كل ما من شأنه أن يعترض طريقه ويضاد تفكيره، فيتحرك ليحصرها ويئدها قبل أن تكبر وتستفحل وتتعاظم عليه.

لم يستيقظ عبد الكريم من غيبوبته إلا في المستشفى، حيث ألقى نفسه راقداً على سرير في غرفة خاصة بها، تطلع حوله لم يجد أحداً، نصف جسده العلوي كان عارياً إلا من غطاء دثره وضادة غطت جنبه الأيسر، أحس بألم إصابته تأوه وهو يستعيد تلك اللحظة التي لم يعيها لفرط سرعتها.

مع كل ما اضطرب حوله في ثوانٍ، رأى دمائه تتدفق بغزارة من إصابته، وجسده يتهاوى نحو الأرض، لم يعرف سبباً لانهياره:

أكان النزف أم أنه إعياء يومه الطويل؟

وحين وقع، لمح بعينين غائمتين ملثمين على دراجة نارية، الدراج الذي يقود المركبة، ورفيقه الذي يجلس خلفه ويحمل بيميناه مسدساً، لم يضطربا أو يخافا من المارة القلائل الموجودين بالمكان؛ بل تجاسرا على فعلتهما أمام الجميع، كيف لا وهما من رجال العصابة، ثم انطلقا بدراجتهما ومضيا في طريقهما، ورأى الناس تهب نحوه لمساعدته قبل أن يتلاشى وعيه تماماً بعدها، يبدو بأنهم نقلوه للمستشفى.

حمد الله أن أنجاه، ثم وجد سترته المدماه على كرسي قريب عن يسراه، مد يده إليها ليتناولها ولم يستطع، جلس معتدلاً يعالج الألم وعاد يمد يده حتى وصل إليها، ثم حاول ارتدائها حين دخل سهيل عليه، ابتسم في فرح حين رآه مستيقظاً، واقترب منه وساعده، ثم جعله يستلقي مجدداً وهو يقول:

-الحمد لله على سلامتك يا سيدي.

-شكراً يا سهيل، لم أتيت إلى هنا؟ أين المرأة وأطفالها؟ هل ساعدتهم؟

ابتسم في إشفاق وهو يقول:

-نعم، لقد أتممت ما أمرتني به على أكمل وجه، كل سكان الحي هناك والمارة هبوا لأجلك، وظل اثنان منهما إلى جانبك إلى أن انتهيت من عملي، وقدمتُ إليك على الفور، أعلم بأنه لن يهدأ لك بالٌ مهما كانت حالتك.

-بارك الله فيك، أشكر.

-لم أقم إلا بواجبي يا سيدي، والحمد لله أن الرصاصة لم تخترق جسدك بل جرحتك؛ لكنه كان غائراً قليلاً، والطبيب طمأنني أنه في إمكانك المغادرة بعد أن تستيقظ.

-الحمد لله.

قال سهيل في ضيق:

-ماذا يقصدون من تصرفهم ذاك، أهذا تهديد أم خطأ تصويب؟

أجابه عبد الكريم في حزم محتملاً أله:

- بل تهديد، المطلق كان يحیی، عرفته مباشرة من عينيه رغم أنه كان ملثماً، كان قريباً مني، لم يكن من العسير عليه قتلي.

- ربما لم يقتلك لأن بينك وبين أهله معرفة سابقة.

- ربما؛ لكن من اغتال رجال المدينة وأبناءها من قبل هل سيتورع عن قتل أهله الآن بعد أن صار كل شيء في أيديهم؟ وأعتقد بأن هذا رد فقط على منعي لرفاقه من السرقة، إنه يحاول إخافتي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ماذا ستفعل الآن؟

أسبل جفنيه وقال:

- لا شيء، ستمضي في عملنا، هل تظن بأن أحدا هنا سينصفنا إن ظلمنا؟ لنمضي، ولندعو الله أن ينصرنا.

في تلك اللحظة، اقتحم طارق الغرفة وملامح القلق على وجهه وأنفاسه تتصاعد بسبب خوفه وهروله، ابتسم له عبد الكريم حين اقترب وهو يقول في قلق:

- كيف هي إصابتك؟

رد مطمئناً:

- أنا بخير، لا تقلق جرح سطحي فقط.

بدا الاطمئنان عليه، ثم قال في عصبية:

- الحمد لله أنك بخير، رأيت يا أبي؟ رأيت نتيجة العمل لأجل المدينة؟ لبتك تتوقف عن...

قاطعه في حزم:

-لن أتوقف، ولم أرتكب أي خطأ يا طارق، وإن كنا سنخاف فلن نتقدم شبرا واحدا، ما أفعله لأجل الجميع لا لأجل نفسي.

رد عليه في نبرة حملت جدًّا وألم:

-إنهم لم يقدموا على ما أقدموا عليه إلا لأنك اعترضت دربهم ومنعتهم من السرقة وفعل ما يريدون. أبي، نحن من نخاف عليك وليس غيرنا، لذا أرجوك توقف، أمي قلقة عليك.

-هدهء من روعك الآن يا بني، أنا بخير.

-هداك الله يا أبي، يجب أن تتوقف.

-قلت لك لن أفعل، دعنا نعد للبيت.

-ولكنك...

-لقد أخبر الطبيب سهيل أنه بإمكانني المغادرة، لذا أرجو أن تتابع الإجراءات اللازمة لأجل ذلك.

بدا الارتياح على وجه طارق وهز رأسه، وهو يقول:

-حسنًا، سأفعل الآن.

وغادر الغرفة، بينما قال سهيل:

-سأتولى أمور المؤسسة ومهامك حين عودتك، وسأوصل سيارتك للبيت، يمكنك أن ترتاح وتطمئن.

-شكرا يا سهيل .

-العفو سيدي، هذا واجبي نحوك فلا تشكرني.

اكتفى بابتسامة له، وتابعه ببصره حتى غادر.

لثوانٍ سكن العتمة، لقد انطفئ المصباح بغرفته، ثم أنير ليدرك بأن الكهرباء قد قُطعت عن المدينة، أما بالمستشفى ولا سيما المستشفيات الخاصة فلا بد أن تبذل إدارتها جهدها لاستمرار الكهرباء بها وتوفيره وقودها لأجل مرضاها وعملها، فهي مكان حساس، نظر ناحية النافذة الزجاجية فوجد الظلام يطل من الخارج، نهض ببطء وفتحها، رآه يغطي الشوارع والبيوت كلها، كان بغرفة في الدور الرابع أتاح له فرصة رؤية المدينة وغرقها في بحر الظلام وجبروت الظلم، وبعد لحظات ظهرت بعض الإضاءات الشحيحة المتفرق وهجها الخافت هنا وهناك، وصدحت بعض المولدات بأصواتها لتقطع سكون الليل، تتمم في حزن:

-إلى متى سأظل أراك ترتدين ثياب الحداد حتى في بهجة الربيع؟ هل هذا الربيع فعلاً أم أنه

فصل خامس لا ندري عن كنهه شيء؟ متى ينجلي حزنك يا مدينتي؟

أقبل فصل الربيع فعلاً، ليس بعبق زهور متفتحة، ولا بنسبات بحر ولا بسحر طبيعة، لم تفتح المكلا ذراعيها وكل حواسها لتستقبل بشاشة الطبيعة؛ بل أصبحت حاضنة الوجد، ما كانت فيه من حصار وخنق على أبسط متطلبات الحياة لم يشفع لها في أن تُمنح السعادة ولو قليلاً، كان عليها أن تشاطر من جاورها أو جاعهم أيضاً.

منذ إطلالة أبريل إلى مدة تقترب من الأسبوعين، صارت المدينة قبلة الكثير من النازحين الفارين من ويلات الحرب في عدن، إليها كان الملجأ من قذائف الظلم وهجمات المتمردین الطغاة، توافدوا إليها مهما كان حالهم، من امتلك مالا، ومن لم يمتلك إلا ما على جسده، لم يفكروا في شيء إلا النجاة من براثن الحرب وبطشها.

لحظتها لم تنحصر آلامهم في صدورهم وحدهم؛ بل امتدت إلى صدور أهل المدينة ليبادروا في مساعدتهم، ففتحت بعض المباني والمدارس التي أوقفت عملها منذ الغزو، وتحولت إلى مراكز إيواء لاحتوائهم حين ازدهمت المدينة بهم ولم يجد معظمهم مساكن غيرها، وهبت مؤسسات وجمعيات لأجلهم بكل ما يستطيعون رغم ضعف الإمكانيات بالمدينة، واستنفرت المستشفيات لاستقبال جرحى الحرب والاستعداد بكل الإمكانيات المتاحة. وصلت الأخبار لسمع عبد الكريم عن طريق سهيل الذي صار مسؤولاً بدلاً عنه ويتابع معه كل ما يحدث، حيث يزوره كل يوم ليطمئن عليه ويطلععه على أمور المؤسسة، فلم يفارق الألم قلبه كما بدأ يفارق جسده، ظلت مبادرته في منح الأولوية في شغل شقق عائلته لهم، قال سهيل:

-لقد شغلت كل الشقق يا سيدي، وأنا أتابع أمور المستأجرين، وأتفقد إن كانت هنالك مشكلة قد تواجههم في أماكن سكنهم.
رد عليه بألم:

-أحسنت يا سهيل، تفقدتهم أيضاً إن كانوا يحتاجون لشيء، لنساهم ولو بالقليل في تلبية احتياجاتهم.

رد عليه في حزم:

-أنت تبذر كثيراً يا سيدي، يكفي منحك إقامتهم المؤقتة لشهر دون أجره وتعاونك لأجل إيوائهم، المؤسسة ستخسر الكثير وستنهار، ثم أن حملات الإغاثة تتولى المؤنة لهم. سأله دهشاً:

-حملات إغاثة؟!!

-نعم، المؤسسات والجمعيات الخيرية سعت جاهدة لتوفير المؤنة اللازمة لهم، ونظم الكثير من أبناء المدينة ذلك، بل أنهم أرسلوا بواخر لعدن عبر ميناء المدينة بعد أن وصلت شحنة (المازوت) اللازمة لتشغيل الكهرباء بالمحافظة، الكل يسعى لأجل أهلنا في عدن، ليس من وصلوا إلينا فقط بل أيضاً لأجل من كانوا لا يزالون تحت وطأة الحصار، لذا طب نفساً يا سيدي، وقدّم المساعدة، ولكن دون أن تلقي بمؤسستك إلى التهلكة.

تنفس في ارتياح، ثم قال في ألم متصل:

-الحمد لله، أحياناً... يصيبني العجز عن تغيير هذا الواقع المؤسف إلى بذل كل شيء دون التفكير في النتائج المترتبة عليّ، ولولاك لكنتُ تبعت عواطفني فعلاً وغرقت المؤسسة في دوامة ديون لن تنتهي أبداً مع تردي الوضع، إنني أتألم يا سهيل ولا أدري متى سيُزاح هذا الألم عن صدري، أملك المال ولا أستطيع مداواته بشيء.

هز سهيل رأسه في أسى وهو يقول:

-الكل يتألم، والكل عاجز عن مداواته، لكننا نحاول تدارك ما يمكن تداركه، وتخفيف الأوجاع ولو قليلاً، بالأمس مررت بأحد مراكز الإغاثة، رأيت الحزن يرتسم على وجوه الناس وهم ينتظرون دورهم ليحصلوا على احتياجاتهم، تخيل أن تكون في أحضان وطنك وتطلب حاجاتك الضرورية وتنتظر دورك لأجلها، تخيل أن تحصل على هوية غير هويتك الحقيقية؟

-إني لا أفهمك، ماذا تعني بهوية غير هويتك؟

-بسبب عدد النازحين الكثير ورغبة مراكز الإغاثة في تنظيم عمليات التوزيع بشكل عادل ومنظم، منح كل رب أسرة بطاقة خاصة تحمل إلى جانب الاسم لقب (نازح). ابتلع عبد الكريم غصة، وقال وهو يخفض رأسه:

-هذا الإجراء ضروري يا سهيل، إنها تشبه (بطاقات التموين) في الماضي، بل أن بعضها لا يزال موجوداً قبل احتلال العصبة للمدينة.

-نعم، لكن أن تحمل هوية (نازح) الاسم بحد ذاته أصابني بالوجع، رأيت عدداً من الرجال والنساء يغالبون الدمع وهم ينظرون لبطاقاتهم، هربتُ من المكان حين أحسست بأن دموعي ستنهمر، خشيت أن تزيدهم والآلام البادية على وجهي ألماً ويدركوا إشفافي عليهم.

-ولهذا أرسل مبعثاً لمراكز الإغاثة من المؤسسة لأجلهم.

اتسعت عينا سهيل في دهشة وهو يقول:



-سيدي، ماذا قلتُ لك قبل لحظات؟

ابتسم عبد الكريم وهو يقول:

-لأجل ما ذكرت لا بد أن تفعل ذلك، مبلغ بسيط تدبره حسب ما تراه من ميزانية المؤسسة، ومن عندك أيضاً إلى أن تتكشف هذه المأساة عنهم وعنا، إني أترك الأمر في يدك لتداوي بها آلام قلبك.

ابتسم سهيل وهز رأسه مؤكداً وهو يقول:

-صدقت سيدي، ما من سبيل لتخفيف الوجع إلا بالكفاح، لكن باعتدال فنحن لا نعلم إلى متى سيستمر.

اتسعت ابتسامة عبد الكريم وغادره سهيل لتنفيذ الأمر عائداً إلى المؤسسة.

في الجهة الأخرى، كلما تجول طارق مع رفاقه في أحياء المكلا ولا يجدها إلا مكتظة بغير سكانها، وبنقاط التفتيش الكثيرة، والوجوه المثلثة المظلمة، يتميز غيظاً، وحين مر بسيارته مع قرب كورنيش المدينة بحي السلام في صباح ذلك اليوم، قال لهم:

-إلى متى سيستمر كل هذا؟ إلى متى ستحمل غرباء ينهبون أموالنا تارة، أو غرباء يتقاسمون أرزاقنا تارة أخرى؟

رد محمود في ضيق:

-لا أدري يا صديقي.

أضاف ناصر:

-هل من حل؟ لا وقود ولا غذاء ولا حتى رواتب ستكفي الجميع هنا، إنهم ينازعوننا في كل شيء.

قال وليد في ضيق:

-أهالينا متعاطفون معهم لدرجة لا توصف، أبي لا يستلم راتبه إلا وينفقه في نفس اليوم ليمنح نصفه حملات الإغاثة، كنت أريد أن أشتري هاتفاً جديداً لي.

قال ناصر:

-والدي مثل والدك يا وليد، أصبحت حاجات البيت محدودة جداً.

قال صبري مشاركاً رفاقه:

-ألا تكفيناهم الحراسات المجانية حتى نقتر على أنفسنا؟ لم نعد نستطيع فعل ما نريد وقتما نريد، والدي يقول لي:

هذا واجبنا نحو المدينة، ولا بد أن يتبرع من بقالته التي يعمل فيها لأجلهم من حين لآخر.

قال محمود:

-والدي أيضاً الذي يعمل بشركة في الوادي يطلب من والدي أن تمنح جزء مما يرسله لنا لأجلهم.

زفر طارق ثم قال:

-آخ منهم، أعتقد بأن أي هو أسوأ شخص بين آبائكم، وهو في أمس الحاجة للمال والراحة أيضاً بسبب ما تعرض له، الكهرباء تنقطع طوال النهار؛ لكنه لا يوفر وقوداً لأجل تشغيلها بالمنزل ولا حتى يأمرني بذلك، طلبت منه ذات مرة أن يفعل؛ لكنه رفض، وتعلل في عدم توفره بالمحطات، بل يبيعه في السوق السوداء بأسعار باهظة، إنه مخطئ، مهما كان لا بد أن يسعى للحصول عليه، أحرقتني حرارة الجو بسببه، وهو يتحملها رغم أنه بحاجة للنوم والراحة؛ إنه لا يرتاح له بال إلا إذا اطمئن على عمله بالمؤسسة، والسؤال الذي يسأله سهيل دائماً:

هل تفقدت المستأجرين؟ كيف تسير أمورهم؟ ... ماذا نفعل؟

لقد مضى شهر ونصف على هذا الوضع ولم يتغير الحال ولم يغير من حاله أيضاً.

قال محمود في يأس:

-سأحتق.

ما أن أتم كلمته حتى سمع الخمسة جلبة قريهم على يسار الشارع، فأسرعوا ينظرون ناحيته،

كان جمع خفير من الناس متجمهرة قرب مبنى البريد، فقال صبري:

-يبدو أن هناك مشاجرة.

صفر محمود في حماس ثم قال:

-مشاجرة قرب البريد!! دعونا نستطلع الأمر.

تحمس بقية رفاقه لحماسته، وأوقف طارق سيارته على جانب الطريق ثم خرجوا ليقتربوا من المكان، فرأوا رجالاً من مختلف الأعمار بين واقف وجالس على الشارع المقابل من المبنى، لفحتهم الشمس بأشعتها فوقوا رؤوسهم بقطع من كرتون مهملة عثروا عليها بالأرض، بينما اكتفى بعضهم بإسدال عمامته على عينيه قليلاً لتصير كمظلة أو ارتدى نظارته الشمسية، كانوا من أهل المدينة ومن النازحين متجمهرين قرب باب المبنى المفتوح، والجميع في انتظار دوره بالخارج في طابورين أهمل آخرهما ليتفرق المنتظرون على الشارع بعد أن صار المكان في الداخل لا يتسع لهم، ملامح الضيق والانزعاج كانت ترسم على الوجوه، أطلقوا عبارات التأفف من طول الانتظار، بينما تبادل البعض الآخر أحاديث هستيرية وكأن الشمس أفقدتهم صوابهم.

لفت انتباه الخمسة، رجل من النازحين يمشي قرب أحد الطوابير وهو يقول لآخر من المدينة يقف في الصف وبلهجة غاضبة:

-ماذا تقول؟

رد الآخر في حزم وغضب:

-ابتعد منها، لقد أخبروك أن لا راتب لكم الآن، فلم تقف حجر عشرة في دربنا، ابتعد.

زجر الرجل وهو يقول:

-لن أبتعد، هؤلاء يخادعوننا، لأيام وهم يياطلوننا، إنهم يسرقون حقوقنا بسبب نزوحنا.

- لا يوجد لصوص هنا، ولو كنا كذلك لما تحملناكم أو ساعدناكم، ألم تشعر للحظة بأنكم حملٌ ثقيل علينا؟ ألا ترى حال المدينة نفسها؟ أم أنك ترى نفسك وحدها؟
انقذت عيناه غضبا وأجاب:

- وهل تظن بأننا نود مغادرة بيوتنا والمجيء إلى هنا؟
- إذا لم يعجبك المكان فاختر لك مكاناً غيره، يكفيننا أنكم تراحونا حتى في لقمة عيشنا وأمام البقالات، انقلع من هنا أيها المتغطرس.
- ماذا؟؟؟

لم يمهل الرجل لحظة حتى كور قبضته وألقى بها في وجهه دون تردد ليسقطه أرضاً، فقام رجل من المدينة بلكم الرجل المعتدي وقفز معه الأول، فارتفعت الأصوات واختل الطابوران، وبدأت المشاجرة والرجال المحيطين بهما يحاولون تهدئة الوضع؛ لكن المعركة ما لبثت أن تحولت بعد دقيقة إلى فريقي صراع مكون من ستة رجال وليس بين الرجلين وحدهما وانتقلت عدوهما بين المتواجدين، فتكون فريق ثالث محايد من أهل المدينة يحاول السيطرة على غضب الجميع.
صفرَّ محمود وهو يتابع مع رفاقه في اهتمام، ولحق به البقية وكأنهم يرغبون في استمرار المعركة طويلاً، لكن رجال الفريق الثالث تمكنوا من إنهاء المشاجرة بعد مشقة وتفريق الجميع وإبعادهم عن المكان.

غادر الرفاق الخمسة المكان، ثم قال محمود في سرور:

-إنها البداية.

بأدله طارق السرور وهو يقول:

-بداية النهاية، لينقلعوا.

قال صبري في ارتياح:

-الحمد لله أننا لسنا الوحيدين الذين يشعرون بالسأم منهم.

-وهذا الأمر جيد جدا.

قال ناصر:

-ليتنا نستطيع فعل شيء حتى يتدمروا منا ويرحلوا.

قال وليد:

-وما الداعي لذلك، لا تتعجل، الأيام كفيلة بأن تجعلهم يدركوا بأنهم مجرد طفيليون على

مدينتنا مهما كان كرم آبائنا عليهم.

رغم أوجاع القلوب وأحزانها إلا أن الصمود كان وساما لدى البعض، والبعض الآخر كان

في سخط وغضب يتعاضم مع الأيام، الحال لم يتغير، القذائف تدوي في عدن ليرتد أصدائها

في المكلا.

عائشة التي كانت ترى حالة زوجها لم يكن موقفها ببعيد عن موقف ابنها، تتذمر وتغضب من تصرفاته أحياناً، وأحياناً تشفق عليه، إذ أنه أثر النهوض في (نمط المقاومة) ذاك على الراحة رغم إصابته، يستشعر في وجدانه أنه لا بد أن يستمر مهما كان وضعه. وخلال هذه الفترة، تحسنت إصابته، قرر العودة للعمل في المؤسسة، أخبرها برغبته في ذلك الصباح، فقالت في حزم:

-لا تزال متعباً.

رد عليها مطمئناً:

-بل أنا بخير يا عائشة، لقد طمأنني الطبيب يوم أمس، وقال أن في إمكاني مزاولة أعمالي.

-لكني لا أراك كذلك، أنت بالكاد تراح حتى وأنت على فراشك، ولا تأكل جيداً، لا يهملك إلا عملك.

-هذه مسؤوليتي.

أخفضت رأسها وقالت:

-ونحن، ألسنا مسؤوليتك يا عبد الكريم؟

دُهِش لقولها، فاقرب منها وأمسك بيديها وقال في قلق:

-وهل قصرتُ في حقكم؟ إن كنتُ فعلتُ فقلولي لي.

-نعم فعلت، أنت تنفق مالك على غيرنا وتبذره لأجلهم، أليس من الأولى أن تهتم بشؤون

أسرتك؟

رفع حاجباه في دهشة وهو يقول:

-أهذا كل شيء؟ نحن في خير وبخير يا عائشة، إني أمتحكم ما تريدون ولم أبخل عليكم بشيء، ثم ألا تريدنا أن نتصدق من مما لدينا لأجل أهلنا؟ هناك ناس أسوء حالٍ منا ومنحوا من أموالهم لمراكز الإغاثة، عائشة حالنا أفضل من غيرنا فلا تشتكي من هذا واحمدي الله على النعمة التي نحن بها.

حاولت بكللماتها تلك أن تردعه وأدركت أن كلمة أخرى لن تنجح في تغيير موقفه مما يفعل، فتمتعت بحمد الله، ثم اجترعت غصة خوف بصعوبة، وهي تقول مجدداً في لهجة حاولت أن تجعلها حادة وحازمة:

-أنت تعمل لأجل المدينة دائماً دون أن تراعي خوفنا وقلقنا عليك، من لنا غيرك؟ ماذا لو حدث لك مكروه أسوء من...

انفجر سد الخوف ليسمح لدموعها بأن تسيل على خديها مدراراً، مسح على رأسها وهو يقول مواسياً:

-إلى متى هذا الخوف يا عائشة؟ منذ أن أصبتُ أنتِ على هذه الحال، اهدئي، لقد أصبحت بخير الآن ولن أذهب إلا لعملي.

رفعت رأسها ونظرت في عينيه وهي تقول في حزم رغم دموعها:

-أنت تذهب لعملك، ولتعرض أولئك الأشرار أيضاً.

هز رأسه وهو يقول:

-لن أعترض أحداً، فأمر التفاوض معهم من اختصاص الهيئة الآن، أزيل خوفك.

مسحت دموعها ثم قالت:

-هل هذا يعني بأنك لن تعترض العصابة مرة أخرى؟

-لا، لن أفعل، هناك أعمال كثيرة بالمؤسسة ولن ألتفت إليهم.

-عدني بذلك.

-أعدك عزيزتي، لن أفعل أي شيء، سأقوم بعملتي فقط.

-رغم أنني لست راضية عن عملك إلا أنني أسأل الله أن يوفقك الله ويحفظك.

ابتسم لها وقبل جبينها وهو يقول:

-أشكرك، حفظك الله كذلك.

ابتسمت له، وأسرعت تقدم له الإفطار، ثم غادر ليعود لأجواء عمله.

لكن أجواء المدينة لم تتغير إلا بعد هبوب نسائم رمضان وعاصفة يوليو لتمنح الناس شيئاً من الحياة.

بعد ثلاثة أشهر من الغزو، ظهر وميض الأمل يلوح من عدن ويرسل تباشيره إلى أنحاء

المكلا حين تمكنت المقاومة من طرد المتمردين منها. عمت الفرحة كل القلوب المكلومة

بأوجاع الفراق ومآسي النزوح، وبرقت الحياة في العيون، وأنعش الأمل المفقود بالعودة

لأحضان مدينتهم، وهللوا مستبشرين بعودة الأمان والطمأنينة لها.

هذه الفرحة لم تنحصر عليهم وحدهم بل امتدت إلى كل أهل المدينة أيضاً؛ بالأمس كان الحزن يقطع نياط قلوبهم، فحاولوا بعزة النفس وكبريائها أن يقاوموه ويكتموه، لكن فرحة اليوم لا تتسع لصدورهم، تتناقل الجميع تبشيرها، علَّ هذا الحدث يكون بادرة الأمل في نفوسهم جميعاً، أما رجال العصابة فقد دفعهم ما حدث لأن يشددوا الخناق على المدينة ويراقبوا بحذر وحيطه.

ثم عقد معظم النازحين العزم على العودة إلى عدن، فكان لهم ذلك إلا بعضهم الذين لم يكن لهم مأوى هناك واعتادوا الحياة في المدينة آثروا البقاء. ومن هنا، بدأت وتيرة صعوبة الحياة بالكلية تخف تدريجياً، وسرَّ طارق ورفاقه بما جرى لا لأجلهم؛ بل لرحيلهم عن المدينة، وتمنوا لو يلحق بهم البقية.

سر عبد الكريم بذلك واستبشر خيراً، فقال له سهيل وهو يسلم له بعض الأوراق: -هذه أوراق تخص المستأجرين الذين غادروا وسددوا ما عليهم، وهؤلاء الذين ينوون المغادرة لكن ليس في وسعهم دفع ما عليهم. -دعهم يرحلوا يا سهيل.

رد عليه في قلق:

-ولكن يا سيدي مديونية المؤسسة تقترب من ثلاثة ملايين، من أين ستكفل بها؟
أجابه في حزم:

- إلى أن ينتهي هذا العام وحسب، سأفكر فيما يتوجب عليّ فعله، دع الناس تعد لبيوتها، ليس هناك شيء أجمل من العودة لأحضان وطنهم.

- ماذا تقصد؟ إنهم في وطنهم.

- أعلم، لكن البيت هو الوطن الخاص لكل إنسان، وطن لقلبه، وهذا وطن الجميع.

ابتسم له وقال:

- فهمتك، أسأل الله أن يمنحك السعادة مثل ما منحتها لغيرك يا سيدي.

بادله ابتسامة صغيرة وهو يقول:

- أشكرك يا سهيل، قم بعملك.

وغادر سهيل المكتب، وبعد أن أنهى عمله غادر بدوره ليعود لبيته، ولما اقترب من سيارته

انتبه لشخص خلفه يقول:

- ألن تياس أبدا؟

التفت لصاحب الصوت فوجده يحبى، قال له في استغراب:

- ومم أياس؟

رد في سخرية:

- من عملي هذا، تبادر وتخطر لأجل من حولك.

- وهل تريد منعي؟ ألا يكفي ما فعلتموه بالمدينة خلال شهر؟ هل تريد أن تمنعني عن

مساعدة الناس؟

-لا، لن أمنعك ما دمت لا تعترض طريقنا وما فعلته بك ليس لأنك اعترضت طريقنا،
فنحن لا نريد أن ندخل في حلقة انتقام لا طائل منها؛ بل أردت إخافتك حتى تتوقف حين
رأيت خوفك على طارق بمجرد تهديد كلامي، قلت في نفسي ماذا لو تحول لتهديد جسدي،
هل كنت ستقف؟ أخذت الإذن في محاولة قتلك، ويبدو أنني كنت على خطأ؛ لكن ثقب بأن
الندم سيكون من نصيبك في النهاية.

رد عليه في حدة:

-لن أندم أبداً وسترى.

ابتسم يحى في سخرية، وهو يقول:

-الخاسر في هذه الحرب هو من سيندم، وكلكم خاسرون لأنكم لا تريدون الانضمام لنا ولا
مؤازرتنا والوقوف معنا.

-لن ينضم إليكم إلا مغسولي الأدمغة، أتمنى ألا أراك مرة أخرى إلا في غير هذه الطريق يا
ولدي.. لم يقل يحى شيئاً بل غادر المكان..

وكان ذلك اللقاء هو الأخير بينهما، إلا أن احتلال العصبة وسيطرتها على المدينة ظل قابعاً، ها
هو أبريل على وشك أن يقبل مرة أخرى دون أن تلوح بوادر الخلاص في الأفق، لقد نسي
أهل المدينة خلال هذه المدة ما هي الحرية.
هل سيكون لها شكل يروه ذات يوم؟

الفصل الثامن

مؤامرة ولكن...

ساعات اليوم الدراسي تمضي ببطء على قلبها...

العزلة والصمت سلاحها في حربها لمواجهة نظرات الطلاب وأحاديثهم عنها كل يوم، إلا من تلك الرفيقة لدربها، الرفيقة بقلبها، البلسم النقي، فيض الأنس والحب التي وهبها الله لها لتمضي في طريقها الذي اختارته، تتناقشان معاً، تتبادلان الكلمات والضحكات بمرح وكأنهما صديقتان منذ أمد، وفي كل لقاء تظل نيران القلق تلسع قلبها، لقد استطاعت بتقربها منها لفت أنظار كل زملائها وزميلاتها القدامى، لمحت استنكاراً في العيون، واحتجاج صامت ضدها بتجنبهم إياها خاصة حين تكون برفقتها، حاولت منعها عن مرافقتها بل ترجيتها لتبتعد عنها، فرددت على مسامعها قائلة:

-مهما ظل الذهب وبريقه مُحَنَفَيان عن الجميع، لا بد أن يظهر ذات يوم، دوام الحال من المحال يا ضياء، أنا واثقة أن الجميع سيحبك يوم ما مثل ما أحبيتك، فقط قليل من الصبر يا عزيزتي. رقص قلب ضياء في سعادة لكلمات صديقتها، لكنها في الوقت ذاته لم تكن تريد أن تلقي بها معها في متاهتها المعتمة، فقالت لها وهي تدافع حشرة حزن كادت تتسبب في لعنة لسانها:

-سأصبر لوحدي يا سحر، لا أريد أذيتك.

أدركت ما جال في خاطر صديقتها، فأمسكت بيديها وقالت في حزم:

-أنا بوابتك لهم، فلا تخافي، لن يحدث لي شيء.

هنا رسمت ابتسامة على وجهها لتوهيها باقتناعها والألم والقلق يعتصران قلبها، ماذا عساها تقول وهي ترى رفيقتها تكافح لأجلها؟

قبل بدء اليوم الدراسي الرابع، وأثناء توافد الطلاب، دخلت سحر القاعة واختارت مقعداً في المدرج الأول، ووضعت حقيبتها على المقعد الذي عن يسارها، لقد حجزته لأجل ضياء، تلفتت حولها وتطلعت في وجوه الطالبات الوافدات إلى القاعة باحثة عنها؛ لكنها لم تجدها، لم تأت بعد، ثم وقع بصرها على ثلاث فتيات يسرن معاً، كن أيضاً يرتدين العباءة والنقاب السوداء مثلها، فلم يظهر من أجسادهن إلا أيديهن وأعينهن، ابتسمت سحر في سرور حين حزرتن، ولوحت بيدها وهي تقول:

-ندى، صفاء، سوسن، تعالين إلى هنا، أهلاً بكنَّ يا صديقتي العزيزات.
انتبه الفتيات لها فتوقفن بسرعة، وأرسلن النظرات ليتبادلن خطاباً ذهنياً لم يفطن له أحد، ثم فردت سوسن قامتها الطويلة، وهزت رأسها حين تبدلت ملامحها الودودة الهادئة إلى الحزم، وبرق في عينيها السوداوين وهج أملٍ بتحقيق ما جال في ذهنهن جميعاً، بينما حركت ندى - ذات القامة القصيرة - نظارتها الطبية بانزعاج لتعدها أمام عينيها الصغيرتين السوداوين وقد اختفت ملامحها السمراء المرححة متحولة إلى وجوم عميق، وأما صفاء شبيهة سحر شكلاً، والأقصر منها قامة، والأكبر منها بنحو العامين، لم يختلف حالها عن حال زميلتيها، حوار النظرات جعل نظراتها ولامحها الخجولة تتبدل لارتباك وقلق كبيرين.

استغربت سحر ملامحهن وهن يتحركن نحوها ويقتربن منها، ثم أسرعت ندى تلتقط حقيبتها في سرعة لتجلس بالمقعد، فقالت لها:

- تهمني يا ندى، هذا مقعد ضياء.

أجابتها ندى في ضيق وهي تعقد حاجبيها:

- ضياء! لم دعوتنا إليك إذن يا سحر؟ لا هم لك إلا مصاحبة تلك الفتاة الغريبة والدراسة معها؟ يبدو أنك تريدين نسياننا وترك صداقتنا.

- مُحال أن أفعل ذلك وأنتن صديقتاي طفولتي، ونقضي معظم أوقاتنا داخل الجامعة وخارجها معا.

ردت سوسن وهي تجلس عن يمينها وتقول في حدة:

- نعلم أننا نفعل ذلك؛ لكن هذا الأمر بدأ يقل منذ مرافقتك لضياء، فماذا تسمين ذلك؟ ماذا تسمينه رغم ابتعاد الجميع عنها بسبب منظرها؟ ألا يعني هذا أنك تريديننا أن نتجنبك بتصرفك ذاك أيضاً كما يتجنبكم الجميع؟

- المظهر لم يكن عنواناً للجوهر يا سوسن، وقد دعوتكن لأجل أن نتحدث بشأنها.

ردت عليها صفاء في قلق بصوت هادئ:

- أنت مخطئة يا سحر، (الكتاب واضح من عنوانه)، لولا قبح وجه ضياء لما نفر منها أحد، فهل الجميع مخطئ؟

ابتسمت وهي تقول لها:

-ولا تنسي أيضاً (لا تحكمي على الكتاب من غلافه)، إياك أن يخدعك قبح وجهها يا صفاء، إنها فتاة طيبة وخلوقة.

-إنها غريبة عن المدينة وأنتِ تعاملينها كما لو كنتِ تعرفينها منذ زمن، لم تسعين لطلب صداقتها وكسب ودها؟ ألا تخشين منها؟

-لا، ولأنها زميلة لنا بالدفعة ومغتربة عن عالم الفتة، وأود أن تشعر بالراحة معنا. رببت سوسن على كتفها، وهي تقول في حزم:

-نحن ندرك بأنك تشفقين عليها بسبب غربتها ونفور الجميع منها، لكنهم سيبتعدون عنك أيضاً وربما كرهوك بسببها.

عقدت حاجبيها، وقالت في حزم:

-إلى متى سنظل ننظر للأمور من زاوية واحدة ويملؤنا الشك حين نجد الأغلبية يتجنبونه ولا يفعلونه؟ ألا يجب علينا أن نترث قبل أن نحكم على أحد؟ ألا يجب علينا أن نتيقن من صدق ما نظنه؟

-معك حق؛ لكن ليس مع الغرباء.

-ضياء كانت خائفة علي مما قلته لي الآن، طلبت إلي أن أبتعد عنها، وأنا من رفض ذلك.

دُهِش الفتيات لقولها وبدت نظرات اللوم لأنفسهن تلتمع في عيونهن، بينما تابعت سحر في ألم:

-هل تعرفن سبب تشوه وجهها؟ إنها الحرب، الحرب التي دمرت كل شيء جميل وغالٍ في حياتها؛ بل في حياتنا كلنا، أشعر حيناً بأننا نعيش رغماً عنا، فهل نحاربها فقط لأنها ضحية حرب؟ هل نحارب بعضنا رغم وضعنا هذا؟ نحن في حاجة لأن نتماسك، أن نتآزر، فُرقتنا واهتمامنا بذواتنا سبب فيما يجري لنا ولأرضنا.

عمهنَّ الوجوم والصمت وتطلعنَّ لبعضهن البعض، حتى قطعتة ندى وهي تقول:

-أتفق معك في كل كلمة قلتيها، ولكن الحذر واجب.

ابتسمت لها وردت:

-إذن لتختبرن ضياء بأنفسكن.

تطلعت إليها في ارتباك، بينما قالت سوسن في حيرة:

-كيف؟

-سنجلس كلنا معاً، ولن نفترق أبداً لمدة أسبوع كامل حتى تتعرفن عليها عن قرب وتحكمن على سلوكها، وتقررن خطأً تصر في من صوابه.

هزت صفاء رأسها وقالت:

-موافقة، لنخض الاختبار يا سحر، إن كانت ضياء مثل ما قلتي فسنكون صديقات لها مثلك، أما إن تبين لنا عكس ذلك فيجب أن تبتعدي عنها.

-موافقة.

قالت سوسن:

-حسناً، اجمعينا بها في أي وقت تريدان.

-بل اجلسن معنا الآن، لا تزال المقاعد حولي شاغرة.

في تلك اللحظة، أقبلت ضياء على القاعة، رأتها برفقة صديقاتها، وأحجمت عن الاقتراب منهن، واتجهت لدرج بعيد عنهن، فنادت:

-تعال يا ضياء واجلسي معنا.

لم تكن تريد أن ترفض طلبها وترد كلمتها، وفي الوقت نفسه لم تكن تريد أن تختلط بزميلاتها خوفاً من حدوث جدال لا تبتغيه وتسبب لمؤنسها الوحيدة مشادات هي في غنى عنها، اقتربت وقلبها يخفق في قلق حتى جلست إلى يسارها في المقعد الذي اختارته لها، وعن يمينها رفيقاتها الثلاث، قالت سحر:

-لدينا اجتماع في فترة الاستراحة يا ضياء ويجب أن تحضريه.

قلقت أكثر في خلدتها؛ لكنها لم تظهره، وقالت محاولة صرفها عن الأمر:

-لا، لا أستطيع، سأذهب لأناقش الد...

قاطعتها سوسن وهي تقول في ابتسامة:

-هي مناقشة حول أحد محاضرات الدكتور سامي السابقة، وأظنها ستفيدك.

هنا لم تستطع ضياء أن تتمنع أكثر، فهزت رأسها وهي تقول:

-حسناً، يسعدني مشاركتكن.

-اسمي سوسن، تشرفت بمعرفتك.

-وأنا أيضاً.

تصافحتا، ثم سلمت عليها ندى وصفاء وظللن يتحدثن خمستهن بكل ود، بدين أمامها وكأنهن يعاملنها على سجيتهن، لم يبدُ عليهن نفور منها من أول لقاء، فحاولت جاهدة أن تبعد كل قلق وارتباك عن نفسها وتعاملهن على سجيتها أيضاً، بقين معاً طوال اليوم الدراسي ولم يفترقن أبداً.

زاد هذا من دهشة الطلاب جميعهم، أن تصبح في ذلك اليوم رفيقة لأربع طالبات بدل واحدة!

لم تكن الدهشة ببعيدة عن طارق الذي طافت التخييلات بفكره في أن تظل تلك الفتاة الغريبة القبيحة منزوية لوحدها بذكائها وشجاعته التي يراها مصطنعة مع أحاديث زملائه من الطلاب والطالبات كل يوم، استغرب أيضاً لما حدث، فقال في سخرية محلاً ما رآه:
- يبدو بأن الفضول دفعهن لمرافقتها وليعرفن أسرارها، هه، هكذا النساء دائماً، لنرى نتيجة هذا قريباً.

قال ناصر نافياً:

- لا أظن ذلك، صفاء وندى وسوسن هن صديقات سحر، ولا شك في أنهن لا يردنها أن ترافق ضياء.

- إذا كان الأمر كذلك، فعليهن إبعاد صديقتهن قبل أن يستفحل ضرر تلك المزدوجة عليها.
قال محمود في ضيق:

-أوافق طارق يا ناصر، أتمنى أن يدركن هذا سريعاً.

قال طارق في ثقة:

-الأمير لن يدوم طويلاً، ثقوا بهذا.

مضت عدة أيام وسحر ورفيقاتها لا يفارقن ضياء أبداً، زادت دهشته وحيرته وهو يراهن
يجلسن سوياً في القاعة، وفي المكتبة، وحتى حين يذهب لبوفيه الكلية، الابتسامات
والضحكات والحديث الهادئ المتزن الذي لم تعكره كلمة بذينة أو تصرف يدل على النفور
والاحتقار، تساءل:

هل يمكن أن يصل الفضول بالمرء للتعامل بهذه الطريقة، وبكل هذا الصبر على مرء ينفر منه
الجميع؟

ثم تتم في نفسه ساخراً:

-كل شيء ممكن في قاموس الفضول لدى النساء.

عاد ليطمئن نفسه بهذا، ولم يمض سوى أسبوع واحد على هذه الحال حتى فوجئ بخلاف
توقعاته تماماً، وذهبت كل تحليلاته أدراج الرياح
ما ظنه فضول كان بداية لشيء أكبر، مع نهاية الدوام من ذلك اليوم رأى كل فتيات الدفعة
يحطن بها ويمحادثنها بود ومحبة ويصافحنها بحرارة، وهي تبادلن الحديث في ابتسام بصوتها
الهادئ وتصافحنه وكأنها كانت في شوقٍ لتلك اللحظة، تساءل في نفسه:

-ماذا حدث؟! ما أراه وأسمعه الآن مناقض تماماً عما حصل خلال الأسبوع الماضي، هذه المزوجة... كيف؟... كيف استطاعت استقطاب الفتيات خلال هذا الوقت القصير؟ ما سر ذلك؟

ثم لاحظ سحر وهي تتحدث إلى الفتيات في ابتسامة أيضاً وكأنها تقدم ضياء إليهن، وإلى جانبها رفيقاتها الثلاث مبتسمات اللواتي شاركنها الحديث أيضاً
-أها، إذن سحر من وقفت في صفها ودعت رفيقاتها لتروضهن لأجلها، والآن تنقع الفتيات لأجلها؟ هذا غباء مهما كان منها فالأولى بهن تجنبها حتى لو تحدثت عنها بما هو حسن، منظر وجهها وحده كفيلاً فقط بإبعادهن وإخافتهن وإثارة اشمئزازهن.
هكذا فكر وقد أحس بأن هذا الأمر يميزه غيظاً، ويثير الضغينة والازعاج في نفسه، فقال محمود في ضيق:

-يبدو أن سحر تطلب تعاطفهن معها، ولهذا استعانت برفيقاتها.
أضاف وليد بعد أن زفر في نفور:

-التعاطف يكون مع شخص لا يثير الاشمئزاز كهذه.
قرأ ناصر ملامح الضيق الزائد على وجه طارق وهو ينظر بصمت لضياء، فقال له:
-دعك منها يا طارق.

عجل بخطاه خارجاً من القاعة، ورفاقه يلحقون به وهو يقول في حدة:

-هل سنجبر على رؤية هذه المزدوجة كل يوم؟ لا، حتى وإن كانت نازحة، فلست من يقي أي شيء مزعج أمامه لينصرف عنه.

ثم التمعت في وجهه ابتسامة وهو يقول في مكر:

- سأجعلها أكثر الفتيات شهرة في الكلية كلها، وليس على الدفعة فقط.

-ماذا ستفعل؟!

-ستعرف ذلك قريباً.

مضى الشباب الخمسة خارجين من المبنى وغادر طارق بسيارته، ولم تغب تلك المزدوجة عن

عقله، ثم خرجت ضياء ومعظم الفتيات لا يزلن حولها، وهي تقول لهن مبتسمة:

-سررت بالتعرف عليكن.

ردت فتاة:

-بل نحن يسعدنا ويشرفنا وجود فتاة متميزة مثلك بيننا.

عقبت صفاء:

-لقد كانت سحر محقة، لا أدري لماذا نحكم على الأشياء بسرعة دون تريث أو تثبت.

ردت سحر:

-إنه الخوف من المجهول، الخوف من التجربة، الخوف من أن نقع في الفشل قبل أن ندخل

ميدان التحدي في كل شيء، لذا نحاول حماية أنفسنا.

قالت ندى:

-سأحينا يا ضياء على ما بدر منا.

قالت ضياء:

-لست ألو يمكن ولا ألو أحد أبداً، فلا تعتذري.

وتبادلن الأحاديث قليلا ثم غادرن الفتيات المبنى معاً، وسرور ضياء لا يعادله سرور في هذا اليوم.

مهما توالى عواصف الزمن وتهاوت المصائب على النفوس، يظل جمالها الأبدى طاغياً يستشعره كل من حل بها وترعرع فيها، كيف لا وهي ملكة بحر العرب الأزلية، المتربعة على عروش القلوب قبل عروش الجبال، حرارة شمس الظهيرة لا يمكنها أن تؤثر في استمتاع الساكنين بأثار جمالها؛ بل تحول مياه البحر مسكاً تهبه لهم ولكل زائريها، تحاول بسخائها الملكي منح الفرح رغم أسرها وأثقال قيودها وإرهاب سجانيتها؛ عيون لا تعرف الرحمة، نقاط تفتيش، تحقيقات لا تستثني أحداً، وأسلحة تفتش عن الموت، وتبحث عن ذريعة لتزهق الأرواح.

عبر حافلة صغيرة، قطعت ضياء طريقها من (فُلك) متجهة إلى (المكلا)، وتأمل كل ما حولها، يخالجه شعور بالألم ممتزج بثورة عظيمة حين تقع عينها على الأسرين، تندفع ذكريات مؤلمة إلى رأسها، فتود لو تتحول ثورة نفسها للهب يحرقهم جميعاً ومن هم على شاكلتهم بدل أن يظل في أعماقها، تشعر بالعجز وتهداً نفسها في مضض وهي تجلس على

مقعدها قرب النافذة، تطالعهم مثل من حولها وحسب، وحين تجاوزتهم ووصلت إلى منطقة (الديس) رأت الناس لا تزال تسعى وتغضي في دروبها لتبحث عن أرزاقها، الحياة يجب أن تستمر مهما كانت آلام الواقع.

ثم اجتازت الحافلة منطقة (باجعمان) مرور بالشارع الرئيسي المؤدي لأحياء المكلا القديمة ليكون (خور المكلا) عن يمينها، وبعد تجاوزت قصر السلطان القيعطي بقليل توقفت عند (الكبس) قرب كورنيش (حي السلام) بعد ساعة ونصف من الرحلة، ودفعت ضياء أجرة السائق ثم نزلت لتقطع الشارع؛ لكن البحر من خلفها شدها بنسماته ونغمات العذبة، التفتت نحو أمواجه المتلاطمة على جدار الكورنيش والصخور المتفرقة لتطير قطراتها النافرة البيضاء في الهواء متمردة على قانون الأرض وتنطلق نحو السماء، ابتسمت وهي تحرك رأسها نحو الأعلى وتلاألأت عيناها وهي تتابع طيرانها الأسر لتحلق بها في سماء (عدن) وترى أهلها عند شواطئها وهم يستمتعون بهذا الجمال البحري، نداءات الأطفال وثرثرة أهاليهم كانت كلمات متناسقة مع عزف الأمواج، ثم هوت القطرات نحو الأرض بعد أن حطت بها عند مرافئ الذكريات فلم تنقطع عنها في تلك اللحظة، تعود نسمات الأرض تحملها إلى كل ما هو جميل فتبتسم، أو تعبث بها نسمات الحنين فتحزن.

لطالما أحبت الوقوف هنا منذ أن استقر المقام بها في (المكلا)، لتستمد شيئاً من فيض (عدن) القادم عبر البحر، أو كأنها تنتظر من البحر الذي يرى مدينتها من جهة أخرى أن يعيدها إليها، فتتمتم:

-متى سأعود إليك يا عدن؟

هنا أشفق الحنين على قلبها، وأوقف نسائته ليردها لواقعها.

أسرعت خطاها لتقطع الشارع الرئيسي وتمر أمام المحلات الواقعة أمامه ثم تمر في زقاق صغير بين عمارتين تاركة (مستشفى المكلا) عن يسارها، وتجاوز المحلات بالشارع الرئيسي بالحلي لتصل إلى وسطه الذي احتضنته منازل جمعت بين العراقة والتجديد، عمارات طينية ذات طراز عريق وارتفاع شاق، ونوافذ خشبية صغيرة مقسومة من منتصفها عرضياً إلى قسمين، قسم علوي مفتوح تدلت من معظمها أقمشة بيضاء تمايلت مع الهواء مزينة بالتطريزات المختلفة وحسب ذوق صاحبة البيت، والبعض الآخر كانت مغلقة بابها الصغير، أما القسم السفلي فكانت الثقوب المزخرفة المنحوتة تملؤه، و(أكواخ) بعض المواشي كانت لاتزال ملاصقة لجدران بعض البيوت، كل ذلك جعل من الحي وعمرانه معلم تاريخي لحضارة يُخاف عليها أن تندثر.

قطعت الشارع مارة بأزقة الحي، وابتسمت حين رأت مجموعة من الأطفال أمام بيوتهم يلعبون بفرح.

ثم توقفت عند أحد العمارات القديمة، لتطرق بابها الصغير، وتنتظر للحظات قبل أن تلمح امرأة تضع غطاء مزركش على رأسها تطل من نافذة بالدور الثاني لتستطلع من الطارق، فرأتها وابتسمت لها، ثم فُتح الباب بحبل ارتبط بمقبضه يُشد من الأعلى عبر ثقب صغير بالسقف، أخفضت رأسها ثم دلفت، ثم أغلقته خلفها وعبرت رواق ضيق يصل ارتفاعه

متران وعرضه إلى متر وسقفه مغطاً بأعواد خشب (المنترير) الأسطوانية الشكل، كان مظلماً لم تهتدِ إلى نهايته إلا بمصباح عنده زاد نوره بانعكاسه على الجدران المطلية (بالنورة) ذات اللون الأبيض، ثم انعطفت يميناً حيث درجات السلم المرتفعة، ارتفاعه مثل الرواق وخالفه في عرضه فكان أصغر منه، تجاوزت الدرجات الأولى لتصل الدور الأول الذي كان يضيئه مصباح صغير يقيم وضع بسقفه فأضاء موضع الدرجات إضاءة شحيحة، كاشفاً عن باين لغرفتين مغلقتين، أمام الغرفة البعيدة مساحة واسعة نوعاً ما وضع فيها عدد من الصناديق الفارغة المهملة فاهتمت بها أكوام الغبار واتخذت منه العناكب أساساً لبيوتها، وبجانب الدرج المؤدي نحو الأولى حمام مغلق، الدور بكل تفصيلاته بدا مهجوراً، تجاوزته، لتصل الدور الثاني والذي كان بنفس نمط سابقه، أمام الدرج مباشرة مساحة صغيرة ثم غرفة شبه واسعة، وارتفاع ثلاثة أمتار، لم يكن على الأرضية إلا حصيرتان احتلتا مساحة واسعة منها وبضعة وسائد، و النوافذ الخشبية مطلية بطلاء بني زهد البائع في ثمنه، كانت تلك الحجرة قد خصصت للضيوف.

وعن يمينها قُسمت المساحة الواسعة إلى قسمين بقطعة قماش كبيرة مزينة مثبتة من طرفيها العلويين بحبل ومسمارين؛ قسم قرب الدرج، وقسم بما تبقى من المساحة حرة حوى موقدا وضع على الأرض، ودولاب صغير حوى بعد مواد الطعام، وسلّة صغيرة حملت بضعة أدوات للطبخ، تحولت المساحة بمحتوياتها إلى ما يشبه المطبخ، وأمامه قُبعت الغرفة

الأخرى، خلعت ضياء حذاءها في المساحة الشاغرة في اللحظة التي أطلت أمها (مها) من الغرفة.

امرأة خمسينية رسمت بشفتيها ابتسامة سرور على وجهها الهادئ الوضاء، فتشكلت ثنيات بسببها تجمعت مع تجاعيد طفيفة عند زوايا عينيها، وكانت قد أزاحت الغطاء التي ارتدته عن رأسها ليظهر شعرها الأسود الطويل والذي تخللته شعيرات وقد جمعت في كعكة خلف رأسها، والثوب الطويل الفضفاض كان يظهر جسدها المعتدل وقامتها القصيرة قليلاً. لاح في عينيها السوداوين بريق فرح حين رأت قسما الفرح على وجه ابنتها التي أسرعت تسلم عليها في مرح:

-السلام عليكم يا أمي.

-وعليك السلام يا ضياء، أراك مبتهجة اليوم يا ابنتي، ترى ماذا حدث؟

قبلت رأس أمها وكف يمنها ثم قالت:

-حدثت أشياء جميلة، لذا أنا مسرورة، مسرورة جداً يا أمي.

-أسعدك الله دائماً يا ابنتي، تعالي نجلس بالغرفة لتحدث، فلقد أنهيت إعداد الغداء.

دلفنا إلى الغرفة التي كانت أصغر من الأولى مساحة، لم يكن بها سوى دولاب متوسط الحجم وعلاقي ملابس جدارية، وطاولة صغيرة اعتلتها بعض الكتب والأوراق، وحقيبة ملابس وأفرشة وبطانيات بأحد زواياها، وحصيرة سترت وجه الأرض، قالت ضياء بعد أن جلست وجلست مها إلى جانبها:

- لقد استطعت أن أعترف اليوم على كل طالبات الدفعة، في البداية ظننتُ بأن الجميع سيتجنبني لكوني غريبة عن المدينة وبسبب إصابة وجهي، لكن سحر - ما أروعها من فتاة - قالت لي بعد أن أخبرتها بسبب قدومي إلى هنا:

(مهما ظل الذهب وبريقه مُحْتَفِيَانِ عن الجميع، لابد أن يظهر ذات يوم، دوام الحال من المحال يا ضياء، أنا واثقة أن الجميع سيحبك ذات يوم مثل ما أحببتك، الحرب هي من أجبرتكَ على ترك بيتك ومدينتك التي تحبينها، أنت بالنسبة لي كأختي ولن تكوني غريبة عني أبداً) ثم بدأت تخبر الفتيات عني وتقنعن بكلامها وبدأت بصديقاتها سوسن وندى وصفاء، كنتُ خائفة حقاً من التعامل معهن، وأن يعتبروني متشردة عن... قاطعتها مها وهي تقول في حنو وتمسح على رأسها:

-بنيتي، نحن لم نختر التشرد عن بيوتنا، هي الحرب والأسياذ بأطعامهم شردوا أبناء المدينة ولم يحموهم ويدافعوا عليهم، والنازح عن مسكنه يجب أن يعامله الآخرون في مدنهم كأهلهم، لكن... ليس الجميع مقتنع بهذا، فالناس مختلفة في تفكيرها، هناك من يجد هذا فرصة لاستغلال حاجتهم أو إهانتهم... للأسف.

-معك حق، من زمرة من ذكرت شاب يدعى (طارق)، كان ينظر إليّ بسخرية، تحدث معي وكأنه يشفق عليّ، شخص مغرور، وواضح بأنه من أسرة ثرية.

-تجنبني كل ما من شأنه أن يؤثر على تفكيرك في الدراسة.

هزت رأسها وهي تقول حزم:

- نعم أُمي، لأجلك ولأجل أخي شادي الذي بذل كل جهده لألتحق بالجامعة لن أخيب ظنكم يا ذن الله.

ابتسمت وقالت:

- والآن انفضي واغتسلي لتتناول الغداء معاً، فشادي كما تعلمين لا يمكنه مشاركتنا لانشغاله بالعمل.

نهضت ضياء وخلعت حجابها الأسود وعباءتها، لتضعهما على علاقة الملابس، وتنصرف امتثالاً لأمرها التي ظلت تنظر إليها، والحزن ينهش قلبها وتحاول محو آثاره من عينيها، إلا أن جسدها خلد المأساة في قلوبهم جميعاً، وكشف أمامها مدى حجمها.

في السابق كان جسدها ممتلئ قليلاً، يضحج بالحياة؛ بشرة بيضاء، طول معتدل، وقوام متناسق جميل تلائمته كل ما تتخيره لنفسها من الثياب سواء كان فستان أو قميص أو بنطال، تطلب شراء من أبيها وأخيها اللذين لم يبخلا عليها ويدركان حسن اختيارها، ورغم حبها للزينة كأبي فتاة في مثل عمرها إلا أنها كانت تعتدل ولا تبالغ، تزين وجهها دائماً ابتسامة ساحرة تظهر غمازتين جميلتين على خديها، فتسحر بها الحياة نفسها لتبتهج أمامها وأمامهم، شعرها الأسود ستاراً من الليل تلاًّلاً وكأن النجوم قد هبطت إليه، تزينه دائماً بمشبك كريستالي تختاره بعناية، وبعد أن تسرحه تضعه وتترك أطرافه تتطاير على ظهرها، ويتمرد وفق ما يريد، كان موفور الصحة مثل جسدها.

كانت ضياء البيت ووجهه وسعادته، بل بدت كطفلة مدللة وسط عائلتها.
 أما الآن، فتلك الابتسامة قد خبت أول مرة بعد وفاة والدها قبل إنهاؤها المرحلة الثانوية، ثم
 قضت الحرب عليها؛ بل قضت على كل جسدها؛ أضعفت بنيتها، وأحرقت نصف وجهها
 الأيسر، وأكلت بعض منابت الشعر في فروة رأسها من مقدمته، وبان من قميصها الطويل ذو
 الكم القصير ندبة الحرق الممتدة من تحت الكم الأيسر إلى قرب رسغها متخذة ألوانا متعددة
 غير لون بشرتها، وبانت أيضا من ساقها وقدمها اليسرى وهي تغطي مفصل كاحلها، أما
 شعرها فرغم طوله بدا شاحبا باهتا، جمعته برباط مثلها خلف رأسها، ذابت واضمحلت كل
 البهجة التي رافقتها في زمن الطفولة والمراهقة، تقرأ في عينيها السوداوين سواد المستقبل حين
 تشرد بفكرها، أو تراها خلصة تتأمل الندبة الحمراء الكبيرة بوجهها في المرأة حين تكون
 بمفردها تتحسس تجاعيدها الظاهرة قبل الأوان وعيناها تقولان:

-من يمكنه أن يلتفت لشواء مثلك؟

ومرة رأتها تحرك مرفقها ورجلها الأيسرين بأريحية وتسمع لسانها يلهج بحمد الله أن وصلت
 إصابتها لهذا الحد، ماذا لو عجزت عن تحريك مفاصلها؟ ماذا لو أصابها العجز؟ لما تباطء
 قبل أن يأتيها الموت لينتشلها من محتتها، جاهدت لتداري آلامها بعد النزوح، لجأت لربها
 ودعته أن يساعدها، ثم تجدها تشغل نفسها بالقراءة وتصفح كتب إلكترونية، وتقوم بأعمال
 البيت كلها قبل التحاقها بالجامعة، المهم ألا تجلس دون عمل لتفكر في محتتها.

الحرب تختطف الفرح من الأبرياء بغتة، وتهبها لأكبر اللصوص، ساستها الذين لبوا نداءها
 واجتمعوا لأجلها؛ لتأجيجها وإطالة عمرها حتى يزخروا بنعيمها.

هل هنالك شيء أقسى على الزهرة من أن يُسلب روحها وشذى عبيرها؟
 هربت دموع من عيني مها وهي تقول بحزن:

- ليتنا نستطيع علاج إصابتك يا ابتي لتعودي كما كنت.

حزنها لم يكن يغيب كثيراً عن عيني ضياء، كانت تلمحه بين فينة وأخرى، رغم أنها من
 تمنحها بكلماتها ووقوفها إلى جانبها شجاعة الصمود، لمحت تلك الدمعة المتلألئة على خدها
 فاضحة آلامها عليها وحسرة قلبها، لم تعد إليها بل أكملت طريقها ومضت، لن تستطيع
 إثبات صمودها أمامها إلا بتفوقها في دراستها متحدية كل المصاعب.

الكراهية... الثقب الأسود الذي يستحوذ على القلب، ويلتهم كل ما هو جميل أمام العيون،
 فلا يبقى شيء، ثم تندفع تيارات الحقد لتؤججها وتوسع ثقبها لتستحكم بكامل الفكر
 وتحرك كامل الجسد.

طارق الذي عقد عزمه على إيذاء ضياء لم يرفع عيناه الخبيثتان عنها يوماً، ولم تبتعدا منذ أن
 وطأت قدمها أرض الكلية، ذات يوم، ومع بداية الدوام قبيل المحاضرة، وقف وحيداً بأحد
 الممرات المؤدية إلى المكتبة مسنداً ظهره إلى جدار، ينظر إلى (صلاح) وهو يقوم بتنظيف
 الأرضية بآء دلوه وممسحته بالقرب منها وعلى مسافة منه؛ عامل نظافة عجوز أحنى الزمن

ظهره وأثقل كاهله، وكأن الحياة قد أَلقت بكل أوجاعها عليه لتضمّر جسده وتقصّر قامته كثيراً، وتتعاظم طيات الجلد المهترئة على ما ظهر من جسده، رغم كل ضعف ووهن كان على استعداد ليكافح لأجل لقمة العيش، فوصلت به عاصفة الحياة ليكون في أحضان هذه الكلية ملمعاً لجدرانها وأرضياتها وأبوابها وأثاثها.

ظل ينظر إليه في ملل وهو لا يزال في مكانه، ثائب ملئ فيه، الحركة بالمر قليلة، ومعظم الطلاب توجهوا إلى القاعات لحجز مقاعد لهم. ثم تبددت نظرات الملل من عينيه مع إطلالتها من الجهة المقابلة بالمر متجهة إلى المكتبة، فهي الفترة التي اعتادت فيها التردد إليها ولا سيما لتعوض المحاضرات التي فاتتها قبل التحاقها بالكلية من خلال نقاشاتها مع سحر ومتابعتها للدروس القادمة، كان يدرك هذا الأمر جيداً بعد أن علم بكل تحركاتها، فأسرع يقترب من العجوز صلاح متظاهراً بمروره قربهِ حين كادت تقترب منه أيضاً من الجهة الثانية بعيدة، وما كاد العجوز يخطو خطوات وهو يمسح الأرضية بالمسحة، حتى فوجئ بطارق - حين مرّ قربهِ - يعثره بحذائه، فلم يستطع الاستناد إلى ممسحته المبللة والتي كانت الشيء الوحيد القريب منه والممسك به، فانزلت ووقع أرضاً خلفها موقعاً إياها والدلو القريب منه لينسكب بئائه المتسخ على الأرض، وعلى ضياء التي فوجئت لما حدث وشهقت في فرع وقد أصاب الماء قدمها اليمنى وعباءتها. ضحك رفاق طارق المتابعين للمشهد من بعيد، وبعض من كانوا بالمر بين ساخر ومتفاجئ.

أما طارق فلم يتوقف عن المشي إلا حين سمع ضجيج الدلو، فالتفت خلفه، ورفع حاجبيه وقد رسم المفاجأة على وجهه وهو يرى قطرات الماء المتسخة تقطر من العباءة السوداء وقد غُمر الجزء السفلي الأيمن منها، فالتصق بساق ضياء النحيلة، منظر وجهها المنفر ووضعها الآن أثارا الضحك في أعماقه، ها هي الآن ستكون موضع سخرية الجميع، ولن ينسى هذا الموقف المخزي لها كل من شاهده، تطلع لوجهها ليطفئ نار حقدده ويرضي غروره، فرأها متفاجئة، عيناها مشدوهتان كأنها تحاول أن تفسر ما جرى وهي تتطلع فيه تارة وفي صلاح تارة أخرى، فأحس بنشوة ظفر لا توصف، لحظات وستكون دموع الخجل والارتباك تنهمران من عينيها، إلا أنه كتم انفعالاته بقوة، وهو يشير لها ويقول لصلاح بسخرية مدعياً الشهامة:

-يا لك من قليل الذوق، قليل الاهتمام يا عم صلاح، كيف تفعل هذا؟ ألا ترى أمامك؟ لقد أفسدت عباءة الفتاة.

كان العجوز يللم آلام سقوطه، حمد الله أن عظما من عظامه الهشة ذات الستين سنة لم تكسر، وظل يشتم في أعماقه سلوك طارق المشين الذي لا يليق بطالب في المرحلة الجامعية، كتم كل آلامه حتى لا يثير مشكلة حفاظاً على مهنته، واعتدل جاثيا على ركبتيه متحاملاً على نفسه ليصلح ما أفسد، ولم يوقظه من ألمه وشروده إلا حديثه عن ضياء فنظر إليها بسرعة، وارتبك لما حصل لها، نهض، وهو يقول لها معتذراً:

-أعتذر منك يا ابنتي... لم...

لم يكمل عبارته حين لاحظ أنها لا تنظر إليه ولم تنتبه لحديثه، فقد ازدادت المفاجأة على وجهها وهي تحدق بطارق، واتجهت نحوه وقد احتقن وجهها غضباً وصفعته، وهي تقول في حزم:

- يا جرأتك ووقاحتك، يجب أن تعتذر حالاً للعم، لقد رأيتك وأنت تعثره وتتسبب في سقوطه، وتحاول أن تدفعه للاعتذار مني وتلقي اللوم عليه؟

رجته الصفعة وأطارت كل خيالات الظفر من رأسه، أصابته نوبة ذهول لتصرفها وجسارتها، فظل واجها يحقد بها متأملاً قسماً وجهها الحازمة الغاضبة ويتحسس خده المتألم... لم تدرك حقيقة نيته، ومع ذلك تجاسرت على إهانته أمام الحاضرين، وجم أصحابه الواقفون وكل من كان بالمر، بينما صاحت في غضب:

- كن مغروراً بثرائك قدر ما تشاء؛ لكن هذا لا يسمح لك بأن تهين من هم أكبر منك وتقلل من احترام الآخرين، هيا اعتذر.

قال العجوز مهدئاً وهو يقترب منها:

- لم يحدث شيء يا ابنتي، المهم أنت، فعباءتك...
فقالت وهي تلتف إليه:

- لا تقلق يا عم، ففي الحياة عوارض كثيرة عليك تجاوزها هذه أبسطها... لا تقلق علي.
- لكن هذا سيؤثر على منظرِك بين زملائك.

ابتسمت وقالت:

قلت لك لا تقلق.



ازداد طارق ذهولاً من أقوالها، فتمتم في نفسه:

-كان الأولى بها أن تجري وتعود إلى بيتها لتبدل ثيابها وتهتم بمظهرها قبل أن تكون سخرية زملائها، لكن... أكبر همها هو ما جرى بهذا العجوز! أي فتاة قد تفكر في نفسها ومظهرها في هذا الوضع، إن تفكيرها غريب حقاً!

شرد قليلاً حين تذكر كل من رأى ما حدث، فعقد حاجبيه واتقد مرجل غضب في أعماقه؛ لقد أهانته أمامهم، فحز على أسنانه، وزفر بقوة وهو يتمتم غاضباً:

-لن أغفر لها، لن أسامحها، كيف تجرؤ؟ يدها الناعمة تلك تحمل قسوة فظيعة، من تظن نفسها تلك المزوجة الوضيعة؟

لحظتها التفت إليها مسرعاً، فوجد سحر تسحبها من المكان، وتبتعد بها ونظراتها الحازمة الصامته لا تزال تقذف نحوه، بينما ساعد بعض الطلاب صلاح على جمع أدواته وتنظيف المكان، شكرهم وعاد لعمله.

أما طارق فقد أراد أن يلحق بها ليرد عليها؛ لكنه رأى أنظار المارين عالقة به، بين اتهام وتصديق لما قالته، واحتقار على إهانته لرجل عجوز بسيط، وسخرية لما فعلته به، ارتبك وغادر المكان مسرعاً... حائراً... لا يدري ماذا يفعل ليعدل بوصلة المؤامرة التي انقلبت ضده.

الفصل التاسع

بين أمل وألم

(لا أستطيع تصديق ما حدث، كيف يمكن لها أن تجرؤ على ذلك؟)

تمتم لنفسه بذلك ساخطاً حين كان بصحبة رفاقه بمقصف الكلية بالقسم الخاص بالطلاب، وقد اجتمعوا حول طاولة واتخذ كل منهم مقعده؛ جلس ناصر عن يمينه، وصبري عن يساره، ومحمود أمامه، ووليد بين ناصر ومحمود، ثم طلبوا بعض العصائر والشطائر المختلفة وبدأوا يأكلون، إلا هو، ارتشف رشفة صغيرة من عصير المانجو الذي طلبه ثم شرد بفكره وهو يضع يده أسفل ذقنه الحليق، وظل ساهماً واجماً يفكر فيما حدث؛ عقله يسترجع الأحداث، وعيناه البنيتان شاردتان تنظران للبعيد كأنهما الموقف هناك وأحداثه لا تزال تجري أمامه، وحرارة الصفعة أكدت له أن ما تم لم يكن وهماً أو تخيلاً.

عاد يقول في نفسه في حدة وهو يتذكر ملامح وجهها:

- تلك المزدوجة... رغم تشوه وجهها كانت عيناها ذات قوة غريبة، كل فتاة قد ترتبك إن وقعت في موقف محرج أو تحدث أحدٌ بحديث يمس جمالها أو يفسده، مع أنها لا تملك أي شيء منه، لم تفكر أبداً في نفسها... لكن... لحظة...

هدأ قليلاً وهو يطبع قسماص النصف الأيمن من وجهها على نصفه الأيسر، معطياً بخياله كل تفاصيله؛ البشرة السمراء المزهرة في ربيع الشباب، وعينها الواسعة المتقدة حدة وفطنة، تلك الصدمة التي تلقاها لحظة الصفعة، والجمود الذي أصابه سمحا لعينييه بأن ينتقلا بين

التضاريس المتناقضة في وجه واحد، الجمال والذمامة، بالإضافة إلى جسارة لم يشهد لها مثيلاً، عاد يتمتم:

-لو كان ذلك النصف المشوه مثل السليم لربما...

قطع جبل أفكاره حين سمع ناصر يقول في استنكار بعد أن أنهى شطيرته:

-لا أدري لم لم يرد طارق على تلك المتعجرفة وظل صامتاً كالأحمق يحدق بها؟ أشعر بأنه خاف منها.

تقافز الغضب على وجهه، فنهض من مكانه مسرعاً مبعداً كرسيه في عنف، وجذبه من تلايبيه بقوة، وهو يقول في سخط:

-أنا أخاف من فتاة!! كيف تجرؤ على قول هذا يا ناصر؟

لفت بصراخه وتصرفه كل من حوله من الطلاب، لم يجبه ناصر بل أمسك قبضته واتجه بأنظاره صوب من حوله ليلفت انتباهه ويدفعه لتركه؛ لكنه لم يفعل، بل شد قبضته حتى ظن بأن سترته ستنزق، فرد عليه في ارتباك:

-هذا... هذا ما بدا أمام الجميع يا طارق ولا أكذب عليك.

عقد محمود حاجبيه، وقال في حدة دون أن ينظر إليها وهو يحرك العصير بيده اليمنى بواسطة المصاصة:

-لقد جعلت نفسك موضع سخرية أمام الجميع بدلاً من أن توقع بها، أنت سبب ذلك فلا تلم أحداً.

التفت إليه وهو يقول مزجراً:

-ماذا تقول؟!

جن جنونه، وأسرع يدفع بناصر ويلقي به إلى كرسيه بقوة لدرجة أنه كاد يطيح بهما معاً، ثم اتجه إلى محمود والشرر يتطاير من عينيه، فنهض صبري وأمسك به من كتفيه من الأمام محاولاً منعه، بينما جذبه وليد بذراعه من الخلف، وهو يقول مهدئاً:

-اهدأ يا طارق، وجد طريقة تستعيد بها هيبتك.

حاول مقاومتهم، فعانداه وقاومه، بينما ظلت نظرات اللا مبالاة تستطع من عيني محمود وهو يتناول عصيره بهدوء، ثم قال حين رأى مقاومة رفيقيه له:

-استمع لصوت العقل قبل أن تغضب، فكر، لن يفيدك هذا بعد أن وقعت الفأس بالرأس.

زادت الكلمات من سخطه إلا أنه حز على أسنانه، وكور قبضته اليمنى للحظات ساعياً لتهدئة غضبه، ثم أطلق زفرة قوية ودفعهما لبيتعد عن جمعتهما خارجاً من المقصف وهو يقول لنفسه وقد التمع وهج الشر في عينيه:

-سأجعلها تدفع الثمن، ستندم على هذه الإهانة طوال حياتها.

لن يستطيع شيء أن يشني العزيمة في طريق الكفاح إلا أعماق النفس. إن تعثرت وانهزمت فالهزيمة لا بد واقعة، وإن حمل صاحبها ألوية النضال ومضى فلا بد أن يكون منتصراً. الحياة رغم ما تبدو عليها من بساطة أحياناً إلا أنها ميدانٌ لمعارك شتى محتملة، وكلُّ يقاتل على طريقته الخاصة.

ورغم كل معاناتها ووضعهم المادي البسيط، إلا أنها خططت لدرجتها جيداً وعزمت على ألا تحيد عنه مهما كانت الظروف.

في المساء، تتركها مها لتجلس في غرفة الضيوف حتى تختلي بنفسها ومذكراتها وتتبه لدروسها بعد أن تدعو لها بالتوفيق، تسر بدعاء والدتها، ثم تفتش الأرض وتشعر في عملها فترفع صوتها حيناً وتكتب حيناً آخر لتثبت المعلومات، حتى إذا ما مرت ساعة تنتبه بأن المحاضرات قد تبعثت أمامها بعشوائية، تبسم وتجمعها، ثم تستأنف مذاكرتها. وفي تلك الأثناء وبينما هي كذلك، سمعت طرقاتاً على الباب، فقالت:

-أمي، يمكنك الدخول، الغرفة غرفت.

لكن من فتح الباب هو أخوها شادي.

شاب في أواخر العشرينيات، أقبل عليها بقامته الطويلة وهو يرتدي بدلة زرقاء اللون خاصة بعمال الورش اتسخت ببقع الزيت الأسود وبقايا مخلفات السيارات، كان هذا ناتج عن طبيعة عمله في صيانتها، ورسم على وجهه الأسمر -الذي لم يسلم من البقع السوداء هو الآخر - ابتسامة عريضة حتى بدت أسنانه البيضاء تلمع كلالئ وسط سمرة بشرته وسواد

شعر رأسه وشاربه القصيرين ولحيته الخفيفة التي امتدت على طول ذقنه، ملاحه الهادئة تعكس اتزان فكره.

ابتسمت له وقالت:

- أهلاً شادي، ظننتك أُمي.

دخل الغرفة وهو يقول :

- أخرتُ أُمي قليلاً لتخيط سترتي، كيف هي دراستك؟

- على خير ما يرام والحمد لله.

ابتسم لها، وقال في حزم:

- ابذلي جهدك ولا تقلقي على شيء، وسنصبر حتى تتحسن الظروف معنا ونتمكن من

الانتقال لسكنٍ أفضل وربما نستطيع العودة إلى مدينتنا، من يدري.

- الحمد لله كثيراً على نعمة الحياة والعافية، بالتأكيد سنصبر يا أخي ولن يدوم حالنا هكذا،

وسأبذل جهدي في دراستي، لن يضيع كدك وتعبك لأجلنا بإذن الله.

اتسعت ابتسامته من كلماتها ودنا أكثر منها وجلس لجوارها وهو يتأمل أوراق محاضراتها

وبفضوله للعلم أخذ يقرأ في أحدها، فسألته:

- كيف تسير أمورك في الورشة؟ لقد تأخرت في العودة اليوم.

نظر إليها وهو يقول:

-على خير ما يرام بفضل الله، مالك الورشة مسرور من عملي وقريباً سيجعلني مشرفاً على عماله، لا تنسي بأن شادي خريج هندسة ميكانيكية بامتياز.
قالت في نبرة خالطها الأسى:

-وكيف أنسى هذا؟ أنت متميز بشهادة كل المعلمين الذين كانوا يتصلون بأبي رحمه الله، وأيضاً بشهادتك ودرجاتك العالية، ولولا الحرب لكنت الآن معيداً بجامعة عدن العريقة، للأسف، حتى الجامعة لم تسلم من أيدي أولئك المتمردين.
ازداد الحزن على وجهها وهي تقول ذلك، بينما زفر في ضيق وهو يقول في سخط:
-لعن الله الحرب ومن يوقظها.

ثم سألته محاولة تغيير محور الحديث:

-وهل ستذهب الآن إلى السوق المركزي؟
هز رأسه.

-نعم، سيبدأ عملي بعد ساعة.

قالت في لهجة إشفاق:

-وفكك الله يا أخي وأعانك، دوام بالورشة في الصباح، ثم بالسوق حتى الثانية صباحاً، هذا مرهق جداً.

مسح على رأسها في حنو، وهو يقول مبتسماً:

-إن كان لأجل أهلي فكل شيء يهون، اجتهدني فقط ولا تقلقي عليّ، ونجاحك هو أضمن شيء يمكن أن تقدميه لي، تمنياتي لك بالتوفيق يا أختي.

سرت بتشجيعه فابتسمت وهي تقول في ثقة:

-سأقدم لك نجاحي إن شاء الله، أعدك بذلك.

أفرحته كلماتها؛ لكن الفرحه انكسرت في أعماقه حين اقترب من وجهها كثيراً، وعينت عيناه ندبة الحرق الكبيرة المنتشرة على يسراه، عاين عن قرب تضاريس الندبة العميقة، وثناياتها المنكمشة التي نتجت عن حرق بالغ العمق لم ترحمها النيران بل زحفت بقوة والتهمت جلدتها بقسوة بكل كادت تصل إلى نخاع العظام الرقيقة، لولا أنه تمكن من إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ثم شاركت الندبة الحرق لاحقاً، فكادت تغلق عينها نهائياً، ولولا أنها أشفقت عليها وأتاحت للجفنين الانفراج والانغلاق قليلاً، تمثلت ذكريات ما حدث أمامه وكادت دموعه تهرب من عينيه شفقة على محل بها، ولعجزه عن تصحيح هذا الوضع، فأسرع يهرب من أمام عينيه ليصعد للأعلى ويقبل جبينها، إلا أن عاصفة الألم خذلتها، فانهمرت دموعه على خديه دون أن تنتبه له إلا بعد أن أحست بها تندي خديها فجأة، رفعت رأسها لترى دموعه التي كانت تتساقط على وجهها، وترى عينيه الحزيتين، سألتها في قلق:

-ما بك يا أخي؟ لم تبكي؟

لم يستطع أن يكبح جماح حزنه، فقال بصوت متحشرج وهو يتحسس خدها المحترق بيمنه:

-لأنني... لم أستطع أن آخذك إلى بلد آخر لتجري عملية...

قاطعته وهي تمسك بيده في لطف:

-أنا بخير، ولست حزينة لذلك، يكفيني أنك سندنا في هذه الحياة بعد والدي رحمه الله،
عندما أنظر للملامح وجهك الهادئة أطمئن، أشعر بأن الله عوضني بسند كبير، حفظك الله يا
أخي، أرجوك، امسح دموعك فلا أحتمل رؤيتك حزينا هكذا.

امثل لأمرها ومسح دموعه، ثم قالت:

-واثقة أن الغد سيكون أجمل بإذن الله، فابتسم دائماً.

-سأفعل.

مسح الحزن عن وجهه وابتسم لأجلها، ثم غادر الغرفة بعد أن دعا الشقيقان لكل منهما
بالخير، وكلهما أمل بأن ما فقدوه و حزنوا لأجله لا بد أن يعوض، مهما طال الزمن.

مع ضيق الحياة تلتجىء بعض الأرواح لفسحة الكتاب وتغوص في عالمه بعيداً عن آلام
الواقع، الكتاب هو أنيس القلب وعلى إثر تعليقاته تتكشف معالم المستقبل، وتتجلى دروبه،
ويزيد الشغف عندما يختار الإنسان فسحته التي يحبها.

تخصص (الهندسة الكيميائية) لم تختاره ضياء عبثاً؛ بل رأت فيه مستقبلاً سيكون جميلاً لها،
تخصص طلابه معدودون بالجمهورية ولا شك بأنها بعد أن تتخرج منه بتفوق وامتنياز سيتم
قبولها في جامعة حضر موت أو في أي شركة أو مصنع للمواد الكيميائية ومستحضراتها،
مستقبل باهر ينتظرها عبره، وكل مواده العلمية تثير فضولها أهمها مادة الكيمياء بكل

تفاصيلها، تغوص في غمار هذا الاختصاص باحثه بكل جدٍ عما فاتها منه ومستقبله بكل حماس لما هو قادم.

خلال فترة الاستراحة، وعلى عادتها برفقة سحر تجلسان في القاعة بالمدرج الثاني وعن يمين القاعة، تتناقشان في بعض المحاضرات الفائتة عليها، وقد خلا المكان إلا منهما، ثم دخل طارق ورفاقه ومروا بالقرب منها حين سمعته يقول لناصر في زهو:

-هل سبق لك أن مررت قرب العمارات التي يملكها والذي قرب مستشفى المكلا؟

-تقصد الموجودة بحي السلام؟

-نعم، منها ما بناها والذي ومنها ما اشتراها من ورثة الأجداد، بداية كان يأوي في بعضٍ منها المحتاجين بإيجار رمزي ويساعدهم لإيجاد فرص عمل ببعض المحلات أو أي مكان مناسب لهم، لكن ما أن تتحسن أمورهم حتى يتهربوا من دفع ما عليهم والابتعاد عن المدينة دون كلمة شكر أو عرفان.

رد محمود في ضيق:

-هذا جحود.

حرك طارق رأسه وهو ينظر لضياء من طرف عين، ويقول بنفس الضيق رافعاً صوته:

-أما اليوم، فقد حولها أبي للنازحين من عدن بعد أن شردتهم الحرب وهجوم المتمردين عليها، وبدل الشكر يتذمرون من المسكن، معتقدين بأنه سيمنحهم فندق سبعة نجوم.

قال صبري في ضيق مماثل:

- لا أستغرب ذلك يا صديقي، فالمتشردون عادة ما يكونون هكذا، يطلبون مزيداً من العطاء، مزيداً من الصدقات لتتكسد جيوبهم يا أخي، والدك رجل طيب وكريم؛ لكن يجب عليه أن يكون حذراً من هؤلاء، أخشى حدوث شيء أسوأ من مجرد طلبات ما داموا على هذا النحو. امتنع وجه ضياء مع حديثهم، وبدا عليها الألم، في حين بدا الضيق على وجه سحر، إلى أن قال طارق ممعناً في إيدائها:

-نجوا من الموت ليديقونا ويلات معاناتهم؟! كم مرة طلبتُ منه أن يبيع العمارات ويرتاح من أذية المتسولين والغرباء، والآن... المتشردين والطفيلين على مدينتنا، أو يؤجرها لأناس تستحق ذلك، دائماً يجب ما يسبب الصداع، سامحه الله وهداه.

ازداد الألم بقلبيها من كلماته، فأعرضت بوجهها عنه وعن رفاقه محاولة إخفاء حزنها، بينما صاحت سحر بهم وهي تقول في غضب:

-أنتم، هلاً انصرفتم من هنا؟

التفت إليها وقال في لا مبالاة:

-ولم؟ القاعة ليست حكرًا لكما.

ازداد سخطها وهي ترد عليه:

-لا أدري أي قلب تحمل في صدرك؟ أولئك الذين تنعتهم بالمتشردين لم يختاروا مغادرة مساكنهم، إنها الحرب والتي أسأل الله أن يجنب مدينتنا شرورها، يكفيننا ما نحن به، نحن في

بلد واحد ويجب أن نساعد أهلنا وقت شدتهم، ليس من أخلاقنا أبداً ولا أخلاق أهل
حضر موت ألا نساعد أحداً، هل تعي هذا؟
رد عليها في تهكم:

-لقد قلتها، يكفيني ما نحن فيه، إذن لا تنسي بأن مدينتنا أيضاً تعاني من ويلات الحرب
وسطوة أولئك العصبة، ومنهم الآن، تحملناهم رغماً معاناتنا ولم نقل شيئاً، حتى تحررت
أرضهم ورحل من رحل وبقي من بقي يترفه بالعيش على حسابنا ويقاسمنا أرضنا ولقمة
عيشنا، كل هذا تجاوزناه، ثم إني لم أقل ألا نساعدهم؛ بل أن أبي ساعدهم ووقف مع
الكثيرين منهم، والأولى بهم الآن أن يرحلوا ويشعروا ببعض معاناتنا؛ لكنهم لا يفهمون
ذلك، والمشكلة الأكبر من هذا هي تكبرهم وجحودهم لما قدمه أبي وغيره لهم، ويتحدثون
عنا بالسوء بدل من الشكر والعرفان والامتنان، إنهم أناس لا يعتبرون، لقد رأوا الموت ألواناً
ومع ذلك...
-اصمت.

صرخت ضياء في وجهه مقاطعة إياه، وهي تقول في ألم:
-من أنت لتدرك ما رأينا وواجهنا أيها المغرور؟ لو كنت تدرك ذلك لما نعت من ترك بيته
قسراً بـ(المتشرد)؛ بل هيئت لمساعدته دون كلمة شكر، ربما تقابل من يتذمر من النقص،
فالناس ليسوا متشابهين؛ لكن الأهم من هذا كله هو ألا تفقد عزيزاً أو عضواً من جسدك،

يظهر لي بأن والدك أكثر إحساساً منك بمعاناة أبناء بلده، أما أنت، فلا تريد لهم إلا أن يشكروا ويمتنوا.

ابتسم وقد أعجبه ما بدا من ألم على وجهها، رد عليها في تكبر واضح:

-هه، هذا أقل ما يمكن تقديمه، ألم يقبل أبي بإيوائكم دون مقابل لمدة شهر ريثما تجدون الأعمال المناسبة أو تعودون لمدينتكم؟! وقدم لكم المساعدة مع بعض رفاقه من التجار في ... ازداد الوجد بقلبها ووجدت بأن الاستمرار في الحديث لن يثمر بشيء وهذا الوحش يتفنن في تسليط لسانه ممعناً في إيذائها، خلقت ألف شمعة للأمل، أوقتها لتضيء دربها وتمضي بنورها نحو الحياة محاولة تناسي كل ما كان، فإذا به يحاول إطفاءها وسحقها بقسوة، وإضرار نيران الألم والحسرة مكانها، فتدمر كل قلاع الصمود بأعمالها.

حملت حقيبتها ونهضت لتخرج من القاعة دون قول كلمة، غير منتظرة لتتمة حديثه وهي تقاوم ما بها، فقطع عبارته ثم أردف ساخراً:

-مالأمر آنسة ضياء؟ ألم يعجبك ما قلت؟

لم تكثر له وغادرت المكان، فأسرعت سحر تلحق بها، بينما عاد ليقول:

-آنسة سحر، قولي لها ألا تنزعج كثيراً، فهذه الحقيقة ويجب أن تتقبلها.



عقدت حاجيها في غضب، ومضت في طريقها، وجدتها قد دخلت مصلى الطالبات بمسجد الجامعة الذي كان خالياً، وانكملت في زاوية منها دون أن تستطيع حبس دموعها طويلاً، فانهمرت على خديها في ألم وحرقة، رفعت سحر نقابها وجلست إلى جوارها وهي تربت على كتفها، وتقول مواسية إياها:

-أرجوك عزيزتي لا تحزني هكذا، إنه شخص نزق لا يجيد كلاماً، لا هم له إلا نفسه منذ أول يوم عرفته هنا.

أجهشت ببكاء حزين وهي تدفن وجهها بين يديها، احتضنتها رفيقتها محاولة تهدئتها، بينما قالت بنبرة خنقتها العبرات:

-اللهم لا راد لقضائك... اللهم لا راد لقضائك..

كادت سحر تبكي لبكائها وحزنها، قاومت عبراتها لأجل أن تساندها، شاعرة بالآلم الذي يعتصر قلباً ذاق من ويلات الحرب ما ذاق، ورأت بعينيها مأساة مدينة بأسرها؛ بل أنها خُلدت إلى الأبد في جسدها.

تمت ضياء بدخولها للكلية أن تستطيع نسيانها والمضي قدماً في دربها؛ لكن الدرب يصبح وعراً أحياناً ومطباته لا تلبث أن تظهر فجأة معكرة صفو الحياة.

الفصل العاشر

اجتثاث

الثاني من أبريل ٢٠١٥م / المعلا

لم يعد هناك أي فسحة لاستعادة الذكريات، كل ما أتاها خلال أيام قليلة كان يحاول اختطافها منها، اختطاف كل طيف لها في فكرها، أثرها، بهجتها؛ بل حاول أن يختطف كل ما هو جميل حولها.

وابل من الرصاص صباح مساء لا يهدأ ولا يكل، ينهش المباني، ويسلب أعلى ما في الأجساد، القذائف والانفجارات متناثرة هنا وهناك تهز الأرض وتذك كل ما طالته، ودويها يصم الأذان ويغطي على كل الأصوات، صيحات المقاتلين وتكبيرات الجهاد في المساجد تستحث الشباب وتستنهض الرجال للقتال، وصرخات الأطفال والنساء المذعورة والمتألمة وهم في بيوتهم أو يعدون في الشوارع هارين حين تدوي أصوات الرعب، يحاولون الاحتباء بأي شيء والمضي نحو مجهول قد يحميهم من معلوم يحاول قتلهم.

كل ذلك يصلها وهي في بيتها وبين جدران غرفتها ترتجي الأمان، تحاول الصمود محتملة الرعب وانقطاعات الكهرباء والخدمات التي بدأت تنهار تدريجياً غير راغبة في التخلي عن أرضها، علّ هذا ينجلي وينتهي سريعا؛ لكنه عاندها كما عاند الجميع، زاحم الدوي والأزيز حتى فكرها وهي تسترق بضع دقائق لتلقي نظرة وداع على مملكتها الصغيرة؛ جدران غرفتها الجميلة الواسعة التي اختارت كل شيء فيها بذوقها الخاص وأغدقت عليها بعنايتها تنادي

خفقات قلبها كأنها ترتجئها البقاء؛ جذرانٌ طغى عليها لون وردي فاقع ونقوش زهور زيتتها بألوانها الأبيض والأصفر هبت منها نسائم ربيع الطفولة وباكورة الشباب، وحوّت دفء العائلة وأحاديث قرياتها وصديقاتها وضحكاتهن تعلو في أذنيها وقد احتفظت زوايا الغرفة بأصدائها، ساعة حائط بيضاء أخذ عقربها الدؤوب يدق ليزعجها ويحصى ثواني الوداع، نافذتان صغيرتان مصنوعتان من الألمونيوم وذات الأبواب الزجاجية السوداء اللتان لم تخفيا عنها معالم الشارع والمنازل الواقعة خلف منزلها، وأسدل عليهما ستائرهما الوردية ذات القماش اللّماع، كانتا قبالة الباب مباشرة، وسجادة كبيرة توسّطت الغرفة ذات زهور متعددة الألوان وكأنها حديقة جميلة تراءى لها وهي تتأمل منظر رفيقاتها ومشاكستهن وعبثهن. سريرها الخشبي موضوع عن يمين الغرفة وعليه فراشها الوثير وغطاءها وشرشفها الوردية أيضاً، وعند أقدامه كرسي ومكتب خشبي موضوع عليه كتب مختلفة منها ما أهدها إياها والدها الذي سُدع بشغفها في طلب العلم، فيحثها على القراءة والاطلاع ويزور غرفتها ليطمئن عليها وعلى سير دراستها بعد إنهاء عمله في مدرسة حكومية -إذ كان يعمل مدرساً- أو ليناقشها مساء كل ليلة في أي كتاب حين ترغب في ذلك أو تطلب مساعدته، ظل معها في هذا الدرب حتى نالت الثانوية؛ لكن المنية اختطفه ولم تمهله حتى يراها وهي تدخل أبواب الجامعة. وعن يسار الغرفة خزانة الملابس البيضاء حوت ملابسها الأنيقة وفساتينها وعباءاتها التي اختارتها بعناية، وقربها أصيص زهور تسيقها كل يوم. هذه جنتها الصغيرة، وكل شيء جميل بحياتها موجود بها، فكيف لها أن تناساه أو تتركه خلفها؟

طافت الذكريات بها وهي تتأمل كل زاوية من غرفتها.
الآن، لم يعد في إمكانها ذلك، صار السعي للتمسك بالحياة أهم من كل شيء.
لم يكن في وسعها أخذ كل شيء حتى كل الذكريات، جمعت بعض أوراقها المهمة في حقيبة يدها، وبعضاً من كتبها وملابسها لتبلي حاجاتها فقط في حقيبة متوسطة، ثم ارتدت عباءتها ببطء واقتربت من المرأة المعلقة بالجدار قرب خزانها لتعدل هندامها، وقفت أمامها، تأملت انعكاسة وجهها وجزء الغرفة خلفها وهي تلف شعرها في كعكة كبيرة خلف رأسها، طفئ الحزن عليها وكأنها تلقي بنظرة أخيرة على المرأة وعلى وجهها في هذا المكان، طفر الدمع في عينيها، وحين وضعت الحجاب على رأسها تدرجت الدموع على خديها، وأفسدت تيارات الحزن ملامح وجهها الأبيض الجميل.
لا تزال تعيد شريط الذكريات بفكرها، ولم تتوقف.
إنها الليلة الأخيرة لها هنا، كانت تأمل أن يقف الزمن ولا يتحرك أبداً، أو أن تنشق الأرض وتبتلع الغزاة، ما أصعبها من لحظة حين تشعر النبتة بأنها تنتزع من أرضها انتزاعاً وتجتث اجتثاثاً من جذورها الضاربة في الأرض عميقاً، ورغم ذلك تظل تتشبث بكل ذرة في أعماق بقعتها، فلا تكون الأرض مجرد انتماء لها وحسب؛ بل روحٌ تموت بها بعد أن تفارقها، وتفقد هويتها في أرضٍ غيرها، وإن كتب لها حياة، فكيف ستكون بعد هذا الاجتثاث؟
أكملت هندامها وارتمت على كرسيها وعقدت ذراعيها على المكتب ثم ألقت برأسها عليها منتحبة، أجهشت ببكاء مرير، لا تريد الرحيل، الموت عندها أهون من أن تمضي في رحلة غير

واضحة النهاية أو المعالم، المستقبل مجهول خارج أرضها، قاومت كل رعب عاشته طوال تلك الأيام الماضية؛ لكنها لم تستطع ثني شادي عن قراره بالرحيل.

لم تتوقف عن البكاء وهي تتذكره ملامح وجهه صباح اليوم حين عاد إليهم من جبهات المقاومة وأخبرهما بقراره.

فوجئت هي ومها بمقدمه بعد مرور بضعة أيام فقط على رحيله، كانت وقتها بالمطبخ تعد طعام الفطور، بينما كانت مها في غرفتها، خرجتا من مكانهما على الفور في استقباله والقلق عليه مرتسم على وجهيهما.

وجه مكفهر، مغبر، ولحية قد استطالت، وشعر أشعث، بدا مع الغبرة التي ألقت بحملها على قميصه وعمامته وفوطته - كالكهل المقبل على أبواب الشيخوخة، أو ربما... كالدفان، لولا بندقيته التي كان يحملها على ظهره، وسترة الذخيرة التي ظلت بعض جيوبها محتفظة بطلقاتها التي نبهتها بأنه عائد من المقاومة.

اضطربت قليلاً، لم تره من قبل بهذا المنظر حين رحل وودعها، وقتها كان يحمل البندقية وحسب، منحه إياها زميله دراسته (رضوان) حين عقدا عزمهما على الانضمام للمقاومين ودحر جحافل المتمردين الذين بانت أطماعهم منذ استيلاءهم على صنعاء، ثم هجومهم على مطار المحافظة في التاسع عشر من مارس الماضي، واستيلاءهم عليه وعلى معسكري خور مكسر لتتوالى هجماتهم وتكون المدينة بداية للزحف في أرجاء المحافظة، فما كان من رجال

عدن إلا النهوض لتصدي لهم وإعلان المقاومة ليستجيب لهم الكثيرون، وكان شادي واحداً منهم.

وكل ما عرفناه مما جرى هو أن المطار تم استعادته بعد أربعة أيام من سقوطه بدعم من طيران عربي، وفشل رجال المقاومة في استئصالهم من خور مكسور لتظل ميدان الصراع قاس وشرس، وسمعتنا عن اشتباكات أخرى في كريتر والتواهي، وهجمات همجية على الموانئ دون أن تمكنهم المقاومة من السيطرة عليها، هجماتهم المبعثرة حيناً، والمكثفة حين آخر أدت إلى ولادة مقاومين بكل مدينة، وبالمثل نزوح الكثيرين إلى مدنٍ أخرى خارج نطاق الصراع، ومنهم من غادر عدن كلها، لم يكن شادي يتصل بهما إلا ليطمئنهما عليه وحسب دون إسهاب، ومع تقطع الكهرباء الكثيرة والانترنت كانتا تسمعان الأخبار بشكل مفرق ومن الناس، ثم وصل مسامعهما أصوات الانفجارات في (الدكة) شرق المعلا اعتاداً سماعه منذ ثلاثة أيام، فهل كان شادي يقاتل في الدكة حتى عاد إليهما؟

وحين رآناه استوقفهما الدهول للحظة ثم أسرعتا نحوه لتطمئنا عليه، سلمَّ عليهما بصوت مبسوح مجهد وهو يضع سلاحه من كتفه إلى قرب الباب، عيناه الواهنتين تحكيان لهما مصاعب عاشها وكأنها دهور طويلة، وليست أياماً قلائل.

الحروب أداة تسارع الزمن توصل الأشياء التي تطالها نحو النهاية، تقلص العمر، وتبلغ ضحاياها إلى أرذله قبل أوانه.

تأملت مها وجهه وما ظهر من جسده بعمق في قلق بالغ، تحاول أن تكشف ما إذا كان قد أصيب، أو ألمَّ به مرض لنمط حياة جديدة لم يألّفها في الجبهة فدفعه للقدوم، تأملت ملياً حركاته وسكناته وهي ترد السلام عليه، فرأت طرف لصاقة طبية على الجزء الأيمن من جبينه تظهر من تحت عمامته، كادت تمد يدها إليها لو أن سبقها وقبّل رأسها، فخرجت عن صمتها حين أعجزها القلق:

-بني، ما بك؟ لم عدت؟ هل أنت بخير؟ هل الجرح في جبهتك عميق؟
رد عليها بهدوء:

-أنا بخير لا تقلقي... لكن...

عدل نبرته إلى الحزم وهو يقول:
-لنرحل.

دُهِشتا، فقالت:

-ألم تقل أن نبقي حتى تدحر المقاومة الغزاة؟

ركن للصمت مجدداً كأنها خنقه سؤالها، ثم قال بنفس النبرة:

-أمي، لنرحل هذا المساء، لن يكون هنا أي أمان بعد الآن.
صاحت ضياء في عصبية:

-لم؟ ماذا حدث؟

-لنرحل وحسب، استعدا.

-لم؟ أجبنني.

قال في غضب:

-قلت سنرحل وكفا يا ضياء.

ربت مها بيده على خده، وقالت متلطفة مبسمة:

-أنت تعب يا ولدي، اذهب واغتسل واسترح، وبعدها ستتحدث في شأن الرحيل، أنا أعلم

أنك لن ترحل إلا بعد أن تحقق هدفك مع رفاقك.

أبعد يدها برفق، وقال بلهجة خالطتها عصبية حاول إخمادها بعنف:

-سنرحل يا أمي، ولا مجال للنقاش أبداً.

عادت ضياء ترتجيه وقد دمعت عيناها وهي تقول:

-لا يا أخي، سنبقى أرجوك، حتى ولو ...

قال في حدة:

-هذا قراري ويجب أن تمتثل له.

قالت مها في دهشة:

-شادي، ما الأمر؟

-استعدا.

ابتعد عنهما واتجه نحو غرفته بخطوات ثقيلة وكأنه يجر قدميه جراً، وتركهما وفكرهما يتخبط

في مستنقع الحيرة؛

تُرى ماذا كان يحمل في أعماق نفسه؟ هل أعلنت المقاومة فشلها وخاب أمله في القتال؟ هل أصابه اليأس بعد ما رأى قوة خصمهم وعناده؟ هل استسلم رفاقه للمتمردين بعد الحصار على خور مكسر رغم نجاحهم في استعادة المطار، وبالتالي ستسقط كل مدن عدن في أيديهم؟ هل لوصولهم على مشارف المدينة سبباً في قراره بالرحيل؟ هل هذا يعني بأن المعلأ على وشك السقوط أيضاً؟

لم يكن ببالهما أية إجابة ولا معرفة كافية عما يحدث؛ لكن شيء واحد فقط كان أكيداً، أمرٌ جلل كبير على وشك الوقوع.

تفلفت منها حبال الذكرى حين سمعت صوت باب غرفتها يُفتح بسرعة ويلحقه صوته، وهو يقول في حزم:

-هيا ضياء، لنرحل، أين...

لم يكمل كلمته حين رأى حالتها، كتم حزنه هو الآخر وهو يتذكر بكاءها منذ أن أبلغها بعزمه على الرحيل.

حين تناول الغداء معها لم يخبرها إلا أن المعارك تشتد رحاها ولا أحد يدري إلى أين ستمتد أو تستمر أو متى ستنتهي، قالت له:

-هؤلاء ليسوا بجيش ولا نظام، إنهم مجرد جماعة وسيرحلون.

رد عليها في عصبية:

-نعم هم جماعة، لكن هل تعلمين بأن النظام السابق هو من يدعمهم لتسقط العاصمة في ظرف أيام قليلة؟ وهامهم الآن يحاولون الاستيلاء على مدينتنا لولا رجال المقاومة الذين سعوا لدرهم وعرقلة تقدمهم، هؤلاء لا يميزون بين بشر أو حجر، كل شيء يحاولون قتله وطمسه ومحوه عن وجه الأرض.

ردت في انفعال:

-وهل تركت صفوف المقاومة التي كنت متحمس للانضمام إليها، وأتيت إلينا لتقول لنا هذا الكلام وتقرر الرحيل والهرب من أمامهم حتى تسقط المدينة في أيديهم؟! تطاير الشرر من عينيه وصاح غاضباً:

-أتقصدين بأني جبان؟

-وماذا تسمي تصرفك هذا؟ تريد منا أن نهبهم أرضنا بتخليك عن رفاقك؟ تدخلت مها:

-اهدأي، ضياء، أنا واثقة أن شادي ما كان ليتخذ هذا القرار إلا لأجلنا نحن، وهو ليس جباناً.

قالت ضياء وهي تبكي:

-لكني... لا أريد الرحيل.

قال في حدة:

-سنرحل يا ضياء وانتهى، أتمنى أن تكفي عن ولولتك هذه.

أنهى حديثه بهذا وتركها لأمه حتى تهدئها وتقنعها بالأمر وغادر البيت .
تركها هذه المرة أيضاً تفرغ شحناات حزنها رغم إشفافه عليها في أعماقه، علّ هذا يهون عليها
وطأة الرحيل قليلاً؛ لكن الوقت لا يتسع لشيء، سار نحو حقيبتها الموضوعتين على سريرها
ليمسك بهما من علاقتهما ويحملهما، ثم اقترب منها وربت على كتفها وهو يقول بلطف محاولاً
كتمان حزنه هو الآخر:

-أختي، هجوم المتمردين لن يميز بين أحد ولن يتوقف حتى يبيدنا، علينا الرحيل حتى
تنشع الغمة عن المدينة ما دامت الاشتباكات لا تزال بعيدة عنا، معظم أقرباءنا قد سبقونا في
ذلك وأنتم لم تتخلفوا إلا بسببي، أختي للسلامة فقط، أرجو أن نعود ونجد كل شيء كما
هو .

هدأت من بكائها، ومسحت دموعها وهي تنهض منكسة رأسها في استسلام؛ لكنها في
أعماقها غير راغبة في الرضوخ لأمره، ناولها حقيبة يدها فتناولتها، وسارت بعده بخطى وثيدة
صامتة، خرجت من غرفتها ثم أغلقت بابها، دلفت للصالة شبة الواسعة وهي تتأمل أركانها،
تلقي عليها نظرات الوداع أيضاً؛

أرائكها البنية الثلاث المجتمعة حول طاولة زجاجية صغيرة وتلفاز وجدرانها التي جمع
طلاؤها اللونين البيج والأبيض ناحية سقفه، علقت عليه عدد من لوحات ذات مناظر
طبيعية وآية الكرسي، توسطتها صورة كبيرة لأبيها الراحل، ابتسمت ابتسامة مشبعة بالحزن
حين رآته، وهي تتمتم في نفسها:

-لو كنت هنا يا أبي، أكنت ستؤيد قرار شادي؟

ثم عرجت على المزهريات التي زينت أركان الصالة الأربعة كانت هي من اختارتها وهي لا تزال في المرحلة الإعدادية حين اشتراها والدها مستبدلاً للقديم منها، وفي طريقها للبواب الخارجى ألقت نظرة على المطبخ الواسع عن يمينها، وغرفة شادي إلى جانبه، وغرفة أمها، وغرفة استقبال واسعة في الناحية الأخرى لتكمل الدائرة حول الصالة، ثم خرجت ليغلق الباب الخارجى، بينما تعلقت أنظارها بالمنزل، ألقت بعيون حزينة نظرة وداع أخيرة عليه من الخارج بعد أن ودعت كل زاوية من زواياه حملت عقب الذكريات والحياة منذ أن ولدت ووعت.

ابتعدت عنه وهي تدعو في أعماقها أن تعود إلى كل شيء هنا، ثم رأت سيارة أخيها تقف قربه، سيارة (بيجو) رمادية اللون، وبها مها تجلس في المقعد الأمامي المجاور لمقعده، لم تكن بأقل حزن منها، أشارت لها بالصعود، فصعدت لتجلس بالمقعد خلفها وحيدة.

حين تأكد من إغلاق البيت صعد السيارة وانطلق بها، فأسندت ضياء رأسها إلى إطار النافذة وهي تتأمل شارع (الشهيد مدرم) الواقع أمام بيتها، الشارع الذي شهد كل لحظة من حياتها منذ الطفولة إلى الآن، هذا المحل اشترت منه حلواها المفضلة والآخر اشترت منه حاجيات البيت، وثالث دخلته لأجل شراء متطلبات المناسبات والأعياد، أراجيح الطفولة لا تتوقف، وحتى حين تقطع الشوارع لأجل الذهاب لمدرستها، انقطعت الذكريات فجأة حين أصبح الشارع الرئيس كثيب جداً، انقطعت الكهرباء فابتلعه الليل، كان شبة خال من الحياة إلا من

بعض السكان الذين قرروا الرحيل مثلهم، إما بحافلات أو سياراتهم الخاصة يتحسسون الحياة مثلهم بعيداً عن براثن الموت، الكل حزين مثلها، حتى حركة السيارات بدت ثقيلة كأنها حملت أجساد البشر وأثقال همومهم معاً.

استيقظت من دوامة حزنها حين فكّرها أمر فأخذت تبحث في حقيبتها، ثم قالت في لهفة:

-شادي، أعطني للبيت.

عقد حاجبيه، وقال في ضيق:

-عدنا يا ضياء؟ لم؟

-نسيت صورة أبي، أريدها.

-لا يمكنني العودة، يجب أن نسرع.

بكت وهي تقول في حزن ورجاء:

-أرجوك، إنها صورتي الوحيدة معه بعد تخرجي من الثانوية، أرجوك، لا أدري متى سنعود إلى هنا.

قال في إشفاف:

-حسناً، اهدئي.

أوقف السيارة ثم أراد إعادتها للوراء، فقالت:

-لا داعي، أعطني المفتاح وأنا سأذهب.

لم يكونوا قد غادروا بعد الشارع حيث يطل عليه منزلهم، ناو لها المفتاح ثم أخرج لها مصباحاً يدوياً من درج السيارة، وهرولت مسرعة مبتعدة عنه.

راقب اللهفة في عينيها وفي عدوها وهي تتجه إلى المنزل، كانت فقط للتمسك بذكرى جميلة عزيزة على قلبها، هو أيضاً يريد أن يتمسك بكل شيء تمتد جذوره إلى أعماق هذه الأرض، لهفتها ورغبتها الكبيرة في البقاء مهما كان الوضع تقتله وتكاد تدفعه للبكاء، منذ صباح اليوم وهو يقاوم بأساً كبيراً في أعماقه، نيران الحسرة تزداد لهيباً وهي تتخذ من جنات صدره وقوداً لها ليزداد وجعه وتتصاعد أذخنتها الخانقة مسببة اضطراباً لأنفاسه.

هو يرغب في البقاء لا لأجل نفسه ولا ذكرياته؛ بل لأجل أن يقاتل، أن يدافع عن أرضه، عن كل أهله في عدن وليس أمه وأخته وحدهما، هو الآن عاجزٌ عن ذلك، كيف لا وأمّه وأخته معرضتان للخطر في أية لحظة، تمنى لو أنهما غادرتا، تذكر حين أخبر أمه في ذلك الصباح بعزمه للانضمام للمقاومة، الحماسة كانت تملؤه، ووميض النصر يلوح بالأفق حين اتحد كل شباب ورجال عدن، في أعماقه يقين يصدق بذلك، اضطربت وأصابها خرس مؤقت، وكادت تنهار على الأريكة، أدرك خوفها فأمسك بيديها وقال لها ليطمئننها ويرتجئها:

-لأجلك يا أُمي ولكل أهل مدينتنا الغالية، لا تقلقي، لا بد أن أكون مع أقراني.

تلعثمت وهي تجيئه:

-ونحن يا ولدي، من لنا؟

كانت ضياء تتابع حديثهما وعلى وجهها بواذر القلق، فسمعتة يقول:

-خالي نبيل يقول بأنه سيغادر غداً إلى المملكة مع عائلته، أرجو منكما أن تغادرا معه.

زاد اضطرابها وكادت تبكي وهي تقول:

-وأتركك خلفي؟ هذا لن يكون، لن أفعل، لن أرحل من دونك.

رد عليها في رجاء:

-لا أعرف كيف ستنتهي هذه المعركة، لذا أرجوك غادري أنتِ وضيء حتى أطمئن عليكما.

قالت في حزم وقد سالت دمعاتها:

-لن أرحل إلا بك، يكفيني ما بي من ألم بعد رحيل أبيك العام الماضي، ولن أغادر إلا معك.

تضاعف الحمل على قلبه، إن انضم للمقاومة لابد أن يسعى هو ومن معه في دحر الجحافل الغازية بأقصى سرعة، لن يشعر باطمئنان إن انتكس سير المعركة في أية لحظة ووطأت الحرب بأقدامها على المدينة، في الحروب لا قيمة للزمن، لا قيمة للبشر، لا قيمة لشيء إلا لعطاياها، استمرارها أو توقفها مرهون على ما يتم في تلك الموائد الممدودة، والحوارات البراقة التي يتناقلها الإعلام الآمن، اتفاق أو اختلاف متوقف على مدى تبادل المنافع وليس على عدد الأرواح التي زُهِقت وسُزِّهق.

في تلك اللحظة، شعر روحه تتنازع بين قطبين، يجذبانه ليوجعه معاً، فكره منشطر تماماً، إن تتخذ سبيلاً، لابد أن يتحمل الوجع في أحدهما، وأن يتعذب بسياط الندم لاجتنابه الطريق الآخر. اتصل بها خاله بناء على رغبته محاولاً إقناعها بالرحيل معه، فباءت المحاولة بالفشل

وخرج منها يائسا بائساً، ومع ذلك مضى إلى جبهة المقاومة وهو يدعو لها، وأمه وأخته تدعوان له بالنصر والثبات والعودة إليهما سالماً.

قطع حبل فكره حين ربتت مها على يده التي لا تزال على المقود وعيناه على ضياء وهي تقول محاولة تهدئة نفسه:

-أدرك أنك تريد العودة للمقاومة؛ فلم عدت لنا يا ولدي؟

نظر إليها وتنهد بعمق وهو يقول:

-لن أطمئن عليكما إلا إذا رحلتما من هنا، كان في إمكانك الرحيل مع خالي نبيل وعائلته، المجال كان لا يزال مفتوحاً لكنك تمنعتي لأجلي.

قالت في حزم:

-قلت لك لن أرحل من دونك.

في تلك اللحظة سمعا دوي انفجار حاد ناحية الشرق، ذعرا، أعاد بصره ناحية أخته فرآها، صاح بأعلى صوته في خوف:

-ضياء، ارجعي.

مع اعتيادها على أصوات أشباح الموت لم تلتفت إليه، ركضت بسرعة ودخلت المنزل، فقالت مها في خوف:

-هل اقتحموا المدينة؟

رد عليها في قلق:

- لا أدري يا أمي، موازين الحرب تنتكس لصالحهم، رحمتك يا إلهي.

تساءلت:

- ماذا تعني؟ ماذا حدث يا شادي؟ أنت لم تخبرنا بشيء مما جرى معك في الجبهة.

كاد يرد عليها فقاطعه دوي ثلاثة انفجارات أحدثتها قذائف خلفها هزت الحي هزاً عنيفاً، أغمضاً أعينها وصموا أذانها على نحو تلقائي، وحين فتحو عيونهم ونظروا خلفهم ازداد خوفهم.

اتقدت النيران من القذائف التي أصابت معظم منازل الحي ومن ضمنها منزلهم، شاهدوا الدخان وألسنة اللهب تتصاعد منه، صاحت مها في ذعر:

-ابنتي!

هرب من مكانه وغادر السيارة وعدا مسرعاً، ودقات قلبه تكاد تقف من شدة خوفه، أن يجد أخته قد ماتت وسط الحريق، ولما وصل أمامه وجد النيران تتصاعد من الجهة الخلفية حيث غرفتها وقد تحطمت بعض أجزائه، انخلع لبه مما رأى، ودخل منادياً عليها، لم يلق جواباً إلا أجيج النيران ترد عليه وهي تغطي معظم أثاث الصالة وتلتهمها، ودخانها يحاول التغلغل في صدره، كمم أنفه وفمه بعمامة، ثم رأى باب غرفتها مفتوحاً دخل، فشقق فزاعاً.

وجدها ملقاة على الأرض بوسط الغرفة وشنظايا زجاج النوافذ حولها، والنيران تلتهم سريرها وأغطيته والسجادة، لقد نفثت القذيفة لهيبها بكل المنازل المحيطة التي لم تصبها محطمة بقوة انفجارها بعض بنائها.

حتى ضياء صارت (شيء) من الغرفة، لم تكن تتحرك أبداً والنيران تلتهم النصف الأيسر من جسدها وملابسها.

طار عقله للمنظر وارتج جسده هلعاً، أسرع نحوها وهو يخلع عمامته ويلقي بها على جسدها ليخمد النيران التي علقت بها، وهو يقول في خوف:

- لا تموتي يا ضياء، لا تموتي، أرجوك.

أخذت دمعاته تسابق يديه وهما تخمدان النيران من صدرها وذراعها وجنبها وفخذها وساقها، أما وجهها فبدا له بأنه قد تلقى اللهب الأول فأحرقه قبل جسدها، كان محمراً بشدة في النصف الأيسر تعتليه مناطق سوداء وفقايع كثيرة، لم يشعر بلسعات النيران وهي تحرق يديه وتحاول التهام عمامته أيضاً والدخان الذي حاول خنقه، كل همه أن تنجو أخته، أن يدركها قبل فوات الأوان، وحين نجح في مهمته ترك عمامته وحملها خارجاً بين ذراعيه ليوصلها للسيارة وقد تأكلت عباؤها وثيابها، وصار ما بقي منها أكثر سواداً وجزء يصعب فصله عن جسدها، خوفه لا يزال قائماً، لم يتحقق بعد ما إذا كانت لا تزال حية، ما أن رآته مها يحملها حتى زاد خوفها وخرجت من السيارة، فأشار لها بفتح الباب الخلفي ففعلت، ثم وضع ضياء على المقاعد الخلفية ومدد جسدها، وكشف الحجاب قليلاً عن رقبتها ليجلس

نفضها تأكد من وجوده، أنفاسها بطيئة وغير منتظمة، اطمئن بعض الشيء لكن الوقت يسرق من عمرها، أخذت مها تبكي وتولول على حالتها، لقد نالت النيران من نصف وجهها وجسدها لم تستطع رؤية ذلك إلا بمصابيح السيارة الداخلية المضاءة، ثم قال لأمه:

-ابقي إلى جوارها يا أمي، سنذهب إلى أقرب مركز صحي لنا.

أسرعت إلى الناحية الأخرى لتجلس إلى جوار ضياء التي لا تزال غائبة عن الوعي لتضع رأسها على حجرها، في اللحظة التي انتبه بأن يمناها تحمل صورتها بزيها المدرسي وفي حفل تخرجها وإلى جوارها والدها المتوفى، تلك الذكرى التي خاطرت لأجلها، تذكر بأنها كانت تحبها كثيراً، طغى الحزن على وجهه ولهجت لسانه بالرحمات لوالده، أخذ الصورة ودسها في جيبه، وتحرك متجهاً إلى مقعده في اللحظة التي هوت فيها قذيفة أخرى على المنازل القريبة، أغمض عينيه وصم أذنيه مجدداً ليرى بعدها منزله وقد صار كله كتلة لهب عظيمة هو من حوله من المنازل، هاله ما رأى وشرد بفكره وكأن المشهد الآن يذكره بمشهد آخر، فهتفت مها به في خوف:

-أسرع يا شادي.

انتبه لها فصعد إلى السيارة وانطلق بها بأقصى سرعة، وسط دوي الانفجارات التي استمرت، وصيحات الناس الهاربة من مسرح الموت.

الفصل الحادي عشر

الرجوء إلى...

أحياناً كثيرة، يتحایل المرء على اللحظات حتى يستطيع العيش، يدعي الصمود وكأن مآسي من حوله لن تؤثر فيه؛ بل أنه سيكون لهم (الحائط) الذي يستطيعون الاستناد عليه للوقوف مجدداً عندما تتداعى بنيان صمودهم، و(اليد) التي ستتشلهم من سيول الأحزان، وتمنعهم من الانجراف إلى وديان الآلام.

وأحياناً أخرى، يجد أن تحايله لم يكن إلا (كذبة) خلقها ليهد دواخله، فيصبح بنيانه هشاً في لحظة فاصلة، ليفتش عن حائط يستطيع الاستناد عليه بدوره، ويد تنقذه من الوقوع في غياهب النسيان.

عند الساعة العاشرة من تلك الليلة، دخل شادي المجمع الصحي بمدينته، وهو يحمل ضياء بين ذراعيه وجسده يرتجف وأعماقه تضطرب، يخاف أن يفقدها في أية لحظة، كانت كالجنة لا يتحرك من جسدها شيء، أنفاسها البطيئة والمتباعدة وحدها دليله على أنها لا تزال حية، وأمه تتبعه وجسدها لا يكاد يحملها من فرط خوفها هي الأخرى، هرع بعض الممرضين في استقباله وأحضروا سريراً متحركاً حيث مدد جسدها عليه، ثم نقلوها إلى ردهة الطوارئ، أسرع طبيب في فحصها، بينما قام ممرضين آخرين بوضع محاليل الوريدية لها وقياس العلامات الحيوية، دقائق قليلة، ودون الطبيب بعدها بعض الأدوية في ورقة، والتفت إلى شادي وهو يقول:



-سنقوم بإدخالها إلى قسم العمليات الصغرى لمعالجة الحروق، أحضر ما دونته، وكذلك بعض الملابس.

سأله في لهفة وتوتر:

-هل ستكون بخير يا سيدي؟ هل ستنجو؟

أجابه في قلق:

-لا أخفي عليك، حروق متفاوتة بين الدرجة الثانية والثالثة وبمساحة تصل تقريبا إلى ثلاثين في المئة، الإصابة شديدة والملابس قد علقت بها، سأقوم بكل ما في وسعي لأجلها، وعليك لاحقاً أخذها إلى مستشفى أكبر من مجمعنا هذا.

-حاضر.

خرج في اللحظة التي أمر الطبيب الممرضين بنقلها إلى غرفة العمليات، ولحقت بهم مها لتجلس على مقعد انتظار ثلاثي قرب بابها وتنتظر، ودعواتها تندفع من لسانها، والخوف يقطع كل ذرة من قلبها.

ثم عاد وهو يحمل ما طُلب منه وسلمه للممرضين عند طرف الباب، وألقى بجسده على الكرسي إلى جوار أمه، حتى إذا ما استقر جسده لفت أنظارهما أناس آخرون يدخلون ومعهم عدد من المصابين، بين حروق وكسور وإصابات بشظايا الانفجار، صار المجمع خلال ربع ساعة مكتظاً بالمصابين، وأصوات الانفجارات تتعالى بين الفينة والأخرى، تمتت في حزن وغضب وهي تحاول أن تغالب دموعها:

-رحمتك يا إلهي، ما بهم هؤلاء المجانين؟ ألا يخافون ربهم؟ ألا يدركون بأنهم ...
 قطعت كلمتها حين انتبهت لجسد شادي يرتعش بعنف كأنها أصابه البرد، نظرت إليه،
 فوجدته قد مال بجسده للأمام ووضع مرفقه الأيمن على فخذه، وأسند جبهته براحة يده
 اليمنى، ودموعه تتساقط من عينيه على فوطته، لم يخجل ولم يمنع نفسه عن البكاء، ربتت على
 كتفه وهي تقول:

-ادعوا لها بدلاً من البكاء يا ولدي، كن ثابتاً لأجلها.
 لم يلتفت إليها أو يجيبها، ظل كحجر أصم لا يتحرك منه شيء إلا مطر دموعه، ازداد قلقها،
 فقالت:

-شادي، ما بك؟ ألا تسمعني؟
 بالفعل لم يكن يستمع إليها؛ بل لم يكن يشعر بشيء مما حوله، كان في عالم آخر.
 -ماذا لو أُنِي صممتُ أذني عن آذان المقاومة ولم ألبيه، ورحلت بهما؟ كنتُ سأحميها... ماذا لو
 أُنِي بقيت في الجبهة؟ كنتُ سأزيد عددهم وسأدحرهم معهم وسأمنعهم من إيذاها... ليت
 أُمِّي امتثلت لطلبي ورحلتا معاً ما كان هذا ليحدث، هل سأكون سبباً في موت أختي بسبب
 بقائي في عدن أم بسبب هروبي؟... لا، أنا لم أهرب، لقد انسحبت لأنقذ أُمِّي وأختي، لا أحد
 لهما غيري، لم يكن لينقذهما سواي، أكنتُ ستحميها لو قُلتُ يا رضوان؟... لكني...
 خذتكم، أرجوكم ساحوني، فالأمر لم يكن بيدي، كنتُ مجبراً، القتال على الأرض شرٌّ
 جداً جداً، أكثر مما كنتُ أتخيل.

لم تتشله من العالم الذي غرق فيه إلا بعد أن أمسكت يده بقوة وهزتها وهي تقول وقد انهمر
مطر دموعها:

-ولدي، تماسك أرجوك.

رفع رأسه بثناقل ثم نظر إليها، أدرك بأن عدوى الألم بقلبه قد وصلها فأوجعها، حاول أن
يهون عليها لكن الكلمات خذلته، فاقد الشيء لا يعطيه، كيف يمكنه أن يهون عنها وهو عاجز
عن التهوين عن نفسه، تحركت شفتاه إلا أنها ارتجفتا دون أن تستطيعا النطق بحرف مع كل
عواصف الألم والندم والخذلان التي اضطربت بين جنبات صدره، ثم عاد لوضعه السابق
ودموعه لا تزال تعاود الانهيار، لن يوقفها إلا نجاة ضياء مما أصابها، لم تستطع مها التهوين
عليه أو عن نفسها ووقعت أسيرة الألم والحزن مثله.

وبعد ساعة انتبه لفتح باب غرفة العمليات، وهبا من مكانها حين شاهدا ممرضين ينقلانها
على سرير متحرك إلى قسم الترقيد المتواضع بالمجمع، ورافقاهما، ظلا يتأملان وجهها منذ
لحظة مغادرتها، وتحركا معها بآلية، والحزن ينهش قلبيهما عليها، اختفى نصف وجهها خلف
الضمادة الكبيرة موضوعة برفق على الإصابة كغطاء خفيف، وحين وصلوا الغرفة وتم
وضعها السرير، أزال الطبيب الضمادة ليتفقد الإصابة تحتها، فاقشعر بدنها.

لقد محيت معالم وجهها، اختفت البشرة البيضاء والملاح الجميلة، صار بيتيتن مختلفتين لا
تتيمان لبعض تجمعهما بقعة واحدة، لقد تجسدت أمامها كل قسوة الحرب في وجهها، بكت
مها، أما شادي فغالب دمعته، أكان ما حدث لها عقاب له على هروبه من الجبهة؟

لم يحتمل الانتظار، وسأل الطبيب في لهفة:

-كيف حالها الآن؟

أعاد الضمادة مكانها وهو يجيبه:

-الحمد لله حالتها مستقرة الآن، وعندما اطمئن على إصابتها ويكون في مقدورها المغادرة في

وسعك نقلها لمستشفى أكبر.

تلعثم وهو يقول:

-هل... وهل في الإمكان محو هذه الإصابة عن وجهها؟

-إذا ما تم هذا بسرعة ففي وسعك ذلك، جد لها مجالا للسفر للخارج فنسبة النجاح ستكون

كبيرة، أما هنا وفي ظل الحرب، لا أدري، المستلزمات الطبية تتراجع في ظل هذه الأزمة،

نسأل الله ألا تنعدم، لذا ابذل جهدك لتسافر بها، أما إذا تأخرت فلن تستطيع إزالة الندبة أبداً.

هز رأسه وغمغم وهو يفكر حين غادره:

من سيساعده في ذلك وفي هذه الظروف؟ كل أقاربه رحلوا من المحافظة، وأصدقائه في

المقاومة، والناس ستكون في حاجة حتى لفلس واحد لتؤمن معيشتها، هنا أو خارج

المحافظة، الناس كلهم في ظروف صعبة وعملية تجميل تعد شيئاً كمالياً في هكذا ظرف،

جلس قربها وقلبه مثخن باليأس والأسى عليها وعلى محل بها بسببه.

حين أسدل الليل أستاره انتبها بأنها تتحرك وتتأوه، تكاد تستيقظ، شاهداها تفتح عينها اليمنى، قالت لها وهي تدنو منها أكثر:

- ضياء حبيبي، هل تسمعي؟

أول شيء وقعت عينها عليه كان مصباح الإضاءة بالغرفة والمعلق عن يمين الغرفة، وجهه كان ساطعاً ثم سمعت صوت انفجار، تحولت نظراتها إلى الفزع، اتضح لهما من تباعد جفني عينها اليمنى صرخت وهي تهب من سريرها فسقط الضمادة المرتخية على وجهها، ظهرت انبلاجة طفيفة لعينها اليسرى كانت عاجزة عن فتحها تماماً، لقد أعاق الحرق عضلات جفنيها، وهي تقول باكية:

- شادي، أمي، أهربا... القذيفة قادمة نحونا... إنها تلتمع هناك.

أسرعت مها لتحتضنها، جفلت وهي تقول مخدرة:

- أمي، ألا تسمعين ما أقول؟ دعيني، لنهرب لنهرب.

كانت تتحرك بعنف رغم إصاباتها، لم تكن تشعر بألم ولم تدرك بعد أين هي، نوبة فزع تملكها كل فكرها، فقالت مها وهي تبكي:

- نحن في أمان يا ضياء، لا تخافي.

- ألم تشاهديها يا أمي؟ إنها هناك.

أطفأ شادي المصباح، واستخدم مصباح هاتفه ونظر معتذراً للمريضات المتواجدات بالغرفة مع ذويهن، واقترب منها وهو يقول:

-اهدئي يا ضياء.

انتبهت لكل ما حولها، انتبهت من كابوس خيال ولده حقائق الواقع، أحست بألم جراحها المخفية بضمار على طول ذراعها اليسرى، وتحت ثوبها، ارتمت في حضنها وأجهشت ببيكاء مرير، ألقت عن قلبها كل نوبات الفزع حين تطمأن لكن الاطمئنان لم يكن متاحاً مع سلسلة القذائف التي توالى وكان العدو يعلن عن بدء طقوس فرحه، كاد شادي أن يبكي لحاها، قاوم بشدة وهو يعيد تشغيل مصباح الإنارة ثم يقترب من أخته ويمسح على رأسها بصمت كأنها يقول:

-آسف لما سببته لك.

ثلاثة انفجارات بالبيوت الآمنة خلفت مئات القتلى والجرحى لتكتظ المرافق الصحية بالمدينة بهم، تقرر ترقيدها لبضعة أيام، خلالها لم تسلم قلوب من هم بالمجمع ولا أسماهم من ذوي الانفجارات، يوماً تلو الآخر، خائفين أن يصبح المجمع هدف لقذيفة أحدها. لم يكن في تلك السنة أي ربيع على الإطلاق ولا حتى شعور باقترابه؛ بل خريف تساقط فيه الأرواح البريئة بزوابع الأطماع وعواصف السلطة.

مضى أسبوع على رقودها، والخوف من تلك المقطوعات التي عزفتها قوى الشر ترعبها، ودعوات الناس الملهوفة والمتألمة حولها تزيدها حزناً، وآلام إصابات بتلك النيران قد ملأت جسدها وأثقلته.

لقد اجتمع مزيج الخوف والألم، أنهكا كل رغبة لها في الحياة، تمت لو أنها ماتت قبل أن ترى الألم هكذا فيها وحوها؛ لكن وجود أخيها وأمها أمامها بخير يؤنس قلبها ويخفف شيئاً من حزنها، ومها تحاول جاهدة أن تمنع فيض دموعها عن الانهار أمامها لما أصابها، فقالت لهما في ذلك اليوم:

-أمي، شادي، دعونا نرحل قبل أن تزداد الأوضاع سوء.

رد عليها بحزم:

-لا يمكنكِ السفر وأنتِ...

قاطعته وهي تقول بعيون دامعة:

-أرجوك أخي... لا أحتمل رؤية أحدكما وقد...

فقاطعتها وهي تقول:

-لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، حالما يسمح لك بالمغادرة سنرحل يا ضياء لا تقلقي، سنفعل ذلك.

بكت ضياء في خوف وهي تقول:

-ونعم بالله، ونعم بالله.

خرج بعدها من الغرفة وهو حزين لحال كل شيء، لحال أخته، لحال مدينته، لأصحابه الذين تركهم خلفه، كانت روحه سجينه الألم تقبع في زاوية من زوايا صدره.

بعد أيام من سجن للروح والجسد إجباراً خلف قضبان الألم والخوف، سمح لها الطبيب بالمغادرة وأوصى شادي بأن يأخذها لمستشفى أكبر، أيده، ثم أسرع بعائلته ليخرج بهم من المدينة، لترى بعين دامعة كيف تحولت بيوتها إلى خراب، وجثث الضحايا تملأ الطرقات، أطفال ونساء ورجال، لم يشفع لهم شيء عن القتل على أيدي الغزاة، وابل النيران لا يهدأ ضجيجهم أبداً فلم يستطع الأحياء فعل شيء لهم، فمن انتظر أو التفت لينتشلهم لقي حتفه ليكون إلى جانبهم.

أي خريف هذا ظهر في ربيع أبريل؟

بكت مها وهي تحتسبهم عند ربهم شهداء ولسانها لا يفتر عن التضرع لربها.
أما شادي فقد انطلق بسيارته بأقصى ما يستطيع مبتلعاً حزنه وألمه لما يرى حوله.
رحلت ضياء من مدينتها الحبيبة بعد أن تركت الحرب بصمة الألم بقلبها وجسدها، انهمرت دموعها بصمت، وهي تقول في نفسها:
- سيعود ثغرك باسمًا، سيعود رغم الأحزان، سيعود يا عدن.

منذ أن أطبق الحصار على الأرض، لم يسلم الماكثون ولا حتى النازحون من وابل النيران، تتجه مواكبهم نحو المجهول باحثين فقط عن الأمان، من وصل إلى مكان أعتقد بأنه آمن يفاجئ بزوابع الموت تجري وراءه حائلة إياه على الهرب.

لكن ... إلى أين؟

منذ خروجهم من المجمع، طاف شادي بسيارته باحثاً عن منفذ بري يقودهم خارج المحافظة، الطريق عبر الدكة لا شك في أنها مغلقة بالقتال الذي تم قبيل هروبه، اتجه صوب العقبة فوجد عدداً من السيارات تسبقه وتغلق الطريق أمامه، خرج من السيارة ليرى ما يمنعه، فوقعت عيناه على مدرعات المتمردين واقفة في استقبالهم، ثم أطلقوا رصاصات متتالية في الهواء كإشارة تحذيرية للنازحين من التقدم، وبعضهم يشهر بنادقه في وجوههم، دب الرعب في النساء والأطفال، وقفل أهاليهم عائدين بهم إلى وسط نيران مدينتهم، عض على شفته السفلى بغضب وضيق، وعاد لمقعده خلف مقود القيادة، وقفل عائداً مثل البقية، لم يكن يدري إلى أين يجب أن يتجه، كان يخشى إن ذهب إلى التواهي أن يزداد الحصار ولا يتمكن من الخروج أبداً ما لم يستبسل الآن فيه، المجال عبر البحر غير متاح أيضاً بعد سقوط الميناء، استراح مع أهله لأقل من ساعة في السيارة ليوصل رحلة النزوح المضنية، أكثر ما يقلقه هو صحة ضياء، قضوا معظم اليوم بالعراء وبين تجمعات من نزح من مدينتهم، ثم أعاد المحاولة مع عدد آخر من النازحين على أمل الخروج عبر العقبة فاستقبلوهم بالقذائف هذه المرة؛ بل أطلقوا نحو سيارات البعض كتهديد شرس، زاد الرعب في الناس وعادوا مجدداً للمدينة، لم تنجح كل محاولاتهم، والطلقات وسط الأحياء لم تكن تمنحهم أي اطمئنان، إنهم هدف حر لأي قناص متعطش لسقوط الأحياء أمامه مستمتع بمهمته في صيد ضحاياه، أو ربما يكونون هدفاً لقذيفة طائشة لا تقصد إلا التدمير وحسب، هل سيتمكن من المغادرة هكذا؟

ومع اقتراب رحيل شمس اليوم، انتبه إلى أنه يتجه إلى الشارع الشهيد مدرم، لم يكن يرغب في العودة إليه حتى لا ترى ضياء كيف تحول منزلهم إلى كومة حطام، وأن كل ذكرياتها على الأرض قد دفنت تحت أنقاضه وقتلت، لم يكن يرغب في أن يزيد وجعها أكثر مما هي فيه، انعطف وأوقف سيارته في شارع الصعيدي الذي لم تسلم المنازل والعماثر حوله من الهجمات المجنونة وتركت آثارها بمبانيها، السكينة تعم المكان مؤقتاً، أحس بتعب شديد، فأسند رأسه إلى عجلة القيادة ملتصقاً لبعض الراحة، لم يشعر بها منذ أن أصيبت، سقطت أجفانه سريعاً في إعياء ونام، ولم يستيقظ من غفوته تلك إلا على صوت مها، وهي تسأله في قلق:

-بني، هل أنت بخير؟

التفت لها وقال :

-نعم، أنا بخير، كيف حال ضياء؟

نظر إليها، عيناها اليمنى مغلقة وكأنها تأخذ غفوة وهي تستلقي بالمقاعد خلفه على جنبها الأيمن ورأسها بحجر أمها، مخفية كل إصاباتا بثوبها وعباءتها وحجابها، أما إصابة وجهها لم يظهر منها إلا الضماد الذي أسدل عليها، شعرا بأن رحلة النروح رغم أنها في بدايتها قد أنهكتها وملاحمها بدا عليها الإعياء، النهار قد مضى دون فائدة، ردت عليه في قلق:

- حرارتها قد ارتفعت قليلا، إنها لا تأكل إلا اليسير منذ أن انطلقنا، إني خائفة عليها يا شادي، دعنا نتجه لفندق قريب أو ... اتجه لمنفذ آخر.

قال في ضيق:

- إلى أين؟ ما من مخرج إلا إلى التواهي، أريد مكاناً أكثر أماناً، لقد سجنونا في قلب مدينتنا بأسلحتهم هذه.

- اتجه إلى الدكة.

- إنها مغلقة أيضاً.

- ما الحل إذن؟

تنهد بعمق ثم قال بعد لحظة صمت:

- لا خيار آخر، سأتجه إلى التواهي، الآن سأشتري لها شيئاً علّه يساعدها على استعادة

عافيتها، أمل أن يفتح منفذ ونتمكن من المغادرة، تنقلنا هكذا سيزيد حالتها سوءاً.

أبصر أمامه على مسافة بقالة توارت نافذتها بأعداد الناس الكثيرة أمامها، أسرع ينزل إليها،

وحين أغلق باب السيارة، استيقظت ضياء واعتدلت جالسة لتراه يبتعد، فسألتها مها:

- كيف تشعرين يا ابنتي؟

رفعت الضماد عن وجهها لتبان إصابتها المنتشرة، بدت محمرة ورطبة في بعض نواحيها، وهي

تقول:

- أنا بخير، إلى أين يذهب شادي؟

- سيشتري من البقالة شيئاً ويعود إلينا.

نظرت الاثنان إلى تجمع الناس، لا شك في أن هذه الفرصة لم تسنح لهم بسبب الهجمات الوحشية التي لا تميز بين الجهاديات والأحياء، فالكل - في نظرهم - يستحق أن يدمر، هكذا فكرتا وهما تريانه ينضم للجموع.

ولزحمة الناس، طال انتظارهم، مضت قرابة ساعة حتى سُمعت فجأة أصوات رصاص قريب، ارتعب الجميع وأسرعوا بالابتعاد عن المكان، تدافعوا هارين، كاد يهرب معهم حين رأى فتى في نحو العاشرة وقد ألصق ظهره بجدار البقالة والخوف بادٍ على وجهه، ولما أن رأى هرب الناس من نافذتها اقترب من صاحبها ليطلب خبزاً في لهفة، فقال له شادي في توتر:

- ماذا تفعل؟ هجمات الأعداء قادمة.

- لا أريد أن أعود للبيت صفر اليدين، أهلي بحاجة له، لم نأكل شيئاً إلا اليسير منذ أيام. تبلل وجه الفتى بالدموع، لعل هذه هي دموع إخوته الجائعين الذين ينتظرون عودته بلهفة، أو ربما دموع شادي الذي حبسها حين علم بحالته، فانهمرت على وجهه، أسرع البائع يلبي طلبه فهو أيضاً سيغلق محله، بينما وقف شادي دون أن يطلب شيئاً كأنه يقول في حزم وغضب للغزاة:

- سأحميك حتى تحقق غايتك.

بعد ثوانٍ، هزت أصوات انفجارات مدوية المكان هزاً، ليتفاجأ الجميع بقذيفة مدفعية تدوي في الشارع وسط جمع الناس الذين كانوا متجمهرين أمام البقالة، تطايروا كذرات الدخان المتصاعدة من انفجارها، ومن بينهم شادي والفتى.

ذعرت ضياء ومها لذلك، صاحتا بهلع وبصوت واحد:

-شادي!!

أسرعت مها لتنزل من السيارة وتجري حيث تصاعد الدخان واشتعلت النيران تلتهم كل شيء، لم تستطع أن تلمحه من مكانها فتزلت تتفقدته، وهي تبكي في خوف. أما ضياء التي أنهكتها إصاباتها ورحلتها فلم تستطع حتى الوقوف لوحدها، استندت بباب السيارة والخوف والرعب يملأن قلبها على أخيها، والدموع تسيل من عينيها، كان من الممكن أن تقل معاناتهم هذه لولا إصابتها فلامت نفسها وهي تراقب أمها التي أخذت تعدو بجنون مقتحمة الدخان الذي غطى مشهد الانفجار.

حين اقتربت، وجدت أجساد الناس المتناثرة هنا وهناك.. الصغير والكبير.. الأحياء منهم المتخبطين في دماء إصاباتهم، وصرخات آلامهم تشق عنان السوء يستنجدون بمن ولهم، والأموال غرقى في أبحر دمائهم، منهم من ظل جسده كامل، ومنهم من تبعثر إلى أشلاء مبعثرة فلم ير أثر إلا بقاياهم، ارتجفت للمنظر، ظلت تبحث ببصرها عنه وقتامة الواقع تجذب خيالها إلى أظلم نقطة في قاعه، تخيلته وقد تمزق وتبعثر جسده فلم تستطع إيجاده، جن جنونها للمخاطر المرعب، أخذت تنادي عليه بقلب مكلوم، بحثت طويلاً حتى أبصرته، لمحته

منبطحاً على الأرض وبحيرة دماء تتدفق تحته، ارتجف جسدها بعنف، شعرت بأن ساقها ستسقطانها في أية لحظة، ارتجفت شفتها وهي تقول بصوت متحرج:
-بني... بني.

اقتربت بوهن منه، خيالها المظلم جعلها توقن بأنه قد أصيب إصابة بالغة وفارق الحياة، جلست قربه وهزته باكية؛ لكن الدهول أصابها حين استيقظ من غيبوبته متألماً واعتدل في جلسته جائئاً على ركبتيه وهو يضع يده على رأسه محاولاً لم شتات وعيه الذي تبعثر بها حدث. أخذت تنظر إليه، لم يبدُ أمامها وكأنه جرح أو أصيب إلا بشظايا قليلة في ذراعيه سببت له خدوشاً لا تستدعي حدوث كل ذلك النزف، تفاجئ أيضاً بحالته حين انتبه لنفسه، بحيرة الدماء التي رقد عليها لطخت سترته وذراعيه ويديه، تأمل ما حوله؛ لكن ذهولها لم يدم طويلاً حين أخرستهما الصدمة المؤلمة.

الفتى هو من أصيب برأسه إصابة هشمت عظام جمجمته وضربت الدماء من جوفه، وقد ألقى الانفجار بجسده قريباً من شادي ويده لاتزال ممسكة بكيس أرغفة الخبز التي أرادها لأهله لينقذهم من شبح الجوع.
فاختطفه شبح الموت.

بكاه منتحياً في ألم وهو يقترب منه، رفع رأسه بين يديه وناداه عليه، فوجده قد فارق الحياة تاركاً بصمة دمائه بجسده، صاح في ألم وغضب بأعلى صوته:
-سحقاً لكم... سحقاً لكم..

وتدفقت دموعه بغزارة، لم تشفع وجودها لأصوات الرصاص الذي لم يتوقف للحظة ولا حتى دوي الانفجارات، بكت مها بحرقة وألم مثله دون أن تعرف السبب الحقيقي لانتحابه، ثم ربتت على كتفه وحثته على النهوض، ترك جثة الفتى ونهض متثاقلاً منهكاً مما بروحه وجسده، ثم نظر لأرغفة الخبز في يده تمنى لحظتها لو يعرف اسم الفتى أو شيئاً عن محل إقامته ليحاول إيصالها لأهله؛ لكن المجال لم يكن متاحاً والشارع قد صار عرضة للمزيد من الهجمات، قفل عائداً معها إلى السيارة ليجدا ضياء وقد انهار جسدها على الأرض من شدة الخوف والألم والإعياء فارتعبا، أسرعاً إليها لتجدها مها وقد ارتفعت حرارتها، حملها إلى السيارة ثم انطلقوا يشقون طريق اللانهاية نحو الفرار إلى المجهول مرة أخرى.

رحلة من المعاناة والتشرد والألم تجرع مسافروها مرارتها في قلوبهم وأثقلت بمشاقها أجسادهم، رحلة لن يحس بها أو يدركها إلا أصحابها، ولن يشاطروهم هذا الإحساس إلا قلبٌ رقيق كقلب سحر، ولن يستخف بها إلا قلب متحجر كقلب طارق. منذ ذلك اليوم، وطارق يعيد حديثه مرة تلو الأخرى عن النازحين مع أصحابه ساخراً شامتاً بهم، لا يروق له هذا إلا في لحظة وجودها بالقاعة معيداً عليها شريط ذكريات الألم التي ربما لن تظل ذكريات؛ بل واقعا لا تزال تعيشه بإصابتها التي شوهت جمال وجهها ووجب عليها التعايش معها، وذات مرة حين كانت بالقاعة مع سحر وحدهما تتناقشان كعادتهما، دخل مع رفاقه وهم يتضحكون، شعرت بأنه يتحين جوها الخاص حتى ينتهكه، فأشارت لرفيقتها

التي ففهمت قصدها وحملنا كتبها وحقيبتها وهمتا بالمغادرة، لم يفت الأمر عليه، فقال بسخرية لرفاقه:

- ما رأيكم أن نقوم بجولة عصر يوم في حي السلام؟

رد محمود بضيق:

- لم؟ هل تريدنا أن نرى المشتريين ويتعكر صفونا؟

- وهل سيتعكر صفوك الآن يا محمود؟ إنهم كالطفيليات منتشرة في كل مكان، إياك أن تفقد متعتك بسببهم، لا تلقي لهم بالاً وحسب وافعل ما يروق لك.

اخترق الألم والضيق صدرها إلا أنها مضت بسرعة متجاهلة إياهم وخرجت من القاعة، وسمعت سحر وهي تقول لهم بغضب:

- متى ستكفون عن إيذاء الناس هكذا؟

هز طارق كتفيه وقال باستنكار مصطنع:

- إيذاء الناس!! لم نؤذ أحداً يا آنسة.

هزت رأسها وهي تقول في يأس:

- يظهر بأنه لا فائدة من أي حديث معكم لأنكم لا تملكون أي إحساس في قلوبكم.

- لم أفهم، أوضحي يا آنسة.

لم تعقب على كلامه الساخر، ومضت مبتعدة عنه والغضب يلوح في عينيها، وما هي إلا لحظات حتى سمعتا ضحكاته الساخرة مع رفاقه، رغم تعنيف سحر له إلا أن الحال لم يتغير،

فأثرتا الجلوس في المكتبة أو في أي مكان آخر لا تضطيران فيه لتحمل حديثه الذي يصدر من لا مبالاته. وبمجرد أن تراه، كانت تستعيد تلك الأحداث فتشرد كل الشroud عن واقعها الآمن لتعيش في ذلك الخيال المخيف لزمن. تمت لو أن مكانا غير الأرض في وسعها اللجوء إليها بعيداً عن ريشة المتحذلقين حولها راسمين في رؤوسهم ألف لوحة لها... متشردة، غريبة، قبيحة الوجه، تلك الكلمة التي لم تسمعها بأذنيها بل قرأتها في عيون بعضهم النهمة إلى تأليف الأحاديث، أو ربما نظرات الشفقة والتعاطف، وما زاد الطينة بلة هو أن تجد نفسها وعائلتها بمسكن يعود إلى والد ذلك الشاب المتعجرف المغرور طارق.

تمت لو أنها تستطيع أن تبوح بكلمة لأمرها أو تطلب من أخيها الانتقال إلى مكان آخر لا ينتمي لطارق أبداً؛ لكن هذا الأمر صعب، الشكوى لهما ستزيد من ألمها ولا سيما أن شادي بذل جهداً كبيراً لأجل نفقة علاجها من مرضها وإصابتها، ثم بحثه عن عمل حتى وجده بعد عناء ليكون دوامه صباحاً ومساءً ويستقر وضعهم بعد الزوح بأشهر.

ماذا في وسعها أن تفعل إزاء أذى طارق لها؟

فكرت في نفسها، ليس أمامها إلا أن تصبر لأجلها.

في ذلك المساء، لاحظت مها شرودها الزائد وهي تجلس بالغرفة وحيدة وعيناها لا ترتفعان عن مذكرة محاضراتها التي أمامها، وبدا أن تفكيرها ليس بالكلمات التي دُونت بها، اقتربت منها وهي تسألها في قلق:

-بنتي، منذ أيام وأنّ ساهمة واجهة كثيرة الشroud، هل حدث شيء؟

انتبهت لصوتها فقالت:

- لا شيء يا أمي، الامتحانات على الأبواب وحسب.

فقالت لها في استنكار:

- صحيح أنك في أول سنة لك بالجامعة وفي بيئة جديدة لم تعتديها؛ لكن لم يسبق لي أن رأيتك في المعلا بهذا الشرود بسبب الامتحانات، هناك أمر آخر، أخبريني إياه.

هزت رأسها وهي تقول في ابتسام:

- لا شيء أمي، ربما لأنني لست في مدينتي ولم أستطع الانسجام بعد، فأحس بهذا القلق.

ابتسمت ومسحت على رأسها وهي تقول:

- لا تجعل لي أي شيء يشغل تركيزك على الدراسة، إن شاء الله تتحسن أمورنا ونعود لمدينتنا.

واكتفت بهز رأسها، بينما انصرفت مها حين أحست بأنها قد أعادت الطمأنينة لقلبها، أما

ضياء فقد بدا الحزن على وجهها، وهي تقول في نفسها:

- صعب عليّ إخبارك يا أمي، أما تكفيني الأحران حتى نعود لاستعادة ذكريات الماضي

القاسي؟ يجب علي تجاهل ذلك المغرور... يجب... ولكن...

صمتت للحظات وهي تقول في حزن:

- كيف يمكنني النسيان؟

في محاولة الهرب الأخيرة، أدرك شادي بأن ضياء لن تحتل التنقل، وكل ما في جعبته من مال

ووقود مآله إلى النفاذ إذا لم يجد طريقة تخرجهم من هذه المعاناة.

اشتد المرض بها بسبب إصابتها ورحلتهم، عاد إلى المجمع الصحي مرة أخرى، هو أقرب مرفق صحي له الآن، لن يكون في مقدوره أخذها إلى المستشفى بالتواهي وهي في هذه الحالة إلا بعد اطمئنان عليها، كان الظلام قد طغى على الشوارع حين وصلوا، ولما دخل بها إلى قسم الطوارئ وجده مكتظاً بالجرحى ومرافقيهم والأسرة كلها مشغولة، من لم يجد سريراً وجد الأرض في استقباله فاستلقى عليها اضطراباً، حتى الممرات اكتظت معظمها بهم. أشار إليه أحد الممرضين بإدخالها لغرفة مقابلة بها عدد من الجريجات، تبعه، قامت بها ببسط شرشف على الأرض جلبته معها، بينما مددها عليه وهي تلهث بسبب الحمى وأحياناً يعلو أنين ألمها، ثم فحصها الطبيب في سرعة، وأعطاه بعض المحاليل والمسكنات، ولما فرغ نظر إليه ممتعضاً وهو يقول:

-ألم أطلب إليك الذهاب إلى المستشفى؟

-بلى، ولكن لم أستطع، المدينة محاصرة، كنت أنوي الخروج بها من المحافظة.

عقد حاجبيه وقال في حزم:

-إصابتها تحتاج لأن تظل مكشوفة، ويجب ألا تغطى بعد الآن إلا لفترات قليلة، حرارة الضماد والملابس أثرت على الحرق، إما أن تأخذها إلى المستشفى لترقد هناك أو تستخدم الأدوية التي وصفتها لها وتبقيها في المنزل، أخشى أن تلتهب الجروح، لا أستطيع تقديم شيء هنا أكثر مما قدمت لها، المستلزمات الطبية تكاد تنفذ منا مع تدهور الأوضاع، أصبحنا كمن يقدم الإسعافات الأولية وحسب.

بدا الألم على وجهه ووجه مها وهما يسمعان ذلك، فقال له:

-حسناً سأفعل، شكرالك.

ثم حملها عائداً بها إلى السيارة، قالت مها في قلق:

-خذنا إلى أي فندق يا ولدي، أرجوك، إني خائفة عليها.

-حاضر.

امثل لأمرها تحرك بسيارته متجهاً بهم إلى أقرب فندق له حتى تنال بعض الراحة ومن ثم يعاودون رحلتهم، فلمح عن يمين الشارع (فندق المعلا)، الفندق الراقى بالمدينة، تردد في أعماقه كثيراً في الاقتراب منه بسيارته قبل وصوله إليه؛ لكن حالة ضياء كانت تدفعه للدخول والمجازفة علّ العاملين يتعاونون معه ويقدرّون حالتها، فركن سيارته ثم دخل، وبالفعل وجد ما كان يتوقعه، تكلفة الإقامة تصل إلى ثلاثون ألف ريال، لم تكن مناسبة له وفي هذا الوضع الصعب، قال الموظف الاستقبال في رجاء:

-أرجوك، لن ننتظر يوماً كاملاً هنا، بضع ساعات فقط، قدر الوضع الحالي.

عقد الموظف حاجبيه، وقال في ضيق:

-يمكنك الذهاب إلى مكان آخر، لست مجبراً على الإقامة هنا إن لم تستطع دفع المبلغ.

-الأمر ليس بيدي، أنا مضطر فقط، ألا ترى ما نحن فيه؟

-أعرف، ونحن هنا لسنا مركز إيواء ولا مركز للجرحى، افعل ما تراه مناسباً بعيداً عن هنا.

صمت شادي للحظات، إنه مجبر على القبول، حالة أخته لن تحتمل أكثر وستسوء، أخرج محفظته ودفع تكلفة الإقامة ليوم كامل، ثم نقلها إلى غرفة بالدور الثالث ومها تمشي خلفه وهي تحمل حقبيتهما، وقد بدا التعب عليها أيضاً، كانت الغرفة واسعة نوعاً ما وبها سريران وحمام ملحق بها وطولة إلى جانبها كرسيين إلى جانب النافذتين، أرقد ضياء على السرير ثم أسرع يحمل الحقائب عن أمه، وقال لها في إشفاق:

-أمي، حاولي أنتِ ترتاحي أنتِ أيضاً.

تنهدت وقالت في حزن:

-أولاً يجب أن أهتم بأختك وبعدها سأرتاح، بدل ملابسك المتسخة أيضاً واذهب لإحضار الأدوية لها وعد سريعاً، يجب أن تريح جسدك بعض الوقت.

-سأفعل، الآن سأضع ساتراً عند سرير ضياء حتى تتمكني من الاهتمام بها في وجودي.

هزت رأسها مؤيدة، وغادر شادي الغرفة، ليعود ومعه حبل أحضره من سيارته، ثبت أحد طرفيه بمقبض النافذة والآخر بمسمار كان خلف لوحة زينة ملاصقة بالجدار، ثم وضع عليه شرسفاً خفيفاً كان موضوعاً بالسرير الآخر فصار بهذا اقتطاع لجزء من الغرفة وبه سرير ضياء فقط مخفياً وراءه جسدها ما عدا رأسها ثم تركهما، ودخل الحمام ليغتسل ويبدل ملابسه التي تلطخت بدماء الفتى، كلما نظر إليها شعر برغبة عارمة في البكاء، كظم أحزانه جاهداً حتى لا يخرج وتراه أمه في حالة مزرية، ثم ارتدى ملابس نظيفة وخرج ليكمل باقي هندامه في المساحة المتاحة له من الغرفة، ولما استعد للمغادرة، وجد معها وقد أزالّت الضمادات

الموجودة بوجه ضياء، فظهرت إصابتها أمامه، كان حرقاً شبه عميق رطب وهي تتألم كلما مسحت بها الإصابة منظفة إياها بقطع شاش مبلل ودموعها تنهمر بصمت، أسرع يتعد من أمامها وخرج من الغرفة، لم يحتمل ما به، انفجر سد دموعه، بكى ملء عينيه، أسند جبينه إلى جدار الممر والألم يعتصر كل خلايا قلبه لما يجري حوله، فردد في أعماقه :

- لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت ، الله ربي لا أشرك به شيئاً، اللهم رحمتك ... اللهم رحمتك.

انتظر لفترة حتى هدأ، ثم مسح دموعه وأسرع ينزل الدرجات ليخرج من الفندق ويلبي حاجة أهله.

-كثيرون نزحوا عن طريق البحر.

-لا يمكننا ذلك، فالميناء تحت سيطرة التمردين.

-وأنا لا يمكنني ذلك، فزوجتي لا تحتمل ركوب السفن أو القوارب.

-الموارد بدأت تقل على الناس والمعاناة تزداد ولا إغاثة حتى الآن.

-نسأل الله الفرج و النصر على الظالمين.

-اسمعوا هذا الخبر، هناك منفذ بري جهة الدكة سيفتحه المتمردون في الصباح للأسر النازحة.

تناهى إلى سمع شادي أحاديث رجال كانوا جالسين قرب مدخل الفندق حين خرج، ولم يستوقفه إلا قول الرجل الأخير، فأسرع نحوه وهو يقول في لهفة:

-أحقاً ما تقول؟

-أجل، وجئت إلى هنا لأخبر أصدقائي بذلك، ستتحرك عدد من الحافلات من جهة حديقة (الحافون) عند الفجر لتتنقل من يرغب بالخروج.

فقال رجل آخر:

-سمعت أيضاً بأنه يتم استقبال نازحين بحضر موت ومنح مساعدات لهم.

-سأذهب إلى المكلا، أعتقد بأنه أنسب مكان، لقد أخبرني أحد معارفي عن المعاملة الطيبة التي يحظون بها هناك.

امتزجت مشاعره بين الفرح والألم وربما الغضب في تلك اللحظة، أطل شعاع أمل أمامه للخروج من المحافظة والنجاة بأهله من نيران الحرب، وما أضرم نيران الألم والغضب بقلبه هو من كان سبباً في نزوحه عن مدينته وإشعال الحرب هو من يسمح له بالمغادرة، كان من الممكن أن يستمر مع رضوان ورفاقه المقاومين ليدافع عن أرضه حتى النهاية؛ لكن لا عائل لأمه وأخته سواه.

فتتق الحرب جراحات كثيرة بقلبه ليسكنه الوجد، وضع يده على صدره، وربط على جراحه بحزم، وصعد سيارته وانطلق غرباً عبر الشارع الرئيسي باتجاه محطة الوقود ليملاً خزان سيارته استعداداً للرحلة الجديدة خارج المحافظة.

الفصل الثاني عشر

أطماع.. وسط العاصفة

بدأت له ظلمة الليل ظلمة سرمدية عسيرة الانجلاء.

منذ الصباح وهو يسير بسيارته، وكأنه قطع آلاف الكيلومترات وتنقل في أكثر من محافظة خلال يوم واحد باحثاً عن وميض صباح لن يولد أبداً، آفاق الدنيا ضاقت أمام ناظره، وزاد ألمه مع كل ألمٍ ألمٍ بهما، نفذ وقود العيش في نفسه إلا لأجلهما، روحه مثقلة بها، مشخنة من القتال بالجبهة، ومن القتال لأجل إنقاذهما من براثن الحرب. الاستماتة لأجلهما فقط هي ما تدفعه للصمود حتى النهاية، وإن عنادته نفسه، وإن تملكه اليأس، وإن ظلت ظلمة الليل قابضة كظلم الحرب ومجرمها.

اتجهت سيارته صوب محطة (مأرب) في الجهة الغربية من شارع (مدرم) والمدينة غارقة في الظلام بسبب انقطاع الكهرباء، وحين بلغها وجد أنوارها ساطعة؛ لكنه وقف ذاهلاً لما يرى أمامه.

طوابير طويلة للسيارات والحافلات تقبع أمامها، وأنوار مصابيحها تضيء المكان بدأت كالموكب الاحتفالي الكبير الذي يجوب أنحاء المدينة ليزف عروسين إلى مسكن الزوجية؛ لكن ما يجري الآن هو احتفالية من نوع آخر لا تمت للإنسانية بصلة ولا بأي مناسبة لها، اندهش في البداية؛ ثم ضرب جبهته ليعبد دهشته وهو يقول في صدمة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ما بي دُهشت هكذا؟ هذا الأمر قد حدث من قبل حين كنت في

خور مكسر، الغزاة... الغزاة يستحذون على كل شيء، رجال غيري من المقاومة كانوا هم
المسؤولين عن توفير الوقود لمركباتنا، وكل هؤلاء الآن ينتظرون حصتهم منه، لا حول ولا

قوة إلا بالله، هل سأظفر بشيء منه الآن؟

خرج من سيارته ليقترّب من سائق السيارة التي أمامه مباشرة، وسأله قائلاً:

- كم يجب أن ننتظر حتى يأتي دورنا؟

هز الرجل كتفيه وأجابه في يأس:

- إلى أن يأتي دورك، هذا إن حالّك الحظ ونلت ما تريد، الناقلة لم تأتِ إلا مرة واحدة منذ
بدأ الحرب.

تمتم في نفسه:

- رحمتك يا إلهي.

اضطر للانتظار مع الجموع التي انتظرت والقلق يتملكه، قد يرغب مجدداً على البحث عن

منفذ آخر إن تأخر في المغادرة وقرر المتمردون إغلاقه مرة أخرى، ودّ لو يعتذر من

الحاضرين، ويسمحوا لعامل المحطة بأن يبدأ بسيارته قبلهم؛ لكنه لم يستطع، الكل يريد

المغادرة، الكل يريد النجاة من جحيم الحرب المجنونة، الكل لديه عائلات وأكثر منه عدداً،

ما ينقل عقله وفكره هو جروح ضياء التي زادتها وجعاً وأرهقتها رحلة اليوم فقط، هل

بتفكيره هذا يعني بأنهم ليس لديهم جرحى مثله؟

شعر بالخنجل من نفسه ومن تفكيره الأناني، عاد إلى مقعده وأسند ظهره لظهر الكرسي وانتظر دوره في ألم وملل مثلهم. لم يذق أحد منهم أي طعم للراحة في وقت يفترض فيه ذلك، الكل قلق ومتوتر، وجمر الانتظار يحرق قلوبهم، يطالعون إلى من ينال حصته بشيء من الحسد حين يغادر المحطة وقد حصد ثمار الانتظار والسهاد، خمس ساعات ثقيلة مريرة مرت والعيون ترتقب وترصد دورها، آمليين بلوغ دورهم، ثم لم يلبثوا حتى نزلت صاعقة اليأس على رؤوسهم حين أعلن عامل المحطة نفاذ الوقود منها فأحرقت بقايا أملهم، صرخ معظم من لم يأت دوره، واجتاحهم الغضب، وعلا صياح وجدال، وحدثت مشاجرات بين الناس وعمال المحطة، وتحول المكان إلى فوضى كبيرة.

انسحب يائساً بهدوء مبعداً سيارته عن المحطة ومن زحام الناس، وأوقفها في الناحية الثانية من الشارع، فكر مهموماً وهو يضع مرفقه الأيمن على المقود ثم يرخي رأسه على راحة يده وينظر لجموع الناس الغاضبة، تتم:

-تعذب في أحضان الوطن حتى ننال حقنا؟ هذا كل ما جنيناه، ماذا بوسعي أن أفعل الآن؟ هل أترك سيارتي لأركب أحد الحافلات؟ ضياء لن تحتل الجلوس فترة طويلة أبداً مع اكتظاظ المقاعد بالركاب إن قررت تنفيذ هذا الأمر، حالتها لن تسمح بذلك. نظر لساعة يده المعلقة بمعصمه الأيسر فوجد عقربها يقتربان من الثانية عشر، سيكون المنفذ بالدكة مكتظاً بوسائل النقل المختلفة التي تقل النازحين، عجز عن التفكير، وقال في يأس:

-رحمتك يا ربي، ما الحل الآن؟

لم يستيقظ من شروده وتفكيره إلا على صوت رجل، يقول له برفق:

-تبدو مهموماً أيها الشاب، هل بإمكانني مساعدتك؟

انتبه لشاب في مثل عمره شديد السمرة يقترب من مكانه، وقد علت وجهه ابتسامة صغيرة،

رد عليه وهو يتنهد:

-وهل هناك غير المهم في هذا الوضع المؤلم؟ أشكرك لسؤالك؛ لكنك لا تستطيع حل

مشكلتي.

عاد الشاب يقول في ثقة واطمئنان:

-لم كل هذا التشاؤم يا رجل؟ الحرب لم تقصف كل الخير في البلاد ليندثر فينا، علّ في إمكاني

مساعدتك، لا، بل يجب أن نساعد بعضنا بعضاً في هذه الظروف.

تأمله ملياً بما استطاع أن يراه من مظهره عبر مصابيح السيارة الداخلية ومن الأضواء

الساطعة بالمكان حوله دون أن يفهم سبب إلحاحه عليه، الكل يعاني، وهو أمامه لا يبدو

أفضل حالاً منه؛ شعر أشعث كأنه لم يهتم بتهذيبه لفترة، وجسداً امتصت عافيته سجاجير

زكمت أنفه بدخانها الذي ظلت بقاياها عالقة بسترته الزرقاء المفتوح كل أزراها، فبان

قميصه الداخلي الأبيض مغبراً، وبنطاله الأسود الذي التصق به الأتربة فجعلته رمادياً

متجرداً من لونه الحقيقي، بدا مهلاً لنفسه كثيراً.

امتعض وجه شادي وهو يتأمل حالته ويتساءل في نفسه:

-كيف يريد مساعدتي وهو في هذه الحالة؟ بل كيف وصل إليها؟ هل بسبب الوضع الذي نمر به؟

ثم فكر، ربما لأنه لم يعرف طبيعة مشكلته بعد، فقرر إخباره حتى ينصرف، قال وهو يشير إلى المحطة:

-كنت أريد الحصول على بعض الوقود من المحطة لأغادر بأهلي من المحافظة؛ لكن للأسف، نفذ الوقود قبل أن أنال شيئاً منه.

ابتسم له ابتسامة أوسع من سابقتها حتى بانت أسنانه المصفرة، وهو يقول:

-هكذا إذن، لا شك بأن لديك حالة طارئة حتى تقلق كل هذا القلق وتستعجل الخروج، لدي بعض الوقود في منزلي وسأعطيك إياه لتتمكن من ذلك.
سر لقوله؛ لكنه سأله قائلاً ليطمئن عليه:

-وماذا عنك؟ أرجو ألا أعطل مصالحك إن ساعدتني.

هز رأسه وقال:

-لا تقلق، لو كنت ستفعل لما بادرت لعرض مساعدتي عليك.

غمرت الفرحة أعماق شادي أن سخر الله له من ينقذه من هذه المحنة فابتسم وقال:
-سأكون ممتن لك.

-منزلي في الشارع الثاني، لنذهب إليه.

اتجه الشاب للناحية الأخرى من السيارة وركب إلى جواره، ثم انطلق به إلى حيث أرشده، فسأله:

-ألا تنوي المغادرة؟

-لا، فليس لدي أحدٌ خارج المحافظة.

-ولا حتى أنا، ولكن قد تجد مكاناً آمناً أفضل من هنا.

هز الشاب رأسه وقال:

-أفضل البقاء والموت بمدينتي، وإن كنت لا أستطيع المشاركة بالقتال.

-وما يمنعك من المشاركة؟

-لا أتقن استخدام السلاح.

-كنت قبل فترة مقاتل مع المقاومة ولم تكن لدي خبرة في استخدامه، ومع ذلك قاتلت؛ لكن

للأسف لم أستطع الاستمرار بسبب ظروف أهلي، واضطرت للانسحاب منهم، إن كنت

ستبقى فانضم للمقاومة، المدينة بحاجة لهمة كل شبابها.

آثر الصمت لفترة، ثم رد عليه قائلاً:

-لا أريد القتال، ومع ذلك أشكرك لنصيحتك.

لم يعقب شادي على كلامه رغم أنه أثار استغرابه واندحش لطريقة تفكيره، شاب وليس لديه

حمية قتال رغم أنه يريد البقاء في مدينته والموت بها؟ شعر بأنه متناقض في تفكيره.

وبعد فترة وجيزة، أشار له بالتوقف أمام أحد المنازل ففعل، ثم تأمل المكان بالإضاءة الساطعة من مصابيح سيارته، في اللحظة التي نزل فيها الشاب وهو ينادي باسم أحدهم. كمثل معظم بيوت الحي، كان المنزل غارقاً في الظلام، بدا قديماً مكون من دور واحد، فقد طلاؤه في بعض المساحات من جدرانه ولم يتم تجديده، نوافذه الخشبية قديمة بعضها كان مفتوحاً خالياً من الستائر، وإلى جانبه مخزن صغير بني بالحجارة البيضاء وسقفه من حديد (الشينكو) تم تثبيته، أطل منه فتى صغير يشبه الشاب كثيراً في معظم ملامحه وحتى بعثرة مظهره وملابسه، إضافة إلى أنه كان حافي القدمين يحمل مصباحاً يدوياً بيده، لحق به شاب آخر طويل القامة معتدل البنية حازم الملامح، أكبر سناً منهما ببضعة أعوام، وبدا من أنه مهتم بمظهره على خلاف رفيقه، بعمامة البيضاء المربوطة حول رأسه، وسترته البنية المتناسقة مع فوطته البنية المخططة باللون الأسود، أثقل كتفه بندقية كلاشنكوف معلقة بها، ومسدس صغير معلق في حزامه.

رأى رفيقه الشاب يشير للفتى إشارة فترك المصباح بعهدة الرجل الآخر، ليدخل المخزن ويخرج حاملاً جالوناً متوسط الحجم، وهو يسير به متميلاً بسبب امتلائه، ذهل شادي لذلك، كيف امتلك هذه الكمية؟ اعتقد بأنه سيعطيه شيئاً يسيراً ليستطيع المغادرة به ويبحث عن الوقود بمحطة أخرى خارج المحافظة، ففوجئ بخلاف توقعاته، نزل من السيارة حين تناول الشاب الجالون من الفتى واقترب ليملاً خزان السيارة، فأشار له بالتوقف، وعقد حاجبيه وهو يقول في حدة:

-من أين حصلت على الوقود؟

رد الشاب بسرعة في ضيق ودون تردد وهو يضع الجالون على الأرض:

-ادخرته، ما المشكلة؟

-أكنت تتوقع حدوث هذه الأزمة؟

قالها بسخط، فارتبك على إثر قوله، ولم يعقب على كلامه، إلا أن الرجل الآخر قال لشادي

بحدة:

-هل أتيت إلى هنا لشرثر، أم أنك جئت لتملأ خزان سيارتك؟

التفت إليه وهو يقول في غضب:

-كم تريدون ثمناً لقاء ملء سيارتي؟

ابتسم الشاب ابتسامة واسعة وهو يقول في مكر:

-هكذا يكون العمل، لن يكون أقل من عشرين ألف ريال.

- ماذا تقول؟!!

انفجر بركان الغضب مع كلمتيه، فكلّمه في وجهه لكمة قوية سريعة أسقطته أرضاً، مفرغاً كل ما في صدره من ألم ويأس وإحباط إضافة إلى الغضب، تألم الشاب من الضربة والسقوط معاً حتى أنه أصيب بسحجات في ذراعه، وتكدم خده الأيسر، وأطلق أنه ألم؛ لكن شادي لم يكثر له ولم يمهل ليتدارك حالته، فانحنى قبل أن يعتدل وجذبه من تلايبه، وهو يصرخ في وجهه:

-تبتز أبناء بلدك في هذا الوقت أيها الحقير بدل أن تساعدهم؟ أهذا هو السبب الحقيقي لبقائك هنا؟

لم يستطع أن يرد عليه وهو يعالج ألمه وبان الفزع على وجهه حين كور شادي قبضته ليلحقه بلكمة أخرى لولا أن الرجل لكمه لكمة قوية هو الآخر مبعداً إياه عن صاحبه، سقط أرضاً، وتكدم خده هو الآخر وسالت الدماء من فمه، رغم ذلك كاد يهجم عليه من شدة غضبه إلا أن الرجل شهر مسدسه في وجهه وأوقفه عن الحركة، فقال الشاب وهو ينهض من مكانه يربت على موضع اللكمة، وابتسامته الساخرة تعود مجدداً:

-لا يهمني ما تقول، إما أن ترحل من هنا أو نتم الصفقة.

أسبل شادي جفنيه وهو يفكر كابحاً جماع غضبه ويمسح سيل الدماء من فمه بكف يمينه لا يمكن هؤلاء أن يعملوا منفردين في هذا الاحتكار والاستغلال الذي ظهر فجأة، وما هما إلا بداية لسلسلة من المجرمين توصل في نهايتها إلى سادة هذه الحرب الهوجاء المتنعمين بخيراتهما، ولا شك في أنه ليس الضحية الأولى لهذه الجريمة.

الوقت لن يسعفه للتفكير في أية قضايا أخرى الآن سوى قبول هذا الاستغلال ليتمكن من المغادرة وانقاذ أهله، قبل بالعرض راغباً وهو يلتقط عمامته لينفضها ثم يضعها على كتفه الأيسر، وملئ الشاب خزان سيارته بالوقود ثم ودعه بعد أن رآه يركب سيارته، وهو يقول في سخرية:

- أتمنى لك رحلة آمنة، ستكون هذه اللكمة ذكرى تعارفنا.

عقد حاجبيه وهو يقول في غضب:

-خسئتم، أنتم لستم أبناء بلدي.

اكتفى بابتسامته الماكرة وهو يحصي ما جمعه من مال.

قلبه قد ازداد ظلماً وظلاماً بانغماره بأعمال السوق السوداء منعتة وهو في أوج شبابه عن الاستجابة لنداءات الأرض، بل إنه تجاهلها، وربما لم يسمعها، طامعاً في أن يكون من الذين تغدق عليهم الحرب بكرمها، بينما حدجه الرجل بنظرات غاضبة حتى اختفى، وكأنه حارس شخصي للشاب.

انطلق بسيارته ولسانه لا يفتقر عن الدعاء لأجل أهله وبلاده، أن تكون فريسة للحرب والظلم والابتزاز بممتلكاتها وثروتها في هذا الظرف الصعب.

في نهاية جولته، أسرع يلبي طلبات أهله قبل أن يعود أدراجه إلى الفندق، ثم نظر لساعة يده فوجد عقربيهما عند الثانية، سيحل الفجر بعد ساعتين الموعد يقترب، يجب عليه الإسراع والانطلاق باكراً.

ولما وصل، وجد أمه نائمة على السرير الآخر، وكذلك ضياء التي ظلت إصابات جسدها مكشوفة فظل الساتر في موضعه، أسرع يجمع كل الأشياء التي استخدمت ليعيدها إلى الحقائق ما عدا ما يحتاجونه قبيل المغادرة، ثم بسط بطانيته على الأرض ومدد جسده المتعب عليها، وغرق في سبات عميق من فوره.

بعد فترة استيقظ مفزوعاً، فوجدهما جالستين على الكرسيين حول طاولة الطعام وهما تتناولان الخبز وطبق الفاصوليا وتحسبان الشاي العدني الذي أحضره لهما، فابتسمتا حين انتبهتا لاستيقاظه، فقالت مها في إشفاق:

- لماذا لم توقظني لترتاح على السرير يا ولدي؟ أنت متعب.

تجاهل سؤالها وهو يسألها في لهفة:

- كم الساعة الآن؟

- الخامسة والنصف.

قفز من رقاذه وقال:

- يا إلهي، يجب أن نغادر.

سألته في دهشة:

- إلى أين بهذه السرعة؟

- خارج المحافظة، هناك منفذ بري سيفتح بالدكة، وسيسمح للأسر النازحة بالمغادرة عبره.

تنفست الصعداء وقالت:

- الحمد لله، حسنا لا بأس، تناول شيئاً وعد لغفوتك قليلاً، وجهك مرهق جداً.

- ليس لدينا وقت للراحة يا أمي، لا بد أن نخرج من هذا الجحيم.

اقترب منها ليتناول شيئاً مما على الطاولة، فنهضت لأجل أن يجلس مكانها، حاول منعها

لكنها رفضت وهي تقول:

-لقد شبعنا والحمد لله، هيا اجلس.

امثل لأمرها وجلس، وتناول بسرعة ما قدمته له، ثم نظر لضياء وجدها تتململ في جلستها، وهي تمدد طرفها السفلي الأيسر بألم، فاحرق منتشر على الجهة الخارجية من فخذاها وساقها ملتفا حول ركبتها قليلاً معوقاً حركتها، وإن مشى سريعاً ألتها، كانت تخفيه بثوبها الأزرق الطويل الفضفاض، أما ذراعها اليسرى التي احتضنتها بحجرها فقد غطاها الضماد من أسفل الكم القصير إلى رصغها، إصابة وجهها هي التي ظلت مكشوفة وقد بقيت على حالها، كانت تحاول أن تمضغ طعامها على مهل حتى لا توجعها كثيراً وأيضاً لتطمئن من حولها، لم يخفَ عليه ما بدا عليها من ألم، كافحت لتخفيه قدر استطاعتها، وإعياء لبسها منذ خروجهم من المجمع الصحي، قال لها:

-كيف تشعرين الآن؟

ابتسمت له ابتسامة صغيرة وهي تقول:

-أفضل بفضل الله.

-عندما نتمكن من الخروج من هذا الحصار سأأخذك إلى المستشفى، لا تقلقي.

قالت وهي تهز رأسها:

-أنا بخير، أرجوك لا تقلق.

قال في نفسه قلقاً:

-أتمنى حقاً ذلك.

قالت مها لتطمئننه:

-الحمد لله الحمي قد زالت، وإن شاء الله سأواظب على دواءها حتى تتحسن.

اكتفى بهز رأسه، ثم سأله في قلق وهي تتأمل وجهه:

-ما هذه الكدمة التي على وجهك يا ولدي ولم ملايسك مغبرة هكذا؟ هل حدث شيء؟

- لا تقلقي عليّ يا أمي، أنا بخير، دعونا نسرع فقط.

عند الساعة السادسة والنصف، أخذ الثلاثة يستعدون للمغادرة، أخذت مها تساعد ضياء على ارتداء عباؤها وحجابها، بينما أخذ شادي الحقائب ونزل بها ليرتبها بحقيبة السيارة، ثم صعد ليساعد أخته على النزول وهو يسند جسدها إليه ويساعدها على المشي، وساعدها على الجلوس بكرسي المقاعد الخلفية، وهو يقول في رفق:

-استلقي يا ضياء متى ما أحسست بالتعب، رحلتنا لن تكون سهلة.

هزت رأسها، ثم صعدت مها على المقعد المجاور له بعد ما اطمأنت عليها، وجلس بدوره على مقعده لتنطلق السيارة بهم صوب الدكة، ولما وصلوا ناحية الخط الجسر البحري وجدوا طوابير طويلة من السيارات والحافلات عند نقطة التفتيش بها، عدد الأسر النازحة يقترب من ثلاثين، قام المتمردون بتفتيش كل الأمتعة، وكل الرجال، ثم جاء دوره ووصل إلى النقطة حيث فتشه رجالان ثم فتشا سيارته، وبعد دقائق سُمح لهم بالتحرك، الشمس مع ارتقائها في السماء بدأ هيبها يتصاعد، ازداد قلقها على ضياء التي استلقت على المقاعد وتظاهرت بالنوم

وحرارة الشمس وجو السيارة وملابسها وضاداتها تضاعف آلام جروحها، وتخزها كإبر على الجلد المكشوف والتهيج أعصابه تقلق راحتها وتختبر صبرها في هذا الوقت الحرج، بالإضافة إلى رقادها غير المريح على المقاعد، أغمضت عينيها حتى لا ترى وجوه المتمردين ولا المعاناة الخالدة في كل ما حولها.

ثم سُمح لهم بالمرور جهة الساحل ليقطعوا شوارع بوسط خور مكسر ويواصلوا بعدها طريقهم شمالاً إلى منطقة العريش، ورأى شادي ومها بألم حجم الدمار والخراب؛ الشوارع الميتة الخالية من أي حياة، البيوت المحطمة، البقع الخضراء لزينة الطريق تصحرت، البحر المطل عن يمينهم بدا كثيباً قائماً بشدة يودع أهله بحزن عميق مع إطلالة الشمس واقترابها من قبة السماء، ومدرعات الأعداء ودباباتهم مستعدة لأي تمرد من النازحين لتبيدهم بقذيفة واحدة، كل ذلك لم تره ضياء وهي تقاوم ما بها، ثم انعطفوا عبر جولة الرحاب ليواصلوا دربهم عبر ساحل أبين.

أخيراً، أقبلت الحرية أمامهم، أو هكذا يظنون وهم يخرجون من المحافظة، ويواصلوا رحلة النزوح، قال في نفسه بألم:

-هل سأعود إليك مرة أخرى يا عدن؟

حزن طغى على قلوبهم جميعاً، وكذلك ضياء التي لا تزال راقدة تتظاهر بالنوم وهي تستمع فقط لما حولها وتفهم ما يجري، الفرح بالحرية والنجاة لم يكن حاضراً، لقد فقدوا كل شيء لهم بالمدينة، فما الذي سيحنون إليه؟

الذكريات المتبقية في عقولهم هي من ستزورهم أينما حلوا، قالت مها محاولة تجاوز حزنها وطمأنه ولديها:

-علينا أن نختار ما فيه الأفضل، والأهم الآن أن نسعف ضياء.

رد عليها بحزم:

-صدقت أمي، هيا بنا.

تابع سيره في الدرب الإسفلتية الواسعة الواصلة إلى أين، ورغم كل مساعيهم لم يشعروا بالأمان حتى بعد خروجهم، كيف لا ومضمار الصراع بكل أرجاء الوطن، الرحلة التي من المفترض أن تستغرق ستة ساعات بدأت تتمدد ثوانيتها ودقائقها، نقاط التفتيش تستوقفهم في طول الخط، تفتش أمتعتهم، أزيز الرصاص يُسمع من بعيد من وقتٍ لآخر أو يشاهدون أعمدة الدخان تحتاج صفاء السماء جراء الانفجارات، ويصلهم دويهاً أحياناً فترعبهم، يخشون أن تصيبهم قذيفة طائشة لا هدف لها. لا الرحيل آمن ولا حتى البقاء، الموت صار منية من أثقل الفزع والوجع قلبه، وما من سبيل للخلاص إلا بتحرير الروح من الجسد، لتسكن الروح لبارئها، ويترك الجسد لعبث دنيا طال ليلها واشتد قتامة رغم كل شعاع الشمس التي تضيئ نهارها.

وبعد أن اجتازوا أحد النقاط، قرر شادي التوقف حتى تتفقد والدته حروق ضياء، فيخرج من السيارة ليظل واقفاً يمدد أطرافه قليلاً وفي نفس الوقت يسمح لها بأن تأخذ راحتها في

القيام بعملها في تنظيف جروحها ومعالجتها وجعلها مكشوفة لبعض الوقت ثم يغادروا المكان ويواصلوا سيرهم، تكرر هذا الأمر مرتين ورغم ذلك ظل الإعياء ملازماً لضياء. وبعد انطلاقتهم بساعتين، شعرت بضعف الرؤية أمامها والإعياء يكاد يهوي بجسدها إلى قاع الضعف، رغم ارتجاج السيارة حاولت أن تقاوم، أسندت كتفها الأيمن إلى إطار النافذة رغم الاهتزاز، فوق بصرها على مرآة السيارة اليمنى التي كانت إلى جوار مقعد مها، ذهلت وفتحت عينها اليمنى في صدمة، أما العين اليسرى فلم تمثل لها، كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها وجهها بعد إصابتها، وترى ندبة الحرق باتساعها، ترى النقيضين الذين حوآهما وجهها، شهقت في فزع، التفتت مها إليها، فرأتها رغم ألمها تبحث في حقيبة يدها الموضوعة قربها في سرعة لتخرج مرآة صغيرة وتنظر لوجهها، دمعت عيناها وهي ترى دموعها تنهمر على خديها، وتعض على شفتها السفلى بألم وتحسس موضع الإصابة، اتضحت حدود الحرق في مرحلة الالتئام وبدت البشريتين مفصولتين تماماً ولن تتجاوز أحدهما الأخرى أبداً، نظرت لتلك العين المنكمشة وكأنها تستنجد بأختها لكن النيران لم ترحمها، أدركت الآن لم كانت تشعر بأن رؤيتها مشوشة ومجال النظر قد تضيق بالجهة اليسرى، لم تكن تعي شيء من ذلك قبل الآن بسبب الإعياء الذي رافقها منذ إصابتها، خافت من انعكاسة وجهها فكيف بالناس حولها؟ لا شك في أنها أرعبتهم وهي تجلس دون أن تخفيها أحياناً، أشارت مها لشادي بالتوقف ففعل، وأسرعت تنزل لتجلس إلى جوارها وهي تحتضنها تقول:

-ستكونين بخير يا ابنتي، ستخفي هذه الإصابة، سنعمل على ذلك يا ضياء، اطمئني.
واصلت بكاءها وهي تقول لها بألم يسحق رفات الأمل الباقي في أعماقها:
-لم حدث معي هذا يا أمي؟ لم؟... ماذا فعلت حتى أصابني الغزاة هكذا؟ كنتُ... كنتُ في البيت فقط.

ردت عليها وهي تغالب دمعها وتتجرع غصة حزنها:

-ستتحسنين يا ضياء، لا تقلقي.

لم ينظر إليهما، وإنما وضع يمينه على صدره بقوة، ألم فطيع اجتاح قلبه شعر برغبة كبيرة في انتزاعه، وانتزاع إحساسه بأنه سبب مأساتها، فنشب أطراف أصابعه على عضلات صدره، وهو يقول في نفسه ودمعه ينهمر:

-سأبذل جهدي لأجلك، لا تبك... أرجوك.

ولما هدأت ظلت مها جالسة إلى جوارها ثم استأنفوا الرحلة.

لم تحتمل ضياء فكرة أن تمر إحدى سيارات النازحين قربها ويرى راكبوها منظر وجهها المفزع ومظهرها الجديد التي منحتها إياها الحرب ولا حتى أن يراه المتمردون، فظلت مستلقية على حجر مها معظم الوقت محتملة مطبات الدرب المؤلمة، أو تخفي إصاباتها بضماها حين تجلس معتدلة وترغب في تغيير وضعها.



لم تعد تلك الفتاة الجميلة مثل قريناتها، أصبحت شخصاً آخر تبدلت ملامحها وإن ظل قلبها كما هو؛ لكن... لماذا؟

لم تكن تدري، أخذت دموع الحسرة والقهر تنهمر من عينيها، لم تكتفِ الحرب بأن شردتها عن مدينتها حتى شوهدت جمال وجهها، تشعر الآن بأنها ستكون غريبة بغربتها وغريبة بشكلها وسط من حولها، بينما ظلت مها تمسح على رأسها محاولة التهوين على ما في قلبها بصمت.

ثم استأذنتهم الشمس لتختفي خلف الجبال، فبدت خيوط شعاعها محمرة خجولة من الانسحاب عن دربهم، ومجبرة على تركهم لوحشة الليل وسطوة ظلمته، فاختفى البحر والصحراء الذين كانا يحفانهم طوال الدرب، لحظتها قرر شادي مواصلة دربه إلا أنه سمع ضياء تثن من إصاباتهما، لم تستطع البقاء مستلقية، والاهتزازات تفتق جروحها التي بالكاد بدأت تلتئم، لم يحتمل ذلك وأوقف سيارته جانباً، والتفت إليها فوجدها جالسة ويدها اليمنى على ذراعها المصابة تحاول تخفيف ألمها، كاد يتكلم لولا أن بادرتة قائلة محتملة كل ألمها:

- لا تتوقف يا أخي، الدرب خطرة ولا أمان فيها، تابع سأحتمل... سأحتمل... أسفة لقلعة صبري.

رد عليها في إشفاق:

- لكن سلامتك تهمني يا ضياء، دعينا نسترح قليلاً لأجلك..

- وهل من السلامة أن نظل هنا؟ لا أحد يضمن ذلك، لا أحتمل أن يصيبكم أذى بسببي، سأحتمل، المهم أن نكون بعيدين عن المتمردين وشرورهم.

أما مها، فقد بدت حائرة بالفعل، ضياء على حق، وفي الوقت ذاته كانت مشفقة عليها وتتمنى لو تحقق ما اقترحه شادي الذي أسبل جفنيه ولم يعقب على كلماتها، الوقت يداهمهم فعلاً ولا خيارات تريح فكره وقلبه ليطمئن، لكنه قال لها:

- حسناً، تمددي قليلاً ريثما أملاً خزان سيارتي.

لم تعقب على كلماته واستلقت على جنبها الأيمن بمهل وهي تحتمل ألمها ثم أغمضت عينيها، ثم التفت لأمه وطلب منها أن ترتاح بدورها، قالت له:

- لا سبيل للراحة إلا إذا وصلنا.

نظر بعينه ناحية ضياء وهو يقول لها:

- لا بد أن ترتاحي قليلاً، الإعياء بادٍ عليك.

فهمت مها قصده، وامتلئت لأمره وهزت رأسها، ومدد لها كرسيها للوراء لتغفو قليلاً، بالفعل كان الإعياء مرتسماً على ملامح وجهها، لحظات ووجد سنة النوم تخطفها، ابتسم وخرج ليقوم بمهمته رغم شعوره بالوهن متغلغلاً في كل أنحاء جسده، وتصلب مفاصله من طول الرحلة، ودوار ظل مطبقاً على رأسه، قرر بعد تعبئة السيارة المشي بعض الوقت في الجوار لعل نسبات الليل تنعشه أو حتى إن تمدد على الأرض نال شيئاً من الراحة، عشر دقائق فقط وعاد بعدها لمقعده، فوجد ضياء تتحرك كثيراً وتزم شفتيها والدموع تنهمر من عينيها

المغمضتين في صمت، وعلى محياها ألم شديد، قلق، اقترب من رأسها جهة الباب حتى لا يوقظ أمه وقال بصوت منخفض:

-ضياء، ما بك؟

انتبهت له، وفتحت عيناها وقالت بنبرة لم تخلُ من الألم:

-لا شيء.

رد عليها في قلق زائد:

-لا شيء وتبكين؟! ما الذي يوجعك يا أختي أخبريني؟

عادت تغمض عيناها وتقول محتملة ما بها:

-وما الذي يوجعني؟! أهنأك شيء غير هذه الجروح يا أخي؟

مد يديه ليتفقد جروح ذراعها اليسرى، أبعدهما وهي تقول في رفق:

-لا تقلق علي، أرجوك، المهم متى...

قطعت كلمتها حين وقعت كفها اليسرى على يده فأحس بحرارة جسدها، فهتف في جزع:

-ضياء، أنتِ محمومة.

هزت رأسها وهي تقول:

-نعم، لكنني تناولت دوائي قبل قليل، لا تقلق ستزول الحمى والألم معاً وسأنام.

لم يشعر بالاطمئنان من كلماتها، ربما لا يزال أمامه ساعة أو ساعتين حتى يصلوا إلى المكلا،

ظل قلبه مرهقاً كجسده لأجل أخته ولكل معاناة مرت بها، قرر الاهتمام بها حتى تخف

حرارتها قليلاً، أخذ منشفة صغيرة من حقيته الموضوعة بحقيبة السيارة ثم ببلها بعض الماء من قارورته ووضعها على جبينها، انتبهت له، قال مشيراً لها بالصمت وعلى وجهه ابتسامة تشجيع صغيرة:

- سأهتم بك حتى تنخفض حرارتك بسرعة، استرخي.

أرادت أن تكلمه فمنعها، وهو يقول:

- رجاء لا تتكلمي، ونامي. ابتسمت وأسبلت جفنيها لتحاول النوم، كانت سعيدة بمساعدته ووقوفه إلى جانبها وإثارها على نفسه رغم إعيائه ومعاناته هو الآخر.

وبعد ساعة أحس بوطأة الحمى تخف عنها، عاد لمقعده وانطلق من جديد، ورغم مساعيه لأجلها إلا أنها كانت تزداد وهنا ووجعاً من مطبات الدرب، ظل قلقاً حتى جاءت اللحظة التي انتظروها جميعاً.

أطلت أمامه بيوت متواضعة صغيرة وأكواخ الخشبية، وظلت الجبال تقترب من الدرب السفلية على الجهة اليسرى للطريق، بينما ظل البحر على الجهة اليمنى، ونساته مع برودة الليل تخفف شيئاً من معاناتهم، كانت تلك سواحل (بروم) الواقعة غرب مدينة (المكلا)، قطعوا الدرب مواصلين الطريق نحو المكلا عاصمة محافظة حضرموت.

اتجه شادي بأهله نحو مدينة جديدة، عالم آخر يأمل الاستقرار فيه، إلى مدينة لم يرها هو أو أي فرد من أهله في حياتهم قط.

الفصل الثالث عشر

لعزة النفس مكان

مهما تعددت أشكال الحرب وأساليبها وطقوسها فإنها في النهاية لا تعرف للرحمة سيلاً، ولا للقوانين التزاماً وتنفيذاً نحو أي كائن ولأجل أي كائن، سواء كان ساكناً بدائرتها أو حتى وافداً إليها، السلطة والمصلحة المطلقة لأفرادها هي كل شيء وفوق أي شيء.

لم يكن النزوح ومشقته شفيعاً للقادمين من البعيد، استوقف رجال العصبة سيارته أول ما أقبلوا مشارف فوة من مدينة المكلا، وقاموا بتفتيشها ليتأخروا وينتظروا كما فعل المتمردون

٢٣٢

وعندما تجاوزوهم، تنفسوا الصعداء، أخيراً شعروا بارتياح لبلوغهم غايتهم بسلام، لم يفكر شادي في أخذ استراحة أو الذهاب إلى مكان إلا للمستشفى لأجل ضياء، فقد بلغ الوهن وجهر الحمى من جسدها مبلغاً شديداً خلال رحلة النزوح لأجل الوصول إلى المكان الآمن، ورغم كل ما بها كانت ما تزال متنبهة لما حولها، حمدت الله أن وصلت مبتغاهها وكل أهلها بخير حولها.

اتجه بهما مباشرة إلى مستشفى (ابن سينا العام) الذي أرشده الناس إليه، وأدخلها بعد أن نقلها على كرسي متحرك إلى ردهة الطوارئ، ثم فحصتها طبيبة مناوبة، كانت المستشفى بكل باحتها وممراتها وأقسامها مكتظة بالجرحى وأهلهم من النازحين والمرضى من سكان المدينة،

تأمل الناس حوله، كل بإصابات مختلفة من سكان عدن وغيرها من المحافظات الأخرى، يبدو أن الوضع آمن هنا على خلاف عدن؛ لكن الحرب تلقي بأثقالها على كاهلهم. بينما ظلت مها تراقب الطيبة التي كشفت إصابات ذراع ضياء قليلاً ثم طلبت منهما الانتظار خارج القسم لبرهة ريثما تتم عملها، امتثلاً لأمرها والقلق يملأ نفسيهما، دقائق وأقبلت تستدعيهما وقالت:

-إصابتهما ملتهبة قليلاً؛ لكنها ستتحسن بإذن الله، لذا هي في حاجة لتعالج تحت إشرافي لبعض الوقت.

سألها في قلق:

-وكم ستبقى هنا؟

-لا أدري، إلى أن أرى تحسناً إن شاء الله، جسدها متعب جداً.

-كما تريدن.

نُقلت بعدها لقسم الترقيد الجراحي المخصص للنساء، لم يكن مسموحاً له بالبقاء فترة طويلة إلا لأجل تسليم الممرضات الأدوية المطلوبة لأجلها، وحين لبى طلبهن أطل برأسه ليراها، كانت محاطة بساتر طبي ناحية الباب، وبآخر شبكي أحاط بالسريير كله لأجل أن تظل إصاباتهما مكشوفة، استطاع أن يرى وجهها فقط من خلف الشباك، فوجدها نائمة باسترخاء ملاحظها هادئاً رغم كل المصاعب التي مرت بها والمرض والإعياء اللذان ألما بها، ابتسم حين اطمأن قلبه، ثم خرج وعاد بعد دقائق وهو يحمل بطانية وشرشفاً لأجل أمه لتفترش الأرض

به وتستطيع النوم عليهما قربها، إذ أن الغرفة كلها ظلت مشغولة بثلاث مريضات أخريات ومرافقتهن، ولم يكن هناك سرير لمرافقة بل كرسي في إمكانها الجلوس عليه، كما جلب لهما بعض الفاكهة من محل خضار قرب أسوار المستشفى، واستأذنها ليغادر، فقالت له في قلق:

-إلى أين ستذهب يا ولدي؟ أنت متعب جداً.

رد بنفس مجهد:

-تعلمين أنه لا يمكنني البقاء هنا، سأرتاح قليلاً ثم سأذهب لأبحث عن سكن مناسب لنا.

-وأيّن ستستريح؟

ابتسم لها ابتسامة حانية وقبّل رأسها، ثم قال:

-سأندبر أمري يا أمي، لا تقلقي علي، المهم أن ترتاحي أنت أيضاً، وإن احتجتِ شيء اتصلي بي.

هزت رأسها، وقالت في إشفاق:

-أرجوك، انتبه لنفسك.

-سأفعل يا أمي لا تقلقي.

ابتعد عنها متحاملاً على نفسه محاولاً الصمود أمامها بما تبقى من قوة في جسده، لم يكد يغادر القسم حتى شعر بالإعياء بكاد يقضي عليه تماماً وهو الذي ظل يقاومه أمداً لأجلها، أخيراً حقق مراده وسكنت الراحة أعماقه، لذا لم يعد يشعر بطاقة الكفاح تجري في جسده، بدأ الخدر يستحوذ على أطرافه، وقواه تنهار بشكل كبير، لم يكن بباله أي مكان أو أية وجهة ليذهب

إليها ويرتاح فيها، خرج من المبنى وهو شبه غائب عن الوعي ليبحث له عن زاوية قرب أحد جدرانه لا يمر قريبا أحد، اختار مكاناً رآه مناسباً يحيله عن المارة بالطريق الرئيسية داخل حرم المستشفى أشجار الزينة مغروسة في تربة بمساحة صغيرة مستطيلة الشكل ومحاطة بسيياج قصير، كانت على مسافة منه، ومتفرقة مثيلاتها حول المبنى بانتظام، جلس ثم وضع عمامته على الأرض ليتخذها وسادة له، كل همه هو أن ينام فقط، نام بعمق كأنه لم يذق طعم النوم في حياته قط.

بعد فترة، لمعت في عينيه أضواء مشوشة بعيدة يوطرها السواد، عيناه تحرقانه فظلتا شبه مغلقتين، أجفانه ثقيلة عجز عن رفعهما سريعاً، وأحدهم يهزه من كتفه، ويقول:
-أيها الشاب، استيقظ.

بصعوبة بالغة استطاع فتحهما، رأى رجلاً أكبر منه سناً يجلس قربه، بدا من زيه بأنه من حراس المستشفى، قال له في قلق:

-هل أنت بخير؟! منذ متى وأنت هنا؟ كيف دخلت؟ رأيتك على هذه الحالة بعد وقت العشاء، وما قد رفع أذان الفجر ولم تستيقظ أبداً أو تتحرك ولو قليلاً فقلقت عليك.
انتبه بأنه لا زال نائماً على جنبه الأيمن كما استلقى أول مرة، ألقى ببصره على ما حوله، تبين له بأن الظلام لا يزال يطغى بسواده على الأرض، ومصابيح الإنارة بالطرق المؤدية للمستشفى ومصابيح المسجد والمطعم المتواضع داخل حرمها لا تزال مضاءة، اعتدل جالساً ورأسه لا

يزال ثقيلاً، وجسده زاد تصلباً من رقوده لساعات طويلة، وبرودة الليل تغلغلت في عظامه فزادت مفاصله وجعاً، انتبه بأنه لا يزال مبعثر المظهر؛ ملابسه متسخة ورائحة جسده منفرة، تذكر ملامح وجهه في الصباح حين طالعها بنظرة خاطفة غير مقصودة عبر مرآة سيارته، وجهه شاحب وشعره مبعثر ولحيته كثيفة، لم يهتم بمنظره في لحظة تعبته وقلقه على ضيائه، لكن نظرات الحارس وتساؤلاته جعلته يستعيد ما كان، هو أمامه الآن كالمتشرد أو المتسول أو ربما المجنون الذي يتسكع طوال النهار بالشوارع باحثاً عن مجهول لا يعلمه إلا هو، لا يهتم بمظهره أبداً، ويقتات من أي فتات يجده، ثم يبحث أخيراً عن أي بقعة ليأوي إليها حتى يجدها فيلقي بجسده المتعبن فيها، لا بد أن الحارس ظنه كذلك، وبأنه مات بعد طوال تشرد حين ظل على حركة واحدة طوال الليل، فالذي سيدفعه للتفكير بأن المائل أمامه هو خريجٌ من جامعة عدن، وبشهادة علمية كبيرة ودرجة وتخصص فريد؟ فما الفرق الآن بينه وبين كل من خطر وابلاله؟

لا شيء يميزه في منظره هذا ليثبت مكانته، حتى طريقة تفكيره كانت مثلهم غمماً. هو ذل الحرب الذي لبسه مرغماً فأنزله من مرتبته ومكانته أمام الغرباء المارين قربهِ، توقع أن يطرده فور عثوره عليه أو يفتعل شجاراً معه لانتهاكه حرمة المستشفى برقوده في مكان غير مناسب؛ لكن الله أنزل شيئاً من الرحمة في صدره وأسكنها في قلبه فتركه يكمل نومه حتى إذا طال رقوده داهمه القلق، فاقترب ليوقطه ويتأكد من سلامته.

حزن في أعماقه لحالته رغم أنه لم يبده أمامه، التقط عمامته وأسند يده إلى الجدار ليقف بمساعدته، ثم قال له:

-شكراً لإيقاظي، عناء الرحلة التي مررت بها أرهقتني فنمت دون وعي.

وقف الحارس وسأله في دهشة:

-أنت من نازحي عدن؟

-نعم.

-ألك مريض بالمستشفى؟

-نعم.

-أعانك الله، هل من خدمة أسديها إليك؟

صمت للحظات مفكراً، فكره لا يزال مشوشاً لم يكن مستعداً بعد لأي شيء حتى يتعرف على المدينة أكثر، وبعدها يستطيع أن يقرر ما الذي يتوجب عليه فعله فيها، قفز أول أمر خطر بباله إلى لسانه، فقال:

-هل في وسعي العثور على سكن مناسب هنا؟

فكر، ثم أجابه:

-لا أظن، كثير من الناس قدموا إلى المكلا ومن مختلف محافظات البلاد مع اشتداد الحرب، أعتقد بأن مهمتك ستكون عسيرة في العثور على سكن مستقل، الحل أمامك إما أن تختار الإقامة في فندق، أو اللجوء لمراكز الإيواء.

مال شادي برأسه حين أثقلته الحلول، كلها غير متاحة أمامه، ضياء لن تستطيع الانسجام مع وضعها الحالي في مراكز الإيواء المزدحمة بالنازحين من كل مكان، وأيضاً الفندق سيستنزف ما بقي من مال في جعبته، شكر الرجل ثم توجه إلى سيارته وهو يسير بخطوات واهنة، التقط بعض الملابس من حقيبته ليذهب ويستحم في حمام المسجد ويبدل مظهره السيئ؛ لكن تفكيره استوقفه، أخرج محفظته من جيب سترته ثم فتحها ليعد ما تبقى بها من نقود فوجدها لا تتعدى ثلاثة آلاف ريال، هُلع، إلى أين سيوصله هذا المبلغ الزهيد؟! لن يتم تكلفة علاج ضياء، ولن يوفر مسكناً لهم، ولا طعاماً مناسباً حتى إن قرر القنوط في حق نفسه، دارت الأرض به، فأسند يده إلى غطاء السيارة، واضطرب فكره أكثر مما هو مضطرب ومشوش ومتعب. من سيساعده وسينقذه في محنته هذه؟ من سيمنحه سكن مجاني أو سيمهله حين تسلمه لراتب والده المتوفى والذي لن يستلمه إلا نهاية الشهر وهو لا يعرف أحداً بالمدينة ليساعده؟

لا يزال أمامه أسبوعان وربما المدة تطول في ظل الحرب ويتأخر في استلامه، هذا المال هو كل ما تبقى لهم كراتب شهري يستلمه بانتظام ليسير أمورهم بها، لم يمتلك بعد أي عمل يدر عليه دخلاً جيداً سوى أعمال يسيرة في بعض الورش حصل منها على مبالغ بسيطة لا تليي حاجة فرد فكيف بأسرة؟ مالذي يجب عليه أن يفعله؟

دعا ربه أن ييسر أمره وأمر أهله، واتجه بعدها إلى المسجد وهو في دوامة القلق ليفرغ كل أدران الرحلة من جسده وإن ظل التعب والوهن لا يزالان يسيريان في جسده، اغتسل وبدل

ملابسه وتطيب، وأدى صلواته التي فاتت عليه من دون قصد، ولما انتهى انتبه لهاتفه يرن، فأخبره من جيبه ليجدها مكاملة من أمه، وقبلها مكالمات كثيرة فائتة منها، انتفض فزعاً، أسرع يرد عليها وهو يخرج من المسجد، فأجابته في خوف ولهفة قبل أن يرد:

-شادي! أين أنت يا ولدي؟

أجابها في قلق:

-لا أزال في المستشفى يا أمي، هل أنت بخير؟ هل ضياء بخير؟ هل حدث شيء؟!

هتفت بكلمات بعثرتها الدموع:

- بل هل أنت بخير؟ لم لم تجب عن اتصالاتي؟ أين كنت؟ نحن بخير ولم يحدث شيء.

أدرك لحظتها سبب اضطرابها، فقال مهدئاً:

-لا تخافي، أنا قادم إليك الآن.

أغلق الهاتف واتجه مباشرة إلى القسم وحين أقبل إليه وجدها عند باب الغرفة الرابعة واقفة تنتظر إطلالته، الغرفة التي ترقد بها ضياء، وما أن دخل ودنا منها حتى عانقته باكية وأخذت تلشمه وتقبله طويلاً، وهي تقول في خوف وقلق:

-أين كنت يا ولدي؟ أين كنت؟ بحثت عنك بعد أول اتصال ولم تجبني، اتصلت بك بعد

ساعتين من مغادرتك إيانا، ومن وقتها لم أكف عنه، سألت كل من حولي عنك فلم يرك

أحد، نزلت بنفسني أبحث عنك ولم أجذك، كنت قلقة عليك منذ أن تركتني، خشيت أن

تمرض أو أن تفقد وعيك من شدة التعب بعد رحلتنا تلك وتسقط في أي مكان لا نعلمه

وأنت في تلك الحالة فنفقذك، حتى ضياء استيقظت وسألت عنك تظاهرت أمامها بأن تغطية شبكة الهاتف لم تتح لي الاتصال بك، وتارة أخبرها بأن تواجدك معنا غير مسموح به الآن، حاولت أن أخفي الأمر عنها، خشيت أن يداهمها القلق عليك، يكفيها ما بها، أجبني الآن، أين كنت؟ ماذا حدث معك؟

لم يشأ أن يخبرها عما حدث وعن وضعه المزري الذي كان به، قلبها المرهف قادها لحالته، لم يبعدها عنه تركها حتى تروي قلبها وتطفئ نار قلقها، فعاد يطمئنها قائلاً:

-كنت قريباً منك؛ لكن النوم أخذني بعيداً ولم أستيقظ على اتصالك رغم أن الهاتف ظل في جيب سترتي، آسف لما سببته لك من قلق، اطمئني، هأنذا قربك.

أرسلته وتأملت وجهه، لا تزال مشاق كل الظروف التي مرت بهم مرتسمة على وجهه، فمسحت دموعها وقالت:

-أبقى قرب بوابة المستشفى الرئيسية ولا تبتعد عنها، حتى إذا لم أتمكن من الاتصال بك وجدتك بمكانك.

-حاضر.

-هل تناولت شيئاً؟

نسي تماماً بأنه لم يذق أي طعام منذ الصباح، القلق على كل شيء ومن المجهول أفقده التركيز على نفسه كثيراً، فقال لها:

-الآن سأشتري لنفسي شيئاً، اطمئني.

فتحت عيناها في صدمة، وقالت حازمة:

-لم تأكل منذ الصباح؟ لهذا وجهك لا يزال شاحباً ومصفراً هكذا، سلّم على ضياء ودعنا نذهب سوياً، سأشتري لك طعاماً بنفسني.

أمسكت بيده لتدخله الغرفة، فقال لها:

-لا تـ...

قاطعته:

-لا تناقشني.

صمت تلبية لأمرها ودخل الغرفة فوجد ضياء لا تزال مستلقية على سريرها وقد أزيلت السواثر الطبية عنها وارتدت ثوباً واسعاً غطى جسدها وإصاباتها، ظهر الضماد على ذراعها وجهها، ابتسمت له، فابتسم لها حين رآها بخير، وسلم عليها ثم قال:

-كيف حالك الآن؟

-بخير والحمد لله، لقد أخبرتني الطبيبة قبل قليل بأن في إمكاني المغادرة بعد أربعة أيام.

ابتسمت مها، وقالت في سرور:

-صحيح أن الإصابة ملتهبة قليلاً، لكنها استجابة جسد ضياء للعلاج كان كبيراً، ستحسن خلالها حسب ما ذكرت الطبيبة، وقالت بأن تعاملي مع الحروق كان سليماً، وهذا سيساعد مع العلاج التي ستتابعه هنا على استعادة عافيتها سريعاً، ثم سأتابعه بنفسني بعد خروجنا إن شاء الله.

-أربعة أيام!! يتوجب علي الآن تدبر كل شيء سريعاً، المدة قصيرة جداً، يا إلهي ساعدني.
تمتم شادي بذلك في نفسه، وشرّد بفكره تماماً عنها والقلق يداهمه، لاحظتنا ذلك، فسألته
ضياء:

-هل هناك مشكلة يا أخي؟

انتبه وقال سريعاً:

-لا، أنا سعيد لما قلته، أتمنى لك الشفاء العاجل يا أختي.

أدركت مها ما جال في خاطر ابنها، فقالت لضياء:

-سأخرج قليلاً مع شادي لأشتري شيئاً، وأعود إليك، لن أتأخر.

أحست بأنها يخفيان أمراً، فهزت رأسها وسمحت لهما، ثم خرجا من الغرفة، فقالت مها له
في حزم:

-أولاً يجب أن تأكل ولن أتركك حتى أراك تفعل ذلك.

قال في توتر:

-أمي، لن أشتري شيئاً كثيراً، لم يعد لدي مال كاف، ونحن في حاجة للدواء لأجل علاج
ضياء.

-قل ما تشاء، المهم أن تأكل ما سأختاره لك.

لم يستطع منعها، اشترت له فاكهة وخبزاً وبعض الدجاج من مطعم المستشفى، ازداد توتراً،
وهمس لها قائلاً:

-أمي، هذا كثير، لم يتبقّ معي إلا ثلاثة آلاف فقط.

قالت في حزم أكثر وبنبرة همس مثله:

-هل تظن بأني لا أفكر معك أيضاً؟ سنفكر في القادم لاحقاً، المهم أنت الآن.

رد في حيرة:

-كيف؟

-كُل، بعدها أوضح لك مرادي.

أخذ ما طلبته وخرجا، عاد للمكان الذي نام فيه وجلست قربه، فقال لها في قلق زائد:

-أمي، هلا أخبرتني كيف ستتدبرين الأمر ونحن لا نعرف أحداً هنا؟ أنقذيني من حيرتي فما عاد في صبر.

فرشت له أطباق الطعام على الأرض قربها ثم قالت له في رفق:

-تناول طعامك وبعدها أخبرك.

-لن أستطيع تناول أي شيء، أشعر بأني سأغص به من شدة قلقي وحيرتي.

-حسناً، حملتُ بعض مجوهراتي معي، بعها في الصباح وابدأ مهمتك في البحث عن سكن لنا.

بدا الهم زائد على قلبه، وهو يقول لها:

-أحسستُ أنك تنوين فعل ذلك، لكنني لا أرغب حقاً في أن تقدمي عليه، سأحاول أن أجِد طريقة أخرى.

ربت على كتفه، وقالت:

-بني، إن لم نستخدم هذا المال وقت حاجتنا فما فائدته؟ أعلم أنك لو كنت في عدن لبحثت عن ألف وسيلة ووسيلة لأجل الحصول على المال ولن أمنعك لأنك ستكون في مدينتك التي ألفتها، أما هنا فأنت لا تعلم شيئاً ولا تعرف أحداً، لذا بع ما يمكنك به تيسير أمورنا ولأجل ضياء.

شعر بأن كلماتها قد غلبته حين نفذت الحلول في رأسه، فقبله مرغماً، واقترب منها وقبل رأسها، وهو يقول في حزن:

-أسأل الله أن يعينني على تعويضك عما فقدته يا أمي.

ابتسمت وقالت:

-بل إن الله سيعوضني طالما إنكما قربي وإلى جاني، حفظك الله يا ولدي أنت وأختك. أبعده حزنه وبادها الابتسامة، ثم تناول طعامه وظلت إلى جواره ترقبه، ولما فرغ اتجه لسيارته ليستريح بعض الوقت فيها، بينما عادت هي إلى قسم الترقيد.

ومع شروق الشمس بدء رحلة بحثه، سأل بعض المتواجدين بالمستشفى، وعرف منهم أسماء بعض المؤجرين للشقق والذين يستطيع سؤالهم عن سكن مناسب، فقال أحد النازحين له: -الأفضل أن تذهب إلى (مؤسسة الربا)، صاحبها السيد (عبد الكريم) رجل كريم جداً، وواثق بأنه سيساعدك في ظرفك الاستثنائي هذا.

بدا البشر على وجهه وهو يقول في سعادة:

-حقاً؟!

هز رأسه وأجابه:

-أجل، إضافة إلى ذلك فهو يمنح النازحين شققاً دون مقابل لمدة شهر ويتعامل معهم كل حسب وضعه.

ابتسم وقال:

-أسأل الله أن أجد شقة لديه، ليس لدي المال الكافي للإيجار في الوقت الحالي.

قال في حزم:

-المهم أن تقابله شخصياً وتخبره بوضعك، وإن لم تجد سكناً لديه، فلا بد أن يساعدك في العثور على سكن عند غيره.

صافحه بحرارة وهو يقول ممتناً:

- شكراً لك، جزاك الله خيراً، سأنفذ ما أوصيتني به، أفدني بعنوان المؤسسة رجاء.

أفاده بالعنوان، ثم خرج من المستشفى، قرر ترك سيارته لحين تدبره لأمر المال، واستقل الحافلة العامة بدلاً منها، حركة المواصلات كانت دؤوبة منذ إطلالة الصباح، الشوارع مكتظة بأجساد البشر، حين صعد إليها التقى بعدد من سكان مدينته وتبادل معهم

الأحاديث، واستمع إلى قصص نزوحهم المؤلمة ورحلتهم إلى هنا، ثم ظروف معيشتهم الحالية، المدينة تعاني وطأة الحرب وسطوة مجرمين آخرين لم يرحموا أهلها أبداً واستحوذوا على

خيراتها لهم، ومع ذلك صارت ملجأً للفارين من الحرب في المناطق التي اتخذت من السلاح اليد الضاربة لفرض سلطتها على البشر والحجر، المكلا بمعاناتها أيضاً لن تحتمل اكتظاظها باللاجئين إليها من كل مكان، لكن لا حلول متوفرة لدى أحدهم.

ليس أمامهم إلا الدعاء لتنجلي هذه الغمة في القريب العاجل.

بعد ثلث ساعة، وصل إلى منطقة (أربعين شقة) حيث العمارة التي بها المؤسسة، استغرب حين قرأ لافتتها العريضة تحمل اسم فتاة، فكر ربما يكون اسم ابنته أو قريبة له ويحبها كثيراً وتيمناً بها سمى المؤسسة باسمها، دخل وسأل موظف الاستقبال عنه، فقال له معذراً: -آسف، إنه غير موجود الآن؛ لكن في إمكانك مقابلة نائبه.

-سأنتظره، متى سيأتي؟

هز رأسه وقال:

-لقد أصيب قبل أمس بطلق نارٍ وهو طريق الفراش في منزله، لا أدري حقاً متى سيعود إلى عمله.

رفع حاجبيه وقال في صدمة:

-أصيب بطلق نارٍ!!

عقد الموظف حاجبيه، وقال في ضيق:

-لا تؤخرني عن عملي رجاءً، إن كنت تريد شيئاً آخر ففضل.

شعر بخيبة ألم كبيرة وبأن الحظ لم يحالفه، إذ أنه تشجع من حديث الرجل على مقابلته هو وشرح وضعه له، فهل سيساعده نائبه مثله؟ وحتى إن قرر الوصول إليه وزيارته في منزله فلن يكون من اللائق أن يشكي له همه وهو في جريح طريق الفراش، والانتظار طويلاً ليس في صالحه، نظر للموظف وقال:

-حسناً، أخبر نائبه بأني أود مقابلته.

نهض الموظف من مكانه ودخل المكتب ليستأذن منه، وخرج بعد لحظات ليسمح له بالدخول، دخل ورأى سهيلاً جالساً خلف مكتبه، سلم عليه، فرد عليه مرحباً في ابتسامة، ثم سمح له بالجلوس، وسأله:

-ما هو طلبك يا سيد؟

توتر قليلاً وارتبك، لم يكن مستعداً لمقابلة غير الرجل الذي شعر بارتياح شديد له من مجرد حديث، لكنه قال:

-إني أبحث عن شقة لي ولأهلي، أنا قادم من عدن ولا أعرف أحداً هنا، وسمعت بأنكم تمنحون النازحين بعض الشقق كمكان إقامة دون مقابل لمدة شهر.

تنهد سهيل ثم قال:

- هذا صحيح؛ لكن الشقق كلها صارت مشغولة الآن، ولم يعد لدينا أي مكان شاغر، ولو أنك أتيت أمس لكنت وجدت مكاناً.

زادت صدمته، لقد وصل مساء أمس فقط، لو أنه تحامل على نفسه وبدأ سؤاله وبحثه واتجه إلى هنا لم تكن الفرصة لتضيع من بين يديه، صمت متجهماً، فقال له سهيل:

-مراكز الإيواء مفتوحة يمكنك الذهاب إليها.

نكس رأسه، وقال في ألم:

-لا أستطيع، ظرفنا الحالي هو ما يجبرني على البحث عن سكن منعزل، أختي مصابة بحروق بليغة ولن يكون وضعها مناسب في مكانٍ مزدحم، هي الآن في المستشفى وأنا أبحث لأجلها.

رد عليه في أسف:

-أسف لأجلك، كنتُ أتمنى مساعدتك.

رفع رأسه، وقال له:

-حسناً، هل في إمكانك إفادتي باسم أحد المؤجرين الذين يستطيعون إمهالي بعض الوقت حتى أستطيع تدبر أمر الإيجار؟

رد عليه بسرعة وحزم:

-الأمر ليس متعلقاً بالاسم بقدر ما هو متعلق بالاتفاق بينكما، سأفدك بعناوين مكاتبتهم حتى تسألهم بنفسك وتتفق مع أحدهم إن شاء الله.

أدرك شادي من نبرة حديثه وسرعة كلماته بأنه لا يريد مساعدته ويريد أن ينصرف سريعا، تجاهل ذلك وهو يقول في شيء من الرجاء:

-هل في إمكانك أن تتحدث إلى من تثق به؟ ربما تستطيع اقناع أحدهم لمساعدتي.

هز رأسه، وقال في نبرة ضيق:

-أعتذر إليك، لا أستطيع أن أجبر أحداً على قبول طلبك، افعل هذا بنفسك.

أصابته نوبة يأس، لقد فشل في أول خطوة له، وربما يلحقها فشل آخر، أبعد بصره عنه وتنهَّد بعمق وهو يتمتم:

-خيبة أمل.

ازداد الضيق على وجه سهيل، فقال بعصية حين لم يسمع كلماته:

-عفواً!!

بدا شارداً تلك اللحظة، عيناه ساهمتان نحو الأرض، تذكر العقد والقرطين اللذين أعطتهما إياه أمه، لم يرغب في بيعهما؛ لكنه قد يجبر في أية لحظة إن طال بحثه اليوم ولم يجد حتى من يساعده أو يستدين منه ولو لفترة وجيزة، هز رأسه لينفض الإحباط عن فكره وهو يقول في نفسه:

-لا زلت في أول يوم، لا تزال أمامي فرصة، لا يجب أن أياس من الآن.

استيقظ من شروده على صوت سهيل وهو يقول في شيء من الحدة:

-ما الأمر؟!

اعتذر وقال:

-لا شيء سيدي، أعطني الورقة.

سلمه الورقة، حملها وشكره وأعماقه مهمومة وغادر المكتب.
توجه بعدها إلى بقية المكاتب، قضى نهاره كله متنقلاً من مكتب إلى آخر، لم يحظَ بالقبول، حتى وصل إلى وسط المدينة قرب منطقة (باجعمان) كانت آخر محطة له ومعها انتهت أوقات الدوام، لم يتبقَ من الألف ريال إلا خمسمئة ولم يصل للنتيجة، جر قدميه جراً إلى محل مجوهرات وباع العقد متألماً.

خوف وقلق من المستقبل الغامض كان متغلغلاً في أعماقه، فقد بيته وهو عاطل عن العمل وليس له إلا راتب أبيه الذي لا يعلم الآن متى سيصله، حتى إذا انتهت الحرب لن يكون في مقدوره العودة إلى عدن إلا لبيت إيجار آخر، هو نفس التحدي الذي يعيشه الآن، هل سيضطر لبيع مجوهرات والدته قطعة تلو الأخرى لعجزه هذا؟
أضنى الهم قلبه، ثم ركب الحافلة وقفل عائداً إلى المستشفى.

في اليوم التالي، واصل بحثه وأكمل بقية المكاتب التي لم يصلها بوسط المدينة، والنتيجة لم تختلف عن سابقتها، لم يجد أحداً يساعده أو حتى يمهله ريثما يصل راتب أبيه، أغلقت الأبواب دونه، وحطم اليأس كيانه، ضياء ستغادر المستشفى بعد يومين ولم يصل لشيء، لم يخفِ الأمر عن أمه وهي من تبادره بالسؤال عما يجري معه لتقاسمه همه وتحمل معه عبئ ما يتحمله بعيداً عن ضياء، فأخبرها بتفاصيل كل ما جرى معه، دعت ربها أمامه أن ييسر أمرهم لأجل ضياء، كانت تقرأ أحزانه وخيبات مساعيه في عينيه قبل أن يحادثها، وتقرأ اليأس الكبير الذي احتل قلبه، قالت له لتهدأ روع قلبه:

-عليك بالدعاء مع السعي يا ولدي، أنا واثقة بأنه لن يضيعنا وسنجد مخرجاً بإذن الله.
قال في رجاء:

-يا رب.

خرج بعدها إلى باحة المستشفى وكان الوقت عصراً، واتجه إلى المطعم ليحتسي كوباً من الشاي، وجلس قرب طاولة مفكراً في أمره وهو يتأمل المرضى ومرافقيهم والزوار الوافدين إليها عبر بوابتها والسيارات الداخلة فقد كان الجلوس المخصص بالمطعم أمام مبناه الرئيسي كنفاء واسع يحده سور بنصف قامته وسقفه من حديد الشنيكو محمول على أعمدة مثبتة وتدل منها مراوح للتهوية، انتبه لأحدهم يقول له:

-أنت شادي خالد عبد الرحمن؟

التفت للرجل، بدا غريباً لم يعرفه، لكنه لفظ اسمه كاملاً فاستغرب، قال له:

-نعم أنا هو، من أنت؟

ابتسم الرجل وقال:

-أتأذن لي في الجلوس قربك.

رحب به، فجلس قربيه وهو يقول:

-الحمد لله أي وجدتك، أنا موظف بمؤسسة الرُّبا التي قدمت إليها صباح الأمس، السيد سهيل يطلب حضورك إلى المكتب.

رد في شيء من الانزعاج:

-ولكنه اعتذر عن مساعدتي.

قال له محاولاً تبديد انزعاجه:

-لا تلمه سيدي، فهو مجرد نائب ويعمل بما يستطيع وقد أخبر السيد عبد الكريم بوضعك، فهو دائم السؤال عن سير العمل رغم حالته، ويبدو أنه سيتمكن من مساعدتك لذا فقد طلب إليّ البحث عنك، وسيخبرك بما يريد.

علت وجهه ابتسامة حين ذكر اسم (عبد الكريم) أمامه مرة أخرى، فقال:

-حسناً متى؟

-بعد صلاة العشاء إذا لم يكن هناك ما يشغلك.

-سأتي بإذن الله.

وفي الموعد، عاد شادي للمؤسسة، فوجدها خالية من موظفيها إلا من سهيل الذي كان

جالساً ينتظره، نهض على الفور ورحب به في سرعة، وهو يقول:

-أخبرت السيد عبد الكريم بما أخبرتني به وطلب أن يلقاك، دعنا نذهب إليه ولنكمل حديثنا في الطريق.

سأله في حيرة:

-لكن كيف تمكنت من معرفتي والوصول إليّ وأنت لم تعرف حتى اسمي؟

ابتسم له وقال:

-من حالة أختك التي شرحتها لي، بعد مغادرتك بثلاث ساعات تقريباً اتصلت بالمدير وكنا نتشاور في أمور العمل حتى ذكرتك وأخبره بما تم في لقائنا، فعاتبني لأنني لم أستشره في أمرك، حسب علمي بأن معظم النازحين متواجدين في مستشفى (ابن سينا)، لذا طلبت من أحد الموظفين أن يسأل عنك حتى وصل إليك.

فهم شادي الأمر، فقال سهيل وهو يشير له:

-لنكمل حديثنا في الطريق.

امثل لأمره، ركبا السيارة، فقال شادي:

-هل هو بخير الآن؟ سمعت بأنه قد أصيب بطلق ناري.

عقد سهيل حاجبيه وقال في ضيق:

-الأشرار كانوا يحاولون قتله، بل إنهم يحاولون قتل كل من يساعد الناس.

رد غاضباً:

-حسبي الله ونعم الوكيل، أكان يقاتلهم؟

هز رأسه:

-أبداً، ولم يحمل سلاحاً في حياته ومع ذلك...

لم يكمل عبارته، فشعر شادي بالألم لأجله، فقال:

-أسأل الله أن ينصره ويحفظه، كيف حاله الآن؟ هل حالته تسمح له بالحديث؟ أرجو ألا

أثقل عليه بحديثي عن وضعي.

ابتسم وقال له:

- بالعكس، إنه يشعر بالسعادة حين يستطيع مساعدة أحد وانتشاله من مأزق، إنه رجل فريد ومميز رغم حالته وما مر به، وأعتذر إن كنتُ عاملتك بجفاء في لقائنا الأول، ضغوط العمل ولا شيء غيرها.

ابتسم وبدا متفائلاً مع كلماته، فقال:

- لا عليك سيدي.

ولما وصلا للمنزل الكبير، كان من فتح الباب لهما هو طارق، رحب بهيل؛ لكنه حين رأى شادي خلفه بدا الضيق على وجهه واكتفى بترحيبه الأول، ثم قال:

- والدي في غرفة الاستقبال ينتظركما.

قادهما إلى الغرفة، فوجداه راقدًا على سرير، ابتسم لهما ورحب بهما، ثم أراد الجلوس فأسرع طارق يقترب منه ليساعده.

كما لامس الارتياح قلبه لمجرد حديث عنه تأكد له من ملامحه صدق إحساسه بمجرد أن رآه لأول وهلة رغم الإرهاق المرتسم عليه، الوقار والابتسامة السمحة تضيئان وجهه، شعر بأنه يقابل والده لم يدر لم انتابه ذلك الشعور رغم أنه لا يشبهه، صافحه بسعادة وابتسامة، وقال له:

- أرجو أن تكون بخير يا سيدي، حفظك الله من كل سوء، أتمنى ألا أثقل عليك.

هز عبد الكريم رأسه وقال:

- لا تقلق يا ولدي أنا بخير وإلا ما كنت سأقابلك، تفضلاً.
وجلسا وهو لا يزال يلاحظ طارقاً يرمقه بنظراته المتضايقة، أشار له عبد الكريم بأن يحضر شيئاً لضيافته فخرج امتثالاً لأمره، ثم التفت إليهما وقال لشادي:
- لقد أخبرني سهيل بما حدث بينكما صباح أمس، ومع ذلك فأنا أود سماع قصتك منك يا بني.

قال دهشاً:

- قصتي!! قصتي طويلة الشرح يا سيدي، أخشى أن أرهقك بها.
شجعه قائلاً:

- كلي أذن مصغية لك.

تنهد بعمق ثم مضى يسرد قصة نزوحه كلها بألم حاول إخفائه وإن كان حاول اختصارها، بدا الألم على وجه عبد الكريم وهو يستمع إليها، ولما انتهى قال له:
- كل الخلافات الهوجاء بين سادة الحروب لا تنصب إلا على رؤوس الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة، فيحاولون التأقلم معها ولا شيء غير ذلك، أعانك الله يا ولدي وعوضك عما فقدت.

- آمين.

- إني أقدر ظرفك، وقد حاولت بالفعل التواصل مع عدد من أصحاب العقارات ومن أعرفهم؛ لكنني لم أوفق مع أحدهم للأسف، ففكرت في حل آخر أتمنى أن يكون مناسباً.

هتف في لهفة:

- وما هو؟

في تلك اللحظة دخل طارق وقدم الشاي لهما وبدأ بشادي وحين انحنى ليناوله قال له هامساً

في ضيق:

-إياك أن تثقل على أبي.

في لحظة اندماجه ولهفته لما سيقوله عبد الكريم لم يركز فيما قاله طارق، شعر بأنه أبعدته عن

واقعه موقتاً، بينما تابع عبد الكريم:

-كان لدى أهلي عمارة قديمة قريبة من العمارات التي بنيتها بـ(حي السلام)؛ لكنه هُجر منذ

أن تركوه واشتريته من ورثته، وكنت أعتزم هدمها وبناء عمارة جديدة مكانها، إن به شقة

صالحة للإقامة وتحتاج إلى بعض الإصلاحات والصيانة فقط.

تهلل وجهه فرحاً، وهو يقول:

-حقاً سيدي!

فهز رأسه، وقال في انزعاج:

-ولكني لم أكن أرغب في منحها لأحد، فهي لا تليق كمسكن وبحاجة إلى صيانة - كما قلت

لك - وعملي كلهم مشغولون حالياً بأعمال أخرى وإلا كنت جعلتهم يقومون بذلك، أنا

نفسي لم أحب الإقامة فيها، فكيف سأمنحها لغيري؟

فابتسم وهو يقول:

- سيدي، في وسعي إصلاح ما يمكن إصلاحه، فأنا مسؤول عن منزلي وأستطيع فعل ذلك.

- لكن...

ازداد الضيق على وجه طارق وأدرك بأنه لم يعي ما قاله له أو ربما تجاهله وظل منسجماً في

حديثه، فانصرف بعد قدم الشاي لسهيل، بينما تابع شادي:

- إن سمحت لي، سأكون ممتناً لك طول عمري.

بدا الحزن على وجهه، فهو لم يكن يريد أن يفكر فيه على الإطلاق، فقال:

- ما هي مهنتك يا ولدي؟ تبدو لي شاباً مثقفاً.

- أنا خريج هندسة ميكانيكية، لم أزاول عملاً بعد، وكنت سألتحق بالعمل في الجامعة لولا

الحرب.

تنهد تنهيدة عميقة، كأنها كان الهم الذي على صدر شادي قد جثم على صدره هو، فقال له

حين أحس ما بصدرة:

- أرجوك سيدي، ستكون أمورنا على خير ما يرام طالما أن المنزل صالح للسكن، اسمح لي

بإصلاح ما يلزم.

فهز رأسه مؤيداً رغم عدم اقتناعه، وقال:

- حفظك الله يا ولدي.

ثم التفت لسهيل وقال له:

- أتم العقد مع شادي، ثم خذه صباح الغد إلى الشقة، وساعده بما يلزم لأجل الصيانة.

هز سهيل رأسه، وشكره شادي وصافحه بحرارة وقوة وهو يشعر بأن كلمات الشكر وتلك المصافحة لا تكفي، ودموع الفرح تنهمر من عينيه أن نجح في مسعاه أخيراً حتى يتهيأ للاستقرار بعد تلك المعاناة، ابتسم عبد الكريم حين رأى سعادته ودعا له بالتوفيق. وأتت البشارة مها، فرحت كما فرح، وحمداً ربها على ذلك، وفي الصباح، أتم العقد وقاده سهيل إلى الشقة التي كانت بعمارة قديمة، وبها طابقان، فاختار الإقامة في الدور الثاني إذ أن الدور الأول كانت تلزمه صيانة أكثر، فقام بتنظيفه وترتيبه وإصلاح نوافذه وبعض توصيلات تزويد المياه إليه، لحسن حظه كانت الكهرباء تعمل به أوقفت خلال فترة هجرة القاطنين منه.

و خلال اليومين، يتفقد أهله صباحاً ليعود للمنزل مساءً ويجهزه بما قدمه إليه سهيل من بعض أدوات كالخصيرة والفرش وأدوات للطبخ وغيرها، وتعرف على بعض الشباب النازحين الساكنين بالحي والذين سيكونون جيرانه وساعدوه عن طيب خاطر في مهمته لتصبح الشقة في أجهى حلة.

الفصل الرابع عشر

الجزء

الحبيب هو الجزء الآخر من قلب أحبته، يحتفل لفرحهم، ويحزن لآلامهم، وضحكاتهم نعمة العمر الجميلة، وهمهم هو همهم، يود لو يمحو كل نقطة كدر تحاول تلويث نقاء فرحهم وإطفاء وهجه، يود لو يحمل كل أدران الحياة الثقيلة عن كاهل قلوبهم لتكون السعادة ربيعاً متقدماً طوال حياتهم.

شيء كهذا مستحيل التحقيق إلا بعد أن يجد نفسه مندفعاً لأجلهم ودون إرادة منه.

أقبل صباح اليوم الذي ستغادر فيه ضياء المستشفى، أسرع في القدوم من شقته مبكراً ليقابل طبيبتها قبل أن تدلف لغرفتها وتفحصها، فانتظر قدومها في القسم، ولما رآها مقبلة استقبلها قبل دخولها إلى مكتب التمريض، وسألها بسرعة:

-كيف حال ضياء يا سيدتي؟

ابتسمت له رغم أن ابتسامتها لم تبدُ كثيراً من خلف نقابها، فقالت لتطمئنه وهي تدلف المكتب وهو يتبعها:

-إنها في تحسن كبير، معنوياتها مرتفعة، بدت لي متفائلة بوجودكم قربها واطمئنانها لوصولكم بسلام من تلك الدرب الخطرة.

قال لها في قلق:

- نعم هي مطمئنة لذلك؛ ولكن ماذا عن إصابة وجهها؟ ألا يمكن إزالة آثارها؟! منذ أن رأتها بالمرآة وهي تحاول إخفاءها عمن حولها، تظن بأنها سترعب من يراها.

انتبهت لكلماته وعيناها تتأملان الملفات على طاولة القسم ويمناها تقلبها حتى وصلت لاسمها، وذاكرتها تسترجع المرات التي زارتها فيها، انتبهت بأنها فعلاً تغطيها خصوصاً حين يبعد عنها الساتر الشبكي، نظرت له، وقالت في حيرة:

- ولماذا تخشى الناس؟! هذا الأمر حدث رغماً عنها.

بسط شادي يديه وهو يقول في انفعال:

- أخشى أن تتدهور نفسياً ويصيبها الاكتئاب بسببها، سيدتي، هل يمكننا علاج هذا التشوه وإزالة آثار الحرق؟

تنهدت وقالت:

- لا أضمن لك جراحة تجميل محترفة هنا، لذا أنصحك أن تسافر بها متى ما سنحت لك الفرصة.

زاد توتراً وهو يرد عليها:

- لا أستطيع الآن، أعني... لا أدري متى سيتاح لي ذلك.

قالت له في حزم:

- إياك أن تعلق أملاً في علاجها هنا، أكرر عليك، سافر بها متى ما استطعت ذلك، وحاول أن تسرع قبل أن تصبح الندبة مستحيلة الإزالة، أما بشأن خوفها، عليها أن تعتاد على وضعها

إلى ذلك الحين لا أن تجعله عائقاً في طريق حياتها، لن أفحصها هنا إذن؛ بل أحضرها للعيادة بعد نصف ساعة حتى أستطيع التحدث إليها عليّ أنجح في إقناعها وطمأنيتها، تهباً للمغادرة. امثل لأمرها واتجه إلى الغرفة، طرق الباب ثم دخل، فوجد ضياء جالسة على السرير مسندة ظهرها إلى الوسادة، والضماد مسدلّ على كل إصاباتهما بما فيها إصابة وجهها مرتدية ثوبها الفضفاض، وإلى جانبها مها جالسة على الكرسي، ابتسمتا له حين أقبل، فسلم عليهما وهو يبادلهما الابتسامة، ثم قالت:

-أليس اليوم موعد المغادرة يا أخي؟

-بلى يا ضياء، لقد حان الآن، وطبيبك تود فحصك في العيادة بعد نصف ساعة، هيا استعدي، وقد جهزت منزلنا الجديد أيضاً لاستقبالك.

ردت عليه في سرور:

-شكراً أخي.

قالت مها متظاهرة بالغضب:

-وماذا عني؟ هل نسيته؟ المنزل لاستقبال ضياء فقط؟ أجاها مازحاً:

-أوووه ساحيني أمي، أولية الاستقبال للمرضى.

ضحكت ضياء لمنظرهما، ثم قالت:

-البيت لن يزداد جمالاً إلا بوجودك يا أمي الحبيبة، فاعذري شادي على قوله، الرجال لا يستطيعون فعل كل شيء بالبيت.

رد في استنكار مصطنع:

-هااا... ماذا تقولين؟ هذا جزائي إذن!

ضحكت

-بل هي الحقيقة يا أخي، ثم أنه لن يطيب لنا المقام في أي منزل إلا بوجود أمي.
هز رأسه وقبّل رأس أمه وهو يقول:

-صحيح، لقد هزمتني يا ضياء، حماك الله يا أمي.

ردت مها مبتسمة

-رعاكم الله يا ولديّ الحبيين، وأدام الفرح في قلوبكما.

ثم أخذ يجمع أشياءهما ليضعها في السيارة، في حين ساعدت مها ضياء على ارتداء عباءتها، ولما انتهوا، نقلها شادي بكرسي متحرك إلى العيادة، حيث قابلوا الطبيبة هناك، وطلبت منها الرقود على سرير الفحص ففعلت ذلك بمساعدة شادي ومها، ثم ابتعد ليقف عند الباب، بينما بقيت مها إلى جانبها، ووارتها الطبيبة بالساتر الطبي وكشفت إصاباتهما، حدود الحرق شديدة الحمرة، وتلونت منطقتة بالبياض الشديد في جهة، والداكنة في جهة أخرى، تخللتها ما يشبه الثقوب، تراءت لها الإصابات كنهش حاول التهام الجسد بنهم. الحرب أشدّ نهماً لأجساد البشر وأكثر عداء لكل كائن، هل هم حطبها الوحيد حتى يزداد سعيها؟

رغم ما قبع في قلب الطيبة من ألم، وما طغى على فكرها إلا أنها وضعت في قلبها أمل في عملية التجميل، فهذه الحروق العميقة لن تزال إلا بها ومعها ستزال مأساة مريضتها، سخرت من نفسها وهي تردد:

-هل أحاول التهوين عن نفسي أم عليها؟ هل حقاً نستطيع إزالة مآسي الحروب في وطنٍ ملامح التقدم ترحف فيه ببطء في وقت السلم، فما بالنا في وقت الحرب؟ على عاتقها الآن شد همة مريضتها كما طلب منها شادي ووعدته به، فإذا بها تنجرف إلى أحزان الحرب فجأة، هدأت من انفعالات نفسها وثبتت رغم كل اضطرابٍ أصاب فكرها، وابتسمت لضيء وقالت وهي تضمد إصاباتنا:

-لقد تحسنت كثيراً يا ضياء، يلزمك الآن أن تواظبي على استخدام علاجك، والراحة في البيت، وأيضاً تجنبي تعريض الحرق لأشعة الشمس أو الماء الساخن، وزوريني لو احتجت لأي مساعدة أو استشارة، أو اتصلي بي رقم هاتفي مع أخيك.

هزت رأسها

-سأفعل.

ابتعدت عنها حين انتهت، وعادت لمقعدها خلف المكتب تدون في ملفها إجراءات المغادرة، في اللحظة التي نزلت فيها ضياء من السرير بمساعدة أمها وشادي وأعادها لكرسيها المتحرك، فقالت الطيبة لها:

-الإصابة ستلاشى تدريجياً، لن يطول الأمر حتى تستطيعين الخروج والعودة لحياتك الطبيعية إن شاء الله، علمتُ من شادي بأنك فتاة مجتهدة وسيعمل على إلحاقك بالجامعة لتواصلِي دراستك.

زمت ضياء شفيتها في ألم، وظهر طيف الحزن على محياها، حاولت مقاومة ما بقلبها بقوة، فقالت لها حين لاحظت ذلك:

-ما بك؟

ردت عليها بعد أن ابتلعت غصة كبيرة في حلقها:

-لا شيء سيدي؛ ولكني... لن أستطيع فعل ما قلته، أو العودة كما كنت. سألتها في استنكار:

-ما هذا الذي تقولينه؟!

أجابتها والدمعات تحاول الخروج من عينيها فمنعتها، فإذا بها ترتد لحلقها، وتغرق كلماتها التي خرجت متقطعة مكسومة:

-هذه الحرب اللعينة لم تكتفِ بتدمير بيتنا؛ بل بتدمير قلوبنا وقهر كل أمل فينا، من يعيد لنا الأمان الذي كنا نعيشه؟ من يعيد لي ما فقدته من جسدي؟ لن يستطيع أحد أن ينظر لوجهي بعد الآن، كيف سأقابل الناس أو الطلاب معي إن قررتُ دخول الجامعة، لا أستطيع فعل ذلك... أنا...

آلتهم كلماتها، أصابت قلوبهم جميعاً، لم يحاول أحد إيقافها عن بث ما بروحها المتألّمة إلا مها التي هتفت وهي تربت على كتفيها مقاطعة إياها مغالبة كل أحزانها:

- ضياء يا ابنتي اهدئي، هذه مسألة مؤقتة، سنعمل على علاج إصابتك، هناك أمل في

اختفائها، أليس كذلك يا دكتورة؟

نظرت للطبيبة، فقرأت ملامح الحزم على وجهها وهي تعقد حاجبيها وتقول:

-الأمّل أولاً يجب أن يكون في أعماق ضياء، هناك من أصيب بحروق أشد خطورة منها، ومع ذلك كانوا يشكرون الله على نجاتهم، لن يستطيع أحد إعادة ما قلت؛ لكن أمك وأخاك بذلا وسيدلان جهدهما لأجلك، أليس أجمل شيء أن يكونا بقربك رغم كل خطرٍ مررت به؟ أكمل علاجك وأمر العملية مرهون بقدرتك على السفر للخارج، أخبرت شادي بذلك، لذا ضعي أملاً في قلبك بأن الله لن يضيعك كما حفظك وحفظ لك أهلك.

-نعم لن يستطيع أحد إعادة أي شيء، خصوصاً حين تكون الإصابة أشد خطورة على القلب، على الروح، كيف نعالجها أو نتعايش معها؟ كنت فتاة جميلة، فإذا بي أصبح ذميمة مشوهة بين عشية وضحاها؟!

تمتت ضياء لنفسها بتلك الكلمات وهي تهز رأسها محاولة إبداء اقتناعها بقول طبيبتها لتوقف جدلاً ترى بأن لا طائل في إطالته، فالأمل شهيد في قلبها، ولا سبيل لإعادة ميت للحياة.

شكرتها، ثم دفع شادي كرسيها وغادروا المستشفى الذي كان لا يزال مكتظاً بالجرحى والمرضى والنازحين، الحرب لا تزال مستعرة ولن تتوقف أناتهم ما لم تتوقف، أمل من كل قلبه أن ترفع كلمات الطيبة روح أخته المعنوية، وتمنحها الأمل إلى اللحظة التي يجد فيها من يساعده في مسألة علاجها بالخارج.

بيد أن صدمته من سلوكها بعد عودتهم للشقة كانت كبيرة. لما وصلوا لحي السلام وللشارع الذي فيها العمارة التي بها شقتهم، ظلت عينها تطالعانها في ذهول وحزن، عمارة قديمة بعيدة كل البعد عن جمال منزلهم في عدن، تجاهل نظراتها وساعدها لتنزل من السيارة ثم تدلف العمارة وتصعد الدرجات، والألم والحزن يحفران آثارهما في ملامحها ويدميان قلبها...
(لن يستطيع أحد إعادة ما قلبت)

تذكرت كلمات الطيبة، فعلاً لا أحد سيعيد لهم أي شيء مما فقدوه، حبست دموعها فقط لأجل أخيها الذي بلا شك ناضل حتى يحصل على سكنٍ مناسب لأجلهم ولم يجد إلا هذا، كانت تتأمل كل شيء بها، والقهر يقتل كل جمال وكل أمل وكل رغبة في الحياة، تمت في تلك اللحظة لو ماتت قبل أن ترى إلى ما آل إليه حالهم كيف كانوا ميسورين منعمين، فإذا بهم يصلون إلى رتبة الفقر ومرحلة التشرد، أدخلها لغرفة النوم حيث جهز لها فراشاً على الأرض وغطاء ومكاناً لراحتها، شكرته حين أجلسها عليه، وهي تتذكر مملكتها الصغيرة في عدن

التي اختفت دون رجعة، الدمعات كانت تذرف في أعماقها لتلهب جراحات قلبها، فتزيدها لهيباً ووجعاً.

منذ ذلك اليوم، أثرت الصمت والعزلة في البقعة التي رقدت بها.

تهتم بها مها حين ترى حالتها، ولا تتركها بمفردها، وحين تزورها نسوة من المدينة أو من النازحات لتؤنسها وتطمئن عليهما تدعو ضياء لتسلم عليهن، فترفض لقاءهن، أو حتى الخروج للاستجمام قليلاً حين بدأت حالتها تتحسن تدريجياً، فلم تستجب لكل كلماتها. أما شادي، فبعد استقرارهم مباشرة في سكنهم الجديد، بدأ يبحث عن عمل وتقديم بطلبه في أكثر من مكان ليلقى قبولاً بورشة في (الديس) ويعمل فيها صباحاً، ثم التحقق بالعمل بسوق مركزي كذلك ليعمل بها مساءً ويؤمن بذلك دخلاً جيداً لأهله، تمكن من ذلك بعد شهرين من إقامتهم واستطاع توفير نفقة بيته وعلاج أخته، ورغم عمله لم ينس أمرها، فاشترى لها كتباً لتحاول الانشغال بها، أو يحاول مناقشتها أحياناً كما كان يفعل والده فلم تستجب له أيضاً، وبقيت على حالة الصمت والسكون القاتلين التي قتلت روحه بها. لم تفعل محاولتها في التسرية عنها أبداً.

ظلت تتابع حالة إصاباتها وتزور طبيبتها بين الفينة والأخرى إن لاحظت مها أي غريب على الجروح أثناء معالجتها لها، فضياء فلم تكن تشكي من أي شيء وأبقت أذنيها مغلقتين تماماً عن نصائح من حولها وأسكنت الألم روحها كما حدث بجسدها، لم تكن تهتم إلا بما آل إليه

حالتها، فضلت منكسرة تتحاشى النظر لوجهها المشوهة بالمرأة المعلقة بالغرفة، وبدت تعتاد سجن العجز الذي قبعته فيه، ولا تهتم بالحياة حولها ولا كيف تمضي بها.

اتصل شادي بطبيبتها وأخبرها بما جرى لها، فقالت له:

-حسناً، حاول ألا تطيل مدة انتظارها للعملية عن سنة، فإن مضت، لا أدري كيف سيكون شكل الندبة، وهل من الممكن إخفاؤها؟ لستُ خبيرة في هذا، لكن أسرع يا شادي قدر ما تستطيع.

أجابها في ثقائل وهم:

-سأفعل إن شاء الله.

منذ تلك اللحظة بدأ جدياً في البحث عن من يساعده، فاتجه لأشخاص ومؤسسات، ووجد المدينة كلها في حالة قحط، كيف لا تكون كذلك وأعباء الحرب تثقل كاهل الجميع وتستنزف مواردهم.

كان يرى العصبة الناهيين لخيرات المدينة فيغضب، ويرى سكانها والنازحين من معظم المحافظات فيدعو لأجلهم، لأجل كل ربوع وطنه الذي أخذ ينزف دون توقف، الكل يتألم ويكتوي بنار الحرب بمختلف الطرق، والكل يضمّد جراحه ليقاوم ويصمد ويستطيع العيش والتمسك بالحياة، حتى في شهر رمضان لم تنسهم الحرب ولم يحرم المجرمون دماء الأبرياء؛ بل ازدادوا سفكاً لها لينضبوا معين الحياة في قلوبهم كل ما قرروا التمسك بأرضهم.

شغلته جراحات أخته ونفسياتها المتعبة وكده لأجل الاستقرار عن أخبار مدينته، ضياء هي أكبر همومه، لم يكن يمتلك تلفازاً في شقته أو خدمة الانترنت، كل ما يراه كان عبر شاشات المقاهي التي يلمحها في طريق العودة ليلاً بعد نهار شاق من العمل. لم ينتشله من بحر همومه الشخصية إلا صوت النصر يصدح في عدن وأصداؤها تتردد في أرجاء المكلا، هتافات الناس وأضواء الألعاب النارية وأجواء الفرح التي أطلقوها وهم يطوفون الشوارع وأبواق سياراتهم وتصفيقاتهم تملأ الأحياء، لم يخافوا أو يمتنعوا رغم وجود العصابة. صفقة قوية تلقاها على وجهه.

ثلاثة أشهر مضت، كيف نسي رفاقه هكذا حين وصل للأمان؟ كيف نسي رفيقه رضوان؟ ماذا حل به؟ لم يتلقَ منه أية رسالة أو اتصال. حين أنهى عمله وغادر الورشة في ذلك اليوم أسرع يتصل به، رن الهاتف طويلاً دون رد، حاول أكثر من مرة ولم يجد أي جواب، تضاعف القلق والهم في نفسه، هو قلق على حالة ضياء فإذا باختفاء رضوان يزيده هماً، فكر طويلاً كيف يصل إليه، ليس في وسعه العودة إلى عدن حتى بعد إعلان تحريرها، فلا مكان لهم هناك، وليس في وسعه ترك أهله هنا خلفه، وحتى إن صحبهم، فأخته وإن تحسنت صحتها إلا أن نفسياتها متدهورة ولا تحب الاختلاط بأحد ولا رؤية أحد، ستتجنب أقربائه إن التقت بهم، لذا يتحتم عليه إن امتلك مالاً السفر بها إلى الخارج لا أن يعود إلى المجهول مجدداً. عاد مرة أخرى يتفقد هاتفه، من يسأله حتى يتمكن من الوصول إليه؟

قلَّب كل الأسماء على الشاشة، واختار رفاقهما بالجامعة والمقاومة، اتصل بهم واحداً تلو الآخر، منهم من لم يجبه، ومنهم من أجابه بجهله عنه، تتم في حزن:
-أرجو أن تكون بخير يا رضوان.

شهر آخر مضى من عمره، والقلق يفترس قلبه كل يوم، وعناء العمل يضني جسده، يخرج من منزله عند الساعة السابعة والنصف ليعود إليه عند منتصف الليل، مكرساً كل جهده لأجل تأمين الدخل اللازم لأهله والبحث أيضاً عمن يساعده لأجل سفر ضياء للخارج، بات مرهف الحس لكل شيء حوله، بعد شهران من عمله شعر بأنه نال ثقة صاحب الورشة بجدارته وأمانته، فكان يقدمه على كل عماله رغم أنه رجل لا يكبره إلا ببضعة أعوام، بدا طيب وخلوق يقدم المجتهد فيقدره، ويمهل المهمل ثم يعزله إذا يأس منه، خطر بباله أن يطلب مساعدته، فتقدم إليه وقال له:

-سيدي، منذ أن انضمت للعمل بالورشة وأنا أشعر بأني لست في مكان عمل، بل في جو أسري نساعده بعضنا بعضاً.

ابتسم له الرجل وقال:

-أنت من أضفت إليه هذا يا شادي، تحاول توجيه رفاقك وإرشادهم وتجيئهم في عملهم، لم أقابل شخصاً مثلك يجب عمله كما تفعل، وإخلاصك وتفانيك وطيبتك هي سبب ما تشعر به، وأنا سعيد بوجودك بيننا.

ابتسم خجلاً وقال:

-أحب أن أعلم وأقدم ما أستطيع تقديمه في هذا المجال، وأحمد الله أن أوصلني إليكم لأطور مهاراتي أيضاً.

غمز بعينه وقال:

-كأنك تود قول شيء، تفضل ولا تتردد يا صديقي.

ارتبك للحظات حين بانته، ثم قال:

-هو طلب آمل أن تحققه لي.

-تفضل.

-شهر سبتمبر سيقبل قريباً ولا شك بأن أبواب الجامعة ستفتح، ولدي أختٌ صغيرة أتمنى أن تلتحق بها، لذا أود أن أستاذين منك مبلغاً لأجل دراستها لتشغل نفسها بمستقبلها وتشق طريقها وتحاول نسيان ما مرت به من أحزان.

هز الرجل رأسه، وقال مفكراً:

-في ظل الوضع الحالي لا أدري متى ستفتح الجامعة، وحسب علمي فإن إجراءات القبول تبدأ من الشهر الماضي، إلا أنني سأمنحك ما طلبت يا شادي لتسأل بنفسك عن الجامعات وعما تريد معرفته لأجلها.

-شكراً لك سيدي.

ابتسم له الرجل ومنحه ما يريد وعندما أنهى عمله بدأ يسأل عله يعرف شيئاً عن الدراسة، فلم يجد بصيص أمل لاستئنافها في ظل الاحتلال القابع بالمدينة، شعر بالإحباط، ضياء تحب الدراسة ولا شك بأن لا مخرج لها من حالة الاكتئاب والعزلة إلا بها، هل ستطول فترة تعليق الدراسة هذه؟!

في إحدى الليالي، وعند منتصف الليل، استيقظت ضياء من نومها لتذهب إلى الحمام، فوجدت أمها غير موجودة قربها على فراشها، فظنت بأنها قد سبقتها إليه، فأعادت رأسها إلى وسادتها وانتظرت قدومها؛ لكنها تأخرت فقلقت، أسرعت تخرج لتتفقد صداها فسمعت صوتها وصوت شادي بغرفة الضيوف، كانت تعلم بأنه يتأخر في العودة منذ أن التحق بالعمل في السوق المركزي، أرادت أن تدخل لتعرف ما يجري معها، فتوقفت حين سمعته يقول:
-لا أستطيع ذلك، يجب أن أسرع لأجل ضياء.

هنا تمهلت ثم نظرت إليهما خلصة، رآته يغطي معصمه الأيمن بمنشفة مبللة، وهو يقول في حزم، والألم يكسر قوة كلماته:

-الوقت ليس مناسباً للإجازات يا أمي.

ردت عليه في حزم:

-لو قلت لي بأنك ستذهب للسوق فقط فلن أعارض، والعمل بالورشة سيزيد من التهابها وتورمها، يبدو بأنك لم تكن متبها أثناء العمل وأسقطت العدة عليها.

قال في انزعاج:

-نعم، كنت شاردًا قليلاً لكنني بخير يا أمي، أخبرني أحدهم بأن أتوجه لأحد المؤسسات الخيرية عليها تمنحني شيئاً لأجل عملية ضياء ولتتني لم أفعل، انفعل صاحب المؤسسة في وجهي ولستُ ألومه على ذلك، الوضع سيء، الجميع يسعى لأجل العيش، ولأجل النازحين من كل مكان بالبلاد، وأنا أطلب نفقات سفر وعملية يرونها شيئاً زائداً! هناك من هم أولى مني بهذا المال؛ لكن الأيام تمضي، أربعة أشهر مضت ولم أجد أحداً ولم أصل لشيء.

قالت في سرعة وانفعال:

-قلت لك أن تبيع ما بقي من مجوهراتي لأجلها؟

رد بحزم:

-وأخبرتكم بأنها لن تصل لشيء.

-أنت لم تسأل كم من الممكن أن يكون ثمن ما تبقى كله.

-بل فعلت حين أجبرتني على أخذها، وأخبرتكم وقتها أنها لن تفي بشيء.

-اذهب إلى محلات أخرى ربما...

قاطعها

-أمي، لا أريدك أن تبيعي منها مجدداً، يكفي ما أنفقته علينا قبل عثوري على عمل، وفي

انتظار راتب أبي رحمه الله، لا أريدك أن تبيعي أي شيء بعد الآن.

نكست رأسها وهي تقول في قلق:

- لا أريدك أن تظل أسير القلق هكذا.

- سأطرق كل باب يمكنني الوصول إليه لأجلها.

فكرت للحظة، ثم قالت:

- لم لا تخبر السيد عبد الكريم؟ ربما يساعدنا.

- أنا خجل منه، الرجل بذل جهده لأجل إقامتنا وهو جريح، لا أستطيع أن أطلب منه المزيد.

سألته في حيرة:

- ماذا سنفعل إذن؟

تنهد ثم قال:

- ليس أمامنا إلا أن نتظر قليلاً علّ الظروف تتحسن وأستطيع العثور على أحدهم

ليساعدني.

- إن شاء الله.

قال في حزم وهو يمسك معصمه:

- لكن، لا تقولي لي بأن أرتاح غداً، سأذهب لعملي وسأحاول تجنب حمل الأشياء الثقيلة.

أشفقت عليه وقالت:

- حسناً، سأحضر المزيد من الماء البارد لتخف قليلاً ولديّ مسكنٌ في الثلاجة، أرجوك يا

ولدي، انتبه لنفسك.

ابتسم لها وقال ليطمئنهما:

- لا تقلقي كل شيء على ما يرام.

أسرعت ضياء تبعد لتعود للغرفة، وألقت بنفسها على فراشها وبكت. الكل يحمل همها وهي لم تفكر إلا في نفسها، أمها سهرت الليالي لأجل مداواتها وتنظيف جروحها وباعت من مالها لأجلها، وشادي انضم للمقاومة ليحميها ثم انسحب لأجلها أيضاً، وكافح شهوراً حتى تستقر أمورهم بعد معاناتهم خارج عدن، لم تعرف من مصاعبه إلا القليل ولم تسأل عن حاله ولو يوماً واحداً.

اغرورقت عيناها بالدموع، وحاذرت أن يرتفع صوتها، لامت نفسها، تجاهلت كل التضحيات لأجلها، وعزلتها انعكست عليهما، لم تدري بأن ما بها لم يصب جسدها وروحها بل مسهما أيضاً وضاعفت بتصرفاتها معاناتهما، تذكرت تسريتهما لها، هل هذا هو جزاء تضحيتهما؟

هي عليها أيضاً أن تبذل ما في وسعها لأجلها لا أن توجعهما، مسحت دموعها ونهضت من فراشها وتوضأت وصلّت، ودعت ربها أن يقويها في محنتها، وأن تستطيع التأقلم والتعايش مع وضعها. قررت منذ تلك اللحظة الخروج من عزلتها لأجلها، وبدأت تحدي نفسها وتحدي الحياة الجديدة.

في اليوم التالي، فوجئت مها بها تستيقظ مبكراً لتعد الفطور، دهشت، وقالت لها في قلق:

- كيف تشعرين يا ابنتي؟

ابتسمت لها، وقالت:

- أهلاً أُمي، أنا بخير لا تقلقي، أشعر بأن الخدر سيستولي على مفاصلي إن قررتُ البقاء في الفراش طويلاً، لابد أن أساعدك.

- حسناً، لا ترهقي نفسك.

- أنا بخير لا تقلقي.

دهش شادي بدوره حين رأى تغيرها المفاجئ، لم يعلق، بل كان سعيداً في أعماقه، ثم مدت سفرة الإفطار على الأرض وجلست معها لتتناوله لاحظت الضمادة تلف معصمه، لم تعلق عليها لتزيد صموده حين رأت تحمله أمس، وإنما قالت له:

- شادي، هل سألت عن إجراءات القبول بالجامعة؟

سؤالها له كان كحلْم، نظر إليها فاغراً فاه للحظة وعيناه تعلوهما الدهشة والذهول وهو يحرق بها، ابتسمت وقالت:

- ما بك؟

هز رأسه وقال:

- ماذا قلت؟

أدركت ما دار في أعماقه، شعرت بتأثير تصرفه عليها، أعادت سؤالها، فقال:

- لا... أعني نعم سألت، وقيل لي لا تزال الدراسة معلقة بسبب الحرب.

نكست رأسها وقالت في أسف:

-هذا مؤسف .

-لا تقلقي، عليها تفتح قريباً، هناك مطالبات من الأهالي والطلاب بالعودة للدراسة.

-إن شاء الله، أريد دليل الجامعة، هل في وسعك السؤال عنه؟

ابتسم وقال في حماس:

-حسنأ سأفعل لأجلك، وأظن الأنسب أن تلتحقي بجامعة حضر موت.

هزت رأسها مؤيدة وشكرته، ولما فرغوا من الإفطار أسرع تلتقط الصحون، فقالت مها:

-دعيتها أنا من سيفعل ذلك، اذهبي وارتاحي.

-يكفي ما نلته من راحة حتى الآن، لقد مللت، دعيني أعمل شيئاً.

ربت شادي على ركة أمه فتركها وانصرفت، فقال لها في حيرة:

-ماذا جرى؟

هزت مها كتفها وقالت:

-لا أدري، لقد فاجأني.

ابتسم في سرور وقال:

-أسأل الله أن يمنحك السعادة يا أختي ويزيل كل همك.

غادر المنزل وهو لا يزال يدعو لها، بينما أنهت ترتيب المطبخ، ثم حملت هاتفها وأخذت تتصفح الانترنت محاولة أن تشغل نفسها بالقراءة وتتجاهل ما بها، وحين مرت قرب المرأة المعلقة بغرفة النوم ارتبكت قليلاً، رأت خيالها فقط في تلك اللحظة، لن تستطيع الهرب من

عزلتها إلا إذا استطاعت النظر لنفسها في المرأة، ابتلعت ريقها في خوف وضربات قلبها تدق ضلوعها بعنف، رويداً رويداً اقتربت منها ووقفت أمامها وتطلعت للمامح وجهها الجديد؛ بشرة سمراء قليلاً حية نضرة في جهة وعين سوداء وهاجة بانفتاحها، وفي جهة أخرى داكنة منكمشة مجمدة وأجفاناً اضمحلّت فبدت العين صغيرة، كانت ملامحها الجديدة متناقضة تماماً مع عمرها وما كانت به ولن يكون من السهل إخفاؤها حتى لو استخدمت بودة تجميل، اقشعر بدنّها لمنظر وجهها، كادت تبكي حسرة؛ لكنها قاومت وقالت لنفسها في حزم: -لقد عقدت العزم أن أواجهه لأجل أمي وأخي ولن أراجع.

كانت مها تلاحظها وتراقبها لتعرف سبب تغيرها فلم تجد. ومضت أيام استمرت قدما في محاولة التغيير بين المطالعة وأعمال البيت، ولما حل وقت العصر، طلبت منها ضياء أن تصحبها لسوق الحي، ازدادت ذهولاً، تساءلت في نفسها: -هل تدرك ضياء ما تفعله؟

ظنت بأنها سمعتها خطأ، وبأنها تطلب منها أن تشتري نقاباً حتى تخفي بها وجهها وتستطيع الخروج برفقتها متى ما أرادت دون أن تلمح الرعب في نظرات الناس أو الفضول يسطع من عيونهم، أطاعتها وهي لا تزال تظن بأنها تريد منها الذهاب بمفردها، ولما استعدت رأت ضياء قربها ترتدي عباها وحجابها وتكمل هندامها أمام المرأة كما كانت في عدن، لم تخف إصابتها أبداً، ازدادت انقباضة قلب مها من هذه الخطوة، ماذا سيحدث بعد هذا؟ صمتت ونفذت رغبتها، وخرجتا للسوق معاً لأول مرة

إنها المرة الأولى الذي تغادر فيها ضياء المنزل، قلبها كان يرتجف، الآن تشعر بأن عاصفة كبيرة من الدهشة والذهول والخوف ستتوجه نحوها، وستراشقها كلمات من هنا وهناك، ستحاول اقتلاع ثباتها وربما ستوقعها أرضاً ستدمي قلبها أكثر مما هو متألم منكسر، الآن جميع أهل المدينة سيرون وجهها وليست هي أو أمها أو شادي وحسب؛ لكن تجد الدعم والمساندة، العالم الخارجي ليس بيتك الذي تبحث فيه الأمان، رأت منها لمعة الارتباك في عينيها فقالت لها:

-ضياء، هل نعود؟

انتبهت لها ونظرت لعينيها، رأت قلقها وخوفها عليها فعرفت ما جال بخاطرهما، تذكرت عزمها وتضحية أمها وأخيها، فأمسكت بيدها مدت خطواتها وهي تحفز نفسها وقالت في نفسها:

-سأصمد، سأفعلها.

ثم قالت لأمها:

-لا، أريد أن أرى السوق.

تجولتا في أحياء المكلا وشوارعها، طافتا بمحل الملابس والمكتبات، ووجهها يشد المارة إليه منذ خروجهما من البيت حتى وصولهما للأسواق وشفاههم تتحرك بمجرد أن يتأملوها، ألبست وجهها ثوب اللامبالاة، حتى أرعبها قول طفل وهو يقول لأمه:

-من تلك المرعبة يا أمي؟

جذبتة أمه من يده في ارتباك ومضت به، اعتقدت مها بأنها ستبكي أو ستطلب العودة للمنزل؛ لكن شيئاً من هذا لم يحدث، ظلت تمشي رغم أن كلمات الطفل أوجعتها، عادت لتحبس دموعها وتقاوم عواصف الحزن في نفسها وهي تردد في أعماقها:

-أحزن نفسي من قول طفل نطق حقاً والكبار لم يقلوا شأناً عنه؟ أسمح للكلمات بأن تؤدي بي إلى وادي الأحزان لأدفن نفسي وأدفن أهلي فيه معي؟ لن أحزن، وسأصمد سأفعلها، لأجلها.

طلبت منها أن تصحبها إلى البحر، رافقتها، وكل النظرات لا تزال تتعلق بها أينما حلت وهي تربط على قلبها وتحاول أن تتجاهل ما يزعجها، فقط لأجلها.

لم تدر كيف تعيد المحن تشكيل الإنسان، وتنحت الظروف روحه قبل مظهره، تقلّبه، تصنع منه إنساناً آخر ليعيش مع ظرفه الحالي، تجعله أكثر مرونة وصبراً وتحملاً على تجرع المزيد، أو ينهار ويتلاشى، وحدها القوة الإلهية التي تستطيع منحه الصمود.

جلست عند البحر برفقتها لتسترجع ذكرياتها في عدن وفي هذه المدينة التي لم ترها قبل الآن، ثم تمت:

-أقوالهم وثرثرتهم لا تهمني، لا تهمني... اللهم إني أسألك أن تمنحني الصبر وترزقني الرضا لأجل أمي وأخي اللذين ضحيا بكل شيء لأجلي، فليس لي في هذه الدنيا غيرهما، وليس في زمن الظلم إلا أنت، اللهم امنحني القوة لأمضي في هذه الحياة بما يرضيك.

(...نعم ... لم أر هذه المدينة في حياتي ... لكنها هادئة جميلة، أهلها أهل سخاء وكرم، طيبون في معاملتهم وإلا ما كان أخي ليجد أناسٍ مثل السيد عبد الكريم، ولا ما وجدت فتاة بطيبة سحر)

كانت ضياء تتحدث في نفسها وهي تلتقط نسائم الصباح والبحر المطل من البعيد عند شرفة الطابق الثاني وتسمح لها بالتغلغل في صدرها وتحضن قلبها كأنها تحاول أن يخفف شيئاً من حزنها، عادت تواصل حديثها :

- لم أكن أعرف بأن ذلك الكريم هو والد ذلك المتعجرف، ليته فقط لم يكن كذلك.

لحظتها قطعت تفكيرها حين أحست بأحدهم يمسك بكتفها فالتفتت وابتسمت.

كانت صديقتها سحر الذي بادلتها الابتسامة وهي تقول:

- تحبين هذا المكان كثيراً، نسائم الصبح جميلة.

فاتسعت ابتسامتها وهي تهز رأسها مؤيدة، بينما قالت سحر:

- هيا بنا، ستبدأ المحاضرة بعد قليل.

وجذبتها من يدها برفق لتمشياً معها، بينما قالت ضياء في نفسها وهي تتأمل وجه سحر في

ابتسامة:

- أنتِ نسمة على قلبي في هذا المكان يا سحر، كنسمة البحر تماماً.. لو لم ألتقيكِ، كيف

سيكون حالي بوجود ذلك الأرعن؟ مهما نقلتنا الأرض إلى أماكن مختلفة بأقطارها دائماً سنجد

أرواحاً تشبهنا، وأنتِ روحي يا سحر.

ثم أحكمت قبضة يدها بيد صديقتها لتسرعا معا نحو القاعة وعلى وجهها السرور، وهي تواصل حديثها في نفسها:

- لأجل أمي، لأجل أخي، لن أدع للأحزان سبيل لتحتل قلبي... قد لا أتمكن من النسيان؛ لكنني لن أدع تضحيتهما لأجلي تذهب سدى.

في تلك اللحظة، دلف طارق ورفاقه إلى القاعة ليجلسوا بأماكنهم، فرآهما تدلفان للقاعة، وملامح وجهها قد امتلأت سعادة وأمل رغم ذكريات الألم التي يرددها على أذنيها كل يوم، تساءل في نفسه في حيرة:

- كيف لها أن تكون كذلك رغم أحزانها؟ كان يجب أن تكون بعد معاناة الحرب وذكرياتها ضعيفة النفس، مهزوزة الشخصية، الغريب أني لا أجدها إلا قوية رغم كل ذلك... هل وجود سحر يمنحها ذلك؟... لا أعتقد، فقد كانت حزينة منطوية منذ أن أخبرتها بأن أبي هو مالك العمارة التي يقيمون فيه شقة بها، ولا تتحدث إلا مع سحر، هناك شيء في أعماق هذه الفتاة يمنحها تلك القوة للصمود والتقدم، ترى... ما هو؟

وحين جلس في مقعده، عاد يفكر في نفسه في ضيق:

- لا، قوة هذه الفتاة وشجاعتها تزعجاني جداً، لا بد أن أجد طريقة أجعلها تدرك بها مكانتها الحقيقية هنا، لا بد أن أجدها..

الفصل الخامس عشر

رد فعل

الرابع والعشرون من أبريل ٢٠١٦م/ المكلا
استوطن السكون الأرض، وحلَّ الليل بعتمته على الكون، فأرخت الأعين أجفانها، وغرقت الأجساد في بحر السبات، إلا عددٌ يسيرٌ اتخذ الليل أنيساً، فلا يطيب له مرُحٌ ولا هو إلا فيه. ومن بينهم طارق الذي جلس على كرسيه أمام مكتبه الموضوع عليه شاشة الكمبيوتر مرتدياً ملابس نومه؛ قميصه المخطط بخطوطه البيضاء المتبادلة مع الزرقاء وذو الأكمام القصيرة، وبنطال أزرق قصير امتد إلى ركبتيه، واضعاً الساعة على أذنيه وهو يستمع لموسيقى أجنبية، ورأسه يتمايل على أنغامها منسجماً معها، ويدون ملاحظات ينقلها من شاشة الكمبيوتر إلى مذكرته، لم يبدُ عليه التركيز فيما يكتب فهو يفعلُه بتلقائية .

ثم رن هاتفه الموضوع على الطاولة قرب الجهاز بنغمة نبهته إلى رسالة واصله إليه عبر الواتس، مال برأسه وتأمل الشاشة، فوجد رفاقه على الدردشة الجماعية يتبادلون الرسائل، ترك عمله وحمل هاتفه ليعرف موضوع حديثهم المفاجئ في هذا الوقت، وبدأ يقرأ حروفهم المتقافزة أمامه، قرأ ردّاً لوليد الذي فهم منه أنه منزعج:

-الساعة الثانية الآن، لدينا دوام في الصباح، لن نستيقظ لأجل الجامعة أبداً، لم أيقظتني يا

محمود؟

قرأ ضحكاتهم وضحك بدوره، ثم حرك أصبعه على الشاشة فكتب ساخراً:

-يمكنك أن تعوض نومك لاحقاً، سواء بينك أو بالقاعة، لا مشكلة لديك بالمكان.

ضحك ثم رد عليه:

- صدقت.

ظهرت كتابة محمود وهو يرد:

-لم أكن لأتصل بك إلا لأني أعرف أنك النائم الوحيد بيننا الآن، حسناً انتبهوا، لقد أعددتُ

مفاجأة لكم أنا وناصر، سنقوم برحلة غداً بدلاً من الذهاب إلى الجامعة.

رد صبري في حماس:

-يا سلاام، هذا هو الكلام، حقاً نحن في حاجة إلى النزهة، لكن إلى أين سنذهب؟

-اتفقت مع ناصر أن يحجز أحد المزارع بمدينة (غيل باوزير)، ما رأيكم بالمفاجأة؟

كتب طارق في سرعة:

-مفاجأة جميلة؛ لكن أرجو أن يكون بالمزرعة حوض سباحة كبير.

كتب ناصر:

-أعرفك أيها الرياضي المتألق، هي كذلك.

كتب طارق:

-أحسنت يا ناصر، وشكراً لك أنت ومحمود على المفاجأة، سنرتاح من الدراسة غداً ومن

رؤية تلك المزدوجة أيضاً.

رد محمود ضاحكاً:

- يا أخي، أشعر وكأنها تطبق على أنفاسك.

رد طارق في ضيق:

- بشكل لا يوصف، منظرها مقرف، أنتظر اليوم الذي ترحل فيه بفارغ الصبر.

فجأة، قاطع مرحهم وحديثهم صوت حاد لأزيز طائرات تقطع سكون الليل، تلاه صوت

انفجارٍ عنيف هز المكان هزاً، ارتجف قلبه واضطرب فكره وهو يصيح في خوف وارتباك

وبشكل لا إرادي:

-... ما هذا؟

انتبه لنغمة تصدر من هاتفه، فنظر للشاشة وقرأ رداً لوليد:

-ما الذي يحدث يا رفاق؟

أبعد السماعه عن أذنيه في اللحظة التي دوى فيها انفجار آخر ليخترق أذنيه بعنف ويزيد من

خوفه واضطرابه، ثم سمع صوت بكاء أخته وصوت أبيه وأمه بالصالة، والخوف والارتباك

واضح من نبرتيهما.

حادثة العام الماضي تعيد نفسها، وفي نفس الشهر أيضاً إن لم تكن في نفس اليوم.

وطن الخوف قلبه وبيته وكل أهله منذ تلك اللحظة، تلاه صبح غائم لم تشرق فيه الشمس إلا

شاحبة، فقدت بريق الحياة كما فقدتها الأرض وسكانها، وصاروا كأمواتٍ، أجساد تتحرك

دون روح، كان يشعر بذلك في أعماقه؛ لكنه يحاول جاهداً التمسك بجمال الحياة، والنظر لجانبها المشرق مبعداً كل كدرٍ عن نفسه وإن حاول الكدر القدوم إليه ساعياً.
والآن.. هل ستبدأ حياة مختلفة على المدينة؟ هل قرر العُصبة قتل الناس أم ماذا؟ مالذي استجد؟

قطع تفكيره على إثر نعمة أخرى، وقرأ رسالة محمود:

-صحيح يا وليد، سأترككم الآن لأحاول معرفة ما يجري.

انتهت المحادثة، وخرج من غرفته بدوره ليتفقد أهله، وجد باب غرفة رُبا المقابلة لباب غرفته مفتوحاً والأضواء ساطعة منها، أطل من بابها، فرأى أمه تحتضن أختها الخائفة الباكية، لم يكن اضطرابهما وخوفهما بأقل مما حدث من قبل، علامات النوم لا تزال مرتسمة على وجهيهما، فكان لاستيقاظهما المفاجئ على أثر الدوي آثاره، لقد طُبع الفزع على قسماتهما وفاضت أنهار الدموع من عينيها، سألته عائشة رغم ما بها:

-هل أنت على ما يرام؟

هز رأسه مبعداً خوفه، وقال:

-لم أنم بعد، كنت أتمم دروسي.

قالت وهي لا تزال ترتجف خوفاً:

-حسبي الله ونعم الوكيل في كل من يحاول إثارة خوفنا، لا ذنب لنا في كل ما يجري، ليكفوا أذاهم عنا، نريد أن نعيش دون خوف.

رد عليها محاولاً تهدئتها:

-حاولي أن تهدأي يا أمي لتساعدي رُبا، لن تنجحي إن ظللت هكذا.

أغمضت عينيها وضمت رُبا إليها أكثر لتزيد من اطمئنانها؛ لكن صوت انفجار ثالث ضاعف خوفهم جميعاً، فزادت من ضمتها لابنتها وبكتا معاً، وارتجف جسده أيضاً؛ لكنه حاول تمالك خوفه وهو يقول:

-رحمتك يا رب العالمين، رحمتك.

نظر ناحية الصلاة، أضواءها ساطعة، ورأى والده جالساً على الأريكة وهو لا يزال يرتدي ملابس نومه؛ قميصه الداخلي الأبيض ذو الكمين القصيرين وفوطته الرمادية أيضاً، مسبلاً جفنيه واضعاً مرفقيه على فخذه ومشابكاً بين يديه، ومال بجسده إلى الأمام، مسنداً جبهته إليهما، لم يظهر خوفه أمامه وإنما بدا له مهموماً.

اقترب منه وسأله في قلق:

-أبي، ما الذي يحدث بالخارج؟ ألدبك فكرة؟

تنهد عبد الكريم وقال:

-أتوقع بأنها طائرات تتبع القوات العربية التي ساهمت في القتال بعدن.

بدا التفاؤل على وجهه وهو يقول:

-هذا يعني أن رجال العصبة سيرحلون؟

هز رأسه وقال:

-أتمنى هذا يا بني، ودون خسائر كبيرة.

ابتسم وأبعد خوفه، وقال:

-أخيراً، هؤلاء لن يغادروا المدينة إلا بالقوة، اللهم نصرک، اللهم نصرک.

وعاد لغرفته وقد انعشته كلمات أبيه، بينما رفع عبد الكريم رأسه إلى السماء ودعا قائلاً:

-اللهم رحمتك بكل الأبرياء.

صدمة الدوي الأول لم تصب عائلة عبد الكريم وحدهم؛ بل لكل السكان، فعلى إثره هبت ضياء ومها من نومهما فزعيتين، كان عنيفاً وقريباً، فبكت ضياء على الفور وهي تهرع لترتمي في حضن أمها، وتقول في نبرة مرتجفة:

-أمي، هل انتقلت الحرب إلى المكلا؟ لم أسمع ضجيج الطائرات أيضاً؟

ردت عليها مها بنبرة خوف:

-لا أعرف شيئاً يا ابنتي، اهدأي، اللهم سلم.

لكن الرجفة ظلت بكل جسدها، دثرتها، وأبقت رأسها في حجرها، ولسانها يتمتم بالدعاء والآيات، أما شادي فقد كان نائماً في غرفة الضيوف، أيقظه صوت الانفجار أيضاً، وخاف مثلها، وأقبل عليها فور سماعه لصوتها وبكاء ضياء، ولما اطمأن عليها، ابتعد وصعد إلى سطح العمارة ليحاول معرفة ما يجري.

رغم عتمة الليل، استطاع رؤية السنة الدخان تتصاعد من بعيد، من الجهة الشمالية الغربية للمدينة، وأزيز الطائرات الحاد القوي يطغى على سكون الليل، ثم استطاع تمييز صوت إطلاق نار ومحركات سيارات؛ لكنه لم يستطع تحديد جهتها، أصداؤها بكل مكان، تساءل: -من يقاتل من؟ أو ربما من يقاتل المغتصبين؟

ثم خطر بباله خاطر، فقال لنفسه:

-هل آن تحرير المدينة كما حدث في عدن ورواه لي رضوان؟

وحملت الريح إلى مسامعه بكاء الأطفال المذعورين بالحي أصوات أهاليهم في محاولة لطمأنتهم، فدعا أن يصدق إحساسه ليكون الصبح بداية أمل للجميع، وألا تتحول المدينة لساحة حرب بين أطراف لم يتأكد منهم حتى الآن، ولا أن تتكرر مأساة مدينته هنا.

ورافق إطلالة خيوط الشمس الأولى الانبلاجة لكل شيء.

خرج كل الأهالي من بيوتهم ليروا وجوهاً غير الوجوه التي كانت بالأمس، جنود البلاد بمدركاتهم وآلياتهم وأسلحتهم كانوا يقفون على نفس النقاط التي كان يقف بها رجال العصابة، وتلك المباني التي صارت معاقلمهم بالأمس قد دمرت بالقذائف، وتحولت اليوم إلى خراب.

خرج عبد الكريم وبرفته طارق كما فعلا في المرة الماضية، وسار بسيارته في شوارع منطقتهم فوة وصولاً إلى خور المكلا عبر منطقة (باعدود)، ومرا بالنقاط التي استوقفهم فيها جنود

البلاد، كانوا يتأملونهم ويفتشون سيارتهم كإجراء احترازي، ثم شاهدوا الناس تهلل وتكبر وترحب بالجنود الذين يمرون بمركباتهم وتحية في إجلال
كان الصبح فعلاً مفعماً بالتفاؤل والأمل، وبث الحياة في المدينة بغتة، كما اختطفها الموت بغتة.

اختفى الرجال المثلثون، واختفى كل أثر لهم، وظهر بدلاً عنهم الجنود الذي كانوا لا يزالون ينفضون شوارع المدينة وأحيائها من أي عدو مندرس لم يفر بعد.
فرحة عامرة أطلقتها طارق، وقال بصوت عالٍ وهو يجلس بالمقعد المجاور لمقعد أبيه:
-الحمد لله، الحمد لله، نلنا الحرية أخيراً.

أما عبد الكريم فقد كانت الحيرة تعتريه، كيف تم هذا الأمر بين عشية وضحاها، تماماً كما دخل رجال العصبة ورحل رجال الدولة وجنودها، يظهر الجنود فجأة ويختفي رجال العصبة؟

لم يجد جواباً لسؤاله في ذلك الوقت، لكن الطمأنينة سكنت قلبه كما سكنت البهجة قلوب السكان جميعهم.

وما أن حل المساء حتى كانت الألعاب النارية تضيء سماء المدينة بأنوارها، وزينت آيات البهجة والفرح أرجاءها، وطافت الدراجات والسيارات الشوارع وهم يطلقون أبواق

مركباتهم في موكب فرائحي، وأقيم حفل غنائي كبير حضره القادة الذين قاموا بالحملة العسكرية، وتليت فيه معزوفات النصر والرقصات الاحتفالية. سر طارق، فانسل من أبيه وانضم لرفاقه، وأفرغوا خمستهم كل شغفهم في المرح والرقص بمشاركة الشباب والحاضرين بدلاً من رحلتهم التي خططوا لها، ولما انتهى الحفل كان التعب قد أنهكهم، والساعة تجاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل، لكن أرواحهم ضجت بعنفوان المرح، ومضوا عائدين بسيارة طارق إلى بيوتهم، قال محمود في حماس وهو يجلس إلى جوار مقعد طارق:

-لدي مفاجأة لكم ستبهجكم جميعاً.

ابتسم رفاقه، وقال طارق وهو يعاين الطريق أمامه:

-أتخفنا يا رجل، فقد كثرت المفاجآت الجميلة اليوم.

قال ناصر وهو يتنفس في عمق:

-الحمد لله، إن للحرية والأمان طعم مختلف.

قال صبري مؤيداً:

-صدقت، الحمد لله.

قال وليد في لهفة:

-ما المفاجأة يا محمود؟

رد محمود:

-إليكم هذا الخبر، الجامعة تعلن إجازة مفتوحة حتى استقرار الأوضاع، لا يزال الجيش يفحص المناطق خارج المكلا ليظهر المحافظة من الأعداء، لن يكون هنالك أمان في الطريق إلا بعد أن يجتثوهم تماماً.

صَفَّر طارق مرحاً، وسرَّ أن مُنح إجازة علنية دون اللجوء للهرب من مقاعد الدرس، فقال:

-الحمد لله، وعلى هذا النحو متى سنعد لرحلتنا إلى مدينة الغيل؟

-لنحاول بعد ثلاثة أيام إن شاء الله.

-اتفقنا، لكن أيضاً عليكم أن تخططوا لفترة الإجازة الحالية هذه، ما الذي سنفعله؟

قال وليد:

-سندهب للبحر في الصباح الباكر ونخطط لها، لن نترك لحظة واحدة دون أن ننتهز هذه الفرصة الجميلة.

أيد الرفاق قوله، وتابعوا طريقهم مسرورين.

في تلك الأثناء، كان عبد الكريم قد عاد للمنزل بعد أن سمح لطارق بالذهاب مع رفاقه حين رأى ملامح البهجة ترسم على وجوه الناس وتتألق بها الشوارع، الحيرة لا تزال تسيطر عليه دون أن يجد لها جواباً، عاد مباشرة بعد صلاة العشاء، رأى مظاهر الخوف تختفي عن بيته أيضاً؛ عائشة تعد العشاء لأجلهم، ورُبا وجدها تجلس على الأريكة وتلعب في مرحٍ بعرائسها

في الصلاة، سلم عليهما، ثم دخل غرفته ليستبدل ملابسه ويفتح التلفاز، عله يجد الإجابة التي ينتظرها فيه، قطع شروده وحيرته اتصال من سهيل وهو يقول في فرح:

-سيدي، سيقام احتفال كبير بساحة المدينة، ألن تحضر؟

-لا، لست من هواة السهر لأجل الاحتفالات يا سهيل.

ضحك وهو يقول:

-يبدو بأنك صرت عجوزاً على السهر.

بادله الضحكة، وقال:

-يكفيننا سهر الليلة الماضية، الحمد لله.

تنهد بعمق ورد قائلاً:

-الحمد لله، ومبارك لنا جميعاً هذا الانتصار، أخيراً سيعود الأمان الذي كنا نتمناه.

جلس عبد الكريم على طرف سريره، وقال حائراً:

-لم أفهم شيئاً مما حدث حتى الآن يا سهيل، كيف تم هذا؟ كيف تم في ليلة واحدة؟!

ضحك وقال:

-كل شيء تم التخطيط له يا سيدي، وحسب متابعتي عبر مواقع التواصل، فإن القوات

العربية أعدت جيشاً من أبناء المحافظة لأجل هذا اليوم، واستهدف الطيران معقل العصبة

مباشرة، وأغلقت المدرعات الطرق عليهم فور ذلك، فهربوا عند أول هجوم.

-أها.

-لم يستطيعوا الصمود أمامهم حين حاصروهم من الجو والبر، ولا تزال قوات الجيش والقوات العربية تطاردهم الآن بعد أن طهرت المكلا منهم لتطهر المحافظة كلها من بقاياهم.
رد عليه في ارتياح:

-الحمد لله الحمد لله، وأخيراً ستعود الحياة للبلاد فعلاً، وسننعم بالهدوء.

-معك حق، متى سنعود لعملنا إذن؟

فكر للحظة ثم قال:

-أخبر الموظفين بأن هذا الأسبوع سيكون إجازة إلى مطلع الأسبوع القادم، إن ظلت الأمور هادئة سنباشر عملنا بعون الله، لكن متابعتنا لأي مستأجر أو للنازحين ستظل عند طلبهم لنا.

-أمرك سيدي.

سيال الفرحة كان قد تسرب لقلب شادي وأهله، نزل بنفسه ليرى مظاهر الفرحة بالمدينة وهو يتخيل بأن كل رفاقه في المقاومة كانوا يحتفلون مثلهم وربما أكثر بعد ذلك القتال الشرس والدماء التي أغدقوها لأجل هذا اليوم، تخيل رضوان معهم رغم علمه بعجزه عن مشاركته فرحة النصر.

أما ضياء ومها فلم تكن فرحتها بأقل منه، سمعت أصوات الناس وبهجتهم، وشاهدتا الأضواء النارية وهي تلتمع في السماء، وحمدتا الله على ما تم لأجل المدينة.

رويداً رويداً، بدأت الحياة تتغير في المدينة، لم يعد هناك قيود، الكل يجد ما يريد، الخدمات تتنفس الصعداء وتزداد مواردها، ومعها بثت الطمأنينة في الصدور.
وبعد أسبوع ونصف، قررت الجامعة عودتهم لمقاعد الدراسة مطلع الأسبوع القادم، لم يكن طارق متحمساً لها كعادته ومضيه إليها لا مهرب منه حتى ينال رضا والديه فقط.

تكاد عقارب الساعة تدق الحادية عشر صباحاً، حين استيقظ طارق من نومه وخرج من غرفته وهو لا يزال يتشاءب، وجد والديه جالسين على أريكة بالصالة يتحدثان، كان عبد الكريم لا يزال يرتدي ملابس الخروج، فسلم عليهما، رداً عليه السلام، ثم سأل والده مستفهماً:

-أراك اليوم بالمنزل مبكراً يا أبي على غير العادة، فأنت لا تعود في هذا الوقت منذ أن استأنفت العمل بالمؤسسة.

هز عبد الكريم رأسه وقال:

-أنهيت جولتي ببعض المباني قيد الإنشاء والتي أجلت العمل فيها، وسيشرف سهيل على بقية العمل لأن لدي عمل آخر بالمساء... وماذا عنك؟ ألن تفعل شيئاً بالإجازة غير النوم؟
ابتسم وهو يقول:

-بعد الغد سنعود للجامعة، دعني أرتاح قليلاً.

فابتسمت عائشة في مكر، وهي تقول:

-أليس لديك موعد مع أصدقائك؟ إنهم الوحيدون الذين يرغموك على الخروج في الصباح الباكر.

اتسعت ابتسامته وقال:

-لا، موعدنا في المساء، سنلتقي بالنادي وسنقابل عدداً من طلاب الكلية لأجل الفريق الرياضي، أرايت يا أبي، إننا نستعد للجامعة أيضاً.

قال عبد الكريم في ابتسامة:

-جميل يا طارق، لكن أتمنى أن تكون دراستك في الأولوية، فأنت من دون أن تشارك في أي فرق رياضية في وضع شائك ومزِر مع الدرجات، متى أستطيع أن أثق فيك دون أي كلام؟ امتعض وجهه، بينما عقدت عائشة حاجبيها، وقالت لزوجها بحدة:

-ما هذا الكلام يا عبدالكريم؟ إنه يمثل لكل ما تطلبه منه، وبذلت جهدي معه حتى يدخل الاختصاص الذي اخترته له، ومع ذلك لا زلت توبخه كطفل صغير؟

حدجها بنظرة حادة قبل أن يقول:

-لولا تدليلك له يا عائشة لما طلبت منه الدخول في اختصاص الهندسة الكيميائية، كنت أمل أن يدرس إدارة الأعمال أو التجارة؛ لكنني للأسف لا أثق في إنفاقه أبداً، فهو مسرف مبذر، ولا أريده أن يكون مسؤولاً عن عملي، جربته في عملين فقط من أعمالي أثناء إصابتي باختبار، فتبين لي صدق توقعاتي.

فرد طارق بغضب:

-أبي!

تابع عبد الكريم بنفس الحدة:

-لا يهم أن تكون مسؤولاً عن عملي هذا من بعدي يوماً ما، المهم هو أن تكون إنساناً نافعاً لنفسه ولغيره، واختصاص الهندسة الكيميائية ليس سيئاً، له مستقبل كبير إن تفوقت فيه. قالت عائشة في ضيق:

-لم تقول هذا يا عبد الكريم؟ طارق سيتولى عملك ذات يوم، لا بد أن تعلمه المهنة. تنهد وقال:

-التكبر الغرور يعميان بصيرة صاحبه ولا يجعله يفكر أين يضع ماله إلا فيما يرتضيه غروره. ردت عليه في حزم:

-طارق يفتخر بك، ألا تريده أن يفعل ذلك.

نهض متجاهلاً قولها، وهو يقول:

-على المرء أن يفتخر بما يقدمه وليس بما يمنحه إياه غيره، دعيني أذهب إلى غرفتي الآن لأرتاح، لدي في المساء جولة إلى عماراتي بحي السلام.

قفزت العبارة الأخيرة إلى أذني طارق بسرعة مبددة ضيقه وسخطه من توبيخ والده، فسأله قائلاً:

-وماذا لديك هناك؟

بدا عبد الكريم مندهشاً من سؤاله له وهو يحدق به للوهلة، ثم أجابه:

-أريد أن ألتقي بعض النازحين والشقق التي بها أضرار لأجل بعض الصيانات المؤجلة.
نهض طارق من جلسته وهو يقول حماس:
-أسمح لي بالذهاب معك؟
زاد الاستغراب على وجهه وهو يرفع حاجباه في دهشة، فسأله حائراً:
-ولم؟! إنها المرة الأولى التي تطلب فيها مرافقتي.
ابتسم في ثقة، وقال حزم وهو يضع يده على صدره:
-أريد أن أزرع الثقة في نفسك يا أبي، وأتعلّم منك وإن كنت لا تريدني خلفاً لمهنتك
وتجارتك، ألم يعجبك طلبي؟
اتسعت ابتسامته، فربت على كتفيه، وقال:
-بارك الله فيك يا ولدي، كم تمنيت سماع هذه الكلمات منذ زمن، أتمنى حقاً أن تتخلص من
غرورك وتكبرك وتفكر في الناس حولك، كما تفكر بنفسك ومستقبلك..
عقدت عائشة حاجبيها وقد انتقلت عدوى الاستغراب إليها وهي تسأل طارق قائلة:
-ولكنك بالعادة لا تترك اجتماعات أصدقائك، ألم تقل بأن لديك اجتماعاً بال مساء مع
رفاقك؟! غريب منك هذا التصرف اليوم.
انتبه عبد الكريم لملاحظة زوجته، ونظر لطارق منتظراً إجابته، والذي قال متداركاً ملحوظة
أمه:

-ألم تسمعي ما قاله أبي قبل قليل يا أمي؟ سأثبت له من الآن خطأ ظنه فيّ، وأن في وسعي العمل معه، سأؤجل لقائي مع رفاقي بعض الوقت.

ابتسمت وقالت في سرور:

-بوركت يا ولدي.

سرا بتغير تفكير ابنهما فابتسما له، وبادلها ابتسامة السرور العريضة، وفي أعماقه هناك ما يدفعه إليها.

سيرى عن كذب منزل ضياء وسيشمت بحالها المزري ليحمل تقريراً جديداً ومفصلاً لرفاقه في الكلية بعد عودتهم من الإجازة.

تمتم لنفسه في حقد وغضب:

-ستنمى الموت قبل أن تقدم على إهانتها لي.

موعد الامتحانات لا شك بأنه سيعلن فور عودتهم لمقاعد الدراسة، فكان كل همها أن تذاكر دروسها وتتمم ما فاتها سريعاً رغم أنها لم تترك يوماً في الإجازة السابقة إلا واستغلته، لم يتبق إلا القليل وتكون قد حققت مرادها، كان كل ذلك هو ما يشغل فكر ضياء التي اتخذت من غرفة الضيوف مكاناً لمذاكرتها فتبعثرت بعض أوراق المحاضرات أمامها على الأرض وهي تذاكر مهمة ونشاط، بينما كانت مها بالمطبخ المتواضع تعد طعام العشاء، وشادي في غرفة الأخرى نائماً ليرتاح قبل موعد عمله بالسوق المركزي.

لم يخرجها من غمرة انهاكها بدروسها إلا صوت بالخارج ينادي باسم أخيها، ارتجفت ولم تصدق ما سمعت حين ميزت صوت صاحبه، غالطت نفسها وهي تنظر من ثقب النافذة القريبة منها، لتدرك أن ما سمعته لم يكن خيالاً قبل لحظات..

صعقت حين رآته وأكد بصوته للمرة الثانية صدق ما توصلت إليه، كان واقفاً وإلى جانبه عبد الكريم وسهيل اللذين لم تكن تعرفهما، هتفت مذعورة:

-طارق!! ما الذي أتى به إلى هنا؟ منذ إقامتنا لم أعرفه إلا بالجامعة، ماذا يريد؟
انتبهت لخطوات مها تدلف غرفة النوم لتوقظ شادي، أسرع ترتب أوراقها وتحملها حين أطلت مها على الغرفة وهي تقول:

-إنه السيد عبد الكريم صاحب العمارة، لابد أنه يتفقد أوضاع سكانه كما يفعل كل شهر.
انتبهت لقولها وقد نسيت هذا الأمر برؤيتها لطارق، فقالت متدركة:
-آه صحيح أُمي.

ثم أسرع خارجة من غرفة الضيوف، وقد اعترها القلق وانقبض قلبها بشدة
ماذا يريد طارق من مرافقته لوأله؟ إنها المرة الأولى التي يحدث فيها هذا.
وحيث دلفت غرفة النوم رأت شادي قد استيقظ وارتدى ملابس الخروج ليستقبلها، قالت له في قلق:

-عبد الكريم برفقة ابنه، إنه شاب متكبر مغرور ستسمع منه ما لا يسرك يا أخي، فلا تعباً بكلامه، قدومه مع والده لا يشعرني بالراحة أبداً، إنها المرة الأولى التي يفكر فيها بالقدوم إلى هنا.

تساءل قائلاً:

-ومن أين تعرفينه يا ضياء؟

-إنه زميلي بالدفعة.

عقد حاجبيه وهو يقول:

-هل هذا يعني بأنه يؤذك بكلامه؟

ارتبكت ضياء وهي تجيب:

-لم يخصني بحديث، بل كان يتحدث بكلام عام عن النازحين ويصفهم بالمشردين و...

احتقن وجهه في غضب وقال مقاطعاً إياها:

-هكذا، والده رجل طيب ومتواضع، لن...

قاطعته وهي تقول:

-لم أخبرك لتغضب هكذا يا أخي؛ بل لتأخذ حذرك منه.

هز رأسه وقال في حزم:

-سأفعل.

نزل شادي الدرجات ليفتح الباب بنفسه لضيوفه ويصافحهم ويرحب بهم جميعاً، وحين وقعت عيناه على طارق تذكره، كان لقاؤهما خاطفاً في العام الماضي حتى حديثه إليه كان همساً لم يستطع أن يتذكر من تفاصيله إلا نظرات الانزعاج من عينيه، لا بد من أنه يكره النازحين منذ ذلك الوقت، تساءل في نفسه:

-لم اختلف عن أبيه هكذا؟

لم يُبدِ شادي ما في نفسه، وقاد ضيوفه نحو شقته وهو يتبادل الحديث مع عبد الكريم الذي كان خلفه مباشرة ومن بعده سهيل ومن بعده طارق، والأخير يتأمل الممر والجدران والإضاءة الضعيفة به، ثم المساحة الصغيرة أمام غرفة الضيوف والغرفة نفسها بطلاتها وحصيرتها وأثاثها المعدوم، ابتسم في أعماقه ساخراً وهو يقول:

-يا لهذا المكان العتيق، وفوق هذا تغترين بنفسك، عجب أمرك يا ضياء.

فلما جلس على الحصيرة إلى جوار أبيه وأسند ظهره إلى وسادة انتبه لشادي وهو يرحب بهم مجدداً ثم ينصرف للحظة ليقدم لهم بعد الشاي بعد لحظات، قدمه إليهم جميعاً، تناول عبد الكريم كوبه وهو يقول:

-لسنا في مقام ضيافة يا شادي، نحن في جولة تفقدية بالحي.

ابتسم شادي له وقال:

-وهذا أقل ما أستطيع تقديمه إليك يا سيدي، تسعدني زيارتك.

ارتشف رشفة من كوبه ثم قال:

-دعنا في المهم، كيف تجري الأمور معك الآن يا شادي؟

فابتسم وقال:

-على خير ما يرام سيدي، أعمل بورشة في الصباح و بالسوق بالمساء، الدخل جيد والحمد لله..

-هل هناك أية مشكلة بمكان إقامتك هنا؟

-لا سيدي، الحمد لله الشقة جيدة رغم قدمها.

-لم يسعفنا أمر التجديد في ظل الحرب يا بني، خصوصاً هذه العمارة.. سيأتي اثنين من عمالي لإصلاح ما لم تستطع إصلاحه غداً بإذن الله، أو في إمكانك الانتقال لشقة أخرى إن أحببت.

لم يكن شادي يرغب في تغيير نمط حياته، لا شك في أن الحصول على مكانٍ أفضل يعني ارتفاع معدل الإيجار عليه، وراتبه الذي يناله بالكاد يغطي مصاريف البيت ودراسة أخته، رد على عبد الكريم مبتسماً:

-لا سيدي، لقد اعتدتُ هذا المكان، سأكون ممتناً لمساعدتي بقدوم عمالك للإصلاح إن شاء الله.

سأل طارق:

-هل القدم مشكلة يا شادي؟

هز رأسه وأجابه:

-لا، ليس مشكلة.

فقال عبد الكريم:

-القديم قد تظهر مشكلاته مع حدوث التجديد والإصلاح، هذه العمارة كلها بحاجة لتجديد، سأعمل على ذلك في المستقبل القريب إن شاء الله.

قال طارق في حدة:

-أنت رجل رائع يا أبي، ولا يجب أن يعقب أحد من الساكنين بأي تدمير لأي سبب كان. بدت الدهشة على وجه عبدالكريم لحديث ابنه الحاد فجأة، فسأله:

-ما بك يا طارق؟

-لا شيء أبي، أستغرب أقوال بعض الصنف من البشر، تقدم لهم المساعدة ومع ذلك يتذمروا.

استفزت جملته الأخيرة شادي فرد قائلاً:

-إن كانت كلمة (قدم) قد أزعجتك فأنا أعتذر ولم أقصد الإساءة، وإنما...

ابتسم وقال مقاطعاً:

-لا تعتذر، لقد سمعت أسوأ من هذه الكلمة، وحتى إنه تم اتهام أبي بالتقصير.

رد شادي في حزم:

-سؤال السيد عبدالكريم كان واضحاً، وأعتقد أن أية ملاحظة من القاطنين لا تعد تدمراً؛ بل رغبة في حل لمشكلة قد يملك السيد والدك حلاً لها.

اتسعت ابتسامته الماكرة، وهو يقول:

-تجيد تنميق الكلام حقا.

فرد عليه بحدة:

-أنمق الكلمات أفضل من رميها سهاماً مسمومة ، كما تنعت أنت من خرجوا من بيوتهم

قسرا بالمشردين .

أدرك لحظتها بأن ضياء قد نقلت حديثه لأخيها، فقال:

-هذه الحقيقة و مع ذلك يتشدقون بك..

قاطعوه وهو ينهض و يقول في غضب:

-أيها الـ...

فصمت قاطعاً كلمته متجاوزاً لأجل السيد الذي أكرمه، بينما عقد عبد الكريم حاجبيه

غاضباً وطلب من طارق وسهيل أن يسبقاه للسيارة، فنهضا، بينما قال طارق معتذراً:

-أعتذر إن أخذت منك الحديث يا أبي..

أشار له بالخروج في ضيق دون أن يقول كلمة، فنفذ أمره، ولما خلت الغرفة لهما بعد انصرافهما

قال لشادي:

-أعتذر من..

قاطعوه وهو يقول:

-سيدي، أرجوك لا تعتذر.

-لكن ولدي...

ابتسم شادي وهو يقول:

-ربما أزعجني كلامه لكن الخير لا يزال موجوداً طالما أن هنالك أناس أمثالك بهذه الحياة،
وأسأل الله أن يهديه ويكون مثلك ذات يوم.

فابتسم له، وقال:

-ومهما كان يا ولدي فقد أخطأ طارق بحقك، لذا لا بد أن أعتذر.

قال في حزم:

-لا تعتذر أرجوك، انسى الأمر.

فجأة تناهى إلى أسماعهما ضجة عالية من الشارع، نهض شادي من مكانه مسرعاً واتجه نحو
النافذة ليستطلع الأمر ويعرف ما يحدث.

في تلك الأثناء، ومنذ لحظة مغادرته العمارة لم تفارق الابتسامة الساخرة وجهه وهو يتذكر
تفاصيل الشقة ويتجه برفقة سهيل إلى نهاية الشارع المطلة عليه العمارة التي سكنتها عائلة
شادي حيث ركن فيه سيارته وسيارة أبيه

-ما أجمل المكان الذي سكنت فيه يا ضياء، ومع ذلك تمتلكين شخصية قوية غريبة

للتجاسري علي؟ بماذا تتباهين يا ترى؟ بلا شيء!! يا لك من غبية، انتظري قليلاً فقط أياماً
قليلة وستجدين الجميع يتحدثون عن القصر الفاخر الذي تتباهين به، سيكون لدي موضوع
جديد أحادث به أصدقائي وأسمعه لك كل يوم.

-هل أنت طارق؟

ما كاد يصل إلى سيارته حتى انتبه لسته رجال يقتربون منه، استوحش نظارتهم نحوه، كانت محتقنة بالغضب، وثلاثة منهم كانوا يحملون عصي، تفحصهم سريعاً بدوا له من النازحين، فاستغرب نداءهم له فهو لا يعرفهم ولم يتعامل معهم، وربما خلط الأمر عليهم فأردوا طارقاً غيره، أجابهم في حزم:

-نعم اسمي طارق لكنني ابن التاجر عبد الكريم، أنا لا أعرفكم ربما تعنون شخصاً غيري.
ابتسم أحدهم في سخريه وقال:

-بل نريدك أنت

زاد استغرابه فسأل:

-وماذا تريدون مني؟

فرد آخر بغضب:

ماذا نريد؟! ألم تجد حديثاً تستمتع به إلا الشاة بأبناء بلدك؟

فقال آخر بنفس سخط رقيقه:

-كيف تجرؤ على احتقارنا أيها المخبول؟..

صعق طارق لأقوالهم، هل أخبرت ضياء جيرانها بما يقول ودفعتهم ليحاولوا الاعتداء عليه؟

سأل مندهشاً:

-من أخبركم بهذا؟

أجابه شاب في مثل عمره وهو يقول بغضب:

-لدي صديق بنفس كليتك نقل لي كل أحاديثك عنا.

-لن نسمح لك بالاستمرار في هذا..

اتقدت نيران الغضب جلية على وجوه الرجال لتلفح وجه طارق، وكأنها كانوا ينتظرون كلمة

واحدة يضيفها حتى ينقضوا عليه ويحرقوه بها، قال سهيل مهدثاً:

-لا بد أن سوء تفاهم قد...

قاطعه أحد الرجال وهو يقول:

-ابتعد و دعه يبرر أقواله.

حاول منعهم وهو يقول:

-أرجوكم اهدأوا... لا...

جذبه رجلان وألقيا به أرضاً وأحدهما يقول:

-الحديث عنا وليس عنك ليفور دمك، ابتعد..

جحظت عينا طارق في رعب وتصيب جبينه عرقاً وكاد يرتجف مع إحاطة الرجال به، دفعوه

ليلصق ظهره بالسيارة، فلم يستطع أن ينطق بحرف، وهو يقول في نفسه :

-يتذمرون ويشتكون وكأن أبي لا يفعل شيء لأجلهم، وإن قلت ذلك صرت مجرماً؟! أي

بشر هؤلاء؟ إنهم تماماً كمشقيق تلك المزدوجة، لا أدري كيف يصبر أبي عليهم؟ إن حاولت

تبرير موقفي فلن يفهموا شيئاً، كيف سأتناوض معهم ؟ كيف سأنجو منهم الآن؟

صاح سهيل بهم مع تطويقهم الخناق على طارق حتى بات بعيداً عنه، لم يستمع إليه أحد، فأسرع عائداً إلى شقة شادي ليخبر عبد الكريم بما يجري، ولما اقترب رأى شادي يطل من النافذة ويرى الرجال الستة المحيطين بطارق، فارتعب وصاح به:

ماذا يجري هناك يا سهيل؟

لم يجبه سهيل وإنما أشار له بأن يأذن له بالدخول ففعل، ولما وصل إلى الشقة أخبر عبد الكريم وشادي بما يحدث، فصدما، فقال شادي بسرعة:

- سأحاول تهدئتهم.

وأسرع في الخروج على الفور، بينما ارتجف جسد عبد الكريم للحظة وشعر بأن رأسه يكاد يدور، فأخفض رأسه وأسبل جفنيه، شعر بخيبة أمل كبيرة من تصرفات طارق وغرق في اليأس هذه المرة، وهو يقول في ألم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لو كنت أعلم ما تفعله يا طارق لما أحضرتك إلى هنا.

دنا سهيل منه، وهو يقول:

- سيدي، هل أنت بخير؟

نظر إليه بحزم ونهض وهو يقول:

- نعم، أنا بخير، دعنا نلحق بشادي يجب أن نوقف أولئك الرجال.

وخرجنا على الفور، أما ضياء فمئذ أن وطأت قدما طارق أرض الشقة.. شعرت بأن قدومه ليس لخير أبداً، كظمت كل مخاوفها في نفسها ولم تستطع سماع ما يجري في الغرفة إلا صوت الضجة التي بالخارج، أطلت برأسها هي ومها من النافذة، في اللحظة التي أطل فيها شادي من النافذة ليروا جميعاً ما يحدث، ارتعبتا وزاد رعبهما مع نزول شادي إلى مكان المشاجرة ليحاول إنقاذ طارق، وشاهدتهما لما وصل يبعد الرجال الذين طوقوا الخناق على طارق واحداً تلو الآخر، وطارق لم يستطع حتى قول كلمة و إبعاد خوفه من وقوع ما لا يريد، تفاجأ الجميع من اقتحام شادي حتى صار بينهم وبينه ، ثم صاح بغضب:

- ما هذا الذي تفعلونه؟ أتريدون الاعتداء على ابن السيد الذي أكرمكم؟

رد أحدهم ساخطاً:

-لسنا جاحدين لما قدمه السيد عبدالكريم؛ لكن أن نصير أحاديث لما لا يليق فلا نرتضي ذلك يا شادي.

أجابه في حزم:

-أدرك تماماً حقيقة ما تشعرون به، فأنا مثلكم لم أسلم من إيذائه ولكني لن أرد الأذية بأسوأ منها.

بدا الضيق على وجه طارق، وهو يقول في نفسه:

-أذية؟! أقول الحقيقة أذية؟ نعم صحيح، الحقيقة مؤذية لمن لا يود أن تظهر، نسيت هذا، المهم هو أن يفهموا منه شيئاً ويخلوا سبيلي.



قال أحد الرجال محتدا وهو يدفع شادي إلى الخلف فاصطدم ظهره بطارق ليصطدم ظهره الأخير بسيارته، وهو يقول:

-كم دفع لك هذا المعنوه لتدافع عنه؟

صدم شادي وطارق لقول الرجل، بينما قال الرجل لزملائه الغاضبون:

-لنري هذا الأحق ماذا يعني الحديث في الناس..

انقض الرجال هذه المرة على طارق فجذبه اثنان من كتفه ليعدها عن شادي الذي حاول إبعادهم ممسكاً بأيديهما مشتبكا معهما، فجذبه آخران من ياقة سترته وأبعدها ليلقيا به أرضاً خارجاً الحلقة، ولينقض البقية على طارق الذي حاول مقاومتهم والدفاع عن نفسه، فمع أول جذب له ضرب أحدهما على وجهه ليترنح عنه مبتعداً عنه، فركله زميله في ساقه جعلته الضربة يفقد اتزانه للحظ ويستند بيسراه إلى سيارته، لكن ضربة بالعصا هوت على رأسه من الخلف، هي من باغته، أجمدته لثوانٍ مكانه فلم يعد يرى إلا الظلام أمامه، عاد الثاني ليجذبه مبعداً إياه عن السيارة وليلقي به عند أقدام ثلاثة من رفاقه الذين انقضوا حين صار جسده ملتصقاً بالأرض عاجزاً عن الحراك، أصبح تحت أقدامهم التي تقاذفت جسده ككرة صغيرة، وتناوبت العصا كل شبر فيه، ارتعبت ضياء ومها وصاحتا بالجيران ليوقفوا هذه المشاجرة، وارتعب عبدالكريم للمنظر وهتف بالرجال الغاضبين ليتوقفوا لكن لم يصغ أحدٌ له، فقد أعماه الغضب، أسرع بعض رجال الحي وسهيل ليقترحوا المشاجرة ليساعدوا شادي

الذي نال نصيباً من وابل لكمات الرجال الغاضبين ، وهو يصيح بهم بأن يتوقفوا، ويبعدهم
عن طارق بكل ما استطاع.
وفي آخر محاولة له أمسك به اثنان وأبعده عن طارق -الذي كان قد غاب عن الوعي كلياً-
ورميا به إلى الشارع الأسفلتي، في اللحظة التي كانت سيارة فيه تقترب من المكان، فصدم
الجميع وتوقفوا عندما دوت صرخة الألم ممتزجة مع صوت فرامل السيارة محاولة التوقف.
لكن، دون جدوى.

الفصل السادس عشر

نداء صامت

ظلام دامس و عيون متقدة، هذا ما استطاع طارق تمييزه فور استفاقته من إغماء متأوهاً، اضطرب من الظلمة أولاً، ثم من العيون التي تعود لجموع الرجال الغاضبين وهم يحيطون به من كل جهة، ويحملون عصيهم في أيديهم يلوحون له بها في توعّد وتهديد، الشر والتحفز للانقضاض بادٍ جلياً على مظهرهم، ارتعب وارتجف، ثم قالوا له بنبرة خيفة وبهم واحد: -لن تنجو هذه المرة يا سيد طارق.

دنوا منه أكثر فصاح مذعوراً وهو يحرك يديه محاولاً إبعادهم:

-ابتعدوا عني، ابتعدوا عني.

هب من سريره بسرعة مع علو صراخه، جسده يرتجف بعنف، وعينه جاحظتان ووجهه شاحبٌ غارق في العرق التي تصبب من جبينه، أسرع عبد الكريم يمسك به من كتفيه بقوة ويقول مهدئاً:

-أنت في أمان يا ولدي، اهدأ.

لكن عيناه أوحتا له بعدم عودة وعيه، جسده لا يزال يرتجف ويصرخ:

-أولئك الرجال، سيقتلونني يا أبي، إنهم...

قاطعته حازماً وبصوت صارم:

-اهدأ، أنت في أمان.

مع الهتاف الثاني انتبه لما حوله، ألقى نفسه بالمستشفى وفي غرفة خاصة راقداً على السرير، أنوار مصباحي سقفها متقدان، فالليل لا يزال يرخي أستاره، وعن يسراه جلست والدته ورُباً على كرسيين قريين منه، وعن يمينه عبد الكريم الذي نهض من كرسيه لحظة اضطرابه. تذكر كل ما حدث في برهة، وإن ما رآه قبل لحظات لم يكن إلا هذياناً، كان يطالع ما حوله رغم أن رجفة الرعب ظلت متأصلة في جسده، وصدوره لا يزال يعلو ويهبط بسرعة لمدة، وضربات قلبه لا تزال متسارعة من شدة خوفه، أمسكت عائشة بيده برفق، وهي تقول بلهجة اشفاق وقلق وبعين دامعة:

-حمداً لله على سلامتك يا بني.

لم يجيبها بشيء، وإنما وضع يده الأخرى على صدره محاولاً تهدئة الثورة المضطربة في صدره، والرعدة التي دبت في أوصاله، ومعها أحس بالآلام الضربات التي ألمت بجسده كله، وأقساها التي أصابت رأسه، تأمل نفسه ورأى ذراعيه وجذعه العاري قد تلونا بالكدمات، أسبل جفنيه وهو ينقل يده إلى رأسه ليهون مطارق الألم التي تعتمل عليه، وقعت على الضمادة التي أحاطت بمحيطه، تملكه الإعياء كما تملكه الغضب مما أقدم عليه الرجال، وثارت أعماقه، قرر أن يصمت لفترة ويرتاح أولاً، لولا أن انتبه لعائشة وهي تنظر لوالده وقد عقدت حاجبيها وقالت غاضبة:

-يجب أن يدفعوا ثمن اعتدائهم على ولدي، لن أسكت أبداً.

-ابنك أخطأ يا عائشة واستحق ما ناله.

قالها ببرود فاجئها، فردت محتدة:

- ما هذا الذي تقوله وقد...

أجابه حازماً:

- ما حدث لم يكن إلا ردة فعل على تصرفات ابنك الرعناء، لقد رأيت بأمر عيني كيف أهان شادي أمامي، ومن قبله كان يتناول على النازحين بالفاظ لا تليق، ومع ذلك تجاوز الشاب كل ذلك وحاول الدفاع عنه وحمايته من أذى أولئك الرجال، ابنك سليل اللسان لا يراعي مشاعر أحد، والظاهر بأن تكبره وغروره هذا لن يتغير أبداً.

أبعد طارق يده عن رأسه، ونظر إليه وهو يقول بعصبية:

- لم أقل إلا الحقيقة.

رد عليه بألم وعصبية وهو يهز يده:

- أية حقيقة تقصد؟ حقيقة الحرب!! تأمل ما أصاب الناس قبل أن يؤول حالهم إلى ما آل إليه ويطلبوا المساعدة، تأمل حالهم قبل أن تثرثر كلاماً عبثاً لا فائدة منه ولا اتزان فيه، الحرب أوجعتهم، الحرب أثخنت أجسادهم جراحاً وأفقدتهم الأهل والديار، ولم تكتفِ بهذا أيضاً؛ بل داست كرامتهم وأذلتهم وأدمت قلوبهم، ثم تأتي أنت لتقيح جراحهم! أين وعيك يا طارق؟ أين قلبك؟ ألا تعي وتشعر بمعاناة غيرك؟!

ارتبك لانفعاله فارتدت الكلمات بحلقه وأسكته، بينما نهضت عائشة وقالت في عصبية

مماثلة:

-مهما كان حالهم، ما كان عليهم أن يقدموا على أذية ولدي.

عقد حاجبيه وهو يرد عليها:

-قلتُ لك ما حدث بسبب ما بدر منه إزاءهم.

قطع طارق صمته وهو ينظر له نظرة عتب ويقول في حزم وهدوء:

-أبي، لم تدافع عنهم؟

أيدت قوله وهي تقول بسرعة:

-صحيح، لم تدافع عنهم؟

أسبل جفنيه وتنهد وهو يهز رأسه في يأس، فكل ما قاله لم يصل لوعيه أبداً ولا حتى لوعي عائشة، جدار ثخين من الكبر أعماههما عن إبطار حال من هم حولهما، وغرور رفعهما فلا يران الناس إلا أصغر منهما شأنًا وأحقر مكاناً من أن يحمل همهم أو يدنو منهم، خلق ورثه عنها وعجز هو عن تغييره، قال في ألم وهو يربت على فخذه:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، لست أدافع عن أحد بقدر ما أتحسر وألوم نفسي على تقصيري في تربيته بسبب عملي، وترك أمرك لوالدتك.

نهض من مكانه وهم ليغادر الغرفة، فهتفت به:

-لا تهرب من الحديث، لا بد أن تفعل شيئاً، محال أن تسكت عمن آذى ولدك.

نظر إليها وقال:

-سأحل هذا الأمر بطريقتي.

شعر طارق بالضيق بينما عادت تقول حين رآته لا يزال يبتعد:

-إلى أين؟

-أريد الاطمئنان على شادي.

قفزت رُباً من كرسيها اقتربت منه وهي تقول في رجاء:

-أبي، أريد أن آتي معك.

ابتسم لها وهز إصبعه وهو يقول منبهاً:

-حسناً رُباً؛ ولكن دون أن تنطقي بأي كلمة، سترافقيني بصمت إلى أن نعود إلى هنا.

ابتسمت وهزت رأسها في حماس وسلمت يدها إليه وخرجا، بينما زفر طارق في ضيق وهو

يعرض بوجهه عن الباب ويقول:

-هه.. يهتم لأمر شقيق تلك المزدوجة، ولا يهتم لأُمري.

دهشت عائشة للكلمة وقالت:

-مزدوجة!! ماذا تقصد؟

هز يده وقال:

-انسي ما قتلته يا أُمي، المهم أني أريد المغادرة من هنا.

فوجئت لطلبه، وقالت حازمة وهي تشير بيدها:

-لا، لا يمكنك ذلك، ستبقى ليوم تحت الملاحظة كما أمر الطبيب.

عقد حاجبيه وصاح غاضباً:

-لن أبقى ساعة واحدة هنا.

ربتت على كتفه في رفق، وقالت مهدئة:

-اهدأ يا ولدي ولا تغضب من حديث أبيك فسلامتك هي الأهم، يجب أن تستر....

قاطعها وهو يصيح بأعلى صوته ويضع يده على رأسه في ألم:

-قلت لن أبقى، يعني لن أبقى.

ارتبكت لعنفوان انفعاله، فقالت:

-حسنًا، استرح بعض الوقت ريثما يعود والدك ويرتب إجراءات الخروج.

ازداد غضبه لكنه لم يجد بداً من الامتثال لما قالت، وعاد ليستلقي على فراشه، ولشدة إعياؤه

غلب النوم غضبه فسقط جفنيه واستسلمت عيناه ليعقبها استسلام جسده كله.

ألم وحزن وغضب كانا يملكانها، كانت تجلس على كرسي إلى جواره تتأمل حالته، فقد كان

مرقدًا على سرير بحجرة ترقيده خاصة موجودة بنفس الصف حيث تقع غرفة طارق

وفصلها ثلاثة غرف أخرى، ظل شادي غائبًا عن الوعي، واهن الوجه، وقد لفت جبيرة

كبيرة كتفه الأيسر وأجريت له عملية بعد كسر تعرض له بسبب اصطدام السيارة به، وضادة

أحاطت برأسه هو الآخر موارية إصابة أقل خطورة من الأولى، وكانت مها إلى جانبها

وحزنها لا يقل عنها، ودموعها مدرارًا على خديها.

للحظة تملكها شيء من الخوف، تذكرت ما رواه لها عما حدث معه في المقاومة ومع رفاهه، لم تدر كيف ولم تخيلت ذلك الآن، هل تخيلته جريحاً بسبب مشاركته لرفاهه؟ تمثلت أمامها تلك اللحظة التي قرر فيها الانضمام لهم وتلبية نداء الأرض، والتفاصيل المربعة التي رواها لها.

نداء الأرض ليس كأى نداء، نداء صامت يناجي القلب، يلامسه، تهر به أبناءها الذين احتضنتهم في كنفها طوال عمرها فانتمت جذورهم إليها، ترسل رُسلها على هيئة مشاعر أو بشر، فمن لبها آمن بها إيماناً عميقاً، ومن أعرض، أغدق عليها بأنهار الدماء واستباح حرمتها، وانتهك أعراض أبناءها، أو صم أذنيه عنها ورحل غادراً بها. منذ سقوط العاصمة في أيدي المتمردين وشادي وأهله مثل بقية أهل عدن يتابعون في توجس وقلق وما يصلهم من أبناء عبر التلفاز ومواقع التواصل، وبأن لهم أن أطاع الإنسان ليس لها حدود مهما كان انتهاؤه إن لم تردعه مبادئ دينه.

ارتجت المحافظة وخاصة مدينة (خور مكسر) على إثر الاشتباكات التي حدثت في مطارها بين القوات العسكرية المتمردة بمعسكر (الصولبان)، وأخرى بمعسكر (بدر) تحت لواء السيادة الحالية للبلاد، بدا أمام الأهالي بأن حلبة الصراع على وشك أن تصل إليهم، فقرر بعضهم المغادرة منها، إذ إن المنطقة حول المحافظة برمتها لم يكن يهدأ بها أفواج القتال ولا سيل لعاب الجشع السياسي.

وبالفعل ولم يكن هذا ببعيد أبداً.

بدأ مد وجزر المعارك بمعاودة الهجوم على المتمردين في معسكر (الصولبان) وبعثرة رجاله وتمزيق كيانه فقتل من قتل وأسر آخرين، وكان لأهالي المدينة مشاركة في حملة الهجوم. هنا، بدأ استنجد الأرض يرتفع ليصل لأذني شادي ويلامس قلبه، يحثه على الاستجابة له، وتعاضم حين ارتفع المد مجدداً لتولد الهزيمة الانتقام بهيئة وجوه أخرى، وجوه رفعت شعارات وتعللت بدعاوى تحل لهم الغزو والقتل والنهب، فاستباحوا حرمة السماء بطائراتهم التي لم تحمل إلا ما يبید الأرض وتحطم معادل القيادة بنخور مكسر، ليتم ردعها عند أعتابها وترحل. عادت نداءات الأرض لترتفع وتعلو استغاثاتها، بأن العدوان لا بد آت من جديد، استغاثت مجدداً لتستنهض أبنائها.

وصله النداء ظهيرة الثالث والعشرين من شهر مارس على هيئة اتصال من صديقه رضوان، فرد عليه في حزم:

-أنا معكم، لا بد أن يعرفوا بأن عدن ليست لقمة سائغة لا للمتمردين ولا لغيرهم. رد عليه بفرح:

-كنت أدرك بأنك ستوافق، نحن في حاجة لكل يد تستطيع الدفاع عن المحافظة. رد عليه في ضيق:

-وهل كنت تشك في موافقتي؟

أجابه في نبرة محذرة:

-لنكن واقعيين يا شادي، أنت المعيل الوحيد لأهلك، والانضمام للمقاومة يعني أن يكون

الحديث عن الموت شيئاً عادياً... شادي، نحن لا ندري ماذا سنواجه، علينا أن نكون

مستعدين لأسوأ الاحتمالات.

صمت للحظات يفكر في كلماته، خوض المعارك يعني أن ترجح كفة الموت أكثر من الحياة،

أن يكون أقصى همك كيف تحقق هدفك بغض النظر عما قد يصيبك، متجاهلاً قيمة حياتك،

متجاهلاً من هم خلفك، أرعبت الفكرة عقله، وكادت تجعله يتردد في الإجابة ولولا

النداءات الصامته التي مست قلبه قبل اتصال رفيقه، فقال في حزم:

-اطمئن، سأرتب أموري وأقاتل معكم.

بانت السعادة من كلمات رضوان، وهو يقول:

-على بركة الله، سأمر عليك في مساء الغد لأوضح لك بعض الأمور.

ابتسم وقال:

-أعرف كل شيء يا رضوان، فأنا متابعٌ لما يجري في الساحة.

-ليس كل شيء يُداع يا صديقي، المقاومة رفعت ألويتها في كل مدينة من عدن، ومنها المعلّ،

في بداية الرحل إن شاء الله سأخذك لتجتمع بهم وتنضم إلينا، وقبلها لا بد أن تعرف ما

فعلناه، لذا سأشرح لك كل شيء في المساء.

رد عليه في عتب:

- ما فعلتموه؟ من دون أن تخبرني لأشارك معكم يا رضوان؟

هذه وهو يقول:

- السرية مطلوبة في عملنا، فنحن لا نعلم أين يكمن أعداؤنا، لذا لم أخبرك من البداية.

هدأ قليلاً ثم قال:

- حسناً، سأكون في انتظارك.

أغلق الخط وهو يعتقد بأن الأمور ستمضي وفق ما يريد؛ سيدع أمه وأخته تغادران مع أحد أقاربه الذين سيغادرون خارج عدن ليتمكن من المشاركة وقلبه مطمئن عليهما، فصفعه رفض أمه لقراره، رجاها، فأصرت على موقفها، حاول بنفسه والتجأ لخاله، ولم تفده محاولاته التي استغرقت اليوم كله في إقناعها، اهتز شيء في أعماقه، لم يكن يريد التراجع عما عقد العزم عليه مع صديقه، وفي الوقت ذاته لا يريد تركهما خلفه.

وفي اليوم التالي حاول معها، لكنه حين يأس نهض من مكانه بصمت، فأمسكت بيده وهي تقول في رجاء:

- لنرحل سوياً يا بني.

نظر ملياً إليها، وقال في حسم:

- بل أريد أن أدافع عن أرضي يا أمي، وإن كنت مصرة على البقاء، سانديني في قراري هذا وارحلي مع خالي اليوم، وادع لي.

لم تجبه إلا بالدمعات وعانقته بقوة مغرقة وجهها في رائحة جسده، وكأنها تريد أن تبقى إلى جوارها مدة أطول أو أن تحميه، لم تكن تدري أتحميه من قراره أم مما سيواجه؟ احتضنته حتى كادت تفيض منابع دمه، هداً نفسه بقوة وهو يقبل رأسها، ثم قال:

-لن أرحل اليوم بل صباح الغد.

أرسلته ومسحت دموعها وهي تقول والحزن يقطع كلماتها:

-لن أغادر من دونك، سأدعو لك ولكل رفاقك.

رضخ أخيراً لأمرها، وامثل لنداء الأرض، وطلب منها أن تعد بعض حاجياته.

في المساء، أخذت ترتبها له في حقيبة صغيرة، وضيء تنظر إليها في صمت وتغالب عاصفة بفكرها؛ تريد البقاء أيضاً ولو كانت رجلاً لاتخذت قراراً مثل قراره، ولو كان الأمر بيدها لطلبت إليه البقاء، لا تريد رحيله وابتعاده عنهما، قاومت حزناً كبيراً أثبت أن تظهره حتى لا تضعف حماسته، ظلت تدعو له دون توقف بأن يحفظه الله وينصره هو ومن سيكون معه. وقدم رضوان في موعده، رحب به بحرارة، كان دائماً ما يرى الابتسامة منحوتة على وجهه المستطيل الشديد السمرة، وشفتيه الداكنتين اللتين اعتلاهما شارب خفيف، المرح دائماً يصدح من كلماته، كيف لا يعرف ذلك وقد قضى كل سنوات الدراسة الجامعية برفقته، ولم يتخرج إلا منذ شهور قليلة في انتظار توظيف وُعدا به وهما من أوائل الدفعة. أما الآن، فتلك الابتسامة أصبحت خافتة وكأنه يديها مجاملة، هل لما يجري حولها سبب في ذلك؟

تساءل شادي في نفسه، وهو يدخله إلى حجرة الاستقبال التي لم تختلف في لون جدرانها وأرائكها عن الصالة، رآه يسير أمامه في خطوات واسعة بجسده النحيل غير المتناسق مع قامته الفارعة، بدا هزياً، سترته تتمايل كأنها ستطير في الهواء، كطرف العمامة المعقودة حول رأسه ولا يكاد يبان تحتها أثرٌ لشعره إلا ما بدا أسفل منها أمام أذنيه ومتواصل من الأعلى، شعر أسود قصير جداً استأنف طريقه نحو الأسفل مع حية خفيفة امتدت على طول عظم فكه السفلي وذقنه، على خلاف سترته، فقد كانت فوطته المزركشة ملتصقة بنصفه السفلي وجزءها العلوي مخفي بأطراف السترة فوقها، سار بخفة رغم ثقل بندقيتي الكلاشنكوف التي يحملها في ظهره والمسدس الصغير في حزامه، أختار الأريكة في صدر الغرفة وجلس، قال له شادي متسائلاً وهو يجلس على الأريكة المجاورة له:

-لم تحمل بندقيتين؟ أنتستعد للقتال الآن؟

ناولته البندقية وهو يقول بحزم، وقد عقد بين حاجبيه وضيق عينيه الواسعتين:

-هذه لك.

فخفق قلبه بعنف للحظات وهو يتناولها منه، ها قد بدأ من الآن، بينما تابع رضوان:

-غداً بإذن الله سأكمل بقية ذخيرتها لك دعها معك الليلة.

-تبدو جاداً جداً يا رضوان، أين ابتسامتك؟ لم أتوقع أن أراك بهذا الحزم والجمود ونحن لم

نلتق منذ شهور بعد أن أنهينا دراستنا، ملامح وجهك مختلفة.

هز رأسه وهو يقول:

- ما بقلبي لن يتغير اتجاهك، فلا تغريك تغير ملامح وجهي، إني أحاول أن أعاند التغير القادم من أعدائنا بقوة وأدافع عنه حتى لا يغير أعماقي، لذا أحاول أن أبدو حازماً. فانتقل الحزم إلى وجهه وهو يقول:

- حسناً، ما هي الأمور التي ستوضحها لي؟
رد عليه بصوت أقرب للهمس:

- المتمردون سيحاولون السيطرة على كل بقعة استراتيجية مهمة في المحافظة، سيطروا على ميناء المدينة، لذا تجمع عدد من الرجال لتشكيل مقاومة المعلا قبل يومين، وحمل كل منا سلاحه واستطعنا أن نطردهم وأسر من استطعنا، وغنمنا سلاحهم، المهم أن الميناء قد صار في أيدينا، وقوات الشرطة هنا الآن أصبحت تابعة لهم وتحاول التمهيد لدخولهم، علم أخي بذلك، فهو يعمل بالمركز وقد ادعى ولاؤه لهم، إنه يمهّد لدخول المقاومة للاستيلاء عليه.
رد في صدمة:

- الشرطة!! لم يكونوا في خور مكسر وحسب!!
- لا، بل هنا أيضاً ولا بد أنهم في بقية المدن، الليلة ستقوم مجموعته بالهجوم على المركز، والبقية سيقفون على كل حدود المدينة حتى يؤمنوها.
قال في سخط:

- أوغاد، ما يثير انزعاجي عدم وجود قوات الجيش لتدافع عن المدنيين.
رد عليه في سخرية:

-جيش!! هل تمزح؟ الكل تبشر منذ الهجوم الذي تم على قصر الرئاسة بالمعاشيق، ربما بقي بعض الجنود للقتال، لكن الغالبية نفذوا بجلودهم لنواجه نحن كتائب المتمردين.
رد في أسي:

-بالفعل، المقاومون غالبيتهم مدنيون وفي كل المحافظات القريبة منا، لحج وتعز والضالع وغيرها.

-عدن هدفهم الآن، إن سيطروا على المطار فسيجدون قاعدة جوية تسهل هجماتهم، لذا هم الآن يقاتلون بشراسة للاستيلاء على قاعدة العند.
رد في صدمة:

-ياالله، هذا يعني بأن أمر هجومهم علينا سيكون قريباً وكبيراً.
-بالضبط، لن يأسوا، هؤلاء كالذباب، رغم كره كل العالم لهم ونبذه لأفعالهم إلا أنهم لن يكفوا، يحاولون الحصول على السلطة بالقوة، لهذا قلت نحن في حاجة لكل يد في استطاعتها القتال، لا بد أن ندافع عن أرضنا بأنفسنا.

-حين تحدثت عن مقاومةي المعلا قلت بأنهم مجموعات، هل هذا يعني أن المقاومة مقسمة؟
-نعم، المجموعتان اللتان ذكرتهما لك ستبقيان هنا، وثالثة ستذهب لمساندة المقاومة في خور مكسر وتمدهم ببعض ما لدينا من زاد ورجال، لا نريد لها أن تسقط في أيديهم.

-وماذا عني؟ أين موقعي؟

ربت على يده وهو يقول:

-ستذهب معي إلى خور مكسر، فأنا قائد المجموعة التي ستذهب إلى هناك، أريدك معي.
رد في دهشة:

-أنت... القائد؟!

ابتسم في ثقة وهو يقول:

-لا تندعش، فقد رُشحت لهذا لأن والدي كان عسكرياً قديماً، ورغم عدم انخراطي بالسلك العسكري أو الشرطة مثل أخي لكنني تعلمت منهما بعض الأشياء في ذلك وسأفيدكم إن شاء الله.

بادله الابتسامة وهو يقول:

-وكل المقاومين مدنيين لا خبرة لهم في الأسلحة؛ لكن المهمة ورغبة الدفاع عن شرفهم وأعراضهم وأرضهم تحثهم وتحفزهم، لهذا سنكون بحاجتك فعلاً، أنا معك أيها القائد.
صافحه بقوة وحماس وشد على ساعده وهو يمنحه ابتسامة واسعة، ابتسامة ربما لن يراها مجدداً إلا بعد دحر الغزاة وظلمهم، ثم غادره ليتركه وحده، التقط البندقية من الأريكة وتأملها، لم يكن خبيراً في استخدامها إذ إنه لم يمكن يمتلك حتى بندقية صيد، فقط مجرد عبث بأسلحة رفاقه أثناء المناسبات والأفراح، أما القتال الآن فلا بد أن يستخدمها مهما كانت خبرته، ويتعلم كل ما واثته الفرصة ممن يملكون خبرة مثل رضوان.
ثم فجأة تذكر والدته وأخته...

سيتركها خلفه، ماذا لو أصابها مكروه بسبب رحيله وبقائها هنا دون بقية أقاربها؟ سيندم طول عمره إن حدث ذلك، لكنه يريد مساندة أبناء مدينته.
عاد التشتت يتسلل لفكره ويقض مضجعه، فبات ليلته قلقا عيناه تلتحفان السهاد.

الفصل السابع عشر

جحيم من الشمال

لم تفطر الإنسانية إلا على السكينة والهدوء وحب السلام، ليشغل أفرادها بالبحث عن الرزق والتقدم في الحياة والنهوض بها إلى المثالية، ودائماً هناك طفرة تخرج عن الفطرة، نفوس (هجينة) لا تجد سكنتها إلا في العبث، تبدد السلام وتبعثر وجوده، نفوسٌ جُبلت على الشر والقتل وإضرار النيران فقط لأجل تحقيق النزوات والشهوات والأطماع.

نسمات الصبح الأولى هي الإعلان لانطلاق الشباب المقاومين من المعلأ نحو خورمكسر، فركبوا ثلاث سيارات هيلوكس بيضاء اللون حاملة على متنها نحو خمسة وعشرون رجلاً من مختلف الأعمار، شباناً وكهولاً، حمل كل منهم بندقية، وارتدى بعضهم سترة ذخيرة كثيرة الجيوب امتدت أمام صدورهم وحتى جنوبهم مشكلة بانتظامها نصف حزام، نظراتهم تشع لتسابق وهج الشمس الصاعد في تؤده نحو السماء، والثورة والحماسة المطلقة تلتمع في عيونهم، إنهم ماضون لمواجهة المعتدين ليعلموهم أن العبث يجب أن يكون بعيداً عن أرضهم.

جلس شادي برفقة ستة شبان على سطح العربة الخلفية المكشوفة لأول سيارة في الطابور، سيارة القيادة التي تقل (رضوان) والذي كان جالسا إلى جوار السائق، شعر بحماسة كبيرة حين رآهم إلى جانبه، ومن قبلهم الرجال الذين بقوا لأجل حماية المدينة. ابتسم لنفسه بحماس

زائد مبعداً كل توتره وهو يتطلع في وجوه الجميع، خلف ملاحظها ألف قصة قبل إعلان الرحيل، أما قصته فهي دمعات أمه وأخته ودعواتها له، اتسعت ابتسامته وزاد الأمل في نفسه، فأجمل شيء حصل عليه منذ انطلاقه هو جمعه هو ومن معه لأدعية ذويهم، لا شيء أجمل ولا أبهج للنفس من دعاء الأمهات لهم، إذ أن السيارات كانت تمر بعدد من المنازل لتقل رجالاً جدداً مثله، ليجتمعوا في مركز الشرطة الذي استولت عليه المقاومة وصار معقلاً لهم، وسمع ورأى كل مقاومي المعلا وهم يتشاورون ويخططون لخطواتهم القادمة، تأملهم وقتها. الكل ترك ذويه، الكل حمل الأمل حين رفع راية المقاومة، وآمن أن كل رصاصة ستطلق ستطلق صرخات الرفض الصارمة في وجه الغزاة، وستهاوى قلاع الظلمة أمام أصوات الحق، وستحمل في جسدها المعدني تبشير النصر القريب لا محالة. ملأ نفسه بالتفاؤل. قطعت السيارات الطريق لتخرج من الجهة الشرقية من المدينة عبر الدكة، وتتجه بعدها شمالاً وصولاً إلى دوار (ريجل) والذي يفضي مباشرة إلى (خورمكسر). وما كادوا يتجاوزوه حتى تناهت إلى أسماعهم أزيز الرصاص والانفجارات من بعيد، وعدد من السيارات والحافلات تغادر المدينة وهي تقل الأهالي؛ أطفال ونساء ورجال، حملوا من متاعهم ما استطاعوا، بعضهم كانوا في حالة هلع وخوف، بدا الغضب على وجوه المقاومين، جحافل الغزاة تسبب في طرد الأهالي من بيوتهم، وإن بقوا فلن يكونوا بعيدين عن تعرضهم لأذى نيرانهم، لا بد أن يخدموها قبل أن تلتهم المدينة خصوصاً والمحافظة عموماً، الحرب نار متى ما استعرت فإنها ستلتهم كل شيء دون استثناء.

استوقفهم سائق سيارة، رجل أربعيني، ملامح قلق وحيرة تعتلي سحنته، ملابسه غير مرتبة؛ سترته الزرقاء الداكنة كانت مفتوحة ويظهر تحتها قميصه الداخلي الأبيض، وعمامته ملقاة على كتفه الأيمن، أما مرافقوه فكانوا امرأة التحفت بسوادها فلم يظهر منها إلا يديها المرتجتين وعينيها الشاحبتين وسحابة حزن وخوف وإعياء تغطي عليهما، إلى جوارها أربعة أطفال في الفصول الأولى من ربيع حياتهم، إذ أن أكبرهم وصل إلى ربيعهِ العاشر، وأصغرهم رضيع لم ير ملامح الربيع ولم يفنّده بعد، يوشك أن يفتح عينيه على فصل جديد يقبل على مدينته، الأربعة كانوا يرتدون بجامات نومهم، لم يستعص عليهم أن يعرفوا بأن السائق هو رب هذه الأسرة الصغيرة الهاربة من نيران قتال طالتهم ففروا على عجل، نظراتهم ترتدي لباس الخوف، ولم يستعص على السائق أن يعرف بأن من هم أمامه مقاومون يسعون للدفاع عن المدينة، توقفت سيارة القيادة، فتوقفت بعدها السيارتين الأخريين، سمعه شادي وهو يقول لرضوان بتلعثم من شدة فزعه وارتباكهِ:

-الغزاة... إنهم يهجمون على المطار، والقتال لم يبدأ إلا منذ ساعة، هجماتهم عنيفة، قذائفهم ورصاصهم تطال أي شيء حول المطار، المباني السكنية لم تسلم من الأذى، أرجوكم كونوا على حذر.

سأله رضوان:

-ومن أي جهة يهجمون؟

-أظنهم من جهة الشمال، لا أدري أين بالضبط، تعلم أن المطار وما حوله مشغول بالمقاتلين والتجول والاقتراب منه ممنوع إلا للمشاركين، حين اشتد القتال خرجنا بها استطعنا.
-تابعوا دربكم حفظكم الله.

قالت المرأة وبان الخوف والحزن من كلماتها:

-منصرون بإذن الله.

تابع السائق دربه، وتابع رضوان ورفاقه طريقهم نحو هدفهم، وبعد عشر دقائق، وصلوا إلى المنطقة السكنية حول المطار، كانت خاوية، بصمات الرصاصات والقذائف من المعارك الأولى كانت لا تزال عالقة في بعض مبانيها، لم يكن يمشي بالشوارع إلا رجال المقاومة الذين كانوا من مختلف مدن عدن، كانوا نحو مائتي رجل، ومجموعة أخرى قابلوهم في الشارع المضي للمطار، تفرقوا على طول الشوارع والبيوت المطلّة عليه، ترجل رضوان وحده وأشار للبقية بالانتظار، وتقدم من أحدهم وسلم عليه وهو يقول في حزم:

-أين البقية؟

-الجميع بالداخل، القائد أو كل إلينا مراقبة المداخل المؤدية للمطار، إنه ينتظركم.

اكتفى بهز رأسه، وعاد لمقعده لتواصل المركبات تقدمها داخل المطار، وجدوا الرجال متفرقين قرب خلف الأبنية، المبنى الرئيسي المهيأ لمعاملات السفر، السواتر الأسمنتية التي كانت تنظم سير المركبات بشوارعه، حتى ساحة الإقلاع كانت بها سياراتهم، ومدرعتين بدأتا

بأنهما من بقايا جيش غير موجود، الكل كان يوجه سلاحه صوب الشمال حيث كان أسلحة الغزاة تلفظ قذائف الآري جي والدوشكا، ومدركاتهم تحاول الدخول من بوابة محطمة. المجال لم يكن يتسع لأي حديث ولا ترحيب، نحو ثلاثمائة رجل كانوا متفرقين ومنبطحين نحو الأرض ووايل رصاصهم ينهمر على كل عدو يظهر أمامهم، نظرات فاحصة نحو رضوان ومجموعته، ثم عادت صوب عدوهم، وعلى الفور أشار لرفاقه ففترقوا، لم يكونوا بعيداً عن ناظره، عدا كل إلى مكانه مخنيا جسده، وكمنوا، وهجموا، تقدمت المدرعتان لتهمجان على كل الآلات الثقيلة وتجمعات البشر المتحركين بالقرب منها، تقدموا وقد تزايد عددهم بعد لحظات، وزادت كفة الإطلاق من أفواه البنادق متزامنة مع تكبيرات تعلقو من أفواههم.

انبطح شادي وشهر بندقيته مع البقية، عقد حاجبيه وحقق بعناية نحو الأفق رغم السنة الدخان المتصاعدة أمامه، وأصوات الأسلحة تصم أذنيه وتضج برأسه، وقذائف المدرعات تهز الأرض من تحته، إنها المرة الأولى التي يدخل فيها معركة حقيقة مثل البقية، لم يكن مدرباً ولا مستعداً لمثل هكذا موقف، لكنه ظل ثابتاً، يدفع رصاصات متتالية صوب هدفه الذي يراه في رديه في أكثر محاولاته قتيلاً، يكبر مثل زملائه، ثم ينتبه لرصاصة أصابت أحدهم ليحمله اثنين ويبتعدان به، ويتقدم غيرهما، وقذيفة أصابت خمسة آخرون عن يمينه وعلى مسافة منه كانوا يزحفون مثله، ألصق وجهه بالأرض حين هوت على نحو مباغت ودوى الانفجار بعدها، شعر بأن البارود وتحطم الأرض الأسمنتية قد خنقه، رفع وجهه قليلاً

وسعل بقوة، ظل ستار الدخان حوله حتى ظن أنه وحيد بالساحة، فتشم بعنقه؛ لكن صرخات الألم والأنين كانت تعلو قربه، ومن بين السحب الدخانية التي أثرت البقاء في الأرض رأى المشهد جلياً ارتعب.

رجلٌ دون جسد، ويد دون صاحبها، وثلاثة تحولوا لكتل محترقة.

هلل بعض الرجال وهم يحملون الأحياء منهم في محاولة لإسعافهم بعيداً عن ساحة المعركة، وآخرون يحملون جثث رفاقهم، وشادي ينظر إليهم في ذهول وصدمة.

شيء من الرعب تغلغل في قلبه، في منزله كان يرى ويسمع كل ما يحدث قبل أن تنتقل رحي كل المعارك إلى عدن، الآن الوضع مختلف، أصبح شاهداً على الجرم، لم تكن ألسنة الدخان وحدها هي ما زكمت أنفه ونفذت ل صدره، بل رائحة الدماء والأجساد المشوية أيضاً.

هل يجد الإنسان لذة انتصاره في حرق جسد إنسان مثله؟

ما الحيلة حين تكون الحرب هي الطريق لإحلال السلام؟

لم يستيقظ من حالته إلا على رتبة رضوان على كتفه وهو يقول في حزم:

- لا زلنا في البداية، ليرحمهم الله، كلنا أتينا إلى هنا لنحمل رائحة الموت ونحملها، عليك الاستعداد لأسوأ من هذا.

نزع بصمة الرعب التي كادت تهوي بحصون صموده، لم يكن نزاعاً يسيراً، ظلت بعض أجزائه ملتصقة بقلبه وذاكرته، فعقد حاجبيه وهو يقول في حزم:

-مستعد.

ابتلع كل شيء بصعوبة، وتقدم هذه المرة مع بقية المقاتلين ووابل رصاصهم لا يزال ينهمر عليهم، والأعداء يتقدمون تارة وينسحبون أخرى، ثم فاجأهم أن اختفوا، لم تبق إلا المدرعة، اعتقد الجميع أن عطبا أصابها فقررروا تركها، علت التكييرات واستمروا في الهجوم والتقدم لدحرها، لكنهم توقفوا حين صاح أحدهم من الخلف قائلاً:
-هناك دبابات تقترب إنهم يحاولون الدخول إلى المطار.

صاح آخر

-ماذا تقول؟

-إنهم عند المدخل الرئيسي، إنهم يتقدمون دون توقف.

-كم عددها؟

-أربع دبابات.

الشمس تدق هاماتهم كما دق الخبر رؤوسهم، مدد جديد ينضم للجحافل الموجودة، ارتبك الجميع، لم يعد بالساحة أي جندي، هم فقط، دون مدد، دون خبرة قتال، وبما لديهم من بنادق وحسب، كيف سيوقفون دبابات الأعداء؟

في اللحظة التي سمعوا فيها جنازير الدبابات تهز الأرض، أطلق الأعداء أول قذيفة لتخترق برج المراقبة، وتبعثر حصاها فوق من هم قريب منها، وتواصل القصف، تساقطت أمطار الجحيم فجأة أحرقت مرآب الانتظار الكبيرة وهدت الأسوار، واستهدفت بعتادها الثقيل كل الموجودين، تطايرت الأجساد إلى أشلاء، وارتفعت ألسنة النيران في المكان، وصم الدوي

آذانهم حتى خالوا أنفسهم بأنهم قد فقدوا السمع، لا صوت يطغى على المكان إلا ضجيج الأسلحة.

وسط الحالة الصادمة لم يعد من مجال أمامهم إلا الانسحاب للتخطيط مجددا وإعادة ترتيب الصفوف، أشار رضوان لهم بذلك، بدا الغضب على وجوه البعض، فقال أحدهم:

- في وسعنا الالتفاف في مجموعات متفرقة والهجوم على من يقودون الدبابات.

رد رضوان في حدة:

- هل تظن بأن في إمكاننا ذلك وهم لديهم رجال متفرقون أيضا؟ هل تتخيل بأنهم

سيسمحون لنا بذلك؟

- الأمر يحتاج لتضحية، لا يمكننا حماية المطار دون ذلك، مجموعة تتقدم لتشغل المقاتلين،

واخرى تلتف لتهجم على قائدي الدبابات.

- هذا جنون، المدرعات خلفنا أيضا، لنسحب قبل أن نقع فريسة ولن ننقذ شيء إن هلكنا

جميعاً.

- إن كنت ستهرب فافعل، نحن سندافع عن مدينتنا بكل قوة، لن نتخاذل.

- لم أقل هروب، قلت انسحاب.

انتهى الجدل على أثر مدرعة تندفع نحوهم بسرعة مجنونة وهي تطلق نيرانها، والمسلحون

يطلقون رصاص بنادقهم من خلفها، تفرق جمع الرجال وهم يردون على الهجوم بمثله،

وعادت الرصاصات الغادرة تخترق أجسادهم الوفية لأرضها، تساقط الضحايا في دقائق

معدودة بسرعة كبيرة، أهدافهم دقيقة، بدو مدربين على القتال، وتناثرت الدماء على الأرض وعلى من كان قريباً منهم، بدا للجميع أنه ما من خطط ستنجح وكل حمم جهنم تزل عليهم، انسحبوا فوراً ليغادروا المطار ويتركوه خلفهم.

هذه المرة أقبلت مطارق الغضب والثورة تدق قلبه، صرخات مكموته ترددت في أرجاء صدره.

إنه الجحيم القادم من الشمال، إنه الجحيم الذي يريد من الفردوس أن تقترن به رغماً عنها، ما يحدث أمامه هو ساحة إعدام جماعية وكأن جيش البلاد بكامل عتاده قدم لإعدامهم.
-هذا لن يكون، لن نباد هنا.

أطلقها من صدره بقوة وغضب ممزقاً كل جزئيات الرعب التي ظلت عالقة في قلبه وأزاحها، وما كاد يتم كلمته حتى هوت قذيفة مدفعية خلف جمعهم مباشرة، أطارت موجتها من أطارته، وأحرقت من طالته، وقتلت بشظاياها من قتلة، كان مع المجموعة الأولى، أطاحت به الموجة المدوية أرضاً اصطدمت بجهته بالأرض، وارتج رأسه بعنف وشجت بجهته، شعر بسيل الدماء تنهمر على جفنه الأيمن، أصوات الموت اختفت لثوان عن الضجيج في أذنيه لتصله بعدها مختنقة، لم يفقد وعيه بعد، حرك رأسه قليلاً حاول أن يرفعه، فعجزت رقبته لأول مرة عن حمله، حرك يمينه وتحسس بندقيته لا تزال في يده، عليه أن يحافظ على سلاحه، إنه من سيبيد به العدو عندما ينهض، نظر حوله بعينين تعميها غيمة ثقيلة، الدخان يحيط به والرجال من حوله متناثرون، منهم من يحمل جريحاً ويمضي، ومنهم من يحزن على آخر مات

وتركه ومضى حين عجز عن أخذه، هل هذه عدن؟ أم أنه سافر إلى أرض الموت دون أن يدري؟ هل هذا وطنه حقاً؟!

-شادي، حاول أن تنهض.

أحس بأحدهم يرفع ذراعه محاولاً حمله وإسناده إليه، انتبه له فوجده رضوان، حاول أن يتحمل على نفسه وينهض لم يستطع، خارت بقية قواه وفقد وعيه تماماً.

لم يتخيل أن ينتقل فجأة من واقع آمن إلى آخر مرعب، لم يتخيل أن تتجسد الصورة الشائبة الأبعاد إلى أربعة أبعاد أو ربما إلى خامسها؟ حتى في أعماق الغيبوبة، ظل الدوي يلعلع في أذنيه وتجويف دماغه، صوت جديد عليه أن يعتاد عليه ويألفه من الآن، لم يخض إلى الآن إلا مواجهة واحدة شرسة، والنتيجة سقوط المطار ووقعه في أيدي الغزاة.

-ماذا يعني هذا؟

-يعني ألا تتوقع دعماً من الحكومة أبداً.

استيقظ على أثر جدالٍ حاد بين مجموعة الرجال كانوا قرييين منه، التفت فوجدهم يهتمون بعدد من الجرحى الذين كانت إصاباتهم خفيفة مثله بمعدات مخصصة للإسعافات الطبية، وقد أصيب بشح في رأسه تمت خياطته وتضميده، تحسسه وهو يفكر بأن من كانت إصاباتهم خطيرة قد نقلوا إلى المستشفيات، تأمل الوجوه لم يعرف أحداً منهم بدواله من سكان المدينة، لم يكونوا رفاقه الذين أتوا معه تأمل المكان كانوا بصالة شقة وكأن أحدهم استضافهم

ومصاييح الإنارة خافتة الإضاءة كتمويه للأعداء، اعتدل ليستمع للرجلين، فقال الأخير متابعاً حديثه:

-الجنود قد بدأوا يقلون من المدينة واليوم ضربت طائرة لهم القصر الرئاسي طمعاً في قتل الرئيس لكن يشاع أنه قد هرب إلى جهة مجهولة، هل تتوقع أن يبقى الجيش بعد هذا؟ هل تتوقع أن يبقى بعد اختفاء قياداته؟

-اللعنة، كنا نعتقد أمل على ...

-لا تنتظر أملاً، حتى قاعدة العند في لحج تم الاستيلاء عليها، لذا لا بد أن تدرك بأننا نحن فقط من يجب أن يتصدى لهم ولا خيار آخر أمامنا سواه.

هدأ الآخر وهو يقول:

-مالذي سنفعله الآن؟

-الأعداء إلى اللحظة لا يزالون هادئين، لا شك في أنهم يحشدون قوى لمهاجمتنا في الصباح ليتغلغلوا في المدينة، سنكون على أهبة الاستعداد للهجوم من مواقع تراقب تحركاتهم وتهاجمهم، ظلمة الليل ستحمي رفاقنا وستتيح لهم فحص المنطقة وحمايتها من أي متسلل قادم من جهة المطار، إنهم في قلبه وحوله.

قال شادي:

-أين شباب المعلا؟

-تقصد رضوان ومجموعته، أه صحيح أنت واحد منهم، إنهم على مقربة من هنا يراقبون الشوارع المؤدية للمطار.

حمل بندقيته ونهض وهو يقول:

-شكراً سأذهب إليهم.

-الأفضل أن ترتاح حتى يأتي دورك وتستطيع المشاركة معنا، القتال سيكون شديداً في الصباح.

ابتسم وقال:

-لا تقلق، أنا بخير.

-لن تعرف مكانهم وحدك، فأنت غريب عن هنا، سأدلك على المكان.

شكره شادي، وارتدى عمامته وغطى بها رأسه فتوارت إصابته تحتها وخرج برفقة الرجل.

البيوت كانت شبة معتمة، هادئة، وبعضها كانت موحشة، لا ضجيج لأي كائن فيها،

الشوارع مضاءة والحياة منعدمة فيها تماماً لا يسمع إلا صوت الريح وهي تنثر الأوراق

والأكياس البلاستيكية، شبح الحرب هنا لم يحط إلى الآن إلا بظلمته، سأل شادي في حيرة:

-هل غادر السكان الحي؟

-نعم، الوضع لن يكون آمناً، حين وقع ما وقع أكثر العائلات نزحت، ربما قليلون من بقوا

وخصوصاً من يريدون القتال بعد أن رحل ذويهم خارج المدينة.

تذكر هنا أمه وأختها، إنها لا تزال تنتظرانه، كور قبضته في ضيق، لا بد أن تنتهي هذه المعركة هنا، ولا بد أن يصمدوا مهما كانت الظروف.

وحين وصلا الشارع الرئيسي المؤدي للمطار شاهد عدداً من المتاريس تقطعه تجاوزاه، قال الرجل له:

-استعدادا للغزاة أقمنا المتاريس لعرقلتهم في عدد من الشوارع، لا يزال الشباب يعملون على ذلك حتى نحيط المنطقة كلها، وبعضهم الآخر يكمنون في العمائر المطلة على المطار وأسطح المنازل والتي صارت معظمها خرابا وفي الأزقة أيضاً، سنحتاج بعض الوقت للوصول إليهم.

-وهل هذا سيعادل كفة تزايدهم؟

-لا، لكنه سيعرقلهم، ولا يزال هناك الكثيرون سينضمون إلينا لنتنشر في المدينة ونكمن لهم في كل شبر منها، ليت معنا ألغاما نقدمها هدية لعرباتهم.

-وماذا عن المدرعتين، هل في وسعهما أن...

قاطعها بأسى:

-لقد فقدناها.

رد بحرقة:

-آه للأسف.

أكملا طريقهما باتجاه مسجد النور، هنا بدأت البيوت خراباً، رغم الظلمة التي قطعتها جعلتها موحشة وكأنها مهجورة منذ أمد بعيد، وتجاوزا آخر متراس، قال الرجل مشيراً للعمارة على تطل على الشارع وبنبهة محذرة:

-كدنا ندخل منطقة الأعداء، هنا يكمن رضوان ورفاقه، هذه النقطة وما خلفها مركزنا. في تلك اللحظة، ظهر نحو ثلاث شاصات من العدم أمامهما تنطلق بسرعة في الشارع، والركاب بأولها يطلقون النار نحوهما دون توقف، تواریا في شارع فرعي عن يسارهما، واحتموا خلف المباني ورصاص رفاقهما المنهمر من أعلى المباني يحاولون التغطية عليهم وحمايتهم، تلا ذلك قدوم مدرعتين وركابها يشهرون أسلحتهم ويطلقون دون هوادة، مستهدفين ساكني العمارة، قُطع هدوء الليل وسكنته، وأقبل عدد من رجال المقاومة من خلف متاريسهم ليقربوا ويحاصروا العدو المتقدم بوابل نيرانهم، وانتشر قتال. في تلك الأثناء، كان شادي ورفيقه يعدوان حين قال:

-يبدو بأنهم يريدون تمهيد الطرق لدباباتهم.

رد الرجل في حزم:

-لن نسمح لهم، دعنا نتواری في ذلك المنزل المحطم حتى تسنح لنا الفرصة للالتفاف والانضمام لمجموعة رضوان.

أيده شادي وتوقفا عنده، رغم خرابه الظاهر في تطاول القذائف والرصاص لأدواره الثلاث، إلا أن ماضيه كان عريقاً، طلاءه وحصاه وأنواع شبائيكه وأبوابه وحتى أثاثه الظاهر من

غرفة جلوس بركن المنزل كانت من النوع الفاخر، سكانه أجبروا على تركه، ترك كل رخاء فيه ليبحثوا عن الأمان، وإن وجدوه هل سيجدون رفاهية أخرى في مكان ما؟ لا مقام لهم إلا في أحضان أرضهم، هو الاضطرار للفرار وحسب.

فتح أبواب أحد النوافذ -التي هشمت زجاجه موجات القذائف- على مصراعيه ثم وضع يديه وكاد يرفع قدمه ليصعد لكنه فوجئ بالرجل مرافقه يسقط خلفه، فانتبه لأن رصاصة غادره اخترقت صدغه بدقة مودية إياه قتيلاً في ثوان، شهق فزعاً وألقى بنفسه نحو الداخل ليحتمي من أعداء لم يرههم حتى الآن ويستعد لهم، وما كاد يعتدل جاثياً على ركبتيه حتى أحس بحركة خلفه كاد يلتفت، إلا نقرة من فوهة بندقية على مؤخرة رأسه منعتة وأثبتته وصاحبها يقول في غلظة:

-لا تتحرك وألق بندقيتك، وإلا أفرغت كل رصاصي في رأسك.

قشعريرة باردة سرت في جسده، ابتلع ريقه بصعوبة ورمى ببندقيته وهو غير راغب، يبدو من أن أنهم ينوون تأمين المنطقة لهم مثل ما يفعلون، وهذا المنزل بات وكر لهم، كاد يلتفت مجدداً، لم يسمح له غريمه في حق الالتفات فنقر نقرة أعنف وهو يقول في صرامة:

-من سمح لك، هيا... ضع يديك خلف رأسك... نفذ.

سمع أقدام شخص آخر تقترب منه، يبدو بأنه من كان كامناً في الزقاق وابتال رفيقه على حين غرة، سمعه وهو يقول في شتاة ثم يمسك بيديه محاولاً تقييده ويقول:

-أسير من قبل المقاومة، سنعرف أسرارهم قريباً.

للحظة ظن أنه في أعماق حلم، بل كابوس، بمجرد أن يفز ويحرك جسده سريعا سيستيقظ منه، لم يكن مسموح له بأية حركة لا ترضي ذلك القناص، كان مرغما على الانصياع للتفاصيل المرعبة.

أسير!! توقفت كل حواسه عند تلك الكلمة، مالذي سيحل به؟ غزت رأسه كل جحافل الفكر الأسود، هؤلاء لن يدعوا شبرا فيه إلا واغتالوه في مقابل أن يعترف لهم بأسرار رفاقه، سيسألونه:

-كم عددكم؟ ما سلاحكم؟ أين مكانكم؟ ما خططكم؟

هل سيكون الذراع التي ستلوي عنق أصحابه وتخونهم؟ الموت عنده أهون من البوح بشيء، سيصمت وسيصمد وليفعلوا ما يشاؤون أو حتى ليقتلوه المهم ألا يكون سببا في انهيار رفاقه والتضحية بهم، فجأة ظهر أمام ناظريه أمه وأخته، اضطرب، من لهما بعد موته ورحيل كل أهله، إن علما بموته هل سترحلان؟ ماذا سيكون مصيرهما؟ لم يكن لديه أي شخص ليوكل أمرهما له.

عاصفة هوجاء دوت في أصقاع فكره، يومه الأول في الجبهة كان صعبا جدا جدا رغم أنه قد ولى منذ قليل، وساعات اليوم الجديد قد بدأت، وفلا يهم تعداد الأيام في الجبهات، لا قيمة للوقت، المهم هي النتائج، والنتيجة الآن سوداوية حتى اللحظة في نظره.

لم تكتمل فرحة عدويه حينما انطلقت رصاصات نحوها وابل النيران نحوهما من نافذة جانبية، مردية بهما معاً، شعر بأن نجاته تمت بمعجزه، تنفس في ارتياح حين رأى رضوان يقفز

ليدخل عبر النافذة تبعه ثلاثة من رفاقه عبر باب الحجرة، كأنهم كانوا يقتشون المبنى، أسرع إليه، فسأله دهشاً:

-كيف عرفتم مكاني؟

رد عليه:

-لقد لمحناكم أول ما ظهرت مركباتهم، الحمد لله أدركناك.

رد بحزن:

-أنا، لكن هو...

لم يكمل حين لمح رفيقين له يطلان من النافذة التي دخل منها، أدرك بأنهم عرفوا بأمره ويستعدون لأخذ جثته، فقال رضوان:

-إنهم يفعلون مثلنا، يحاولون التمهيد لمعداتهم الثقيلة للتقدم في الصباح، القتال عند المتاريس، ولن يهدأوا حتى يسهلوا مهمتها.

نهض من فوره وحمل بندقيته، وقال له بحزم:

-ونحن لن نستكين، هيا بنا لنردهم.

وانطلق معهم ليشاركهم القتال.

الفصل الثامن عشر

نكوص

حملت الريح آخر كلمات رضوان حملاً ثقيلاً فأسقطتها إلى الأرض لتقع فيها وتتجسد واقعاً مريراً.

أزيز الرصاص ودوي المدافع لم يهدأ منذ أن انتزع الغزاة قطعة من الأرض بل قطعة من قلوب المقاومين، ظل القتال متصلاً حتى اليومين اللاحقين، مددهم وعتادهم في ازدياد يحثهم على الانتشار كوباء يتربص بالجسد ليفتك به، كانوا يتربصون بالمدينة فانتشروا في معظم أحيائها، ويتربصون برجها الذين دافعوا بصدر عارية شاهرين بنادقهم في وجوه أعدائهم، يقوي عزيمتهم أنهم أصحاب الحق مهما أريق دماؤهم في سبيل ذلك ومهما كانت التضحيات كبيرة والثلث باهض، يزيد حماسهم ازدياد عددهم، رجالاً من مختلف مدن عدن أقبلوا سنداَ ومدداً إلى خور مكسر يجمعهم لواء واحد تحت ظلاله، إنه لواء الجهاد، أصبحت ثكناتهم متفرقة في أحياء المدينة كلها.

ومع اشتداد القتال في كل ضاحية من ضواحيها، ظلت التكبيرات الداعية للجهاد تصدح في كل مساجدها ليلبيه كل من يستطيع حمل السلاح بغض النظر عن خبرته القتالية، التكبيرات وأصوات الرصاص كانا متقارنين، لم يكف الاثنان، ولم يكف الطرفين عن القتال.

وشد أزهرهم أن جلب مقاومو مدينة (التواهي) معهم ثلاث دبابات إلى المدينة بعد أن خاضوا معارك مماثلة في مدينتهم محاولاً العدو انتزاع الميناء منهم؛ لكن العدو لم يفلح، استقبل الرجال

الدبابات كما استقبل أبطالها بالتهليل وهتافات الفرح، وتقدموا بها ليستعيدوا ما فقدوه، وما وقع تحت سيطرة الغزاة .

في المواجهة الأولى، وبعد أول إطلاق، دمر الغزاة أحدها وفقدوا من كانوا بها بإصابة دقيقة، تسلسل شيء من العجز إلى النفوس، عدوهم مدرب يملك خبرة عسكرية عالية، أما هم، فمن منهم الذي قاد دبابة ذات يوم؟ لا أحد، لم يكن سقف طموحاتهم قيادة مركبة حربية، وإنما ألجأتهم الحرب إليها استخدموها، لم يكن يعرفوا عن هذا السلاح شيء إلا قوته، ورغم الارتباك الساري في عقولهم وقلوبهم وقتل الكثير منهم وانسحابهم المستمر بسبب عتاد عدوهم وسلاحه وتساقط الأحياء واحداً تلو الآخر، إلا أنهم ظلوا صامدين، مؤمنين بهدفهم بقوة، قاتلوا كحرب الشوارع، وقاتلوا كجيش بالدبابتين الآخرين التي استطاعت تدمير مدرعتين ودبابة، فرحة لا توصف ورجفة رعب دبّت في صفوف أعداءهم جعلتهم يتقهقرون كثيراً، استبشر المقاومون بهذا، إلا أن الانسحاب الأعداء لم يكن إلا استعداداً لتكتيك عسكري جديد.

في مساء اليوم الثالث للقتال، أقبل جمع من رجال المقاومة من حي الأحمدي وحي مبنى جامعة عدن وحي أبي ذر الغفاري وحي السعادة والساكنين قرب الكورنيش يخبرونهم باستيلاء الغزاة على طريق ساحل أبين، فاضطروا للانسحاب، ومدرعاتهم وآلياتهم تسعى للالتفاف خلفهم وتطويق المدينة ومحاصرتها تماماً، كما يسعون للهجوم على كريتر، اضطربوا، فقال أحد رجال المدينة مرتبكاً:

-إذا تم ذلك سنقع في ورطة كبيرة، وستسحقنا دبابتهم من كل الجهات، سنقع في مصيدة ولن نستطيع فعل شيء.

سأل آخر:

-ما الحل؟

-وهل سننتظرهم؟ لنهجم عليهم بما لدينا من عتاد، سنهجم عليهم بالدبابتين وندمر قواتهم قبل أن يدخلوا.

-أوافقك الرأي، لا بد أن يعلموا أننا لن نترك أرضنا ليعبثوا فيها.
قال شادي:

-المهم أن نحذر من وقوع الحصار.

تقدم رجل آخر وقال:

-اقترح أن تتحرك مجموعة منا لمساندة إخوتنا في كريتر، لا بد أن نساندهم بسرعة ريثما يصلنا رجال آخرون، لا شك في أنهم سيتلقون الهجوم أولاً.

-أنت من التواهي، أليس كذلك؟

-نعم، سنحاول أن نساندهم ونمددهم ببعض ما لدينا من أسلحة ومعدات طبية، وسيصل الرجال إلى هنا قريباً، سنحاول منعهم من التقدم واستفحال طمع الاجتياح لباقي المدن.

- لا بأس، المهم إني سأبقى هنا ولن أغادر موقعي حتى لو كانت النهاية، سأدافع عن مدينتي، وليعملوا أننا لن نتركهم يهتئون بشبر واحد منها ونحن على قيد الحياة، سنموت دفاعاً عن أرضنا وعرضنا، الموت بشرف ولا مذلة الانسحاب.

هتف غالبية الرجال بعده في حماس مؤيدين رأيه، تطلع شادي إليهم وفي قلبه أسمى (أن يكون الحديث عن الموت شيئاً عادياً)

رنت في أذنيه عبارة رضوان، ليس الحديث عن الموت وحده بل عن كل شيء متعلق به: رائحته، شكله، ما يحبه، وما يكرهه أيضاً، الحرب هي شريكة الموت، لا تظهر في أرض إلا وظهر معها، تتعدد وسائله، ليس بالسلاح وحده، بل بقطع وسائل العيش، حرمان الساكنين منه، قصفوا كابلات الكهرباء وأغرقوا المدينة في الظلام، دمروا أنابيب المياه ظلت تنزف وتستنجد دون أن تجد من يسعفها، حرموا الأهالي والمقاومين منها ليعيثوا عن منابعه، وتقنصوا لكل خطوط الإمداد بالغذاء لإغاثة أهلها بل واستحوذوا عليها أحياناً كثيرة، وقطن قناصوهم على أسطح المباني الخاوية ليستهدفوا كل حي، ربما حتى لو كان كلباً لا شتبهوا به واعتبروه مقاوماً ضدهم، المدينة تتوهج بأضواء الموت. انقسم الرجال هنا، مجموعة استعدت بالدبابتين، بينما انطلق الآخرون ناحية كريت، وكان شادي ورضوان ورفاقهما معهم.

الأيام كلها عنده كانت متصلة، لا شيء إلا أصوات الحرب، ومظاهر القتل والقتال، ورغم ذلك ظل مؤمناً بغيره بقضية أرضه، مدافعاً، ينطلق ويطلق معهم.

في صباح الثامن والعشرين من مارس وهم في طريقهم نحو جولة العاقل جنوبا باتجاه كريتير على متن سياراتهم، تزلزلت الأرض من تحتهم، فاجأهم وأفرعتهم، كان دوي انفجار عنيف جداً، صاح:

-ما الأمر؟ أين هذا الانفجار؟

-هناك.

لم تتأخر الإجابة عنهم، رأوا أمامهم من بعيد، دخان كثيف يتصاعد من خلف الجبال وكأنه فوهة بركان يزجر، صدم وقال:

-إنه... من جهة جبل حديد.

عقد الرجل حاجبيه، وقال في سخط:

-هناك يقع أكبر مخزن للسلاح في البلاد، يفجرونه قرب المناطق السكنية!! الأوغاد يعلمون عنه، لقد استهدفوه متعمدين، هل تجاوزوا المقاومين؟ ألم يحاولوا منعهم؟ النيران لن تخمد بسهولة، ولن ينحصر في مكانه، ستتوالى الانفجارات.

-ربااه رحمتك بالأبرياء.

تابع الجميع سحب الدخان الكثيفة وسلاسل الانفجارات التي توالى، ولمحوا حتى شررا يتطاير حتى وصلوا إلى الجبال المطلة على الجولة حيث كمن أفراد المقاومة هناك، كانوا نحو خمسين رجلا، رحب قائدهم بهم، فسأله رضوان عما حدث، فرد عليه:

- المناوشات تجري بقلب المدينة أيضا والمقاومون هناك يسعون لاستئصالهم لقد ظهرُوا في المدينة فجأة كما حدث في بقية المدن، ووصلوا للمخزن ليلة أمس، وسمع الناس أصوات انفجار وقتها، وهامهم يعيدون الكرة، يبدو من أنهم قد غنموا ما أرادوا وفجروا الباقي.
- ألم تحاولوا الاستيلاء على عتاده قبلهم؟
- صعب، لقد انشغلنا بقتال من وجدناهم والسعي لإبادتهم في قلب المدينة، وقوات الجيش كانت موجودة، لكن لم نكن ندرى بأنهم ستركونها وراءهم ويرحلون، أما نحن فقد توجهنا إلى هنا فور سماعنا بالاستيلاء على ساحل أبين.
- وكيف الوضع هناك الآن؟
- لقد أصيب الناس في المنطقة القريبة، الإصابات كثيرة والنيران لازالت تستعر، والمقاومة ورجال المنطقة يحاولون إخمادها.
- آلمهم ما سمعوا، فقال شادي:
- هل في وسعنا فعل شيء لهم؟
- لا شك في أننا سنحتاج المزيد من المستلزمات الطبية، عدد الإصابات كثيرة ولم يحص حتى الآن.
- قال رفيقهم من التواهي في أسف:
- في الواقع ليس لدينا الكثير، أحضرناها لأجلكم وكذلك بعض الذخيرة، كما جئناكم كمدد من خورمكسر حتى نصد معكم كتائب الأعداء المقبلة على المدينة.

ناولته إياها، فرد عليه مبتسماً:

- لا تقلقوا علينا، هذه الجبال ستحصننا ووجودنا في أعلاها سيمكننا من رؤيتهم قبل أن يرونا ولدينا دبابة عند العقبة ستردهم بإذن الله، فاطمئنوا في سعيكم للعودة إليها، فهي في أشد الحاجة إلى كل رجال عدن.

- ولكن...

هز الرجل رأسه وقال:

- لا تقلقوا، وإن شئتم في إمكانكم البقاء الليلة والعودة غدا.

- كما تريد.

قضوا اليوم بين أحضان الجبال يراقبون الطريق، تطلع شادي إلى حصاها وتراها، لم يتخيل أن يقضي يوماً واحداً في العراء وهو في قلب بلاده؛ لكن الأمر مقبول ومنطقي الآن في ظل هذه الظروف، كل شيء كان لا يزال هادئاً، ولم تصلهم أي أنباء عن تقدم الغزاة كما كانوا يتوقعون، احتاروا هل قرر الأعداء الالتفاف على خورمكسر أو لا؟

وفي اليوم التالي لم ينتظروا كثيراً حين داهمهم القلق، فسلخوا طريق العودة مبكراً إلى جهة دوار (ريجل)، ولما اقتربوا منه هتف أحد ركاب سيارة القيادة في صدمة:

- دبابات أمامنا.

لعل أفراد سيارة القيادة كانوا أول من تلقفتهم المفاجأة، أما البقية فقد انتبهوا مع هتافه، من جهة الخط البحري وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع ثلاث دبابات، أطلقت الأولى قذيفتها

نحوهم دون تردد، حادت السيارات عن الدرب لتتجنب القذائف وتشكلت جدران الدخان أمامهم، اهتزت الأرض من تحتهم، تلا ذلك انضمام شاصات أخذت تلاحقهم وتمطرهم بالنيران، في لحظة الانسحاب ظل الجميع يطلق النيران نحوهم، وقذائف الدبابات تحاول إصابتهم، أخذوا ينخفضون ويطلقون بين الفينة والأخرى، دارت معركة انسحاب غير المتوقعة، والنيران لا تزال تغدق عليهم بكرمها، صاح رضوان في حزم:

-إلى الدكة.

انعطفت سيارة القيادة تلف الدوار ليتجهوا غرباً ثم جنوباً باتجاه الدكة، تبعتها بقية السيارات والرجال يتناقلون كلمتيه:

-إلى الدكة.

-إلا الدكة!

تمتم شادي بذلك، فالكلمة بالنسبة له تعني شيئاً آخر...

الدكة هي جزء من المعلا، أي إن المعارك توشك على اقتحام مدينته، أخته وأمه لا تزالان هناك، لم يكن يتخيل أن تمتد المعركة إلى أقصاها هكذا، لم يعتقد أن تستمر خلال هذه الأيام القليلة وبكل تلك الشراسة؛ بل اعتقد بأن صمود المقاومين وحبهم لأرضهم سيدفع أذى الغزاة عنهم وعن مدنهم، لم يكن هذا كافياً، كانوا قوة مسلحة لا يجب الاستهانة بها وتعاضمت مع الوقت، قاتل في خور مكسر بقوة ولم يستطع دحرهم، لو صمد الآن هل سينجح؟

لم يكن يملك الإجابة الشافية التي ستطمئن قلبه، تسلل الرعب على ذويه إلى شغاف قلبه، صمد وقاتل ورأى المجازر الوحشية للغزاة، والآن هم يسعون خلفهم، أيقظه من شروده صوت انفجار خلفهم، أصابت القذيفة سيارة في وسط الطابور فدمرتها، وتسببت في عرقلة من هم بعدها.

قاوم الرجال حوله دمعات الألم وهم يطلقون الرحمت عليهم مع رصاصهم وقد أقبلوا على مشارف الدكة.

لم يغمض له جفن منذ وصوله إليها، ليس بسبب هجمات الأعداء التي ظلت تلحق بهم طوال اليوم، بل لقطعتين من قلبه تركها خلفه، وها هو الموت يلاحقه ويسعى خلفها، قرر أن يصمد يقاتل معهم، عليهم ينجحون؛ لكنه افتقد الحماسة في الاستمرار لم يعد يمتلكها، حتى خبر استعادة المطار بدعم من طيران عربي لم يغير في فكره أو يدفعه للتفاوض، ولم يهمل فرحا لسماعه كما فعل أقرانه، ابتسم ابتسامة هادئة ثم خبت، هناك أمر آخر يشغل فكره.

ومضت على وجوده بالدكة ثلاثة أيام والطرفان يردان هجمات بعضهما، إلى أن صدمه سيطرة الأعداء على جبل حديد وكل المرتفعات القريبة منه، ويبدو من أنهم استطاعوا التغلب على مقاومة كريتير الذين كانوا يحاولون حماية الجبل منهم بدباباتهم الوحيدة عند العقبة الواقعة في الجنوب الشرقي من المعلا، هل تمكن المتمردون من قصفها أم أن ذخيرتها نفذت عليهم فلم يستطع المقاومون فعل شيء ببناذقهم؟

تساءل في نفسه لكن التساؤل لكم يكن يجدي نفعاً، فالنتيجة واحدة، لقد خلت الطريق لهم، وتمكنوا من واجتياح الجبال بدباباتهم ليكون القصف أعنف والقتل مثالياً للأبرياء، تساقطت حممهم على المعلا وكريتر والقلوعة بشكل أفضل من سابقه.

عند هذا الحد لم يفكر إلا في الهرب وإنقاذ أهله، لم يكن يرغب فيه، ولم يكن يريد أن يخبر رضوان، كان خجلاً من حديثه، حاول في تلك الليلة الهرب فلم يستطع، إذ أوكل إليه هو ومجموعة من رفاقه لفحص المنطقة على مشارف الدكة باتجاه خور مكسر حين هدأ القتال قليلاً، وفي الليلة التالية لم ينتظر، بعد صلاة الفجر والتي أداها مع رضوان وعشرة من زملائه في مسجد مصعب، توارى من أمامهم متظاهراً بعودته إلى المخبأ الذي لم يكن إلا أحد البيوت المحطمة، تسلل وهو يتوارى عن أنظار البقية، نكص على عقبيه عائداً إلى منزله، ثم أطلق ساقيه للريح رغم ثقل الليالي الثلاث عليه.

وحين استقبلته لم يكن يدري ما الذي يجب أن يخبرهما به، كان خجلاً من نفسه، اغتسل وأراح جسده على فراشه كما طلبت منه أمه لكن قلبه لم يرتح أبداً، كان حزيناً بائساً، حاول تهدئة نفسه، إن خسر معركة نفسه على الأقل لم يفقد أهله؛ لكن ما حدث لأخته كان قاصمة الظهر بالنسبة له، لقد فشل في كل شيء.

فشل في الصمود مع أقرانه إلى النهاية

فشل في إنقاذ أهله والهرب بهم.

ظل يهتم بها بعد أن أفقت، وحين خرج في ذات الصباح لشراء بعض الأدوية لها سمع الناس وهم يتناقلون خبر تطويق المتمردين للمدينة، والمقاومون قد انتشروا داخل الأحياء بعد أن كثفت الدبابات وأسلحة الدوشكا عليهم في الدكة، وتحولت المدينة إلى ساحة لحرب شوارع، ولم يتورع الغزاة في تكرار ما فعلوه في خور مكسر، تساءل:

ترى ماذا حل برفاقه؟ ماذا حل بزميل دراسته؟ حتى لو كان معهم لن يستطيع تغيير المعادلة؟ وكيف سيكون وضع ضياء حين تعلم بما فعله المتمردين بالمدينة؟ هل يجب أن يأخذها إلى مستشفى (باصهيب) بالتواهي لتعالج بشكل أفضل؟ أم يغادر المحافظة مباشرة فور عثوره على منفذ للهرب؟

هكذا تساءل في نفسه مخفياً ألمه وحزنه عنها، وحين كان على وشك مغادرة المجمع رأى عدداً من الرجال يدخلون وهم يحملون جرحى، والمرضى يستقبلونهم بردهة الطوارئ، تأمل وجوه بعضاً منهم، كانوا رفاقه من مقاومة المعلا، أراد أن يقترب منهم لكنه أحجم، تملكه الخجل من نفسه، القهر في أعماقه يمزقه، لم ينجح في أي شيء مما سعى إليه، ابتعد ليغادر المجمع مؤقتاً.

-شاادي!!

التفت ليرى نفسه وجها لوجه مع رضوان، رأى في عينيه بركانا ثائرا حين ناداه، تسمر مكانه ذاهلا وهو يراه يشهر مسدسه نحوه ويضع فوهته على جبينه ويزجر في وجهه غاضبا:



-أيها الخائن الجبان، كنت أثق فيك ثقة كبيرة، هربت، هربت وتركت موقعك! كنت قلقاً عليك، خشيت أن يكون أحدهم قد غدر بك أو اختطفك، ظللت أبحث عنك، رغم طول بحثي وقلقي لم أصدق رفاقي حين قالوا لي:

خاننا وهرب.

ماذا فعلت للأعداء يا عميل؟ هل أخبرتهم بمخبأنا حتى هزمونا في الدكة؟ أجب يا جبان. ظل صامتا لم يرد بحرف، تيسر ريقه وعلقت لسانه بقاع فمه، نظر مرافقو المرضى والجرحي إليهما في دهشة، بينما عاد رضوان للصراخ مجدداً:

-أجب، لم أنت صامت هكذا؟ بم كافأوك لتبيع رفاقك؟

اجترع غصة مرارة بصعوبة وحرك شفتيه ليقول:

-بحرق أختي.

اتسعت عينا رضوان في ذهول، بينما زم شادي شفتيه محاولاً أن يغالب دموعه، ثم قال:

-خذلتكم هذا صحيح؛ لكني لم أخن أحد، تركت أُمي وأختي خلفي، لم أستطع إجبارهن

على الرحيل حين رفضتا ذلك فبقيا في انتظاري، لم أستطع ترتيب أموري كما وعدتك يا

رضوان، لكن، لكن... حين وصلت جحافل الأعداء إلى الدكة لم أحتمل فكرة أن يصيبهما

مكروه وأنا قادر على إنقاذهما فهربت منكم، لم يكن الأمر بيدي كنت مجبراً مجبراً، أتفهمني يا

رضوان؟ لم أكن بخيراً أبداً، كنت داخل عاصفة في قلب هذه العاصفة... أأمضي معكم وأترك

أهلي؟ أم أترككم وأمضي معها؟ ومع ذلك لم أوفق في أي شيء، دمر منزلي، وأصببت أختي إصابة بالغة كدت أفقدها... لو كنت مكاني ماذا ستفعل؟ أجبني أرجوك.

ارتخت يده التي تحمل السلاح، وقد شعر بمرارة الألم الذي تجربته قلبه، فعانق صديقه بقوة وهو يقول:

-آسف، اهدأ.

خرجنا معا من أسوار المجمع إلى الشارع المقابل له، أفواج الجرحى وجثث القتلى لا زالت تتوافد إليه، جلسنا معا، قال شادي:

-بل أنا من يجب أن يعتذر إليك.

تنهد رضوان بعمق وقال:

-خيارات الحياة صعبة، لا ندري كيف نجد أنفسنا فجأة أمامها، تغتال عقلنا بالتشتت.

-ومع ذلك أشعر بالذنب، كان يجب علي أن أخبرك لكنني لم أجروء، أتمنى ألا يكون هربي سببا في تحاذل الرجال.

-لم تكن كذلك، وإنما الضعف بدأ يتسلل إلى قلوبنا جميعا، رغم أننا لم نبده مثل ما فعلت، لقد شهدت بنفسك هول المعارك، لن نستطيع الصمود إن سمحنا للضعف بأن يستحوذ علينا، هؤلاء جبناء لا يغتروا إلا بقوة عتادهم، إن واجهونا فقط بنفس سلاحنا أو امتلكتنا نفس قوتهم سيهربون.

-صحيح.

نظرا للناس الذين لا يزالون يتوافدون، ثم تابع:

-أتعلم يا شادي، رغم أن خورمكسر محاصرة الآن والمقاومين لا يزالون يقاتلون فيها ولا ينالون الدعم إلا من الطيران العربي وقطع كل الخدمات تقريبا عليهم وإغلاق والمنافذ لتزويدهم بما يحتاجوه من معونة، إلا أنهم صامدون، حتى الشهداء لم يستطيعوا دفنهم إلا بحديقة الجامعة من شدة الحصار، استيلاءهم على الجبال والمرتفعات ولا سيما جبل حديد ستكون فترة موقته، وصلتنا أنباء بأنها القوات العربية ستسعى لقصفها وتدميرها.
-أتمنى هذا.

قال وهو يتجرع ألمه:

-الوضع لن يكون باليسير هنا، سقط الميناء في أيديهم بعد أن واجهناهم مواجهة صعبة، فقدت معظم رفاقي، وفقدت... أخي.
صمت للحظات حتى يستطيع تمالك حزنه، فربت شادي على كتفه مواسياً إياه، مدركاً لما في قلبه، فنظر إليه وقال:

- الآن نواجههم في الأحياء لم تعد لدينا خطوط دفاع كما كنا، وقناصتهم منتشرون، والقناتل يتكاثرون والمرافق الطبية لم تعد تتسع لا للجرحى ولا للقتلى.
أغمض شادي عينيه للحظات وهو يقول في ألم:
-لطفك يا رب.

نهض رضوان وهو يقول:

- سأعود لموقعي، ألقاك على خير.

لحق به شادي وأمسك بكتفه، وقال في قلق:

- أرجوك لا تقطع أخبارك عني يا صديقي، طمئني عليك.

هز رأسه وقال:

- سأفعل، اتجه بأهلك إلى خارج عدن، لا تدخل أي مدينة إلا لأجل الخروج من المحافظة،

أتمنى متى ما تحسنت حالة أختك أن تجدوا منفذاً إلى الخارج إن شاء الله.

- إن شاء الله.

تعانقا ثم غادره دون أن يبتسم له، هل ما يزال يحمل شيئاً في نفسه عليه أم هو الخزم الذي

تحدث عنه في أول لقاء لهما؟

تساءل في نفسه وظل تساؤله عالماً لشهور.

وما أثار وجع شادي لاحقاً هو انهماكه بمشاغله وعدم سؤاله عن رفاقه وانشغاله بأمراهله

واهتمامه بشؤونهم، حاول الاتصال برضوان فلم يقدر، حتى ذلك اليوم حين كان في طريق

عودته للبيت لتناول الغداء، رن هاتفه بعد أن نزل من الحافلة عند الكورنيش والساعة وقتها

تقرب من الرابعة عصراً، حملة فوجدها مكالمة من رضوان، تهلل وجهه فرحاً وفتح الخط

ورد في لهفة:

-رضوان!

أتاه صوته واهناً:

-شادي، أين أنت؟

-أنا بالملكلا، ماذا عنك؟

-أنا لا أزال في عدن.

-هل أنت بخير؟ صوتك متعب.

-أصببتُ وكنتُ في غيبوبة لفترة في المستشفى.

-الحمد لله على سلامتك يا صديقي، ليتني أستطيع القدوم لأطمئن عليك، وأعرف ما جرى لك ولمديتنا، أرجو ألا تكون إصابتك خطرة.

-لا تقلق أنا بخير الآن، أما ما جرى فسأخبرك عنه، رغم ألمي من هروبك منا إلا أنك جزء منا يا شادي.

-يبدو بأنك لا تزال غاضباً مني.

ضحك

-نعم ولا، الأهم أننا حققنا النصر رغم كل شيء.

-الحمد لله، ومعظم الأهالي بدأوا يعودون للمحافظة.

-ستعود الحياة شيئاً فشيئاً إليها، سأرسل لك تسجيل صوتي عبر الواتس فيه كل ما مررت به وما واجهته.

انتبه شادي بأنه لم يتمكن بعد من إدخال خدمة الانترنت لمنزله لكنه أيد قوله ورد قائلاً:
-حسنًا سأنتظر.

في المساء طلب من أحد جيرانه من المكلا مساعدته لأجل توفيره، فساعدته في ذلك مقابل مبلغ مناسب له اتفقا عليه، ليجد بعدها رسائل رضوان الصوتية الواصلة لحسابه وهو يروي تفاصيل ما جرى بعد رحيله

(البحيم المطلق هو كل ما يمكن إطلاقه على ما كان يجري حولي.
دمار وخراب وجثث متناثرة في الشوارع كالخصى، وكلاب ازدادات وحشية ونهم حين وفرت لها الحرب طعاماً جاهزاً أغتتها عن صناديق القمامة وأشبعت بطونها الجائعة بدلاً من بطون البشر، بدلي كلما رأيتها أن حياة الحيوان تسمو شيئاً فشيئاً في هذا الزمن على حياة البشر وكرامته الذي كلما تقدم عام زاد غرقاً في مستنقع المهانة والذل والهوان.
حتى الليل بسكينة وهدوئه وسواده لم يسلم منهم، أزيز رصاص وأصوات انفجارات تقض مضجع السكون فانتهدت حرمة، والنيران المستعرة تحرق أستاره، وتحل محل أنوار الشوارع نست الكهرباء أن تغذيها منذ زمن، والدخان يحتاج حرمة السماء فخلقوا ليلاً غير الليل المعتاد، وأسكنوه البيوت والخراب، وأثقلوا أرواح الأبرياء بالمآسي، فكانت أنهار الدموع لا تكفي لتطفئ نيرانهم، وصيحات البكاء والاستغاثات تصل إلى عنان السماء.
أي جرم اقترناه لنقتل سوى أننا نريد أرضنا ونريد العيش فيها؟
شيخ الموت يختطف المقاوم وغيره دون استثناء، وجحافل الغزاة تسعى لإبادة كل شيء في كريتير والمعلا والقلوعة وتنطلق للزحف نحو التواهي، وبسبب تغلغل العدو في قلب المدن

انسحبنا مرات لتعيد تشكيل صفوفنا في ثكنات كل في مدينته، وهاجمنا وتقدمنا مرات أخرى، وبقيت مع مقاومي المعلا، وأمرت أهلي بالرحيل مع جبراني إلى التواهي التي كانت لا تزال آمنة ويبد المقاومين هناك، شيء من ضعفك تسلل إلى قلبي يا شادي وأنا أودع أمني أختاي وأخي الأصغر مني وأنا أوصيه لينتبه لهم ويفر بهم كل ما سنحت له فرصة، أرادت أمني أن ترفض مثل ما فعلت والدتك لكنني أصررت على قرار رحيلهم، وقلت لها:

-لن أرحل حتى يكتب الله لنا تحرير أرضنا أو الموت بشرف لأجلها.

كادت دموع رجائها ودموع إخواني تخدرني وتجذبني بعيداً عن هدي، أسرعت أمسح دموعهن وأقبل رؤوسهن وأعانقهن جميعهن وأنا أقول لهن:

-ادعين بأن يشدد الله من أزرنا.

ونجحت في غرس دعائم الثبات في أرض قلبي، ودعتهن ومضيتا جميعهن نحو المدينة مع بقية النازحين.

حاول الغزاة بدباباتهم ومدركاتهم تجاوزنا نحن ومقاومي (القلوعة) لأجل الوصول إليها، كنّا نعلم بأن الصراع الأكبر سيكون الآن لأجل السيطرة على مينائها مثل ما استولوا على ميناء المعلا، فاستماتنا لأجل حمايتها ودرهم، كانوا قريبين منا يسمعون أصواتنا ونسمعهم ولا تفصلنا عنهم إلا المتاريس وجدران البيوت، لدرجة أننا لو غفلنا قليلاً لأغاروا علينا وأبادونا، أحمد الله أن منحنا القوة في أرواحنا وأجسادنا لنستمر في قتالهم، فظلت بنادقنا تقذف رصاصها نحوهم دون هوادة لتذهبهم الموت والفرع وتجبرهم على الانسحاب وتعزل

زحفهم لأيام طوال؛ لكنهم لم يستسلموا بسهولة، وظلوا يلاحقونا ويقاقلونا في كل ساعة وحين، وكل ما سنحت لهم فرصة، أول اشتباك معهم كان في الطريق الدائري الذي يقع في الجهة الغربية من المعلا والذي يمثل المدخل الأول لتواهي واشترك معنا مقاومة تواهي، ثم أعادوا محاولاتهم عند المدخل الثاني لها في منطقة حجيف، فكثفوا هجماتهم هم يتقدمون ونحن نتراجع في المدينة كل ما اشتد القصف.

أتذكر ذلك اليوم الذي سقط فيه المطار؟ كان أشد فظاعة ووحشية منه، دكت المقاومة والمدينة تحت وطأة الحصار والقصف، لك أن تتخيل كل هذا يا شادي، المدنيون يهربون ولا مهرب لهم إلا عبر البحر، لم أرَ أهلي منذ ذلك اليوم الذي ودعهم فيه في المعلا، وظللت أدعو لهم بأن يصلوا للميناء ويفروا مع كل الأبرياء.

وحدثت المأساة صبيحة السادس من مايو، هُزمتنا وقتل الكثير من الشباب، وسقطت المدينة في أيديهم بعد حصار دام شهر ونصف، كنت وقتها قد تعرضت لطلقة نارية في ذراعي وانسحبنا من أمامهم، فإذا بالأعداء يقتلون الهاربين العزل.

قتلوا أهلي يا شادي، نعم، قتلوهم.

صوبوا قذائفهم نحو الميناء وأبادوهم قبل أن يتمكنوا من المغادرة، ماتوا جميعاً، قيل لي بعدها أن هناك من قتل وهو في قوارب النجاة، ومن قتل وهو لا يزال على الساحل، تخضب ساحل المدينة الجميلة بالدماء وحمل أشلاء الناس لتغرق في أعماق البحر.

لا أدري تلك اللحظة ماذا اعتراني، نسيت جرحي، نسيت حالتي، بكيت وصرخت
 كالمجنون، لم أستوعب ما حدث لحظتها، لم يكونوا مقاومين ولم يحملوا سلاحاً في حياتهم، ولم
 يتقدموا ليهاجموهم حتى بأيديهم، كانوا يهربون، يهربون فقط، صرت أعدو وأصرخ لم أهدأ
 ولم أستجمع فئات رشدي إلا حين أمسكني أحد رفاقي من كتفائي بقوة ثم عانقني وقال:
 -سننتقم لهم جميعاً.

أرسلني بعدها وظل يتأمل عيني الغارقتين في بحر الدموع، رأيت في عينيه ثورة تتقد،
 تذكرت بأنه فقد أهله أيضاً، هزرت رأسي، نعم، لن يشفي ما في القلب ولن يضمّد جرحه إلا
 الانتقام، الانتقام من كل من انتزع حقنا منها وقتل الحياة الآمنة في قلوبنا، هؤلاء المتمرّدون
 المغتصبون لن يكتفوا بجرمهم، والضعف والنحيب لن يفيدانا في شيء، إنهم يريدون محو
 عدن من خارطة الوجود، وإبادة سكانها من على وجه الأرض.
 وبالفعل لم يكتفوا بالمجزرة، هددوا كل سفن الإغاثة القادمة من الخارج لتعين الأبرياء،
 منعوها من الاقتراب من سواحل المحافظة، واستمروا في إعدام الناس بمظاهر التدمير
 والحرمان وقطع مقدرات الحياة.

نهاية شهر يونيو، قصفوا صهاريج النفط في ميناء الزيت بالبريقة واندلع حريق لا يقل
 استفحالاً عما نشب في جبل حديد بل كان أسوأ منه، الصهاريج تنفجر كبراكين، وألسنة
 النيران تتعاضم والحريق لم يتوقف لأيام، وسحب الدخان السوداء نافست نقاء السماء لتخنق
 كل الكائنات في عدن، إنهم يريدون إحراق المحافظة كلها، ألم أقل لك إنهم يريدون محوها؟

عدتُ للجهة بعد أيام قليلة، أعدنا تنظيم أنفسنا مجدداً، وساندنا الطيران العربي الذي ظل يترصدهم من الجو فيقصف آلياتهم ويبيد تجمعاتهم فالتجأوا للأحياء في قلب المساكن حتى يجتموا بالأبرياء من الهجمات الجوية، عندها مُنحنا الأسلحة بالمللظات لترصدهم هم ومدركاتهم من البر، ثم شاركتنا قوات عسكرية على الأرض ليزداد رعب الغزاة.

كر وفر طال بيننا؛ لكنهم أجبن من أن يستمروا رغم قوتهم، بدأنا تدريجياً نستعيد ما فقدناه، استعدنا خور مكسر والمعلا، الأمل والحزم كانا معنا رغم كل آلامنا.

وفي العشرين من رمضان كنت مع رفاقي في أحد الثكنات بالتواهي، حين فوجئنا بقذائف تنهال علينا، أصبت من شظايا انفجار قنبلة في نواح متفرقة من جسدي ولم أستيقظ إلا بعد أيام، قيل لي بأني قد نذفت كثيراً، وكسرت عظامي ساقاي معاً، وأبلغوني بمصرع رفاقي، بكيتهم كما بكيت أهلي وترحت عليهم جميعاً، حاول من بالمستشفى مواساتي حين أبلغوني بتحقيق النصر وتحرير المدينة، فانتبهت لهتافات الناس تتعالى في الشوارع القريبة، ونقلوا لي ما التقطوه من أجواء الاحتفال عبر هواتفهم، الناس خرجت لتحتفل.

حمدتُ الله على ذلك، كنتُ أؤمن بأن لا شيء سيتحقق دون ثمن، والتمن كان باهضاً جداً يا شادي، هذه هي ضريبة الحروب وهذا هو ثمن الحرية، ونحن البسطاء من ندفعها دائماً.

إني الآن لا أزال في المستشفى ربما ستطول فترة رقودي فيها، أتمنى أن أراك بعدن في القريب العاجل يا رفيقي

الألم والوهن كان يعتليان نبرة رضوان ويتخللان حروفه، وأحياناً تقطعها عبرات تعالج
الحزن والألم، وتفلت آهات من بين شفتيه، لم يستطع شادي أن يميز، هل كانت لألم إصاباته
أم لآلام قلبه الذي تجرع من المآسي ما أضناه؟
دمعت عيناه لحال رفيقه وحمد الله على نجاته، ثم قال:
-أسأل الله أن أراك وألقاك على خير يا رضوان، لا بد أن أرتب أمور أهلي قبل أن أعود إلى
عدن.

الفصل التاسع عشر

كبرياء ناقص

العودة إلى عدن سيظل حلمٌ يرودها بعد كل ما حدث، دعت ربها في أعماقها ألا تتكرر المأساة وتعود لمدينتها ذات يوم.

لم تستيقظ من بحر أفكارها ورعب الأحداث التي مر بها شادي إلا على صوت طرقٍ بالباب، انتهت، لم يبق من الفجر إلا سويغات قليلة، أشارت لها مها بفتحه وهي تمسح دموعها، نهضت، لتجد الطارق عبد الكريم وربا، ولما فتحت له واستقبلته، ذهل حين وقعت عيناه عليها، وعلى وجهها الذي حوى وجهي الحياة معاً؛

بهجة الحياة وسعادتها بنضارة بشرتها وجمال عينها في جهة، وبؤس الحياة وشقائها بنيران الحرب التي التهمت الجهة الأخرى وكادت تطفئ ضياء عينها، فأغمقت لون بشرتها وجعلتها قبل أوانها، كانت تلك هي المرة الأولى التي يقابلها فيها، تذكر سريعاً لقاءه الأول بشادي وسعيه لإيجاد سكنٍ مستقل بدل من السكن بأحد مراكز الإيواء، عرف منه أنها كانت مصابة إصابة بالغة؛ لكن لم يتوقع أن الإصابة ستكون في وجهها، الجزء الذي ستستقبل به كل الناس، أشفق في أعماقه عليها، لا شك في أن الأنظار المتلاطمة المشاعر لم ترحمها، شفقة اشتمزاز ونفور، هربت من الحرب لكن الحرب لم تهرب منها، عانقتها عناقاً شرساً لا انفلات لها منه.

تمالك انفعالات نفسه حين انتبه بأن شروده ونظرات الشفقة منه لم تفت عليها، فبدت نظراتها غير مبالية، لا شك في أنها قد آلفتها من غيره فلم ترتبك؛ بل ارتبك وهو يخفض رأسه ويقول:

-أعتذر للإزعاج يا ابنتي، أود الاطمئنان على شادي.

ابتعدت عن دربه وأفسحت له وهي تقول في ابتسامة باهتة لم تستطع بها إخفاء القلق التي افترسها على أخيها:

-تفضل سيدي.

دلف مع رُبا التي فتحت فاهها في دهشة لغرابة شكل وجه ضياء والذي لم تر مثله من قبل، ولسان حالها يقول في أعماقها:

-من أنت؟ ماذا حدث معك؟ لم وجهك هكذا؟

إلا أنها التزمت الصمت كما وعدت والدها، وأما ضياء فلم تكثر لها أيضاً أو ترتبك كما فعلت مع عبد الكريم رغم أن عيناها لم تبتعدا ولو للحظة عنها، ولم تشغل ربا كثيراً بما حولها بقدر ما كانت تريد أن تشيع فضولها وهي تنقل عينيها في تضاريس إصابتها كأنها تحاول أن تحفظها أو تفسر ما تراه، شعرت بأنه فضولها طبيعي، فغرابة شكل وجهها التي شدت به زملائها وزميلاتها وصارت به محور أحاديثهم كيف لا يلفت انتباه طفلة؟

لم تقل كلمة وهي تنظر ناحية من عبد الكريم الذي بدا الحزن عليه وهو يقترب من سرير شادي والحزن على محياه رغم أنه تكفل بنفقة علاجه بسبب ما فعله طارق إلا أن إحساسه بالذنب كان كبيراً.

نظر لها، فوجدها جالسة على كرسي إلى جواره، وقد أذبلت الدموع عينيها رغم أنها مسحها قبل دخوله، أخفض رأسه وهو يقول لها معتذراً وبنبرة حزن:

-أعتذر حقاً لما أصاب شادي يا سيدي.

نظرت إليه وهي تهز رأسها وتقول محاولة ألا تظهر ضعفها بنبرة صوتها:

-لا تعتذر رجاءً، هذا قضاء الله وقدره يا سيدي.

ابتسم وحاول طمأنتها وهو يقول:

-لا تقلقي على شادي، لقد سألت طبيبه الذي أجرى له العملية قبل قدومي وأخبرني بأنه

سيكون بخير والكسر بعظم الكتف سيتحسن بإذن الله.

في تلك اللحظة، تحرك جسد شادي قليلاً وتغيرت تعابير وجهه، بدا بأنه يستفيق من غيبوبته،

هرعنا إليه، ودنت منها منه أكثر في لهفة ومالت بجسدها وهي تقول:

-شادي، هل تسمعي؟ كيف تشعر الآن يا ولدي؟

فتح عينيه أخيراً، وتطلع بصمت في وجوه الجميع، وذكريات ما حدث تمر أمامه، ثم نظر

إليها وقال في اقتضاب ووهن:

-أنا بخير.

لم تتمالك فرحتها، دمعت عيناها تنفست بارتياح وهي تقول:

-حمداً لله على سلامتك يا ولدي.

اقترب عبد الكريم ومسح على رأسه وقال مبتسماً له:

-الحمد لله أنك بخير.

حاول احتمال ألمه ليبتسم له ويقول ممتناً:

-شكراً لقدمك لأجلي يا سيدي، كيف حال طارق؟

وخز السؤال أعماقه بقوة وهو يدرك صفاء قلبه ونبل خلقه رغم تصرفات ولده التي عجز

عن تغييرها، شعر باليأس، لن يتغير وأمه هي من تؤيده وتؤازره حتى لو كان على خطأ، وهو

ليس ببعيد عن هذا التقصير، فهل هناك أمل في أن يتغير؟ أبعد تفكيره ليطمئن شادي:

-إنه بخير، لا تهتم بشيء إلا بنفسك.

ثم استأذن وخرج برفقة رُبا، ولما أغلق الباب، عقدت مها حاجبيها وقالت في حدة:

-لم دافعت عن ذلك المتعجرف؟ عرفت كل شيء عنه من أختك، لو لم تساعده لما أصابك ما

أصابك.

قالت لها ضياء في حزم:

-أمي، شادي لا يريد أن يرد إساءة طارق بمثلها، لذا حاول منع أهل مدينتنا من إيذائه.

ابتسم رغم ألمه ولم يعقب على قولها حين ذكرت ما جال بخاطره، هزت مها رأسها حين

فهمت الأمر وقالت مبتسمة بعد أن هدا غضبها:

-بارك الله فيكما.

ابتعدت ضياء عنهما وهي تقول:

-سأخبر الطبيب باستفافتك.

وأسرعت تغادر الغرفة، وحين وصلت قرب مكتب التمريض ورأت عبد الكريم -ولا تزال
رُبا برفقته- يتحدث مع طبيب شادي، اقتربت منهم وأخبرت الطبيب باستفافته، فقال لها
مبتسماً:

-الحمد لله، لقد أخبرني السيد عبد الكريم، وأنا ذاهب إليه الآن لأطمئن عليه.

و أسرع يحمل ملفاً ويغادر برفقة ممرض، بينما ألقت ضياء لعبد الكريم نظرات حازمة وهي
تقول:

-أشكرك سيدي على مساعدتك لأخي.

ابتسم وقال:

-هذا أقل ما استطيع تقديمه رغم أني لم أكن أرغب في أن يؤول الحال لهذا.

-الحمد لله على كل حال، وأرجو منك ألا تثقل كاهلك بنفقات علاج أخي، فنحن سنتدبر
ذلك وجزاك الله كل خير على ما قدمته لأجل العملية.

تفاجأ بقولها في البداية، تمثلت أمامه ملامح وجه شادي في وجهها أثناء لقاءهما الأول حين
طلب منه عدم دفع إيجار الشقة لأنها قديمة بالإضافة إلى أنه أصر على أن يكون مثل بقية
المستأجرين، تذكرت عزة نفسه لحظتها وها هي تتمثل أمامه الآن، ابتسم وقال:

- لا ضير بأنك تشبهين شادي وعزة نفسه هذه، إن كنت تريدين ذلك فسأفعل، واعتبري ما سأقدمه لأجله بالمستشفى ديناً عليكم سداده بعد تحسن حالته.

دهشت من قراره، وشعرت بأن شادي قد احتل مكانة في نفسه، هزت رأسها وقالت مبتسمة:

- موافقة، لك ذلك سيدي.

- حفظك الله يا ابنتي.

ثم استأذنته لتعود لغرفة أخيها وهي تتعجب من المفارقة العجيبة بين عبد الكريم و طارق.

الفزع لم يكن قد فارقه بعد رغم استيقاظه الأول من غيبوبته، استيقظ مر أخرى من نومه وهب من سريره أثر رنين هاتفه المحمول الموضوع على الطاولة الصغيرة قرب، بنفس الاضطراب والخوف والارتجاف الذي نهض به أول مرة، نظر حوله مجدداً، لم يكن هناك أي شخص إلى جواره إلا أخته زُبا التي كانت نائمة على السرير المجاور، وشمس الضحى قد سطعت، لم يغادر كما كان يريد لا يزال بغرفة الترقيد بالمستشفى، لا شك في أن أمه لم تشأ إيقاظه حين استسلم للنوم وهي تريده أن يبقى، شعر بالانزعاج وتنهد بعمق ووضع يده مجدداً على صدره ليهدأ خوفاً واضطرابه هو يتساءل:

- هل سيستمر رعب ما فعله أولئك الرجال به مغروساً في قلبه؟

أيقظه من شروده وفزعه رنين الهاتف الذي لم ينقطع، زفر والتقطه في ضيق، وتطلع في شاشته وقرأ اسم ناصر فيه، فتح الخط ثم قربه إلى أذنه وقال ضجراً:

- نعم ناصر.

أتاه صوته قلقاً:

- طارق، كيف حالك؟ أفلقتنا عليك يا رجل، اتصلت ليلة أمس فوجدت هاتفك مغلق.. اتصلت بالبيت فلم ألقَ جواباً.. لكنني أحضرت رقم هاتف والدك من مكتبه وأخبرنا سهيل بما حدث، هل أنت بخير؟

رد بنفس النبرة:

- نعم أنا بخير.

قال في ارتياح:

-الحمد لله، سأتي أنا و...

عقد حاجبيه وقاطعه في انفعال:

-ما من داع لمجيئكم لأني سأغادر المستشفى بعد لحظات، بإمكانكم زيارتي بالمنزل في المساء.

رد عليه ليهدئه:

-حسناً حسناً لا تنفعل، سأفعل ذلك.

ولما انتهى الاتصال أمسك بهاتفه بقوة ساخطاً وهو يقول:

-تباً لهم، من يظنون أنفسهم.

ثم انتبه للباب يفتح، ورأى والديه يدخلان الغرفة ويرفقتها طبيبه وممرض، قال الطبيب مبتسماً:

-الحمد لله أنك بخير.

لكن طارق لم يبادل الابتسامة، بل ظل العبوس يرتسم على ملامح وجهه وهو يرد في حدة:

-أريد الخروج من هنا.

تفاجئ الطبيب وعبد الكريم من قوله، بينما ارتبكت عائشة، تمت لو يستطيعان إيقافه ومنعه تطلعت إليهم في قلق، ورأت الطبيب يجيبه حازماً:

-لا يمكنك ذلك، يجب أن تبقى، الضربة برأسك قوية.

رد وهو ينهض متعنتاً من سريره، قائلاً في عصبية:

-أنا بخير، سأرتاح في منزلي.

قال عبد الكريم :

-ما هذا الذي تقوله يا طارق؟ طبيبك أدرى بحالتك، لا يجب أن تغادر.

عقد حاجبيه وقال:

-لا أريد البقاء هنا، وأنا أتحمل تبعات قراري هذا.

شعر عبد الكريم بالضيق من تعنته، قال للطبيب:

-حسناً سيدي، اسمح له بالمغادرة..

عقد الطبيب حاجبيه، وقال:

-يجب أن يوقع تأكيداً على رغبته في ذلك لنخلي مسؤوليتنا عما قد يحدث بعدها.

قال طارق:

-سأفعل، لا مانع لدي.

فناولوه الممرض قلماً وكتب تأكيد رغبته بالمغادر بالملف، واحتقن وجه والده غضباً، بينما زاد القلق على وجه عائشة وتحسرت على ما حدث، ثم خرج الطبيب والممرض، قال عبد الكريم لزوجته:

-اسبقوني إلى السيارة ريثما أنهي إجراءات الخروج.

أطاعته، وقامت بترتيب أشياءهم القليلة التي أحضروها معهم وأيقظت رُبا التي ظلت جالسة بعض الوقت تعالج النوم، بينما ناولته قميصه الداخلي وسترته، فجلس على طرف السرير وارتدى القميص ثم ارتدى السترة دون أن يغلق أزرارها، وحين استعدوا حملت الحقيبة، تقدمتهم رُبا لتغادر الغرفة ثم تبعتها والتفت لطارق الذي لم يكن يحمل إلا جسده، تأملته وهو يسير مترنحاً ويجز على أسنانه محاولاً احتمال ألمه حتى خرج من الغرفة، اقترب من الجدار وسار مستنداً إليه، كان يشعر بالألم في كل جسده مع كل خطوة يخطوها، لم تفتها أنه ألم مكبوتة حاول مداراتها عنه حين لاحظ مراقبتها لخطواته، قالت له في رجاء:

-لم هذا التعنت على حساب صحتك يا بني؟ إنك تتألم، يجب أن تعود إلى سريرك، لا نزال هنا.

رد حازماً وهو يخفض رأسه ويعالج أله:

-لن أسمح لهم بأن يهنتوا بفعلتهم هذه بي أبداً.

وجهت من قوله للحظات، ثم قالت في انفعال:

-أتريد أن تتحدى وأنت في هذه الحالة، ثم أن والدك قال سيسوي الأمر معهم، اهتم بنفسك

ولا شأن لك بغيرك، المهم سلامتك.

انزعج من قولها فرفع رأسه ليرد، إلا أنه لمح ضياء تدلف قسم الترقيد حاملة كيساً صغيراً

بيدها، بينما عادت عائشة تقول:

-سأخبره بـ...

قاطعها وهو يقول بحزم أكثر:

-أمي، قلت لك لن أعود أبداً، اسبقيني أنتِ ورُبا ولا تقلقي علي، أنا بخير وسألحق بكما.

قالت في حزم:

-بل سأرافقك.

حاولت أن تمسك بذراعه فجذبها وهو يرد في عصبية:

-دعيني، سأسير بمفردي.

زفرت في ضيق وهي تقول في حدة:

-حسناً، افعل ما يجلو لك، لقد أعيتني.

وأسرعت تلحق برُّبا وسبقته، وانتبهت رُّبا على ضياء فتعلق بصرها بها حتى وصلت أمها إليها، أمسكت بيدها لتغادرا معاً، بينما ظلت تتبعها ببصرها حتى رأتها تقف أمام طارق الذي أبعد يده عن الجدار ووقف معتدلاً ليكون قبالتها قبل أن تخرج مع أمها من القسم ويختفيا من أمامها.

قال طارق في ابتسامة:

- أهلاً ضياء، يا لهذه المصادفة التي جمعتنا هنا.

عقدت حاجبيها في ضيق وهي تتأمل وجهه المتلون بالكدمات والعصابة الملفوفة حول رأسه، وجسده الذي لا يكاد يقف إلا مرغماً، ومع ذلك لا تزال هذه الابتسامة الساخرة على وجهه!

قال قاطعاً بحر تفكيرها:

- لقد نسيت حقاً ما فعله أولئك الرجال بشقيقك أيضاً، يا للأسف، لولا فعلتهم لما كنا هنا.

زوت ما بين حاجبيها في حدة ردت غاضبة:

- لولا فعلتهم أم لولا لسانك؟

اتسعت ابتسامته التي تحولت إلى ضحكة عالية جعلت جسده يهتز وهو يقاوم الألم، لفت بها من كان موجوداً بالممر، ثم مال برأسه وقال بسخرية:

- لساني!! آه، كم مرت يجب أن أنسى بأن الحقيقة مرّة ولا تعجب أحداً.

- الظاهر بأنك لم تتعلم شيئاً مما حدث معك.

اقترب منها وهو لا يزال يسير مترنحاً دون أن يستند للجدار، ماضياً في طريقه حتى صار بمحاذاتها فوقف وقال بصوت أقرب إلى همس:

-أتعلمين؟! لا تفرحي كثيراً أنتِ وأولئك الرجال، أنا سأغادر هذا المكان، فليس طارق من يقف عن المضي في طريقه بسبب مجموعة أمثالكم.

ومضى مبتعداً في طريقه وهو يلوح بيده ودون أن يلتفت إليها ويقول:

-أراك غداً في الكلية، إن حضرت..

احتقن وجهها غضباً وهي تقول في نفسها:

-تباً لك ولأمثالك، تكابر حتى وأنت في أسوأ حال! ليتك...

ثم قطعت عبارتها وهذأت من غضبها، واستعاذت بالله من الأفكار التي طرقت رأسها، مهما كان من سوء تصرفه وتكبره فلا يجب عليها أن تمنى الشر له، فالكبر مطب كبير يعترض طريق صاحبه نحو الدرب السوي، وآفة روحية عسيرة الإزالة، شفرة تزداد تعقيداً كلما طال أمدها فتتعاظم مع الزمن، وتوقف حدود التفكير عند نزوة العلو مهما تكن المواقف التي يمر بها صاحبها، ليخفي بها مظاهر نقصه، وتجعله ينظر لمقتِ لبقية بني جنسه، تعمي بصيرته لتحدد له وجهة واحدة فقط، وهي نحو مآربه الشخصية.

تجاهلت ما حدث ومضت في طريقها نحو غرفة شقيقها، ولما دخلت وجدت الطبيب عنده وبرفقته الممرض وقد بدا بأنه انتهى من فحص شادي الذي وجدته جالساً على السرير، فقال له الطبيب مبتسماً:

-الحمد لله، اصطدام السيارة بك لم يكن عنيفاً جداً وإلا كان الكسر سيئاً وإعادة عظم العضد صعبة، أتوقع بعد شهر ستتحسن إصابتك كثيراً بإذن الله، يلزمك الراحة الآن إلى ذلك الحين هز رأسه بثقل وصمت، بينما سألت ضياء الطبيب قائلة:

-وكم سيبقى هنا؟

ظل يدون في الملف دون أن ينظر إليها وقال:

-أسبوع حتى أتأكد من عدم حصول أي التهاب بموضع الجراحة.

-شكرا لك سيدي.

ابتسم وغادر الغرفة، بينما استلقى شادي على السرير وساعدته مها، ثم قالت:

-الحمد لله الذي أنجأك، كان من الممكن أن تكون الأمور أسوأ من هذه لو كانت السيارة تتحرك بجنون..

-الحمد لله..

قالها شادي وهو يتطلع إلى السقف بصمت ووجوم، البقاء أسبوعين هنا يعني أن يتوقف عن

عمله، ولا يدري كيف ستكون حالته بعد ذلك، من سيدبر حال أهله وهو مصاب عاجز؟

هل عليه الآن أن يشعر بالندم لتدخله ومحاولته إنقاذه لطارق رغم الإساءة التي نالها منه؟

وهل عليه أن يندم على فعل الخير حاول تقديمه؟

انتبه من شروده على صوت أمه وهي تقول لتطمئنه:

-بني، لا تقلق، لقد تكفل السيد عبد الكريم بعلاجك واعتبره ديناً علينا حين تماثلك للشفاء.

نظر إليها وابتسم ابتسامة صغيرة لها وهو يقول:

-الحمد لله، إنه رجل شهم على خلاف ابنه، جزاه الله كل خير.

ابتسمت ظناً منها بأنها قد أراحت قلبه؛ لكن ضياء التي ولجت تضحية شادي في أعماقها منذ لحظة بدأ الحرب والنزوح وإلى الآن فهمت ما دار في خلده، لم يكن يفكر في نفسه وعلاج إصابته؛ بل بهما، أخاها الذي بذل الكثير لتستقر أمورهم في مدينة غير مدينتهم كيف لا يقلق عليهم في مرضه الآن؟

رغم تظاهره برغبته في النوم بعد كلماته لمها إلا أنه لم يستطع أن يخفي ذلك عن ضياء، فوضعت الكيس على الطاولة وأمسكت بيده، ففتح عينيه ورآها تبسم له وهي تربت على كفه وتقول:

-كل شيء سيكون على ما يرام بإذن الله، فلا تشغل بالك، المهم أن تكون بخير. ابتسم لها وقال:

-وعليك غداً الذهاب لكليتك، أمي موجودة هنا.

-كما تريد، سأفعل بإذن الله.

وعاد لغفوته، في اللحظة التي رنَّ فيها هاتفها المحمول، فابتعدت عن سريرته ثم ضغطت زرّه وهي تقول:

-السلام عليكم..

أتاها صوت سحر وهي تقول:

-وعليكم السلام، أود إبلاغك بأني لن أستطيع زيارتك اليوم، لدينا ضيوف اليوم والأمر كان مفاجئاً ليلة أمس ولم أستطع إخبارك.

أسرعت لحظتها تغادر الغرفة وهي تقول:

-لا عليك، فأنا كنت سأتصل بك وأعتذر لأنني لست موجودة في البيت اليوم.

ردت في نبرة قلق:

-لم؟ هل حدث شيء؟

مضت تحكي لها ما حدث، فقالت:

-الحمد لله على سلامة أخيك.

-الحمد لله، شكرا لك..

-ليتني أستطيع زيارتك بالمستشفى، والداي لن يسمحوا لي بذلك..

-لا عليك، سنلتقي غداً بالكلية..

-في انتظارك إذن..

ثم قالت بحزم:

-سحر أريد منك خدمة.

-تفضلي..

-أريد البحث عن عمل، ماذا أفعل؟ وكيف سأجده؟.

فردت في ذهول:

-نعم!!

الفصل العشرون

العرض

في صباح اليوم الثالث من الحادثة وقبيل بدأ المحاضرة، قدم طارق للكلية .
 لم يكن أمر الدراسة يعنيه في شيء بقدر ما كان يعنيه تحدي الذات الذي فرضه على نفسه
 وعدم كسر عزة كبريائه، فما حدث كان سيقدم له عذراً جيداً ليمنح إجازة لبضعة أيام
 ويتهرب من مقاعد الدرس كما يفعل دائماً، إلا أنه أثر الخروج من المستشفى والعودة
 للجامعة إرضاءً لغروره، ورغم أن الإصابات التي علت وجهه بدأت تخف قليلاً، ولم يتبق
 إلا العصابة التي ظلت ملفوفة بمحيط رأسه، إلا أنه بدا أفضل حالاً وهو يسير برفقته رفاقه
 الأربعة متجهين إلى مبنى الكلية بعد أن ركن سيارته.
 وحين دخل القاعة، صفق كل زملائه في ترحيب وحماس، فهم يجوبون فيه مراحه ومشاركته
 لهم في الأنشطة الرياضية، وأقبلوا يحيطونه ويرحبون به ويصافحونه في سرور، سرّاً باستقبالهم
 الحار، ورحب بهم وهو يمنحهم ابتسامته المألوفة ويحدثهم بمراحه المعتاد، ثم صعد مع رفاقه
 درجات القاعة وصولاً إلى مقعدهم بالصف الأخير كما هي العادة، قال له محمود:
 - كان واضحاً عليك بأنك لن تستطيع أن تحضر يوم أمس، فالإصابات جعلت جسدك
 ثقيلاً.

بدأ الضيق يتسلل لوجه حين زفر وقال:

- كنت أريد الحضور حتى لا تشمت تلك المتعجرفة بعجزتي.

ربت ناصر على كتفه، وقال مبتسماً:

- لا تشغل نفسك بذلك، المهم أنك بخير.

قال محمود وهو يتسم ابتسامة مائلة مأكرة:

- لقد حضرت ضياء يوم الأمس، لكنك لم تعرف جديد ما حدث معها.

تطلع إليه في اهتمام وسأل:

- وماذا حدث؟

- كانت تبحث عن عمل.

رفع حاجباه في دهشه لقوله، بينما قال ناصر مؤيداً:

- هذا صحيح، كلنا يعرف بأن أخاها هو المسؤول الأول والأخير عن عائلتها، فكيف ستدبر

أمر دراستها والمنزل من دونه؟

قال صبري ساخراً وهو يعدل نظارته:

- اعتقد بأنها لن تظل طويلاً بالجامعة، وستترك مقاعد الدراسة إذا استمر وضعها على هذا النحو.

ابتسم طارق ابتسامة سرور وشجاعة، وهو يقول:

- لم أكن أتوقع بأن الأمور ستجري على هذا النحو الرائع، فلترحل من هنا، أفضل لها ولنا.

كان يقول ذلك حين لمحها تدخل القاعة، ورآها تجلس بمقعدها في المدرج الثالث قريباً من

ممر بين المقاعد وإلى جانبها سحر ورفيقاتها، كم يتمنى حدوث هذه اللحظة ويتنظرها بفارغ

الصبر، وهي أن تحتفي من القاعة ولا يجد لها أثراً أبداً ولا يرى وجهها الذمير بعد اليوم، ثم انتبه للدكتور سامي يدخل بعدها، لم يهتم له؛ بل انتبه لوليد الذي تمدد لحظتها، وتشاءب وهو يقول:

-ولن تجد أي عمل يا طارق، وحتى لو وجدت، أي مبلغ يمكن أن تتقاضاه وهي لم تحصل على شهادة جامعية؟! إلا إذا كانت تتقن حرفة نسوية تستلم منها ألف ريال في اليوم على أقل تقدير.

اتسعت ابتسامته الشامتة على تعقيب رفيقه، وأحس بالشوة وبأن مراده سيتحقق عما قريب، ولم يخرج من غمرة سعادته إلا صوت الدكتور سامي وهو يقول بصوته الأجش الحازم عبر مكبر الصوت:

-حمداً لله على السلامة يا طارق.

نظر إليه فوجده يشير إليه بيسراه ويقول ذلك، ابتسم ولوح بيده شاكراً له قوله، فهو لن يتمكن من سماع صوته إن تكلم دون مكبر الصوت أيضاً، ثم قال الدكتور بلهجة لم تخل من السخرية وهو يشير إلى مقعد شاغر:

-هلاً تكرمت بالانتقال إلى ذلك المقعد من المدرج الرابع؟

انتبه إلى أنه يشير إلى مقعد خالٍ خلف المدرج الذي جلست فيه ضياء، فوجئ بطلبه لكنه أجابه، وبدا التساؤل على وجهه وهو ينهض، فقال مبدداً حيرته وهو يشير لبقية رفاقه:

-أنتم الخمسة يجب أن تتفرقوا حتى تستطيعوا فهم شيء مما أقول وتتركوا المقهى الذي لا ترتادونه إلا وقت المحاضرة، درجات واجباتكم منخفضة جداً، أتمنى أن أرى تحسناً بعد الإجازة الطارئة، لذا تفرقوا.

علت الابتسامات الساخرة وجوه الطلاب وهم يراقبون طارق ورفاقه ينتقلون من أماكنهم والضيق على وجوههم، وأكثرهم انزعاجاً كان وليد الذي سيحرم من قيلولته المعتادة، وتفرقوا على مقاعد قريبة بالصفوف الأمامية، قال طارق في نفسه ساخطاً وهو يجلس مكانه: -يا لهذه الافتتاحية الصباحية، تباً لك أيها العجوز.

ثم تطلع الدكتور لوجوه الجميع آمراً بنظراته الصارمة بعودة الهدوء للقاعة، فهدأ الطلاب واتجهت أنظارهم إليه وبدوا متأهبين للدرس، فحمل القلم وبدأ يشرح ويستذكر معهم ما مضى من محاضرات.

بقي طارق ورفاقه على عاداتهم رغم تفرقهم، صامتين متفرجين لا يشاركون في شيء تاركين المجال لبقية زملائهم، غير مكترئين بأهمية ما يقدم من علم لهم، وكان أكثر ما يزعجه أنه مضطراً لسماع صوت ضياء وإجاباتها بكل وضوح وعن قرب أيضاً، يتأفف وينظر لمذكرته حتى لا يراها كلما نهضت من مقعدها لتجيب، كان يشعر بأن كل دقيقة من المحاضرة ثقيلة بطيئة تكاد تقتله بمملها، تمنى لو أنه لم يأت؛ لكن التحدي لإثبات الذات أولى من كل شيء.

وبعد مضي ساعة ونصف، فوجئ الجميع بباب القاعة يُصَفَع أمامهم بقوة، وتطلعت عيونهم مباشرة للشخص الذي أقبل بهذه الطريقة مستغربين تصرفه، بينما اتسعت عيناه في دهشة وذهول وهو يقول:

-رُ...رُبا!!

قال ذلك في نفسه، كيف وصلت أخته إلى هنا؟! ظل حائراً وهو يراقبها تتطلع للقاعة الكبيرة وتتأمل كل شبر فيها بانبهار شديد؛ مقاعدها الكثيرة ومدرجها وسقفها العالي بأضوائها الساطعة، وبمرح طفلة، قالت في إعجاب:

-يا سلاام، إنه صف كبير وجميل جداً، ألا يمكنني أن أدرس في مكان كهذا؟
تحدثت بطلاقة ودون حرج أو ارتباك من الطلاب أو الدكتور الواقف مكانه قرب السبورة والذي بدا شيء من الضيق على وجهه، بينما ارتبك طارق في خلده من تصرفاتها وتمنى أن تنصرف، ففوجئ بها تبحث عنه بنظراتها حتى عثرت عليه، اعتلت وجهها الصغير ابتسامة وقالت:

-وجدتك أخيراً يا طارق، لم لا تريد أن تصحبني حتى يوم واحد لمدرستك؟
أشار لها بالانصراف؛ لكنها هرولت متجهة إلى مكانه في شغف وهي تقول:
-أريد أن أرى السبورة من مكانك.

منذ دخولها، والابتسامات مرتسمة على وجوه الطلاب، بين السخريه والإعجاب بجراتها الغريبة، نادراً ما يتصرف الأطفال مثلها، ولعلمهم سروا بإضفاء جو المرح قليلاً في محاضرة

علمية تسودها الجدية، تطلعوا إليها في اهتمام منتظرين بفضول ما ستؤول إليه هذه الزيارة العفوية.

صعدت درجات المدرج بسرعة بخطواتها الصغيرة، ومن شدة حماسها تعثرت بأحدها وكادت تسقط، لولا أن الجالس قريباً من الممر أمسك بها من ذراعها ومنعها من أن تؤذي نفسها، اضطربت لحظة تعثرها ولما هدأت نظرت لمنقذها، لتجدها ضياء، ظلت لمدة تحديق في وجهها قبل أن تعتدل وتقول:

-أنتِ المزدوجة، صحيح؟!

ذهلت لقولها وكذلك رفاقها ورفيقاتها الذين حولها، بينما صُعب طارق وضرب جبهته بيده وقد ازداد ارتباكاً، قالت ضياء:

-اسمي ضياء ولست المزدوجة، لم تقولين هذا عني؟

أجابتها بسرعة:

-لأن طارق يقول ذلك عنك، عرفتُك من هذه الإصابة التي على وجهك، لا أدري لم كان يذكرك دائماً حين...

-رُبما يكفي.

صاح بها وهو نهض من مقعده وقد احمر وجهه خجلاً وغضبا معاً من أقوالها مقاطعاً إياها

هو لا يهتم لأمرها كإعجاب؛ بل كان يكرهها ولهذا كان يذكرها كلما تحدث إلى رفاقه أو تذكر ذلك اليوم الذي أهانته فيه، خشي أن تذهب ظنون من حوله بعيداً عن الواقع، أما ضياء فقد أدركت نيته الحقيقية.

تجاهلت ما قالته وتركته بعد أن اعتدلت، بينما قالت رُباً له وهي تبسم وتقول في سخرية:
- لم انفعلت هكذا؟ لم أقل إلا الحقيقة.

هنا ضحك كل من في القاعة، وكذلك ضياء التي قالت في نفسها:

- لم تقل إلا الحقيقة، فلم لا تتقبلها؟

مع موجة الضحك عبس وجه الدكتور سامي وحدجه بنظرات غاضبة، ثم دخلت عائشة القاعة ورأت رُباً وما أحدثته بالقاعة من فوضى، ارتبكت وقالت للدكتور:

- أعذر سيدي، لم أقصد الفوضى التي سببتها ابنتي، أعذر للإزعاج.

ثم التفتت إلى ابنتها وأشارت لها بالنزول، إلا أنها تمنعت وهربت نحو المقاعد البعيدة، أسرع طارق يمسك بها من يدها ويجرها جراً خارجاً بها، والابتسامات تعلو وجوه زملائه، همس أحدهم لزميله حائراً:

- طارق يذكر ضياء؟! غريب منه هذا.

تساءل الآخر مثله وهو يهز رأسه:

- أتظنه يحبها؟

هز زميله رأسه نافياً:

- لا أظن ذلك، إنه دائماً يشعر بالنفر والضييق منها وحتى من وجودها.

- وأنا أعتقد بأنه يكرهها بعد ما صفعته.

قال آخر مبتسماً في سخرية:

- مزدوجة!! أظنه اسم مناسب لها.

دارت موجة همهمة قصيرة من بعض الطلاب والطالبات، استطاعت أن تلتقط بعضها،

تقلصت ملامح وجهها في ضيق وألم، وكتمت ما بها وهي تمسك قلمها بشدة محاولة

الصمود، لتجد يد سحر تمسك بيدها أيضاً محاولة مساندتها، نظرت لها مبتسمة، وقالت

بهمس:

- لا تقلقي علي، لقد سمعت أسوأ من هذا منذ قدومي، فليحيكوا أثواباً بظنونهم.

بادلتها الابتسامة وهي تدرك حجم ألم تلك الكلمات بقلبها، ورغم ذلك ظل التجاهل وبقوة

سلاحها لما قد يقف عقبة في طريق أحلامها ومستقبلها، ويقدر ما كانت تتألم لأجلها إلا أنها

سعدت بصمودها حتى تستطيع المضي في درب الحياة.

ثم عاد الدكتور سامي ينظر لطلابه بنظراته حادة على إثرها توقفت موجة الأحاديث وساد

الهدوء بالقاعة، ويعود لاستئناف المحاضرة.

زفر طارق في ضيق وهو يخرج رُبا خارج القاعة وتتبعها عائشة، وحين أوصلهما إلى الممر،

كان خالياً من الطلاب إذن أن الجميع كل في قاعته ولا يزال منشغل بمحاضراته، عقد

حاجبيه وقال ساخطاً:

-أمي، لم جئتِ إلى هنا؟ ولم أحضرتِ هذه المشاغبة معكِ؟ لقد سببت لي إحراجاً أمام زملائي.

هزت عائشة يديها وقالت:

-لقد أحضرني والدك إلى هنا، كنا في طريقنا لزيارة بعض أقربائنا في مدينة الغيل، ولما مررنا قرب كليتك طلبت منه أن يسمح لها برؤيتها، وأيدتُ طلبها أيضاً قلت له لا بأس، رفض في البداية لكنه في النهاية وافق، كانت نيتي أيضاً أن أراك وأطمئن عليك، لم أتوقع أنها ستثير كل هذا الشغب، أنا آسفة بني.

قال ساخطاً وهو ينظر إلى رُبا التي بدت غير مبالية بشيء وهي تتأمل ما حولها في فضول:

-هي لم تخرجني وحسب؛ بل جعلتني سخرية الجميع، يالهذا اليوم المزعج.

-آسفة يا بني، والحمد لله أنك بخير، سننصرف الآن، عد إلى محاضرتك وانتبه لنفسك.

-سأفعل.

ثم أمسكت بيدها في إحكام، وهي تقول:

-في كل مكان تثيرين المتاعب، لا مدرسة قبلت بدخولك إليها، ولا حتى معلمة لبضع

ساعات قبلت بتدريسك، لم أنتِ متعبة هكذا؟

-لم أفعل شيئاً، كل ما في الأمر أنني أريد اللعب.

-أنت لا تلعبين وحسب؛ بل ثرثرة لا تجيد شيئاً إلا الحديث، ستكملين السادسة ولم تتعلمي

أي شيء حتى الآن، الروضة التي التحقت بها كانت جميلة، لم لم تعجبك؟

قالت متجاهلة كلامها وهي تنظر إليها:

-أمي، لنذهب إلى الحديقة.

زفرت في ضيق وهي تقول:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، متى ستفهمين كلامي؟ لن نذهب إلى أي مكان، أنت لا تخافين

إلا من والدك، ليته يرافقك في كل مكان ويقدر جهودي معك، وسعبي لتعليمك وتغيير

سلوكك.

-سأخبر أبي أن يأخذني للحديقة الموجودة بالغيل.

صاحت بها:

-بل سنذهب لغايتنا لنعود مبكراً، يكفي ما فعلته حتى الآن.

ظلت رُباً تصيح متوسلة، بينما أخذت عائشة تسحبها بقوة وهما خارجتان من المبنى، وتنهّد

طارق بعمق وهو يتأملهما، ويقول حائراً وقد هدأ غضبه:

-فتاة مشاكسة، متى استطاعت سماع كل حديثي عن ضياء؟

ثم فتح باب القاعة ودخل، فاستقبلته النظرات المشوبة بالسخرية، ردها على الفور بنظرات

غاضبة متجاهلاً كل الأفكار التي قد تحملها عنه، وسار بخطى هادئة حازمة نحو مقعده

وجلس غير مرتبك، وحين نظر لضياء وجدها تدون ما هو مكتوب على السبورة، متجاهلة

بدورها كل تلك النظرات حولها منسجمة مع الدرس وشرح الدكتور، هكذا عرفها منذ أول

يوم لها؛ قوية، صلبة الإرادة، منطلقة نحو هدفها بثبات؛ لكنه لم يعرف سر ذلك بعد.

التقط قلمه وتظاهر بأنه يدون في مذكرته وهو يبتسم لنفسه ساخراً ويقول في نفسه:

-قريباً سترحل ونرتاح منها، سنرى إلى ...

قطع حبل تفكيره فجأة حين تبادرت إلى ذهنه فكرة بددت كل الضيق والغضب عن نفسه مما حدث، كما تبدد الريح غيوم السماء، فالتسعت ابتسامة السرور على وجهه وانتظر بشوق انتهاء المحاضرة بعد ثلث ساعة.

مرت الدقائق ثقيلة أيضاً، لتقبل بعدها فترة الاستراحة، وبدأ معظم الطلاب يغادرون

القاعة، بينما اجتمع برفاقه في مقاعدهم بعد أن تفرقوا، ابتسم ناصر مداعباً:

-لقد كشفت أختك كل ما تفعله.

عقد حاجبيه غاضباً وصاح به:

-ناصر!!

هز يديه مهدئاً وقال:

-لا تقلق، أنا أعرف ما تفكر فيه، لستُ أظن بك شيئاً آخر.

فابتسم له ابتسامته المألوفة وهو يميل برأسه ويقول:

-لكنك لم تحزر هذه المرة مالذي سأفعله؟، راقب أنت والبقية ما سيحدث.

تفاجأوا بقوله ورأوه يتعد عنهم ويقرب من مكان ضياء التي كانت تستعد لمغادرة القاعة برفقة سحر وهما يتحدثان عن المحاضرة التي يتوجب عليهما مراجعتها في مكتبة الكلية، فسألها قائلاً:

-ضياء، هل حقاً تبحثين عن عمل؟

عقدت حاجبيها في حدة، وقالت بحزم:

-أعتقد بأن هذا الأمر لا يخصك، فاهتم بشؤونك.

ابتسم وقال:

-ولكن لدي عرض عمل مناسب لك، وبراتب مجزٍ أيضاً، ولا شك في أنه سيناسبك بكل تأكيد.

انتهت له وأبعدت الحدة عن ملامحها، كانت مندهشة من كلماته، بينما قالت سحر بغضب وهي تشير بيدها:

-ابتعد عنا، إنها في غنى عن مساعدتك.

-ما هو؟

صدمت لقولها الحازم، لم تتوقع أن تبدي اهتماماً بقوله، فقالت لها وهي تشد ذراعها:

-ما بك يا ضياء؟ أي عمل قد يأتي من شخص لا يحترم أحداً ويسميك بالفاظ لا تليق؟ نظرت لها وقالت مطمئنة إياها:

- لا تقلقي عزيزتي، لن أخسر شيئاً إن استمعت إليه، فأنا في النهاية من سيقدر مناسبة العمل أم لا.

اتسعت ابتسامة التحدي على وجهه وقال:

- هكذا أنتِ دائماً، حسناً، هل رأيت أختي الصغيرة رُبا؟

هزت رأسها

- نعم، ما بها؟

- هل في إمكانك تعليمها مقابل استلامك لراتب معلم شهرياً؟

تملكها الدهول لعرضه حتى أنها كادت تفتح فاهها في دهشة لعرضه، فتماكت نفسها العرض مغري جداً ومناسب لحالها كثيراً، فهي ستستطيع التوفيق بينه وبين دراستها، وفي نفس الوقت ستساعد أهلها في الوقت ذاته، تطلعت لوجهه للحظات، هل يريد مساعدتها حقاً؟! نظراته نحوها لا تزال كما عرفتُها من أول لقاء، وسلوكه وهو ذاته، إذاً ما سر عرضه؟ ازادت الحيرة بفكرها، بينما بدت الحماسة على وجهه وهو يرى اهتمامها بحديثه فاستأنف قائلاً:

- أختي تعاني من مشكلات الدراسة ومعضلاتها منذ سن الرابعة حين بدأنا بإدخالها إلى الحضانة ثم الروضة، كثيرة الحركة حتى في أثناء الدرس وأحياناً كثيرة كانت تهرب من قاعة الدرس، لم تستطع أن تتعلم شيئاً بشكل جيد، أحضرت لها أمي معلمات من كل مكان بالمدينة؛ لكن لم ينفع معها شيء، فضولية ثرثرة لكنها ذكية، وإلى الآن لم نجد حلاً لمشكلتها.

وضعت يدها أسفل ذقنها وهي تقول:

-ذكية ويصدر منها كل هذا؟ غريبٌ أمرها.

عاد يتسم مسروراً لردة فعلها وقال:

-فكري بعرضي هذا، إن شعرت بأنك قادرة على تعليمها، أبلغيني قبل نهاية الدوام.

ولم ينتظر ردّاً بل أشار لرفاقه وغادروا القاعة خمستهم، قال ناصر في ابتسامة:

-أظنني فهمت ما ترمي إليه.

قال محمود في ابتسامة مماثلة:

-وإن قبلت، هل ستنجح في هذه المهمة؟ لا أظن ذلك، الأمر في حاجة لمعلمة مختصة وذات

صبر كبير.

بادلها الابتسامة وقال وهو يهز رأسه:

-سنرى ماذا ستقرر، وأتمنى أن توافق، لتنال درساً لن تنساه طوال حياتها.

ومضوا خمستهم نحو مقصف الكلية، أما ضياء فقد دوى عرضه في فكرها، غادرت القاعة

برفقة سحر التي لاحظت بأنها ستغرق في بحر الصمت لتفكر فيما سمعت بهدوء، فتركها

تستعيد ما قاله لها وتوازن كل أمورها بفكرها لتتخذ خلال الساعات القليلة قراراً بين كفتيه

مستقبلها وسعيها لمساعدة أهلها معاً، لم يفارق الأمر فكرها خلال الاستراحة، وسبب لها

شروداً في المحاضرة النظرية التالية، ثم المحاضرة العملية بالمختبر، كانت تسترق النظر إليه

محاولة الوصول لأغوار فكره؛ لكنها لم تر إلا عدم مبالاته بالدروس وملامح الاستهزاء والسخرية من كل شيء لا يعجبه، بدت حائرة لا تدري ما هي نيته الحقيقية وراء ذلك.

وعند الظهيرة، انقضت ساعات الدوام زاحفة نحو النهاية، فبدأ الطلاب والطالبات يغادرون مبنى الكلية، ومن بينهم طارق ورفاقه الذين غادروا المختبر سريعاً، وحين كانوا بالممر نادى عليه ضياء، ابتسم لرفاقه وقال:

- يبدو من أنها ستوافق، اسبقوني إلى السيارة ريثما أعود.

بادلوه الابتسامة، بينما محمود:

- إذن، سنتظر ما سيحدث بشوق.

وابتعدوا رفاقه، بينما اقترب منها وقال بحزم:

- نعم ضياء.

ظلت سحر واقفة ترقبهما من بعيد دون أن تتمكن من سماع حديثهما، في حين قالت ضياء بحزم:

- موافقة على عرضك.

فابتسم لها ابتسامة سرور، وقال:

- رائع، سرور لذلك.

بدا الارتباك عليها قليلاً وهي تقول محاولة تمالك نفسها:

-لكن... لدي شرط آمل أن تحترمه.

شعر بالضيق في أعماقه، وهو يقول في نفسه:

-عرض مغرٍ وشروط عليه، ما هذا؟

لكنه سألها وهو يرفع حاجبيه متظاهراً بالحيرة:

-شرط!! وما هو؟

-أن تأتي أختك إلى منزلنا لأعلمها.

فقال وهو يهز رأسه:

-أوه، هذا فقط؟ لا بأس، لا مانع أبداً في ذلك، سأتفق مع والدي لتحديد الوقت وتحضرها

لمنزلك وسأخبرك بتفاصيل ذلك غداً.

شعرت بفرحة لا توصف لقبوله شرطها، فوضعت يدها على صدرها وهي تتنفس بعمق في

ارتياح كبير، أخيراً ستتمكن من مساعدة شادي ولو مرة واحدة ورد كل جميل وكل تضحيته

قدمها لأجلها، أخيراً ستتمكن من مساندته بشكل كبير، مريها كل ما قدمه لها.

لاحظ طارق سعادتها فابتسم في ظفر، لقد استطاع تحقيق الخطوة الأولى من خطته، ثم انتبه

لها وهي تقول له في حزم:

-هناك شيء في هذه الحياة يجب أن تدركه يا طارق، وهو أن قيمتها تزداد عندما نستشعر بأن

هناك أناس يضحون من أجلنا، عندها...

امتعض وجهه وقاطعها وهو يقول:

-تتفلسفين؟ ما الذي تحاولين الرمي إليه؟

أسبلت جفنيها قليلاً، وصمتت للحظات حين رد بقية كلماتها، ثم ابتسمت له وقالت في امتنان:

-لا شيء، أشكر لك عرضك وقبولك لشرطي.

بدا الارتباك على وجهه للحظات وهو يتأمل ملامح وجهها وابتسامتها، كلماتها كانت دافئة نابعة من أعماق قلبها، وابتسامتها الصغيرة رغم ذمامة وجهها كانت طفولية، بدت له إنسانة رقيقة لطيفة، فمست كلماتها قلبه، وأربكته، رد عليها متلعثماً:

-العفو... وانصرفت عنه، بينما ظل واجماً يحرق في الفراغ، لا يدري ماذا أصابه، جسده يتقد حرارة، وقلبه يخفق بقوة، لم يعرف سبباً لذلك؛ هل هي ابتسامتها التي كانت ذات جمال فريد، أم كلمات شكرها التي شعر بأن قلبها قد نطق بها؟

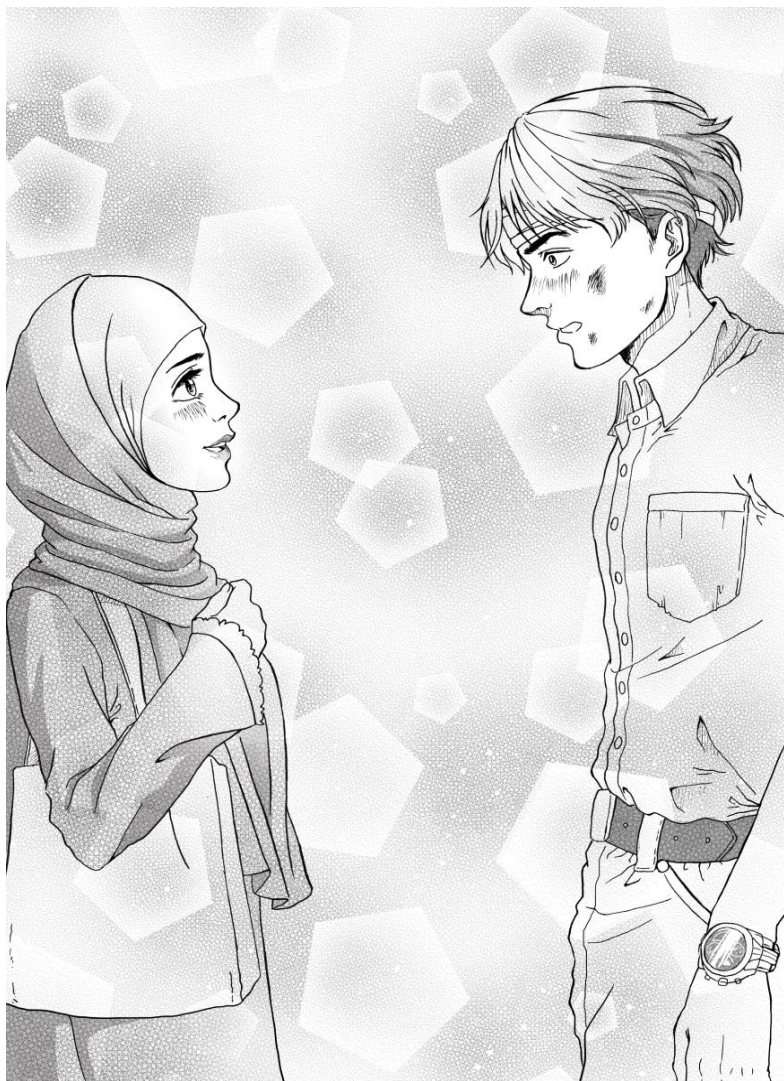
مضى في طريقه مجدداً ليلحق برفاقه وهو يهز رأسه بقوة محاولاً بعثرة كل اضطراب نفسه، ويقول في سخرية:

-هه، حمقاء، تظن بأنني أقدم لها عرضاً لأساعدنها، بالعكس، سترى ما لا ترضى من رُبّا، وسنرى إلى أين ستصل في دراستها، ستندم على قبولها لعرضي.

في حين أقبلت على سحر وعانقتها وهي تقول في سعادة:

-الحمد لله، لقد وافق على شرطي، كنت خائفة من أنه لن يوافق.

أرسلتها وهي تقول بحدة:



-هل تريدني مني أن أهتلك على هذا يا ضياء؟ أنت تعلمين أن طارقاً لم يضمرك الخير يوماً، ما كان عليك قبول عرضه مهما كان، تراجعني.

نكست رأسها، وقالت بحزن:

-لا أستطيع، يجب أن أساعد شادي، وللأسف لا أجد حرفة إلا الخياطة، وهي الأخرى تدني مستواي فيها منذ زمن، من ستقبل بي لأعمل معها؟

ردت عليها في قلق:

-أنا فقط لا آمن جانب طارق.

نظرت لها وقالت:

-ولا أنا؛ لكن طالما أتي لن أغادر منزلي فلا شيء يدعو للقلق، أريد مساعدة أخي وأسأل الله أن يوفقني.

-وهل تظنينه سيوافق على قبولك لعرض طارق؟

-سأخبره بكل شيء، فلست من تخفي عنه أي شيء.

الفصل الحادي والعشرون

صمود

لا يمنع المرء من التقدم في الحياة وخوض الجديد في الحياة إلا لجام الخوف، يقيد فكره ويحصر حركته في حدود المألوف الآمن، ويسوقه إلى ما اعتاده، ليجنبه صراعات النفس واضطرابها، والنجاة من الغرق في بحرها الهائج، دون أن يدرك بأن المصاعب تولد قوة النفس وثباتها، لذا فلا يفكه هذا اللجام إلا يدين ذات إرادة قوية مستعدة للتضحية في سبيل ما تراه سيحقق لها رؤية جديدة وخطوة كبرى في الحياة.

هكذا كانت حالة ضياء في المساء حين جلست على الكرسي ترقب شادي بصمت وتساعده في تناول عشاءه كلما احتاج إليها، قطعت له رغيف الخبز ليغمسه في طبق حساء الخضر الذي أعدته له بنفسها وقطعت له تفاحة، وبقيت تراقبه، كان جالساً على سريره مسنداً ظهره إلى الوسادة ومدثراً طرفه السفلي الممدد بالغطاء، وأمامه طاولة صغيرة المتحركة والمخصصة للمرضى، بينما جلست مها على الكرسي الآخر والمصحف بين يديها تقرأ بعضاً من آيات الله. رجفة الخوف ظلت تعتمل بقلبها رغم أنها تحاول صرفها بالاهتمام به، كانت تخشى ردة فعله، كيف تفتاحه بأمر عملها، هل سيغضب؟ هل سيتقبل قرارها أم سيتألم لقبولها عرض طارق واتخاذها خطوة دون علمه واستشارته؟

ما أقدمت عليه كانت تراه ضرورياً لأجلهم جميعاً، قيود الخوف منعته من إخباره منذ عودتها من البيت، شعرت بالقلق يطرق قلبها بعنف، لا بد أن تخبره، قررت أن تصبر وتنتظر حتى ينهي وجبته، إلا أن الكتمان انعكس عليها، فاضطربت أنفاسها وضربات قلبها، وتراقصت أصابعها على ركبتيها على نحو ملفت دون أن تنتبه؛ بل أنها لم تكن مستقرة في جلستها، تجلس على طرف الكرسي قليلاً لتعود للوراء وتعديل وضعها ثم تعود لوضعها السابق، الشرود وسلطان التوتر كانا مستحكمين عليها.

التفت إليها حين شعر بها، وسألها قلماً:

- ما بك يا ضياء؟ لم أنتِ قلقة؟

انتبهت من شرودها، قالت وهي تهز يدها:

- لا شيء، لا تقلق، أكمل طعامك.

أبعد الطاولة يميناه هو يقول:

- لقد انتهيت والحمد لله، سلمت يداك.

أسرعت تنهض لتبعدها عنه وترفع الطبق منها وتضعها على الدولاب الصغير قربها وتناولها كأس ماء، بينما مسح بمنديل بقايا ما علق من طعام على فمه وشاربه ولحيته وتناول كأس الماء منها، ولما فرغ، التفت إليها، وقال باسماً:

- أخبريني مالذي يشغل بالك يا أختي؟

ظلت واقفة صامته، أشار لها بالجلوس، ففعلت حين أنهت والدتها تلاوتها، ثم قالت بعد تردد وتلعثم:

-كنتُ... أريد مساعدتك يا أخي، فطلبتُ من سحر أن تبحث لي عن عمل حتى وجدته. وتفاجأت بها بينما صُنع لقلوها، فعقد حاجبيه وصاح غاضباً:

-تبحثين عن عمل!! لم؟ أمورنا لا تزال على خير ما يرام، لم تريدن تدمير مستقبلك بالتفكير في أمور سأجد لها حلاً بطريقتي؟

ارتعبت لغضبه وارتجفت، ثم قالت في ارتباك:

-آية طريقة يا أخي وأنت تستدين مرة من السيد عبد الكريم، ومرة من صاحب الورشة وربما ثالثة من مالك السوق المركزي؟ إلى متى ستجعل الديون تلقى على كاهلك دون أن أساعدك بشيء وأخفف عنك؟ إلى متى سيصبر علينا الناس حتى تتعافى إصابتك؟ لا تضمن ذلك يا أخي.

ازداد غضبه وهو يقول في حدة:

-وهل طلبتُ منك شيئاً؟ أنا المسؤول عنكما ومن سيقدر ما يتوجب فعله، ولا أريدك أن تفكري في عمل أو أي شيء آخر سوى مستقبلك، لم تري...!

وقطع كلمته حين أحس بألم إصابة كتفه فوضع يده اليمنى عليها وزم شفثيه محاولاً احتمال ألمه، أسرعتا تقربان منه أكثر، قالت ضياء في قلق:

-أخي، هل أنت بخير؟

قالت مها في خوف وهي تربت على ظهره:

- هده من روع غضبك يا بني، سنجد حلاً مهدوء وليس بالغضب، لا زلت متعباً.

رفع بصره لضياء، وقال بلهجة خالطها الحزن:

- ضحيْتُ بالكثير لأجلك تتقدمين يا أختي لا أن تتأخرين عن أقرانك، انسي أمر العمل

وستتدبر أمورنا بإذن الله.

طفر الدمع في عينيها وهي تمسك بيده وتقول بألم:

- ولأنك ضحيت بالكثير، ألا تريدني أن أضحي لأجلك وأقدم لك شيئاً وقت شدتك؟ لم لا

تريدني أن أساعدك وأنا أحتك وأنت أخي ولا سند لنا في هذه الحياة سوى والدتنا حفظها

الله، لم لا تريدني أن أشاطرك همك وأخفف ما يعتمل في صدرك من هم أستشعره كلما

تطلعت في وجهك؟ لم تريدني أن أكون أنانية.

رفع حاجبيه في ذهول لكلماتها، بينما تأثرت مها بما قالته، فابتسمت وقالت:

- حفظكم الله يا ولديَّ الحبيين.

أسبل جفنيه وتنهد بعمق مبدداً غضبه كلياً وقد بدا مقتنعاً بقولها رغم ألمه من قرارها في

أعماقه، بينما مسحت ضياء دموعها، وقالت مبتسمة لتطمئنه:

- ثم أن العمل لن يمنعني من مواصلة دراستي.

نظر إليها وسألها بحزم:

- أخبريني، ما طبيعته؟

-معلمة.

بدا الاستغراب على وجهيهما، سألتها مها في دهشة:

-أين؟! أنت لا تملكين شهادة تربية وتعليم.

-ليس بمكان حكومي أو خاص، وإنما طفلة ستأتي لمنزلنا لأعلمها مقابل أجر معلمة.

سأل في اهتمام:

-من هي؟

-ابنة السيد عبد الكريم.

قالت مها:

-الطفلة التي أتت معه في فجر ذلك اليوم؟

-نعم.

عادت تسأل في حيرة:

-تري، لم وقع الاختيار عليك لتعليمها والمدينة بها الكثير من المعلمات؟

أخذت تشرح لهما حال رُبا كما روى لها طارق، وتروي لهما ما كان من تصرفها بالقاعة، ثم

قالت مها وهي تهز رأسها:

-يبدو بأنها أعيت أهلها.

-صحيح، وعندما علم طارق بأني أبحث عن عرض علي ذلك.

امتعض وجه شادي وبدا متضيقاً وهو يقول:

- طارق هذا لا يضمّر أي خير، ماذا ينوي من عرضه هذا؟ إنه بلا شك لا ينوي مساعدتك.
ردت عليه في حزم:
- لا تقلق يا أخي، فقد اشترطتُ أن تأتي أخته لمنزلنا وقد وافق.
- متى سيأتون؟
- عندما ألقاه غداً بالكلية سيخبرني.
- تنهد ثم أردف:
- حسناً، يجب أن تكون أُمّي معك وقت زيارتهم.
- هزت رأسها مؤيدة، وقالت:
- لا تشغل بالك، ستكون كل الأمور بخير.
- ابتسم لها وهو يقول:
- أسأل الله أن يكون كذلك.

لم تكن ضياء وحدها غارقة في بحر القلق والتفكير؛ بل كان طارق مثلها تماماً؛
لم يدر كيف يبتدىء حديثه حين كان جالساً على الأرض حول سفرة العشاء في غرفة المعيشة
الواسعة مع بقية أفراد عائلته، وهو ينقل بصره بين والده الذي يجلس قربه وبين والدته التي
تجلس أمامه على مقربة من رُبا وتوزع أصناف الطعام عليهم؛ أرغفة الخبز وأطباق السلطة
واللحم والمفروم والجبن وأكواب شاي الحليب الموزعة عليهم، أخذته الشرود بدوره فيما

أقدم عليه ووعد ضياء به عن الاهتمام بتناول طعامه؛ هل سيؤيد والده ما فعله ويمنح ضياء
أجرة معلمة رغم أنها لا تمتلك مؤهلاً بهذا المجال؟ وهل ستوافق والدته هل اصطحاب أخته
لمنزل جده القديم هو يعلم بأنها تشعر بالنفر منه منذ كان صغيراً؟ هل ستجري الأمور وفق
ما يريد؟

لاحظت رُباً نظراته وشروده وهي تتناول فطيرة أعدتها لها أمها، قضمت قضمة منها ثم قالت
لوالدها بحماس كأنها تذكرت أمراً:

-لقد رأيت صف طارق يا أبي، إنه جميل جداً.

انتبه من شروده، وقال في ضيق:

-ليتك لم تأت.

قال عبد الكريم مبتسماً:

-إنها المرة العاشرة التي تخبريني فيها بهذا، ثم أني من أوصلك إلى كليته.

ضحكت

-حقاً!! لم أنتبه، لقد أبهرني كثيراً.

-كذلك مدرستك التي لا تريدان الذهاب إليها، إنها جميلة أيضاً.

امتعض وجهها وهي تبتلع لقمتها، وتقول في ضيق:

-المعلمة تريد سجنني في الصف، كما أنه ليس جميلاً كصف طارق.

قالت عائشة بعد أن أطلقت تنهيدة قوية:

-على ذكر المدرسة، لقد فشلت كل محاولتي يا عبد الكريم، لم تقبل إحداهن بتعليم رُبا، ماذا أفعل؟ لقد تعبت، ولم أستطع تغيير شيء في سلوكها، جد حلاً.

ألقى نظرة طويلة عليها وهو يقول في نفسه يائساً:

-ليتك تجدين وقتاً تتفرغين فيه لابنتك بدل زيارات رفيقاتك مرات وأخرى للأسواق، هداك الله يا عائشة فكرك مشغول بأمور أخرى، زينتك وشراء أغلى الثياب وحسب.

قرأت في عينيه كلاماً؛ لكنه آثر الصمت، فقالت له:

-ما بك؟

رد عليها وهو يتناول كوب الشاي:

-حاولي معها بنفسك.

ردت في استياء:

-حاولت ولم أنجح.

-استمري معها لا أن تملي بسرعة، المعلمات لسن الحل المطلق تعليمها يحتاج لصبر.

نظرت إليها قالت في ضيق:

-أنا لا أدري كيف أغير تفكيرها وأقلل حركتها الكثيرة هذه، ربما نحن في حاجة لعرضها

على أخصائية اجتماعية، عليها تنصحننا بشيء.

هنا، وجدها طارق فرصته التي سنحت فأسرع يقول مهدئاً الجدل الذي دار:

-لقد وجدتُ حلاً لمشكلة رُبا.

- التفت والداه إليه في اهتمام، بينما توقفت رُبا عن الأكل في انتباه وهي تتصور بأن سجنًا كبيراً ستوضع فيه لتتعلم، ارتعبت وهي تقول صارخة وبتعنت:
- لن أذهب للمدرسة، لا أحبها.
- ابتسم ابتسامة مائلة، وقال بسخرية:
- ستذهبين إليها مهما طال الزمن.
- قالت عائشة في نفاذ صبر:
- هلا أخبرتني ما هو الحل؟
- اعتدل وقال بحزم:
- وجدتُ معلمة قد قبلت بتعليمها.
- من هي؟
- إنها ضياء خالد، زميلتي بالكلية.
- بدا الاستغراب على وجه والديه، قال عبد الكريم:
- شقيقة شادي؟!
- نعم هي، إنها تدرس بنفس دفعتي، عندما أخبرتها بمشكلة رُبا قبلت بتدريسها.
- عقد حاجبيه وقال بحدة:
- ولم تريد ضياء تعليم رُبا؟ ما الذي تريده من ذلك؟ ألا أنها زميلتك تريد مساعدتك، أم أن هنالك أمراً آخر؟

بدا التردد قليلاً على وجهه، إلا إنه استجمع شجاعته ليقول:

- كانت تبحث عن عمل، ولما عرفتُ من أمي بأن إحداهن لم تقبل بتعليم رُبا أخبرتها بذلك ووافقت.

بدا الحزن على وجه عبد الكريم؛ ضياء تفكر بحال أهلها وبدأت تبحث عن عمل لتستطيع سد الفراغ الذي سببته شقيقها وتسدد ما عليهم؛ لكنه احتار في تصرف طارق، لم يقدم لها عملاً بعد إهانته لأخيها خاصة؟ كما انزعج لكونها زميلة له واستخدمها لتعلم أخته، وفي الوقت ذاته شعر ببعض الاطمئنان أن يسر لها عملاً سيناسبها وتستمر في دراستها، سألت عائشة:

- وهل أنت واثق من قدرتها على تعليم رُبا؟
نظر إليها وقال:

- إنها فتاة ذكية من بين كل الطالبات، وأعتقد بأنها لن تبدي استعدادها إلا إذا كان لديها القدرة على ذلك.

عاد عبد الكريم يسأله:

- وكم أخبرتها بأنك ستمنحها؟

- أجرة معلمة كاملة إن نجحت في ذلك.

قالت عائشة بعصية:

- نعم!! أجرة معلمة وهي ليست مختصة ولا حتى معلمة ذات خبرة؟ ثم كيف ستتعامل مع هذه المشاكسة التي لا تستقر بمكان؟
- أمي، لن نخسر شيئاً، إن لم تنجح لن ندفع شيئاً وسنبحث عن غيرها.
- قال عبد الكريم وهو ينهض:
- لا مانع لدي، أنا موافق.
- فابتسم طارق في سرور، بينما قالت عائشة في انزعاج:
- لحظة!! لا تقل لي بأن علي أخذ رُبا إلى منزلها؟
- قال طارق:
- مثلاً مثل أية معلمة سابقة يا أمي، ستأخذين رُبا إليها.
- بدا النفور على وجهها وهي تقول:
- يا إلهي، لا أحب منزل جد والدك القديم أبداً، إنه ضيق ويثير اشمئزازي.
- عقد عبد الكريم حاجبيه وقال في حزم:
- ستأخذين رُبا إليها لتعرفي الفتاة بابتك وطبيعة ما تريدين أن تتعلمه، كما أنك ستتعرفين عليها وتعرفين هل ستنجح في مهمتها أم لا؟
- زفرت عائشة في ضيق دون أن تبدي اقتناعها بقوله، بينما التفت لُربا وقال:
- كوني فتاة مطيعة يا ابنتي.
- هزت رأسها وقالت:

- سأفعل.

شعر طارق بالسروور لنتيجة الحوار وهو يقول:

-اتفقنا، سأخبرها بأنك ستوافينها عصر الغد إذن.

لم ترد عائشة بشيء، وصمتت ولما رأت عبد الكريم يتجه للمطبخ ليغسل يديه أسرعت تلحق

به وتستوقفه عند بابه لتنفرد به، وتقول في رجاء:

-لا أستطيع الذهاب لذلك المنزل يا عبد الكريم، دع...

قطعت عبارتها حين قال في حزم:

-لا تتكبري بمجرد غناك، أنا لا ألوم طارق وأخته على ذلك وأنتِ بهذا الشكل.

-أرجوك.

هز يده في انفعال وهو يقول محاولاً إقناعها:

-هي زيارة واحدة ستختبرين فيها قدرة الفتاة، زيارة واحدة فقط، وبعدها سنرى ما سنفعله

إن لم يعجبك الوضع.

لم تجد كلمات ترد بها عليه، فصمتت وهي تهز رأسها دلالة الموافقة، بينما تابع قائلاً:

-ثم، إيالك أن تجرحي الفتاة بكلمة، لا أنتِ ولا ابنتك، أجمي لسانها السليط.

عادت تهز رأسها إيجاباً، وقالت في انزعاج:

-حاضر.

تطلع إليها وهي تعود لغرفة المعيشة، تجر قدميها جراً في يأس وخيبة أمل، تنهد في يأس حين فهم انزعاجها وعدم اقتناعها، ثم تأمل من مكانه وجه طارق الساخر الذي كان يتحدث لأخته وهي على وشك إنهاء فطيرتها، وهو يقول في نفسه حائراً:

-هل تنوي مساعدة ضياء حقاً وأنت من أهان أخاها؟!

ثم حول بصره لرباً وهو يقول:

-ولن تسلم من أذية هذه مهما نصحتها، أتمنى أن تتمكن عائشة من إسكاتنا حينها على الأقل: بل أتمنى ألا يصدر من الاثنين شيء.

وجاء عصر اليوم المنتظر، لم يكن عبد الكريم موجوداً في المنزل حينها، لذا فقد كلف طارق بإيصالهما فجلس في انتظارهما بصالة المنزل، ثم أقبلتا عليه بكامل أناقتهما؛ ربا بفستانها الوردى ذو أكمام قصيرة أطرافه البيضاء مكرمشة ومزينة بالتطريز، شعرها البني الطويل منسدل خلفها تألق بطوق أبيض بدا كالتاج على رأسها الجميل، كانت تخرج من غرفتها متباهية بأناقتهما، أما عائشة فقد ارتدت عباءتها الفاخرة، زينت وجهها مساحيق التجميل، وكأنها ذاهبة لبهجة عرس، الشيء الوحيد المتناقض عن ذلك هو عبوسها الذي كان يفسد زيتها، ولما أقبلت عليه أسدلت نقابها وتشير له بالنهوض ليغادروا. ضحك في أعماقه وهو يقول في نفسه ساخراً:

-إلى أين تظنان نفسيكما ذاهبتين؟ إنه منزل أشبه بالقبر!!

كتم انفعالات نفسه وتجاهل انزعاج أمه وأطاعها ليركبوا السيارة ويغادروا جيهم، فما يهمه من كل هذا هو تحقيق هدفه، وأتمنى في أعماقه أن تسير الأمور وفق ما يريد. انطلقت السيارة بهم صوب حي السلام مروراً بشارع الستين المطل على ساحل البحر، وصولاً إلى الكورنيش، منه إلى الشوارع الفرعية التي كانت متاحاً له المرور بسيارته عبرها، لازم الضيق وجه عائشة وهي تتخيل كيف ستقضي وقت الزيارة مع حالتها من الضيق والاشمئزاز من المنزل، قالت في نفسها:

-لم أحب زيارة هذا الحي القذر ولا حتى ذلك المنزل ولو لحظة واحدة، فكيف سأحتمل البقاء فيه حتى ساعة؟

ثم أوقف السيارة بالشارع الذي يطله عليه منزل شادي، ولما نزلتا، قال لهن:

-سأعود إليكن بعد صلاة المغرب.

ردت في انفعال:

-نعم!! إنها الساعة الرابعة والنصف، أتريدني أن أبقى ساعتين؟!

-حتى تنهين ما تريدن براحة.

-بل قبيل الأذان تعود إلينا، لن أتأخر.

هز رأسه موافقاً وغادر، بينما ظلت ملامح الضيق تملأ قسما وجهها، هي مجبرة لأجل ابتها، أمسكت بيدها واتجهتا نحو المنزل ومشيتا بضع خطوات من الشارع وصولاً إلى زقاق بين المنازل وتوصلا للمنزل المقصود، كانت ترفع طرف عباها باشمئزاز، ثم قرعت الباب

وانتظرت لتفتح لها ضياء وترحب بهما في ابتسامة، وأشارت لهما بالدخول وأن يتبعاهما نحو الأعلى، كانت ضياء ترتدي حجاباً وثوباً فضفضاً، لم تتأملها عائشة كثيراً فانشغالها بتأمل قدم المكان كان يستحوذ فكرها ويشتت انتباهها، مروا عبر الممر الضيق وصولاً إلى درجات العمارة، كانت تتحاشى أن تلامس عباؤها الفاخرة جدران الممر الطينية وتشعر بالرعب للظلمة الشبة مطبقة عليه وكأنها تدخل كهفاً لضيق الممر وظلمته، وكذلك الدور الأول كان مظلماً إلا من إضاءة قليلة بموضع الدرجات، أحست ضياء بنفورها ؛ لكنها تجاهلت ذلك وقادتها إلى الدور الثاني حيث شقتهم، وقفت عند جانب الباب وأشارت لهما بدخول حجرة الضيوف، هنا انتهت للملامح وجهها فشبهت في فزع وعلى نحو لا إرادي، وتراجعت للوراء قليلاً ثم غالكت نفسها وسألتها في توتر:

-أنت... زميلة طارق؟!

لم ترتبك لردة فعلها أو تنزعج؛ بل ثبتت وقالت لها وهي تهز رأسها في حزم:

-نعم

-أنت إذًا المعلمة التي...

فهزت رأسها مرة أخرى مؤيدة، ترددت عائشة وهي تفكر:

-ملاحظتها خيفة لا تدل على أنها قد تفيد ابنتي؛ أخ يا طارق لا أدري كيف أقنعني؟ ماذا أفعل؟ لا أشعر بالأمان لا لها ولا لهذا المكان الموحش.

قطعت تفكيرها حين أطلت منها من غرفة النوم بثوب عادي لكنه جميل مسدلة حجاباً على رأسها أيضاً وهي تقول مبتسمة:

- أهلاً بكم، تفضلي يا سيدتي.

دخلت عائشة ورба حجرة الضيوف وجلستا وهي ضجرة من تواضعها الجرم والأهم جدرانها الطينية التي خشت أن تلوث عباءتها، بينما قالت رُبا بعفوية والفضول يأمل عينيها:

-هل هذا بيت؟

كانها تدخل بيتاً كهذا لأول مرة في حياتها، بدت الاستفهامات على وجهها، بينما ابتسمت عائشة في سخرية، وهي تقول محاولة تبرير تصرف رُبا:

-اعذراها، رُبا لم تعد زيارة البيوت الشعبية منذ أن وُلدت، واعتادت منزلها الواسع وكذلك منازل أقرباءها ورفيقاتها.

بدا الضيق على وجهها وأدركت بأن شخصيتهما لا يتعدان كثيراً عن شخصية طارق، أما ضياء فقد تجاهلت قولها ولم ترد أن تخسر من البداية، وقالت مبتسمة لرُبا:

-البيت هو مكان يأوي إليه الناس مهما كان شكله، البيوت تختلف يا عزيزتي.

هزت رأسها بصمت وعيناها لا تزال تتأملان ما حولها، ثم التفتت إلى عائشة وقالت:

-هلا شرحتي لي ما المطلوب مني لأجل ابتك؟

أعجبت بقولها وهدوءها رغم قول رُبا فقد توقعت منها أن تنزعج إلا أنها لمحت صبرها، فأجابتها باهتمام:

- ببساطة، إذا استطعت أن تعلميها الحروف والأرقام وبعض الكلمات باللغتين العربية والانجليزية أكون لك شاكراً، إنها لم تعيها رغم كل جهودنا معها.

هزت رأسها ثم نهضت ومدت يدها لربا وهي تقول في مرح:

- تعالي معي إلى غرفتي يا ربا، سنتحدث قليلاً، لندع والدتي مفردتها ريثما تنتهي.

فنهضت معها وأخرجتها لتدخلها الغرفة الأخرى وعيناها لا تزالان تتأملان كل ما حولها، كانت مندهشة من بساطة الأشياء فيها مقارنة بمنزلها، قالت لضياء:

- منزلكم غريب حقاً يا... فابتسمت لها وقالت:

- اسمي ضياء، وقد أخبرتك أن المنازل ليست متشابهة.

- هكذا!!

أسرعت تخرج مذكرتها من حقيبتها وتناولها قلماً وهي تقول:

- اكتبي لي ما تعرفين من الحروف يا ربا.

حكّت رأسها وكأنها ثم تناولت القلم من ضياء وبدأت تكتب، فتفاجأت بما دونته، لقد رسمت بطة بدل من الحروف، فبررت موقفها ساخرة:

- لا أحب الحروف؛ لكنني أحب الرسم كثيراً.

شعرت ضياء ببعض الضيق في أعماقها لعدم انصياعها، إلا أنها كتتمته وابتسمت لها وهي تقول:

- يا سلام يا رُباً، رسمك بديع جداً، أحسنتِ.

ذهشت رباً لقولها، وشعرت كأن ما قامت به يعد إنجازاً كبيراً، فابتسمت في سرور، وقالت:

- أشكرك كثيراً، لم يسبق أن امتدح أحدهم رسمي.

اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

- هل تعلمين أيضاً بأنك قد كتبتني حرفاً بهذه الرسمة الجميلة؟

- حقا؟!

تساءلت وهي تميل برأسها في حيرة وتتأمل رسمتها، أسرعت تحول لها رسمة البطة إلى حرف ياء وقالت لها:

- هذا حرف الياء، وهو موجود في كلمة يد.

- مذهل..

عادت تلتقط القلم سيارة، خفة يدها واهتمامها ببعض تفاصيل ما ترسم أذهل ضياء، فكانت النتيجة لوحة مذهلة جميلة فأعجبت بها ضياء، ولما انتهت قالت لضياء:

- وهذه السيارة، إلى أي حرف ستصبح؟

نظرت ضياء للوحة وقالت:

- حرف الياء أيضاً، لنفتح غطاء السيارة الأمامي للحظة لنصلحها.

ورسمت ضياء غطاء السيارة مرفوعاً محولة إياها إلى حرف ياء كذلك، صفقت رُباً في مرج،

وابتسمت ضياء حين استطاعت أن تعلمها شيئاً، وأدركت بأنها تحب اللعب الممزوج

بالرسم، فأرادت أن تستمر معها بنفس الطريقة وتطلب منها رسم شيء آخر، إلا أنها نهضت بسرعة وعادت نحو النافذة وأطلت منها وهي تقول:

-أريد أن أرى البحر من هنا، هل يمكنني ذلك؟

تفاجأت من انتقالها السريع لأمر آخر، وأجابتها وهي تنهض:

-لا يمكنك ذلك، أمامنا عدة مباني تحجبه عنا.

زفرت في ضيق وقالت:

-أريد اللعب.

ردت عليها محاولة إعادة لها مكانها:

-لم تمض سوى خمس دقائق، لم نفعل شيئاً بعد لنلعب يا صغيرتي.

لكنها لم تستمع لها وخرجت من الغرفة سريعاً دون أن تنتظر حديثاً، معترمة الخروج من العمارة، إلى أن لفت انتباهها شكل المطبخ فدلقت إليه دون استئذان، استغربت شكله، لكن الموقد والدولاب الصغير الذي حوى بعض المواد المستخدمة له ووجود أدوات للطبخ دفعها لتسأل في حيرة:

- أهذا مطبخ؟!

صمتت ضياء في ألم، أهذا ما كان يريد طارق الوصول إليه، أن تستمع لتعليقات أخته الجارحة لأتفه نواقص البيت وحاجته بسبب حالهم بعد الحرب؟! تألمت وهي تذكر منزلها الجميل الكبير بفنائهِ الواسع تستقبل فيه أشعة الشمس كل صباح، تنام بغرفتها وعلى سريرها

الخاص وتضع أشياءها بخزانتها المستقلة، تعد العشاء لأهلها بمطبخه الواسع المؤثث بكل مستلزماته، تشارك صديقاتها إعداد الحلويات أحياناً، وتستقبلهم في غرفة الضيوف الجميلة ذات الأرائك الجميلة.

كادت عيناها أن تدمعا وهي تتذكر بأن ذلك المنزل صار في صفحة الذكريات فقط بعد أن علمت بتدميره تحت وطأة القصف، إلا أنها قاومت حزنها وحبست دمعها حين رأت عينا رُبا متعلقان بها، إن استسلمت للحزن فستقل ضعفاً إلى شقيقها طارق، قالت في نفسها في حزم:

- سأكون بمقدار هذا التحدي يا طارق.

ثم انحنى لُربا ومسحت على رأسها وهي تقول مبتسمة:

- نعم هذا مطبخ؛ لكن مطبخ منزلنا بالمعلا أكبر من هذا، رُبا، دعينا نعود لوالدتك.

ردت في تعنت:

- لا أريد، أريد أن أخرج.

- لا تقلقي، سنطلب الإذن منها لنخرج إلى الخارج قليلاً.

فرحت لذلك، فعادت إلى الغرفة، وهناك طلبت ضياء من عائشة أن تحضر لها الوسائل التعليمية التي تستخدمها لأجل ابنتها فوعدها بذلك، ثم ارتدت عباءتها وخرجت برفقتها في محاولة التأقلم معها وفهم شخصيتها لأجل المرحلة القادمة.

ومع وقت الأصيل غادرتا ضياء ووالداتها، وما كادتا تخرجان حتى قالت مها في ضيق:

- يا لها من امرأة متعجرفة، لم أرتح لها أبداً.

ردت عليها ضياء في ضيق مماثل:

- كلهم هكذا، طارق وأخته وأمه، أعان الله السيد عبد الكريم عليهم.

- وأعان الناس يا ابنتي، ماذا سنفعل معها؟ هل ستحمل سياط لسانها كل يوم؟

تمتت ضياء في نفسها:

- ليس هذا وحده؛ بل طارق يجب أن يحتقر الآخرين بأقل ما يملكوه، ولهذا أرسل لي اخته

لتحتل مكانه في إيذاثنا.

ثم نظرت لأمها وقالت:

- أمي، لأجل أخي سأصبر وسأنتصر في هذا التحدي الذي وضعني فيه طارق بإذن الله.

تنهدت مها وقالت:

- كان الله في عوننا.

ثم سطعت في وجهها ابتسامة عريضة وهي تقول في مكر:

- الأيام بيننا، ولن تنجح في الوصول إلى مرادك أبداً، فمن تواجهها هي ضياء يا طارق.

الفصل الثاني والعشرون

خطة ضياء

ظلت ملامح الضيق والضحجر ملازمة لوجه عائشة حتى بعد مغادرتها منزل ضياء وركوبها السيارة مع ابنتها لتجلس بالمقعد الأمامي إلى جوار طارق، بينما جلست رُبا في المقعد الخلفي، ألقي نظرة على أمه ثم على أخته فراها فرحة مرحة كعادتها جلست خلف كرسي عائشة وأخذت تتأمل المناظر من النافذة، ابتسم ثم قال وهو ينطلق بالسيارة نحو طريق العودة: -رُبا، كيف كانت دراستك مع ضياء؟ أراك سعيدة رغم أنها ستدرسك.

التفتت له ووقفت لتمسك بظهر الكرسي الذي أمامه وقالت له في سرور: -لم ندرس؛ بل لعبنا ورسمنا.

بدت الدهشة على وجهه وهو يرفع حاجبيه، بينما قالت عائشة في غضب: -أليس من الأولى أن تسألني أولاً بدل أن تسأل رُبا؟

حاول تهدئة غضبها قائلاً: -لم أقصد شيئاً أُمي، وإنما استغربت سرور رُبا فسألتها.

زفرت في ضيق وقالت: -آخ منك، لم يكن المنزل وحده هو المقرز بل هي أيضاً، أما وجدت إلا تلك الفتاة ذات الوجه المخيف لندرس أختك؟! لم أطق النظر في وجهها.

كاد طارق يرد عليها لولا أن تدخلت رُبا، قالت في ابتسامة مهولة موقف اللقاء وبنبرة بطيئة أرادت أن تكون مخيفة:

- نعم نعم، كانت أُمي خائفة، عندما دلفنا إلى العمارة، شعرتُ بأني أدخل مغارة الأربعين لصاً في قصة (علي بابا)، كان الممر مظلماً ضيقاً وأُمي تمشي خلف ضياء خائفة حذرة، ولما وصلنا الدور الثاني ارتعبت حين رأت وجهها، كأنها رأت زعيم اللصوص.

فهقه طارق ضاحكاً حتى دمعت عيناه وهو يقول محاولاً تمالك نفسه:

- ما هذا الخيال الخصب يا رُبا؟ لقد أذهلتنني.

وضعت يدها تحت ذقنها وهي تفكر وتقول:

- لكنها تبدو لي زعيماً طيباً.

عاد لضحكته، وهو يقول :

- زعيم؟!!

عقدت عائشة حاجبيها وقالت بغضب:

- زعيم ماذا يا مغفل؟ المنزل كله يثير اشمئزازي وكأنه من العصور السحيقة، عندما تزوجت والدك رفضت الإقامة فيه أو حتى زيارته، واشتراه والدك فقط ليبنى عمارة جديدة، ليته أسرع في ذلك.

تمالك طارق نفسه وهو يمسح دموعه ثم سألها بجدية:

- على كل حال كيف وجدتِ ضياء؟ هل من الممكن أن تتعامل مع رُبا؟

هزت رأسها وقال:

-نعم، أعتقد ذلك، تبدو لي صبورة على الرغم من أني لم أرتح لها كثيراً، استطاعت تحمل شغبتها وفضولها وثرثرتها، إنها بداية مبشرة؛ لكن سنرى ما ستفعله معها لاحقاً، ويجب أن تعلم بأني لن أعود لهذا المكان ثانية ولن أصطحب أختك إلى منزلها قط.
تفاجأ من قولها فسأل مستفهماً:

-لماذا؟

-لأنك أنت من سيصحبها إلى هناك.

ارتبك في خلجات نفسه، هل سيظل كل يوم يتردد إلى منزل ضياء دون والدته؟
فقال محاولاً صرفها عن قرارها:

-لا يا أمي، هل نسيت ما فعله رجال حيها بي قبل أيام؟

-لم أنس، ولن يعتدي عليك أحد، ألم تذهب إلى هناك وتعود الآن؟

- مرة واحدة لن تضّر، أما كل يوم وأنت لست معي؟ فإني أخشى...
قاطعتة قائلة بحزم:

-لقد انتهى هذا الأمر باعتذارهم وباعتذار والدك لهم أيضاً، ثم أنك لن تمكث بالحي بل ستوصل أختك وترحل لتعود لاصطحابها بعد ساعتين.

زاد توتره وهو يقول:

-أمي هذا محرج جداً.

- وما المحرج في الأمر وأنت ستقف بسيارتك بعيداً عن منزلهم كما فعلت اليوم؟ هل طلب أحدٌ منك الدخول إليه؟! أنا لا أريد الدخول إليه أبداً.
- ازداد ارتباكاً وهو يفكر في طريقة ليصرفها عن قرارها، إلا أنها أسرعت تقول موقفة تفكيره:
- إياك أن تناقشني في هذا الأمر أمام والدك، لن أراجع عن قراري أبداً.
- تنهد بعمق وأطاعها ليكمل طريقه، كاد الضيق يستحوذ عليه وهو يلقي بصره في الطريق أمامه، لولا أن قالت رُبا له:
- هل هذا يعني بأنني سأزور ضياء وألعب معها، مغامرة علي بابا والأربعون لصاً؟
- أطلق العنان لضحكته مرة أخرى، بينما قالت عائشة:
- نعم سيوصلك طارق لا تقلقي.
- ثم قال لها:
- لا حيلة لدي، ستفعلين ما تريدين يا صغيرتنا المدللة.
- ابتسمت له وعادت تجلس بمقعدها وتتأمل المناظر من النافذة، بينما تتم لنفسه:
- رائع جداً يا رُبا، وهذه بداية جميلة منك، والأمور تسير وفق ما أريد، سنرى، هل ستستطيع ضياء أن تحتملك أنت ولسانك وإزعاجك؟ متشوق لرؤية ملامح وجهها غداً، المزدوجة، زعيمة الأربعين لصاً!
- وعاد يضحك مرة أخرى.

لم يرق صباح اليوم التالي لطارق إلا بعد لقائه برفاقه الأربعة مع بداية الدوام، وإخبارهم بما كان من موقف رُبا وتصرفاتها مع ضياء ونعتها إياها بـ(الزعيم) راوياً لهم ما حكته بخيالها قبل ولوجهم للقاعة، ضحكوا كما ضحك هو أول مرة، فقال ناصر:

-يبدو أننا سنستمتع بمقابل رُبا مع ضياء.

رد بأسياً:

-وأكثر من ذلك يا صديقي، لا أدري بما تتباهى تلك الفتاة لتتجاسر على تحديها لي.

قال محمود ضاحكاً:

-تتباهى ببشاعتها.

قهقهوا مجدداً وضرب طارق كفه وهو يقول محاولة تمالك نفسه:

-أوه، لم يخطر هذا الأمر ببالي، أنت شيطان يا محمود.

في تلك اللحظة دخلوا القاعة، فرآها تجلس بالمدرج الأول وعن يمينها سحر ورفيقاتها، تأمل

ملامح وجهها ملياً مع كل خطوة يخطوها، فوجدها هادئة الملامح على عاداتها تتحدث إلى

رفيقاتها بابتسامة وعلى سجيتها، ابتسم ابتسامة مائلة، وقال في نفسه:

-هه، لن يطول الأمر حتى ينفذ صبرك، أو أن تستمري ويتدنى مستواك هنا، عندها وعندما

أصل لغايتي تلك ستدركين هدفي من عرضي ذاك وستندمين أشد الندم على قبوله.

ومع اقتراب رحلة الشمس إلى النهاية في المساء، أوصل رُبا أختها إلى منزل ضياء، وحين وقف

بالسيارة عند نهاية الزقاق، قال لها بحدة قبل أن تنزل وقد كانت تجلس إلى جواره:

-إذا سألتك عن سبب عدم قدوم أمك فأخبريها بأنها مشغولة، لقد أوصتك أُمي أن تقولي هذا أيضاً، فهمتِ أم أعيد؟

هزت رأسها بقوة في صمت وانصياح لأمره، ثم فتحت الباب ونزلت من السيارة وهي تحمل حقيبة ظهر صغيرة بها بعض الكتب والوسائل التي طلبتها، ظل يراقبها من مكانه وهي تقطع الزقاق حتى وقفت عند باب العمارة وطرقت الباب، ثم رأى ضياء تطل برأسها من نافذة بالدور الثاني لترى من الطارق، فرأت رُبا ثم رآته، لحظتها غادر بسيارته مبتعداً، فنزلت لتفتح الباب لها ورحبت بها، ولما كانا في طريقهما نحو الأعلى سألتها قائلة:

-أين أمك يا رُبا؟ لم تأتِ معك؟

ردت رُبا بسرعة:

-أُمي لا تريد أن تأتي معي، فهي تكره القدوم إلى هنا، وخافت منك.

ابتسمت ضياء وقالت لها:

-هذا واضحٌ عليها؛ لكن لا بأس، هل أعطتكِ الأدوات التي طلبتها منها؟

أشارت لحقيبتها:

-نعم إنها معي.

-حسناً، هيا بنا إلى غرفتي.

حين أوشكت كل خيوط الشمس أن تختفي، عاد إلى الحي وأطلق بوق سيارته وانتظر قدومها، ثم رآها بعد لحظات تطل برأسها من النافذة فأشار لها بالنزول، فخرجت بعد دقائق بعد أن ودعت ضياء ومها، مثل أول يوم كانت رُباً مبتسمة مبهجة وهي تتجه نحو السيارة، ولما ركبت انطلق بالسيارة وسألها في فضول مثل الأمس مبتسماً:

-أراك سعيدة اليوم أيضاً، ترى ماذا حدث معك اليوم؟

اتسعت ابتسامتها وهي تقول في مكر:

-لن أخبرك.

دهش لردها، فقال لها في ابتسامة مماثلة:

-أوه حقاً؟! لن آخذك إلى أي مكان.

فردت بتحدٍ:

-سأطلب من أبي أن يأخذني إلى حيث أريد.

شعر بالذهول والحيرة لموقفها، لم يتمالك نفسه وأوقف السيارة قرب الشاطئ ليتأمل وجهها،

ترى بماذا أفنعتها ضياء لتتحداه هكذا؟

قال لها وقد عقد حاجبيه في حدة:

-ما هذا الذي تقولينه يا رُباً؟ ليس من عادتك ألا تحييني عندما أسألك.

اعتدلت وقالت وهي تغمض عينيها للحظات في زهو وتهز يدها:

-لأنه سر ولا أستطيع إخبارك به.

-أها، وماذا أعطتك ضياء لتحفظي بهذا السر؟

ضحكت

-وهذا سرّ أيضاً.

رد عليها في زهو:

-هل تظنين ضياء أفضل مني؟ سأمنحك أكثر مما أعطتك، أعدك بذلك، فقط أخبريني بما أنجزت اليوم.

قالت في إصرار:

-لن أحصل على (وسام الشجاعة) إن أخبرتك.

بدت السخرية على وجهه وهو يقول لها:

-وسام الشجاعة؟! ضياء تسخر منك يا رُبا، لا يوجد شيء اسمه وسام الشجاعة.

عقدت حاجبيها وقالت في ضيق:

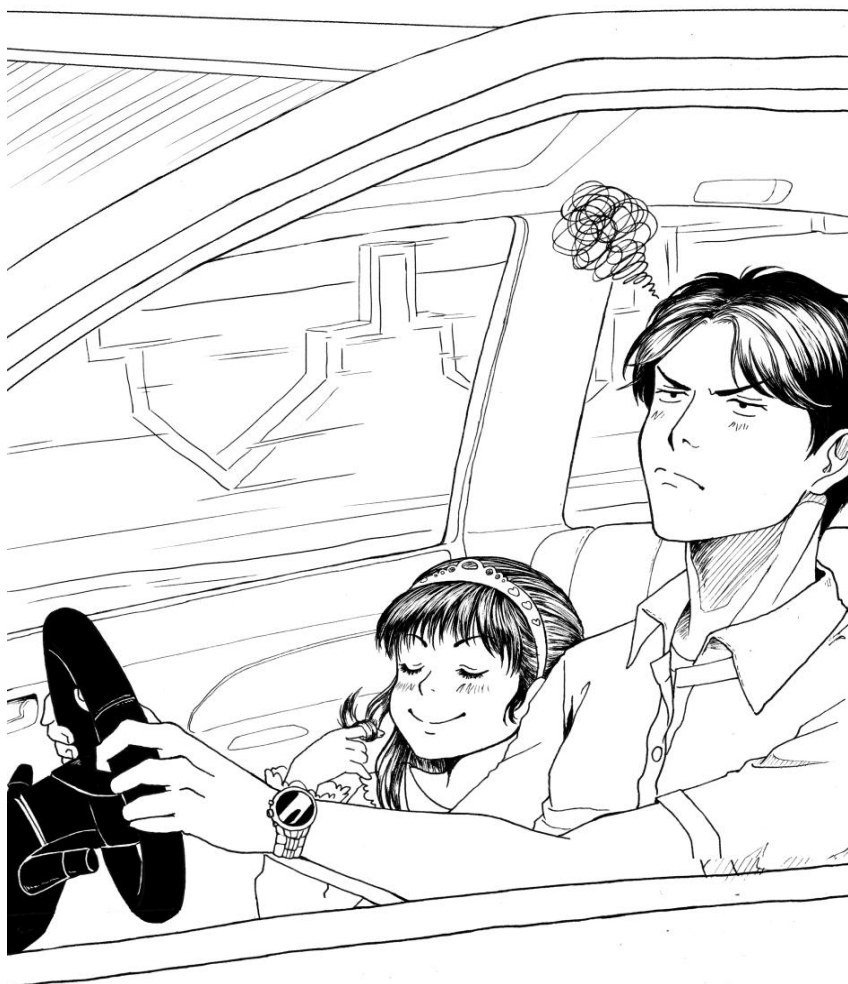
-لقد أرثني إياه، كيف تقول بأنه ليس موجوداً؟

زفر طارق في ضيق وهو يقول:

-تباً.

ثم نظر إلى البحر، وقال في غضب وهو يشير إليه:

-إذن سأبقيك عند البحر حتى يأتي الظلام ويلتهمك أنت و سر ضياء إن لم تخبريني.



لم يبدُ الخوف على ملامحها؛ بل نظرت إلى البحر وقد بدأت أشعة الشمس تختفي خلف الأفق، ظل يتأملها، على الرغم من أنها صغيرة إلا أن لها شخصية فريدة قوية، وذكاء توقده متى ما أرادت، وتحكم على الأشخاص والمواقف وفق رؤيتها الخاصة رغم قصر تفكيرها وصغر سنها، انتبه وهي تقول في إعجاب للمنظر المائل أمامها:

- ما أروعه من منظر، الشمس تغرق في البحر، دعنا ننزل إذن، لا مانع لدي في البقاء هنا لبعض الوقت واللعب.

و كادت أن تفتح الباب لولا أن أمسك بيدها ومنعها، وهو يقول في غضب:

- هل جئت؟ ستغضب أُمي إن تأخرت، هيا لنعد إلى البيت.

شعر باليأس منها وانطلق بالسيارة من جديد وهو يقول في نفسه غاضباً:

- كشفت خطتي يا ضياء ها، طيب طيب، لن يطول الأمر حتى أفسد اتفاقك مع رُبا ويدرك الجميع بأنك لن تنجح في عملك هذا أبداً.

لكن الأيام المتوالية كانت تقول لطارق كلاماً آخر، فخلال أسبوعين فقط من بدء ضياء لعملها الجديد يجد بأن الحاجز بينه وبين أخته يزداد ارتفاعاً وسإكة، حاول معرفة ما يدور بينهما خارج نطاق الدراسة، وبالدراسة أيضاً ولكن دون جدوى، لم يرد أن تملكه خيبة الأمل، لم ييأس بل ظل يحاول معها ولم يستطع بعد ذلك اليوم أن يبهج رفاقه بالجديد، فكان يصرفهم عن الحديث عنهما إلى حديث غيره حتى لا يبدو فاشلاً أمامهم.

وفي ذات مساء، حين كان يبحث عن أحد قمصانه ولم يجده في خزانته، ذهب ليسأل والدته لربما رأته، فوجدها تدخل غرفة رُبا فدخل وراءها وهو يقول:

-أمي .. هل رأيت...

وقبل أن يكمل عبارته دفعته رُبا خارجاً وهي تقول:

-إذا سمحت، أمهلنا قليلاً.

دُهِش

-ما الأمر؟

-لدي عمل مع أمي.

عقد حاجبيه وقال بضيق:

-وهل هذا سر أيضاً؟

هزت رأسها بحزم:

-نعم.

و حين خرج صفعت الباب، عائشة تضحك من تصرفها، بينما ابتعد من المكان غاضباً.

وفي مر ثانية حين اجتمعوا مرة حول سفرة الغداء، سأها عبد الكريم عن دراستها، فقالت:

-إنها على خير ما يرام.

-وماذا فعلت مع ضياء؟

هزت رأسها وهي تقول في مرح:

-هذا سر .

تفاجأ من قولها، بينما ابتسمت عائشة وقالت:

-رُبا، إنه والدك، لم لا تخبريه؟

قالت في حزم:

-لن أحصل على الوسام إن أخبرته، ضياء أمرتني بأن أخبرك أنت فقط بكل شيء.

نظرت عائشة لزوجها وقالت موضحة:

-ضياء تحاول أن تعلم رُبا بأنه لا يجوز للإنسان البوح بشيء اتهمته الآخرون عليه، هي
اتتمتها على بعض أسرار دراستها؛ لكنها تخبرني حتى أستطيع مساعدتها، أتمنى أن تتعلم
حقاً ألا تبوح الأسرار لأحد.

قالت رُبا:

-وهذا ما أخبرتني به ضياء.

ابتسم عبد الكريم وقال وهو يمسح على رأسها:

-جميل يا رُبا، المهم أن تتعلمي يا ابنتي، سأكون فخوراً بك.

عقد طارق حاجبيه وقال في ضيق:

-علمتك أن تكتمي عن أخيك أمر دراستك مع أنه هو من جعلها معلمتك.

قالت عائشة:

-طارق لا داعي لهذا، ضياء بتصرفها هذا ستغرس شيئاً جميلاً في رُبا، فلا تفسد عمل الفتاة..

لم يرق له ما قالته فصمت وهو يتناول طعامه سريعاً ثم انصرف وهو منزعج، لقد التمس تغييراً طفيفاً في شخصية أخته رغم أنها البداية فقط، ضياء استطاعت الصبر على تصرفات رُبا وستنجح في مهمتها بكل تأكيد، ويكون بهذا قد قدم لها عملاً على طبق من ذهب دون أن ينجح في مسعاه أبداً، كما أن أخته لم تعد تحدثه كما حدث في أول يوم لها مع ضياء، ازداد ضيقه واجتاحه الغضب، كيف سينجح في الوصول لهدفه وإرباك عمل ضياء وإيذائها وهو لا يعرف شيئاً عن تعاملها مع رُبا؟ ظل يفكر طويلاً كيف سيجعلها تفشل في ذلك ولم يصل لشيء حينها.

وفي مرة حين عاد للمنزل سمع رُبا وأمه تتحدثان بالمطبخ، اقترب منه خلسة ووقف عند بابه دون أن تلمحاه، فسمع رُبا وهي تقول مبتسمة:

-لقد قالت لي ضياء أن أخبرك بهذا يا أُمي.

فقال عائشة في ابتسامة:

-الحمد لله بأنك استطعت فهم شيء منها رغم أنك ما تزالين مشاكسة وتثرثرين، ولا تهدأين أثناء الدرس معها.

قال في نفسه أسفاً:

-للأسف، وصلت عند نهاية الحديث.

ثم انتبه لرُبا وهي تقول:

-لكنها لطيفة معي.

قال في نفسه ساخرًا:

-طبيعي أن تكون لطيفة، وإلا ستخسر عملها.

ثم سمعها تقول:

-أمي، رغم أن وجه ضياء ليس جميلاً لكنني أحبها كثيراً.

صُعِقَ لما سمع، رُبما لم تحب معلمة واحدة ممن درسناها، فقال في نفسه ذاهلاً:

-تحبينها؟؟ إلى هذه الدرجة؟ ماذا فعلت ضياء بك حتى تغيرت هكذا؟!

ثم سمعها تقول متابعة:

-هل تسمحين لي بأن أبقى في منزلها ليوم واحد؟

كان يثق بأن أمه سترفض إلا أنه لمح رفقاً في عينيها وهي تمسح على رأسها وتقول بود:

-سأبحث هذا الأمر مع والدك.

ابتعد لحظتها عن المكان، وهو يكور قبضته ويعقد حاجبيه يقول في حدة:

-حسناً يا ضياء، سأعرف ما تفعلينه مع رُبما سأعرفه، وسترين، لن أسمح لك بأن تنتصري

علي أبداً.

الفصل الثالث العشرون

العودة

باتت الراحة بالنسبة لها تسترق أوقات قصيرة من يومها الطويل المزدحم بالمشاغل؛ دوام بالجامعة، زيارة أخيها والاطمئنان عليه، والاهتمام بالبيت عند غياب أمها، ثم مساعدتها بعد مغادرته للمستشفى خصوصاً عند قدوم بعض الزوار من الجيران ورفاقه بالعمل لأجله، بالإضافة إلى دراستها وتعليم الصغيرة المشاكسة رُبا، كان عليها أن تواصل الليل بالنهار لتوفق بين كل مهامها، لذا فقد أعلنت الكفاح شعاراً لها.

موجة الامتحانات الشهرية قد بدأت وستليها مباشرة الامتحانات الفصلية، السنة الدراسية تقترب من منتصف مشوارها، ومعها بدأ يتوجه فكر الطلاب نحوها، ونحو الشهور التي ستلاحق وستكثف فيها المحاضرات لتعويض ما فاتهم وما حرموا منه بسبب ما كان من الحرب ورجالات العصابة.

وخلال الأسبوعين، ظل طارق يراقبها متوسماً أن يؤثر عملها على دراستها؛ فتغيب يوم، أو تنتكس في امتحان لها؛ لكنه وجدها على سجيتها تذاكر مع سحر وتناقشها، ظلت صامدة كما عرفها، فاستحوذ الضيق فكره، الأمور ستقلب ضده وستغلب عليه ما لم يتدرك الأمر. وبعد انتهاء المحاضرة الأولى صباح ذلك اليوم وخروج مدرس المادة من القاعة، علت أصوات الطلاب على الفور، وأسرع بعضهم في المغادرة، قالت سحر لضياء وهما تحملان حقيبتيهما وتستعدان الخروج أيضاً:

-الحمد لله بأنه ليس لدينا محاضرة ثانية الآن، سيكون لدينا متسع من الوقت لمراجعة الأمور الصعبة لامتحان بعد الغد.

نهضت ضياء وهي تغمض عينيها للحظة، وتقول في إعياء:

-كنتُ أتمنى أن أفعل ذلك يا سحر؛ لكني لم أنم جيدا ليلة أمس، وظللت ساهرة لمراجعة الجانب العملي، هناك محاضرات كثيرة تحتاج للمراجعة فعلاً، لذا لن أستطيع التركيز معك الآن.

نهضت سحر ثم نزلت برفقتها من المدرج واتجهتا نحو الباب، وقالت:

-لا بأس عزيزتي، يمكننا مراجعتها عصر اليوم.

-تعرفين أن عليّ تعليم رُبا في هذا الوقت.

-أوه، لقد نسيت، إذن سيكون صباح الغد، علينا انتهاء فرصة الإجازة الخاصة لنا فيه.

وما كادت تكمل عبارتها حتى فوجئتا برُبا تقبل نحوهما مندفعة نحو ضياء في سرور وهي تفرد ذراعيها، أسرعت بدورها تفرد ذراعيها لها وتنحني لتستقبلها بحرارة مثلها وتعانقها، ثم سألتها في دهشة:

-متى أتيتِ يا رُبا؟

أرسلتها ثم ابتسمت لها وهي تقول في سرور وحماس:

- منذ الصباح، لقد طلبتُ من أخي أن يصحبني إليك، فأخبرني بأن لديكم محاضرة واحدة وفي وسعي أن ألعب وأذاكر معك، فانتظرت بمكتب أستاذته حتى انتهيتن، كانت الرحلة جميلة من المنزل إلى هنا.

تفاجأت ضياء لتصرف طارق، ألم يكن يخشى تصرفات أخته وثرثرتها هنا؟!

بينما عقدت سحر حاجبيها في غضب، وقالت بحدة:

- طارق لا ينوي خيراً لك يا ضياء.

التفتت إليها وقالت بحزم:

- لقد قبلت التحدي، وسأكون صامدة حتى النهاية.

سألتهارُبا:

-أي تحدٍ؟

أجابتها وهي تمسح على رأسها في ابتسامة:

-إنه تحدٍ لأجل الحياة.

مالت برأسها في التساؤل، فقالت لها:

-لا تهتمي عزيزتي، هل أحضرت أدواتك؟

هزت رأسها واستدارت لترى حقيبتها المعلقة بظهرها، في تلك اللحظة أقبل طارق إلى

القاعة وهو يقول بلهجة شبه أمره:

-لديك وقت فراغ الآن يا ضياء ورُبما تحب أن تعلميها، كما أنها متعلقة بك ولم أعرف لذلك سبباً، على أية حال، الساعة الآن هي العاشرة، سآتي لاصطحابها عند الثانية عشرة، أي بعد ساعتين كما هي العادة.

تضايقت في أعماقها للهجته، إلا أنها كتمت انفعالاتها لتهز رأسها موافقة وتضيف:

-كما تريد، وسيكون هذا بديلاً عن عصر اليوم.

-حسناً.

فابتسم لُرباً ثم خرج وهو يتمتم في مكر:

-اليوم، سيتضح كل شيء.

احتقن وجهه سحر غضباً وقالت:

-ألم أقل لك؟ هل اقتنعتِ الآن؟ ألا زلتِ تريدين الاستمرار في هذا يا ضياء وأن تظلين تحت سطوته؟

-سحر، أخبرتك بأي لن أراجع وما أفعله هو لأجل أخي ولستُ تحت سطوة أحد، فلا تنزعجي مني أو مما حدث قبل قليل، لنتقابل عصر اليوم وننهي كل شيء، حددي ما تريدين لأجل ذلك، يمكنك المغادرة عزيزتي.

تنفست الصعداء حين يئست من إقناعها رغم ذلك أو مأت برأسها إيجاباً، ثم ودعتها واتجهت نحو الباب إلا أنها توقفت عنده لبرهة لتراهما تجلسان على مقاعد بالمدرج الأول

حين خلت القاعة إلا منهم، أخذت ضياء حقيبة رُبا وأخرجت بعض أدواتها، وهي تقول لها:

-هذه القاعة لن تُشغل اليوم، وفي وسعنا البقاء فيها.

هزت رأسها، فابتسمت سحر ابتسامة إشفاق صغيرة، وهي تقول في نفسها:

-أتمنى لك كل التوفيق، وألا يضيع صبركِ لأجل أهلك سدى، وأن تنتصري على ذلك المغرور.

في تلك الأثناء، توجه طارق ورفاقه إلى الصالة الواسعة عند المدخل بمبنى الكلية، سألهم محمود في حيرة:

-إلى الآن لم نخبرنا سبب إحضار أختك للكلية يا طارق.

لم يكن يرغب لأحد أن يعرف السبب الحقيقي لذلك، ولا أن يظهر فشله بأي شكل، فرد عليه في لا مبالاة:

-وهل يحتاج الأمر لسبب؟ لدينا وقت فراغ لذا اصطحبتها إلى هنا بدلاً من منزل ضياء، دعها تدرس معها ريثما ننهي تدريباتنا في لعبتنا المفضلة.

قال صبري:

-يبدو لي بأن ضياء بدأت تعتاد تصرفات رُبا، لم يحدث أي تأثير على دراستها حتى الآن، ولم نخبرنا بأي جديد عنهما.

احتد طارق وهو يقول:

-لأنه لا شيء لأخبرك به حتى الآن، ثم أن رُبا لا تزال على ثرثرتها ومع ذلك فتلك المزدوجة تتحملها، الأمر لن يستمر طويلاً، إنها صبورة ونحن سنصبر أيضاً لنتنظر النتيجة.
رد عليه مهذباً:

-أنا آسف، فعلاً الأمر لا يزال يحتاج لبعض الوقت، فهي فتاة عنيدة.

زفر في ضيق ومضى معهم وهو يقول في نفسه:

-ولن أكون أقل عناداً منها.

ولما وصلوا الصالة، رأوا بها طاولتين لتنس الطاولة خلق حولهما عدداً من الطلاب متفرقين عليها، وانضموا إليهم، وصاروا يهتفون تارة ويلعبون حين يحين دور أي منهم، تناسى ضيقه واندمج كلياً معهم يتابع حركات اللاعبين ورمياتهم وطرق دفاعهم، ويراقب الكرة في انتباه، ويتخذ دور المعلق أحياناً بنبرة ساخرة مريحة تثير ضحكهم، وأحياناً ينتقد ويوجه، وحين حان دوره باللعب أمسك المضرب بيده واتخذ موقعه وهو يقول في زهو:

-تعلموا مني وإلا ستخسرون دائماً.

ضحكوا لقوله، فقال ناصر وهو يتخذ موقعه عند الطرف الآخر حين صار منافسه:

-سنرى كم ستصمد أيها البطل.

ابتسم لقوله، ثم بدأ اللعب، أخذ يصد الكرة ويردها إليه بمهارة وقوة، دقائق فقط حتى شعر بصداع شديد يداهمه ويدق رأسه كصاعقة مباغتة، أجمده الألم للحظة وشتت تركيزه عن

الكرة القادمة نحوه فمرت قربه، أغمض عينيه وترنح بعدها للوراء وهو يضع يده على رأسه، انتبه زملاؤه لتغيره المفاجئ، فسأله صبري في قلق:

-هل أنت بخير يا طارق؟

رفع جفنيه في تناقل، وقال في ألم:

-نعم، صداع وحسب، أكملوا من دوني.

ومضى مبتعداً عنهم، وهو يقول متألاً:

-منذ أن بدأت الامتحانات وأنا أعاني منه، هل المذاكرة سبب ذلك؟ لا أستطيع تركها، متى ستنتهي فقط لينتهي أمره؟

أسرع نحو المقصف واشترى قارورة ماء وأخرج دواء مسكناً من جيبه تناوله وشرب بعض الماء، ثم تمدد على الكرسي ليرتاح، أغمض عينيه لدقائق ويخفف ألمه قليلاً، ثم تذكر ضياء ورُبا، أسرع ينظر لساعته فوجدها الحادية عشرة والنصف، ابتسم في مكر، وقال لنفسه:

-الوقت مناسب لأرى ماذا تفعل ضياء مع رُبا.

نهض متحاملاً على نفسه وأسرع يتجه نحو القاعة الكبرى، لقد سنحت فرصته وعليه استغلالها، ولما وصل وجد الباب شبه مفتوح وتناهى إلى سمعه صوتيهما، أسرع يقترب منه بهدوء، ثم اختلس النظر؛ لكنه لم يستطع أن يظل مختبئ طويلاً، فما رآه سبب له ذهولا جعله يفتح عينيه على اتساعهما ويقف متسماً في مكانه.

أدوات ربا كانت مبعثرة على بعض كراسي المدرج الأول مع بعض أغلفة الشكولاتة (جلاكسي)- إنه النوع المفضل لأخته- بينما كانتا تجلسان على المدرجات بالمر بين المقاعد بالمدرج التاسع، وضياء تحمل دفترًا بيدها، وهي تقول بنبرة مريحة كأنها تمثل دور طفلة:

-والآن، هل عرفت من هو الرقم أبو أسنان؟

هزت رُبا رأسها وهي تنهض وتقول في نبرة عتب:

-ثلاثة، أبو أسنان، إنه لا يجب أن ينظفها، يجب أن يعاقب، سيأتي أبوه رقم واحد (أبو عصا) وسيعاقبه.

ابتسمت لها وهي تنهض مثلها وتقول:

-هيا، لنقفز معاً ثلاثة درجات.

فوقفتا على المدرج معاً، ثم رفعت طرف عبا عنها وقفزت معها الدرجات السفلى وهما تعدان بصوت واحد عند كل درجة، وحين أتمتا ذلك صفقت لها بحماس، وهي تقول في سرور:

-مذهلة يا رُبا، أعيدي عدها الآن وأنت واقفة دون قفز.

أسرعت الصغيرة تعدها وتمنح كل رقم لقبه الخاص كما علمتها، فاحتضنتها ثم أجلستها معها على المدرج وهي تقول:

-حسناً، أي لعبة تحبين أن نلعبها الآن مكافأة لك لأنك أجدت حفظ الأرقام الثلاثة؟

تذكرني بأننا سنلعب ونحن جالستين فقط، فنحن لسنا بالبيت وأخشى أن يغضب أحد منا هنا.

أخذت تفكر وهي تضع يدها أسفل ذقنها، ثم قالت لها في مرح حين تذكرت غايتها:

-لعبة علاء الدين.

وافقتها وبدأتا على الفور التصفيق والغناء معاً، بينما تتم طارق لنفسه في إعجاب:

-يا إلهي!! مذهلة مذهلة يا ضياء.

ظل ينظر إليها نظرة إعجاب شديد، كل هذا الاندماج مع أخته المشاكسة لن يكون حباً لها وحسب، رآها بحركاتها وصوتها الجميل ودودة رقيقة، ولحركاتها الزائدة تلحق بها وتحول الدرس للعبة؛ بل تشاركها اللعب كمكافأة لها، فتندمج معها وتفهم ما تقول، قال وكأنها أدرك أمراً:

-ما كل هذا الصبر الذي أراه لتصل لهدفها؟ إنها حقاً تبذل جهدها لأجل أهلها.

هكذا فكر في نفسه ودقات قلبه للمرة الثانية تخفق في إيقاع غريب لم يألفه، تدق جدار صدره بعنف فتجعله يعلو ويهبط في لا انتظام مسببة اضطراب أنفاسه معها، وتدفع الدماء بسرعة إلى عروقه وتثير حرارة حمى لم يشترك منها قبل الآن، وعيناها لا تزالان تراقبانه، وأذناه تطربان لصوتها، لم يعد يرى ندبة الحرق ولا تلك الفتاة صاحبة الوجه المشوه التي نفر منها هو ورفاقه، بدت فريدة مميزة في نظره كملاكٍ حط فجأة بكل خصال الخير والنقاء منذ أول يوم عرفها فيه إلى هذه اللحظة، قال في نفسه:

-أهذا ما كنتِ تقصدينه (تزداد قيمة الحياة عندما نستشعر بأن هناك أناس يضحون من أجلنا)؟ هل ضحى أهلك بشيء لتقاتلي كل هذا القتال؟ أنتِ من معدني مميز يا ضياء.

قطع تفكيره حين انتبه بأنها انتبهت لوجوده والتفتت إليه، احمر وجهه وارتبك حين تعلق
نظراتها به، ورغم بعدهما لمح الخجل على محياها برعشة خفيفة ظهرت في حركات يديها وهي
تنهض بسرعة وتقول له بلهجة لم تخل من الارتباك وسألته:

-منذ متى وأنت هنا؟

أدرك لحظتها بأنها كانت تخشى أن يكون قد سمعها وهي تغني وتقفز الدرجات كالأطفال
فخجلت، رعشتها الطفيفة تلك جعلتها كزهرة داعبها النسيم فتهايلت معه برقة ونثرت شيئاً
من عبيرها برفقته، فلم يزدها الخجل إلا تألقاً أمام عينيه، زاد ارتبাকে وتلعثم وهو يقول وقد
نسي الساعة التي حول معصمه:

-منذ... لا أدري... ألم تنتهيا؟

تمالكت نفسها وقالت:

- نعم انتهينا.

امتعض وجه رُبا وأمسكت بعباءتها وهزتها وقالت في ضيق:

-لم نكمل اللعبة بعد.

انحنى لها وقالت هامسة في أذنها قائلة:

-عندما نكون بمفردنا سنلعب ما تريدين، أرجوك لا تحزني، ولنا لقاء في الغد إن شاء الله.

هزت رأسها مؤيدة، قبلتها ضياء ونزلتا لترتبان الأغراض بالحقيبة، ولما انتهت وجعلتها

ترتدي حقيبتها، قالت لها:

- لا تنسي أن تعطي دفتر المتابعة لأمك.

- حسناً.

ظل يراقبهما بصمت والاضطراب لا يزال يتخبط داخل نفسه، وحين اقتربت رُبا منه، قال لضيء:

-أعتذر منك لأني سأحضر رُبا صباح الغد إلى منزلكم، فلدي مهمة بعد الظهر إضافة إلى الامتحان.

رفعت ضياء حاجبها في دهشة لكلمة (أعتذر)، لم يسبق له أن قالها لها لأي سبب مع أنه يخطئ بحقها إلا أنها تجاهلت دهشتها، وقالت له وهي تهز رأسها:

-حسناً، لا مانع لدي.

فقال في ابتسامة وبلهجة امتنان:

-أدركتُ الآن ماذا كنت تقصدين بقولك لي في ذلك اليوم، شكراً لجهودك يا ضياء، أنتِ تدركين قيمة هذه الحياة ولهذا تعرفين ما يتوجب عليك فعله، شكراً جزيلاً لجهودك مع رُبا. عاودتها الدهشة من جديد حتى أنها فتحت فاهها لشدة حيرتها وهي تستمع لكلماتٍ لم يقلها لها من قبل، ولم تكن تحمل أية سخرية أو احتقار، حتى نظراته نحوها لم تكن تحمل أي غرور؛ بل كانت نظرات تقدير وامتنان وإعجاب، إنها المرة الأولى التي يصدر منه تصرف كهذا.

أدرك حيرتها، أراد أن يقول شيئاً لكن الكلمات لم تسعفه وقد تراءى أمامه جبال إساءاته نحوها، كيف لا تندهش وهو يتحدثها لأول مرة منذ أن عرفها بأسلوب مختلف؟ كيف سيستطيع تعليل تصرفاته نحوها الآن ويبدد حيرتها؟

شعر بشيء من تأنيب ضمير يخز قلبه، وتخبّطت نفسه أكثر مما كانت، واجتاحه الحرج والألم معاً، قرر التراجع إلى أن يستطيع ضبط زمام مشاعره والتفكير في كل ما كان منه، ودعها وغادر القاعة برفقة رُبا، وتركها وحدها تعالج الحيرة، وبالفعل بقيت على ذهولها واقفة مكانها تتأملهما حتى انصرفا وهي تشعر بشعور غريب لم تعهده، يعتذر ويشكر في آن واحد؟! قالت في نفسها:

- ما بها نظرات طارق اليوم؟ بل ماذا في فكره؟ لا، ليس هذا طارق الذي أعرفه أبداً.

أزف الليل ولم يأزف، وأعلن للبشرية قدوم وقت الراحة إلا هو، لم يدرك ذلك ولم يشعر به، رغم أنه ارتدى ملابس نومه واسترخى جسده على السرير، إلا أن فكره لم يكن مرتاحاً أبداً.

كان مستلقٍ على ظهره وقد تبعثرت حوله عدد من أوراق المحاضرات الخاصة بإادة الامتحان، وهو يمد ذراعه اليمنى قليلاً نحو الأعلى ويحمل إحداها ويقرأ فيها؛ لكن عقله بعيد كل البعد عن محتواها، ظل يشغله ما رآه من مناقب ضياء، كل ذلك أثار دهشته وحيرته وإعجابه، لم يفكر في منظر وجهها المشوه بل ما فيها تحمله بداخلها من شجاعة وإصرار نحو الهدف، إضافة إلى ما اكتشفه صباح اليوم؛ طيبة ورقة وصبر وحنان كبير أغدقت به رُبا

فأحببتها وتعلقت بها، لم يتخيل أبداً أن تؤثر خصالها في نفسه كل هذا التأثير، فعاد تأنيب الضمير يخز قلبه كلما تذكر إساءاته لها، ثم يجتاحه الغضب حين يتذكر إهانتها له وصفعتها في ذلك اليوم، كانت قوية بما يكفي لتقدم على تحديه، ليس هذا فحسب؛ بل استمرارها في دراستها رغم كل ما قام به ضدها، شعر بأن مشاعره نحوها مضطربة كأموج البحر، بين الكره والإعجاب، تتمم وهو يخفض ذراعه ويضع المحاضرة جانباً وعيناه معلقتان بالسقف وفكره لا يزال يسترجع الأحداث:

- ما سبب كل هذا الصراع الذي دار بيننا؟ ... نعم تذكرت، وجهها المشوه، ورغم ذلك كانت شجاعة وجريئة؛ لكن ... لو كان النصف المشوه مثل السليم، لكانت جميلة مشرقة الوجه، يا إلهي، هل أنا أمتدحها الآن أم أذمها؟ كيف سمحت لها بأن تنفذ لقلبي وعقلي هكذا؟ ماذا يحدث لي؟

- إلى متى سأنتظر هنا؟

نظر ناحية الباب فرأى رُبا واقفة وقد ارتدت بجامة نومها، فقال لها بحدة:

- لم تفرعي الباب قبل دخولك؟

ردت في ضيق:

- قرعته ولكنك لم تحبني، لقد حان وقت العشاء..

جلس معتدلاً وهو يقول:

- رُبا، تعالي قليلاً.

دخلت رُبا وأشار لها بالجلوس، جلست إلى جواره على السرير، ثم سألتها:

-هل سبق لك أن سألت ضياء عن إصابتها التي شوهدت وجهها؟

أخذت تتذكر قليلا ثم قالت بحزن:

-نعم سألتها، قالت بأن الأعداء حين دمروا منزلها أصيبت هناك، إنهم أشرار.

طفى الحزن على وجهه وهو يتذكر تفاصيل الندبة، تلك المساحة المجعدة الداكنة التي احتلت

بقعة في ذلك الوجه الجميل، لم تحلقها إلا زوبعة الحرب، أحرقتها كما أحرقت جمال عدن،

تناهى في أذنيه أصوات القصف وهتافات المقاومين أحيانا وأحاديث المذيعين والمعلقين في

نشرات الأخبار عن المعارك الشرسة قبل انتهاءها كلما مر بالصالة حيث يجد والده يستمع

إليها ويشاهد تقاريرها عبر شاشة التلفاز، ثم تراءى أمام ناظره وجوه النازحين الهاربين من

ويلاتها إلى المكلا، والآلام والأحزان ترسم على وجوههم، ومشقة الرحلة ترسم الإعياء على

محياتهم، ثم تذكر أحزان مدينته تحت وطأة الحصار الخانق قبل انجلائه، لم تسلم هي أيضاً من

أصوات القصف وأزيز الرصاص وقتل صنوف الحياة فيها، خلال لحظات تجسدت أمامه

كل معاناة الحرب التي صم أذنيه وأغمض عينيه عنها لسنوات طويلة، فقط ليقضي إجازته

ويستمتع بها غير شاعرٍ بمأساة بلاده ولا حتى مدينته على الأقل.

لم لم يكن يشعر بالآلام الآخرين ولا حتى أنين من حوله؟

لم تجمد شعوره عند ملذاته وإرضاء ذاته وحسب؟

لم لم تعد مشاعر الإنسانية إلى روحه إلا الآن؟

كيف استطاعت تلك النذبة بتضاريسها أن تنقله إلى تضاريس الحرب؛ بل أن معاناة ضياء هي من نقلته إليها، لا شك في أنها قاست ألمها شهوراً، ثم قاست نظرات من حولها وألستهم، بل ربما ستقاسيها بقية عمرها، كان هو أول هؤلاء، قال في نفسه متألاً:

-المسكينة، كنتُ أنبذها لشيء حدث لها رغماً عنها، تحدث الجميع عنها بأشجع الحديث ونفروا منها لأنها ضحية حرب؟! ما أقسى قلوبنا، لقد تحجرت، ومع كل ما مرت به من محن لا تزال قوية وتعرف قيمة الحياة، وا أسفاه، لم أكن إلا إنساناً أنانياً.

في تلك اللحظة انتشلتة عائشة من شروده وهي تدخل الغرفة، فرأتها جالسين، صاحت بغضب:

-يا سلام يا رُباً، أعتقد بأني طلبتُ منك أن تحضري طارق ليتناول عشاءه، لا أن تجلسي قربهِ وتثرثري.

ردت رُباً مبررة موقفها:

-لقد كان يسألني عن ضي...

قطعت عبارتها حين أمسك بها فجأة وجذبها نحوه وهو يكمم فمها، ويقول لأمه في ارتباك:

- سألتُ رُباً قليلاً، سنأتي بعد لحظات.

ردت بنفاذ صبر:

-أسرعاً فقط.

ثم خرجت، قالت رُباً بغضب وهي تقفز من سريره بعد أن أفلتت منه:

-لم فعلت ذلك؟

رد في ضيق:

-ثرثارة كما عرفتك، لن تتغيري.

أخرجت لسانها وهي تقول له في تحد:

-سأخبر ضياء بأنك سألتني عنها.

ارتبك لقولها فأراد أن يمسك بها؛ لكن أسرعته بالهرب والخروج من الغرفة، وحين نزل من سريره ليلحق بها، شعر بالصداع يدق رأسه من جديد، وقد أصابه بنوبة دوام قوية هذه المرة جعلته يسقط أرضاً جائئاً على ركبتيه، وهو يقول متألاً:

-يا إلهي، إلى متى سيستمر هذا؟

بقي على هذه الحالة مدة وهو يضع يده على رأسه، أطلت رُباً من عند الباب في حذر وهي مستغربة لعدم لحاقه بها، وحين رآته بتلك الحال بدا القلق عليها وهي تسأله:

-طارق، ماذا بك؟

انتبه لها فنهض متحاملاً على نفسه وهو يقول:

-لا شيء، اذهبي لتتناولي عشاءك، سأرتاح بعض الوقت، أخبري أمي.

- حسناً.

وحين خرجت أغلق باب الغرفة خلفها، ثم فتح درج طاولته وتناول دواء مسكناً وألقى بجسده على فراشه طلباً للنوم حتى يخف ألمه، وهو يقول في نفسه:

- لم أعد أحتمل نوبات هذا الصداع أبداً، سأذهب للطبيب غداً.
أما رُبا فقد أسرع إلى والدتها وأخبرتها، نهضت عائشة لتتفقده، فوجدت باب غرفته مغلقاً،
طرقت الباب وهي تقول في قلق:
- طارق، هل أنت على ما يرام؟
أجابها:

- نعم أمي، سأرتاح قليلاً ثم سأتناول عشاءي، لا تقلقي.
استغربت تصرفه لكنها ابتعدت عن الغرفة في حين استرخت أجنانه ونام من فوره.

الفصل الرابع العشرون

تيه

أي بيئة في الأرض لا تتغير إلا إذا تغيرت أجواؤها، يأتيها على مدار العام مناخات تصقل في معاملها جزءاً جزءاً حتى تكتسي في كل مرة ثوباً جديداً وتصبح الحياة أكثر ملائمة، والنفس البشرية ليست ببعيدة عن تلك القاعدة، تقلبها الظروف؛ بل أحياناً تجعلها عصية التغير أيضاً، هي بدورها تحتاج للكثير من المواقف والظروف لتغير سجيتها وتتأقلم مع واقعها؛ لكن ما كان من تصرف طارق أثار حيرة ضياء.

منذ أن عادت وفكرها منشغل بذلك، تتذكر موقفه بكلماته الطيبة ومعاملته اللينة وهو يمنحها نظرات التقدير والامتنان بعينه، لم تكن تدري لم أو كيف تغيرت معاملته لها فجأة رغم أنه عاملها في نفس اليوم بالأسلوب الذي اعتادت منه، مسحة من الرقة كست ملامحه جعلته يبدو إنساناً رقيق ومتواضع، بدا لها شخص آخر. تاهت في دهاليز الحيرة وصارت تشرد بفكرها عن عملها لدقائق، وحين يصيبها الإعياء من التفكير تعود لواقعها، لديها الكثير من الأمور لتتجزها، فكما اعتادت منذ أيام، عودتها للبيت لم تكن إلا استراحة قصيرة، تناولت غداءها بسرعة وكل همها إكمال مقرر الامتحان القادم، القلق والأرق يلزامانها كلما تذكرته، ومها وشادي كانا يلاحظان عليها ذلك وهما يجلسان معها حول سفرة الغداء، سألها شادي والجبيرة لا تزال مجبرة محيطة بكتفه:

- متى ستبدأ الامتحانات الفصلية؟

أجابته:

-الأسبوع القادم، أما الفصل الدراسي الثاني سيكون بعد إجازة عيد الفطر إن شاء الله.
ابتسم وقال مشجعاً:

-كان الله في عونك يا أختي، وفقك الله.

قالت مها:

-إياك أن تشغلي نفسك بعد اليوم إلا بمذاكرتك، أنا سأهتم بأمور المنزل، شادي تحسن كثيراً، فقط سأرافقه صباح الغد أثناء زيارته للطبيب للمراجعة وأطمئن عليه.
قالت ضياء:

-لا تقلقي عليّ أمي، وسأهتم بالبيت أيضاً.

رد شادي:

-أمي، لا داعي لأن تتعبي نفسك، يمكنني الذهاب بمفردي.

قالت بحزم:

-محال سأكون معك.

ضحكت ضياء وقالت له:

-لا داعي لأن تجادل أمي يا شادي، لن تطمئن إلا إذا كانت معك.

ابتسم وقال:

-لك ما تريدين يا أمي الحبيبة.

ثم استأذنتها لتستريح لساعتين، في المساء بدأت المذاكرة مع سحر، ثم واصلتها بعد مغادرتها، وفي غمرة انشغالها يخطر بذهنها تصرف طارق ليشتتها قليلاً، وحين تجد بأنها لن تصل لشيء، وما هو أهم في عقلها سيتبعثر بسبب شرودها تهز رأسها وهي تقول بحزم: - ليس هذا وقت التفكير في هكذا أمور، يجب أن أبعد كل ما قد يشغلني عن الامتحان، إنها مادة صعبة.

وعادت لمذاكرتها، ومضت ساهرة حتى ساعة متأخرة لأجل إتمامها.

وفي الصباح الباكر، أيقظتها مها من نومها، وقالت لها:

- ضياء، إنها الساعة الثامنة، يجب أن نذهب الآن للمستشفى، لقد أعددت طعام الفطور لأجلك فقد كنت متعبة ليلة الأمس، انتبهى لنفسك ودراستك واهتمي بالمنزل.

ابتسمت لها وقالت:

- سأفعل، شكراً أمي، أتمنى أن تتعافى إصابة أخي قريباً.

بادلتها الابتسامة ثم غادرت المنزل برفقة شادي، نهضت من فراشها واغتسلت وتناولت فطورها بسرعة ورتبت المنزل، ثم أسرع نحو كتبها ومحاضراتها، ولم تمض سوى ساعة واحدة حتى فوجئت بطرق على الباب، تساءلت في نفسها، من الطارق عليها الآن؟ إلا أنها هتفت حين تذكرت:

- يا إلهي، نسيْتُ بأن رُبا ستأتي في الصباح ولم أخبر أمي.

ارتدت حجابها وأطلت برأسها من النافذة، رأت رُبا بالأسفل عند الباب تلوح لها، ثم لمحت طارق بالشارع عند نهاية الزقاق واقفاً قرب سيارته، أرادت أن تبتعد عن النافذة لتفتح الباب؛ لكنها ظلت مكانها موجهة بصرها نحوه حين بدا لها وكأنه يقف رغماً عنه مسنداً يده اليسرى إلى السيارة، ثم ارتعبت حين رآته يهوي نحو الأرض بعد لحظات، صاحبت برُبا قائلة في قلق:

-رُبا، ما به أخيك؟

نظرت رُبا ناحيته وخافت حين رآته ملقى على الأرض، أسرعت تعدو نحوه مذعورة، ورأتها ضياء حين وصلت إليه، جثت قربة وهزته محاولة إيقاظه؛ لكنه لم يستيقظ، ارتبكت للموقف وأشفقت على حالة رُبا، أسرعت ترتدي عباءتها وتخرج بسرعة وتتجه إلى مكانها، ولما وصلت وجدته فاقدًا وعيه مدداً على ظهره، وبدت ملامح الألم على وجهه وأنين خافت يصدر منه، نادته عليه فلم يجيبها، قالت لرُبا:

-هل كان مريضاً؟

هزت رأسها نافية ثم قالت وهي تحاول تمالك خوفها وقلقها:

-لا، لقد كان بخير، فقط بدا متعباً ليلة أمس.

نهضت وأسرعَت تحضر كأس فيه بعض الماء من المنزل، ثم عاد وجثت قربة عن يمينه ونشرت بعضه على وجهه وهي تناديه؛ لكن الأمر لم يقد، عادت رُبا تبحثو قربة في الجهة الأخرى وتهزه

وتناديه باكية محاولة إيقاظه فلم يجيبها إلا بالأنين، ثم فتح عينيه، ابتسمت رُبا ظناً منها بأنه قد استعاد وعيه؛ لكن ضياء ارتعبت لمنظره.

لم يبدُ عليه بأنه استعاد وعيه، فقد بدت نظراته تائه وعيناه تحدقان أمامهما نحو السماء فقط، كانت نظرات من يودع الدنيا، ثم سقطت أجفانه بعد ثوان، هنا ارتجفت ضياء في خوف فصاحت بهلع:

-طارق، طارق، أرجوك أبق.

لم تتلقَ أي جواب منه حتى أنه اختفى، بينما خبت ابتسامته ربا وازداد خوفها مع اضطراب ضياء التي تلفتت حولها فلم تلمح أحداً، فأسرعت تقف لتبحث عن من يساعدها، فرأت رجلين من جيرانها يتحدثان ويقفان بعيداً وقد حالت سيارة طارق عن رؤيتهما لما حدث، فأسرعت تطلب مساعدتهما والقلق والخوف يملأن صدرها، أقبلت على الفور وحاولا إيقاظه مثل ما حاولتا؛ لكن دون جدوى، قررا أخذه للمستشفى، ثم سأل أحدهما ضياء:

-هل هذه سيارته؟

-نعم سيدي.

أسرع الرجل يغلقها ويسلم المفتاح لها، ثم قال:

-سأتصل بالسيد عبد الكريم فور وصولنا إلى المستشفى، ابق الصغيرة عندك.

هزت رأسها، بينما ارتمت رُبا في حضنها باكية في خوف وتقول:

-أريد أن أكون مع أخي، ماذا حدث له؟

ضممتها وهي تقول محاولة طمأننتها:

-لا تقلقي عزيزتي، سيكون بخير.

ازداد بكاءها وضياء تحاول التخفيف عنها رغم خوفها كذلك، في اللحظة التي رأت فيها الرجال يحملان طارق ويتقلانه إلى سيارة أحدهما ثم يغادران به من المكان، تساءلت في قلق:

-ترى ماذا أصابه؟

وتمنت في أعماقها ألا يكون الأمر خطيراً.

فتح طارق عينيه في إعياء وألم، وغشاوة كبيرة لا تزال مطبقة عليها، وأصواتٌ تنهأى لسمعه كأنها آتية من أعماق سحابة، أخذ يتلفت حوله، بدا كالتائه أو ربما كالباحث عن النور في وسط الظلام، حتى اتضحت الصورة أمامه وميز أصحاب الأصوات، رأى أهله يقفون حوله؛ والده عن يمينه وأمه ورُبا عن يساره، ينظرون إليه والقلق والخوف يلتمعان من أعينهم، وضادة كبيرة كانت قد غطت رأسه كله، تأوه للحظة ثم سأل بوهن:

-أيي!! ماذا حدث؟! أين أنا؟

رد عبد الكريم مبتسماً وبلهجة إشفاق:

-الحمد لله أنك بخير، أنت بالمستشفى.

رد دهشاً والوهن يلزمه:

- بالمستشفى؟! وكيف وصلت إلى هنا؟ ماذا حدث معي؟ لم رأسي ثقيل هكذا؟

دنت عائشة منه أكثر، وقالت لتهدئه:

- لا تثقل على نفسك بالأسئلة يا بني، المهم أن ترتاح الآن.

قالت رُبا في ارتياح:

- الحمد لله أنك بخير، لقد أرعبتني عندما سقطت عند السيارة، ظننتُ بأنك لن تفيق.

تمتم وهو يحرق بالسقف محاولاً تذكر ما حدث:

- آه، صحيح، شعرت بصداع شديد وتلاشى وعي وأنا أنظر إليك وأنت تتجهين إلى منزل

ضياء بعد أن أغلقت باب السيارة الذي فتحته لك، لا أدري لم لازمني هذا الصداع منذ بدأ

الامتحانات.

طفرت دموع في عيني والديه؛ لكنه لم يلاحظها، فسألته عائشة:

- لم لم تخبرنا بذلك؟

أسبل جفنيه للحظات، ثم قال:

- ظننته بسبب المذاكرة وإرهاق الامتحانات.

قالت رُبا وهي تبسم:

- كنتُ خائفة وقتها ولولا ضياء ما كنت ستجد من يساعدك، لقد ساعدتني أيضاً ووقفت إلى

جانبي.

بدت الصدمة على وجهه حين قالت ذلك، فنهض مسرعاً بلا وعي، فاجأهم بتصرفه وهو يمسك بكتفي رُبا ويقول في عصبية وانفعال:

- طلبت من ضياء أن تساعدني؟! -

ردت متلعثمة في فرع لتصرفه:

- لم أكن أعرف أحداً غيرها، لذا طلبت مساعدتها.

ازداد انفعاله وهو يهزها، ويقول في حدة:

- كان يجب أن تجدي غيرها، كان يجب عليك ذلك.

قالت عائشة في خوف:

- ما بك يا ولدي؟ رُبا لا تعرف أحداً بالمنطقة غيرها.

نظر إليها، وقال في حدة:

- مهما...

لكنه بتر عبارته حين انهار متألماً فجأة، وكاد يقع من سريره لولا أن أسرع والده يمسك به ويسند رأسه إليه، فسمعه يتمتم بصوت خفيض واهن لم يسمعه أحدٌ سواه قبل أن يتلاشى وعيه:

- إلهي... إلهي.

اندهش عبد الكريم لقوله، وحين غاب عنه وعيه مدده على سريره، وتأمل وجهه وهو يتساءل في نفسه حائراً:



-ماذا بينك وبين ضياء؟

أخيراً، انتهى الامتحان الذي بدت مادته ثقيلة على الطلاب، فانطلقت التهنيدات وعلت الأصوات فور انتهاء الوقت وخروج الأستاذ، مخففة عن نفوسهم شيئاً من مشقة ما مروا به. أسرع ضياء تنهض من مكانها وتنظر حيث يجلس طارق دائماً فرأت رفاقه ولم تره، فتسلل القلق إلى أعماقها، هل ما أصابه خطر إلى هذا الحد حتى منعه من القدوم، أم أن هنالك أمر آخر؟

نهضت سحر وهي تحمل حقيبتها وتقول:

-كيف وجدت الامتحان يا ضياء؟

ابتسمت لها ابتسامة صغيرة وهي تقول:

-لا بأس به، الحمد لله مر على خير.

-الحمد لله.

ثم نظرت حيث تعلق بصرها وسألتها باستغراب:

-ما الأمر يا ضياء؟ أتبحثين عن أحد؟ تبدين قلقة.

لم تخف الأمر عنها وأخبرتها بما حدث صباح أمس لطارق، فتفاجأت، وما أن أتمت حديثها حتى سمعت الفتاتان صوت محمود وهو يقول لناصر في صدمة:

-ماذا تقول؟!

رد ناصر في قلق:

- هذا ما حدث؟ لقد أصيب طارق بنزيف في الدماغ وأجريت له عملية مساء الأمس، هذا ما أخبرني به والده عندما اتصلتُ به قبل لحظات.

بدا الخوف والقلق على وجوه زملائهما، سأل أحدهم ناصر:

-أهو بخير الآن؟

-أخبرني والده أنه بخير؛ لكن الزيارة ممنوعة عنه لمدة أسبوع.

-الحمد لله، سنزوره ونطمئن عليه إن شاء الله..

قالت أحد الفتيات لزميلاتها:

-سنذهب نحن كمجموعة واحدة لزيارته.

ودار الحديث بين الطلاب حول ذلك، قالت ضياء في نفسها في إشفاق:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، أهذا بسبب أصابته تلك؟ أسأل الله أن يشفيه.

ثم اقتربت أحد الفتيات من ضياء وسحر، وهي تقول لهما:

-سنذهب لزيارة طارق بعد مضي الأسبوع، فهل تنويان الذهاب معنا؟

بدا التردد على وجه ضياء، وكادت ترد على الفتاة لولا أن سحر أسرع تقول في حدة:

-أولاً أنا لن أذهب لزيارة شخص بخلق طارق، ثانياً هو لم يحترم ضياء مثل أي زميلة له في

الدفعة بل كان يتعجرف عليها بلسانه ومع ذلك تطلين منها هذا الطلب السخيف؟

ارتبكت الفتاة لحدة قولها، فقالت:

-أعتذر، كنتُ أود أن تذهب مجموعة كبيرة منا.

ثم انصرفت ، بينما قالت ضياء لسحر لتهدئها:

-اهدأي يا سحر، الكل يعرف طارق وما فعله، لكن لا أدري لم أحسست بأن شيئاً قد تغير فيه آخر مرة.

ردت عليها في عصبية:

-وماذا حدث؟

حكّت لها ما بدا من تصرفه معها، فقالت بحزم:

-لا تتخذهي بهذا، ربما كان يفكر في أمر ما ليحييك لك مؤامرة جديدة؛ لكن فرحته لم تتم بذلك، هل نسيت كيف طلب منك تعليم أخته بلهجة أمره؟ إنه لا يكن لك أي احترام أو تقدير.

أخذت تفكر فيما قالت، وفي أعماقها كانت مقتنعة بأن شيئاً قد تغير في فكر طارق، لكنها لم تدرك ما هو.

لم يدرك حقيقة ما يعتمل داخل صدره؟ هل مازال يكرهها كما كان منذ أن عرفها أول مرة، أم أن ما رآه منها من مناقب سيدفع قلبه لولوج منعطف آخر لم يتخيل بأن سيلج إليه يوماً؟ متاهة روحية لم يالفها في حياته بل تاه فعلاً حين أبصرها بعيني قلبه.

هي من ولجت لقلبه بذلك دون استئذان، كان يخشى أن يتحول إعجابه بها إلى أكبر من ذلك؛ أن تمتلك عليه قلبه، لماذا يفكر هكذا وهو لم يقدم لها إلا الإساءة؟ لن يكون سوى عبث منه

وحب عقيم مشلول، ضياء ولاشك تكرهه، تخيلها تارة على وجهها ابتسامة شامته حين رآته
ملقاً أرضاً لا حول له ولا قوة ولن يساعده أحدٌ غيرها، وتارة أخرى تخيل ملامح الخوف
والقلق على محياها وهي تطلب المساعدة لأجله، هذا ما أخبرته به أخته رُبا؛ لكن عقله لم
يقتنع بذلك وهو من أساء إليها وجرحها مرات ومرات.

فلماذا ساعدته؟! هل ليتجرع مرارة إساءاته لها بجميل صنيعها؟
عاصفة ألت بعقله وقلبه وهو يتأمل قطرات المطر المتساقطة عبر النافذة راوية ظمأ الأرض،
ساعيةً للملمة صدوعها التي أنهكها جفاف أيام قاحلة قاسية، أما هو... فمن يللم صدوع
قلبه الذي تبعر بقسوة مشاعره؛ بل لم يكن يدري عنها شيء ولا كيف تبعثرت هكذا؟
اضطربت مشاعره بين الكره والحب، وبين الألم والندم على ما قابلها بالشر والإساءة وما
قدمته له في محنته هذه وهو يتذكر كل ما جمعه بها من مواقف. تمنى لحظتها لو أن قلبه ظل كما
هو حتى لا يشعر بكل هذا الاضطراب والألم، لم يستطع أن يهدى ما في عقله وقلبه وهو
يشعر بأن شهوراً طويلة مرت على بقاءه في الفراش لا ير سوى جدران الغرفة وضوء الشمس
من النافذة يسطع ويختفي، لم يكن يقوى حتى على رفعه رأسه من وسادته إلا دقائق معدودة
ليعود إليها.

في ذلك المساء، كانت عائشة جالسة قربه صامته لصمته الذي بدا حزينا، سألته إن كان يشكو
من شيء أو يرغب في شيء فيهز رأسه نافياً، هكذا اعتادت تصرفه منذ أن استفاق وأدرك

سبب دخوله إلى المستشفى، لقد اتخذ من الصمت ملاذاً له ييوح لخلوة روحه كل آلام نفسه،
وحين دخل عبد الكريم وبرفقته رُبا وجده ينظر نحو النافذة معرضاً بوجهه عن الباب،
ساهماً شارداً الذهن بين عقله وقلبه، أسرعت عائشة إليه، وقالت له في قلق:

-هل قال الطبيب أن نفسيته قد تتأثر بسبب إصابته؟

هز رأسه وقال:

-لا، ولا تقلقي، التزيف الذي حصل من إصابته الأخيرة كان صغيراً ويبدو بأنه لم يحدث في
حينها ولهذا لم يكشفه الفحص الأولي، ولو بقي بالمستشفى لربما تم اكتشافه، وهو ما سبب له
الصداع ثم الإغماء، هذا ما أخبرني به الطبيب وقال بأنه سيتحسن بإذن الله.

قالت وهي تنظر إليه في قلق زائد:

-حالته لا تعجبني أبداً يا عبد الكريم، أشعر بأنه حزين ولا أدري لم، أرجو أن تتحسن
إصابته ونفسيته عند خروجه من المستشفى.

-أسأل الله ذلك.

لم يكن طارق يستمع إلى أي شيء مما يدور حوله، فلم يبعد عينيه عن النافذة، قال عبد الكريم
لزوجته:

-هلا خرجت قليلاً يا عائشة.

-لم؟

-سأحدثه قليلاً، عله يفصح لي عما يفكر فيه.

-حسناً.

وغادرت عائشة برفقة رُبا الغرفة، بينما تطلع إليه وهو يتذكر مسعاه لمعرفة ما إذا كان هناك أمر قد حدث بين طارق وضيء، كان أول ما فعله هو أن طلب مقابلة أستاذه (الدكتور سامي)، فاتصل به ليلتقيا في أحد المساجد، وبعد أن أديا صلاة العصر، سأله سامي قائلاً:

-كيف حال طارق الآن؟

-الحمد لله إنه أفضل

-الحمد لله، أسأل الله أن يمدّه بالصحة والعافية.

-آمين، شكراً لك.

-خيراً يا سيد عبد الكريم، لم طلبت مقابلتي؟

فقال عبد الكريم محاولاً الوصول لمراده بطريقة غير مباشرة:

-كنتُ أود سؤالك عن مستوى طارق في الدراسة.

بدا الاستغراب على وجهه وهو يقول:

-تسأل عن مستواه وقد أزفت السنة من منتصفها؟! غريب هذا منك، كان الأولى أن تسأل

مع بدايتها حتى تعرف ذلك.

تنهد وهو يقول:

-مشاغل العمل وأعبائها عليّ و...

قاطعه بلهجة شبة حادة:

-أعتقد بأن اتصالاً لا يستغرق خمس دقائق لن يعطلك عن عملك ولو أدرك طارق بأنك تتابع سير دراسته لربما تحسن مستواه.

بدا الحزن والقلق على وجهه وهو يقول:

-نعم، أنا ألوم نفسي على تقصيري نحوه، ولكن أخبرني، كيف هو مستواه؟

-سأكون صريحاً معك يا سيدي، مستواه متدني جداً، لا يكاد ينجح في أي امتحان أو ينال درجات مقبولة إلا بصعوبة، له أربعة من رفاقه على شاكلته لا يثرثرون إلا أوقات المحاضرات، وأنا واثق بأنه لم يكن لينجح إلا بالغش لأن إجاباته لا تدل على مذاكرته واجتهاده.

نكس رأسه وهو يقول:

-لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم عاد يسأل :

-وكيف هي علاقته بزملائه؟

صمت للحظات مفكراً ثم قال:

-تعامله حسن مع رفاقه حسب ما رأيْتُ وسمعت، ماعدا نحو زميلة له من عدن تدعى ضياء.

-ضياء!!

- ضياء هذه منذ بداية السنة والجميع يبتعد عنها بسبب ندبة على وجهها وكونها غريبة أيضاً، استتجت ذلك من كثرة تردها على مدرسيها بالأسئلة عن المحاضرات حتى أبسطها لكن الأمر قل تدريجياً حين بدأت تندمج مع زميلاتنا، أما طارق فقد كان ينعتها بـ (المزدوجة) وقد انتشر هذا اللقب بين زملائه بعد زيارة أخته المباغته له في القاعة، وسمعت من بعض أحاديثهم بأنه يكره وجودها.

بدت الصدمة على وجهه، لهذا السبب لم يرد أن تساعده واستخدمها معلمة لأخته؟ إذن لم يكن هدفه الأساسي مساعدتها أبداً، تتمم في نفسه متألاً:

- ساحك الله يا بني.

ثم شكر الدكتور وقال له:

- سأبذل جهدي لأجل أن أجعله يتحسن بإذن الله.

ابتسم وقال له:

- أمل ذلك، أبلغه تحياتي.

ابتسم له وودعه، ثم أخذ يفكر، لماذا كان ابنه يكره ضياء؟ خطى خطوة أخرى لمعرفة ذلك، واستدعى صديقه (ناصر) لمكتبه قبل عودته إلى المستشفى، ولما قدم إليه ورحب به، سأله قائلاً وبلهجة لم تخل من الحدة:

- لماذا كان طارق يكره ضياء حتى أنه يلقيها بالفاظ لا تليق؟ وأنتم رفاقه ولم تردوه عن ذلك؟ كنتم تؤيدون أفعاله، أليس كذلك؟

بدت الصدمة على وجه ناصر وقد تفاجأ بسؤال عبد الكريم، تساءل في حيرة:

-من أخبره بذلك؟

ثم أجابه بعد تردد وتلبك:

-لقد... لقد أهانتة يا سيدي.

سأل بحزم:

-كيف ذلك؟

وبدأ يروي أول حادثة جمعت بين طارق وضياء حين أسقط العم صلاح واتسخت عباءتها بسبب ذلك ليجعلها سخريه رفاقه، لكن ناصر رواها بطريقته الخاصة وهي أن ضياء من تعمدت أن تصفع طارق ظناً منها بأنه هو من أسقط العامل وأهانته أمام الجميع، أدرك عبد الكريم في خلجات نفسه تستر ناصر على خطأ طارق، شعر بالغضب لتصرفاته؛ لكنه لم يظهر ذلك أمام ناصر، اكتفى بهز رأسه مؤيداً لحديثه ثم شكره على مساعدته، قال سائلاً:

-هل هناك ما يزعج طارق يا سيدي؟

-لا، إنه على خير ما يرام؛ لكنه متعب فقط من إصابته..

-أبلغه تحياتي رجاء.

-سأفعل.

وغادره ناصر، ليتبادر لذهن عبد الكريم ما عرفه من تصرفات ابنه بالجامعة حين كان بحي السلام وهذا ما سبب اعتداء بعض النازحين عليه في ذلك اليوم، فلم يشك بأنه كان يحاول

إيذاء ضياء بذلك كما أهاها أمامه، كل هذه الكراهية يكنها لها، ولكن، لم هو حزين هكذا الآن إن كان يكرها؟

خطر بباله سؤال طرف آخر يربطها وهي ابنته (رُبا)، سأها عن أسئلة طارق حول دراستها مع ضياء فأخبرته ومنها ما حدث في آخر مرة لقاء بينهما بالكلية، فتعجب واحترار لأمره، كان يكرها ثم أدرك قيمة ما تقدمه لأجل أخته فشكرها! ما الذي غير فكره فجأة؟ هل ندم على ما بدر منه؟ لو كان قد أدرك ذلك لاعتذر لها مباشرة في حينها، لم يفعل ذلك؟ هل هو حزين لأجل ذلك؟ شعر أن الأمر قد تعدى مسألة إدراك الخطأ والرغبة في الاعتذار والندم على ما بدر منه.

هناك أمر آخر لا يزال يسبب له كل هذا الشرود والوجوم، شيء ما في قلب وفكر ابنته قد تغير، هل ضياء سبب ذلك؟ كيف يهدأ فكره الآن حتى يتنبه لحاله الآن؟ اقترب منه وسأله:

- ما الذي يشغل تفكيرك يا بني؟

أسبل جفنيه قليلاً وقال :

- لا شيء يا أبي، لا تقلق.

- ماذا بينك وبين ضياء يا طارق؟

فاجأه السؤال فحدق به لمدة قبل أن يقول:

- لا شيء، لم تسأل؟

لم يرد أن يخرجه بها عرف وهو في هذا الوضع، فقال:

-سألتك فقط لأنني لاحظت انزعاجك عند معرفتك بمساعدتها لك.

أعاد بصره صوب النافذة ولم يعقب، بينما وضع عبد الكريم يده على صدره، وهو يقول في

رفق:

-على كل حال يا بني مهما كان ما يشغلك فهدئ ضجيج قلبك، فإن التفكير به أسوأ من أن

تفكر بعقلك، كل الأمور ستكون على ما يرام.

دهش لقوله، هل أحس والده بها يدور في خلجات نفسه؟ فسأله:

-هل صدر مني شيء يا أبي لتقول هذا؟

فهز رأسه نافياً، ثم قال في حنو: ملامح وجهك فقط اختلفت كمن يفكر بقلبه، أرجو أن

تتبه لصحتك وحسب الآن... ثم أسرع ينادي زوجته وابنته، بينما تتم طارق لنفسه وهو

يتنفس بعمق: ليتني أستطيع أن أفعل ذلك، ليت ما في قلبي يهدأ.

الفصل الخامس والعشرون

لم يعد لي

أيام ثقيلة بطيئة أخذت تمر على نفس طارق وجسده، كان حراً ثم قُيدَ للسريير فجأة، رأسه ثقيل، والألم يدقه حتى من أصوات الناس الكثيرة، ووميض الضوء يوجع عينيه أحياناً، انعزل لفترة، وفقد كل تواصلٍ مع غير أسرته حتى عبر هاتفه، ظل عبد الكريم هو من يجيب أصدقاءه ويطمئنهم عليه، اغتاله المرض كما اغتال الندم والألم قلبه، أطفأوا معالم المرح الذي اتسم به، بنت العزلة شخصاً آخر في نفسه.

وبعد أسبوع تحسن قليلاً من آلامه وإن كان لا يزال طريق الفراش، قدم رفاهه الأربعة لزيارته، لم يتركوه بعدها يوماً إلا مروا إلى المستشفى لأجله، فحاول الخروج من كل كدرٍ يعتمل في نفسه بالحديث معهم بهدوء ولو قليلاً والاستمتاع بمقابلتهم في القاعة فيبتسم، ثم أخبروه أن الامتحانات النهائية قد بدأت وانشغل الجميع بها، خاف أن تفوته السنة، كان يتمنى أن تنتكس دراسة ضياء فإذا بأمنيته تتحقق له! طمأنه ناصر وهو يقول:

- سألت العميد عن وضعك، أخبرني أن في وسع والدك أن يقدم عذر مرضك لإدارة الكلية لتمتحن متى كان في وسعك ذلك، ستكون معنا يا صديقي المهم أن تتحسن.

تنفس في ارتياح، ثم شكره وشكرهم جميعاً على زياراتهم الدائمة، كانت عائشة تركهم ليقضوا وقت الزيارة معه عليهم يخرجه من حالة العزلة والحزن الغريبة التي لاحظتها عليه

بعد أسبوعين، شعر بأنه صار قادراً على الجلوس على سريريه لبعض الوقت والمشي قليلاً بالغرفة، والدردشة مع رفاقه عبر الهاتف، ومع اقتراب وقت العصر في ذلك المساء، أخذ يتحدث مع رُبا ووالدته حول دراستها، قالت عائشة مبتسمة:

-تعليم بطيء لكنه مثمر، أعتقد بأنني سأسمح لضياء بتدريسها حتى موعد السنة الدراسية الجديدة لتلتحق بالمدرسة، سنذهب إليها بعد قليل.

ابتسم لُربا وقال:

-هذا جيد يا رُبا.

ابتسمت له وقالت في زهو:

-أنا رسامة موهوبة يا طارق.

-حقاً!! أريني شيئاً من لوحاتك.

أسرعت تفتح حقيبتها لتخرج له دفتر به عدد من رسوماتها، رآها وأثنى عليها ثم قال:

-استمري، ستصبحين رسامة عظيمة في المستقبل إن شاء الله.

-شكراً أخي.

ثم نظر لأمه وقال:

-لقد أصبحت تذهين لمنزل ضياء بدلاً عني.

تنفست الصعداء، وهي تقول في ضيق:

-للأسف نعم، بعد أن تحسنت قليلاً استطعت ذلك، أشعر بالاختناق بمجرد ولوجه.

سألها بحزم:

-أمي، ما رأيك بسكانه؟

سألت بدهشة:

- سكانه؟!!

- أقصد معاملة ضياء وأمها لك.

-إنهما طيبتان، وضياء بالفعل فتاة صبورة وقد انسجمت مع رُبا وإزعاجها رغم عدم ارتياحي لها وخوفي من شكل وجهها؛ لكنني لم أكن لأزروهم لأي سبب سوى حاجتي لها وتلبية لطلبك، منزلهم يثير اشمئزازي.

- أمي، ربما أولئك الناس لا يحبون الإقامة بالمنزل كذلك، فهل ستنزل طيبة ضياء وأمها في نظرك بسبب سوء المنزل وتشوه وجهها؟

بدا الاستغراب على وجهها من قوله فحدجته بنظرات حادة وهي تقول:

-ما الذي تحاول قوله؟

- ما أردت قوله هو أن الإنسان بجوهره يا أمي وليس بمظهره أو بمظاهر ما حوله.

عقدت حاجبيها، وقالت في ضيق:

- حقاً؟! هذا الكلام لا يقنعني، ما يهمني هو أن تتعلم ابنتي وحسب، وإن وجد والدك وقت فراغ فسأدعه يتولى إيصال رُبا ويحل مكانك.

بدا اليأس على وجهه حين لم يستطع إقناعها بكلامه، وتنهَّد بعمق، وكادت رُباً أن تتكلم حين أقبل عبد الكريم من عند الباب وهو يقول مبتسماً:

- احزر من جاء لرؤيتك يا طارق؟

- من؟

سأله في فضول، فتح الباب ليدخل عدد من زملائه بالكلية، رحب بهم في سرور وجلس عائشة وربا بعيدتان حين أحاط رفاقه به ومن ضمنهم أصدقاؤه الأربعة المقربين، تبادلوا الأحاديث في مرح وقدموا له الهدايا واطمأنوا عليه، ليدخل بعدهم عدد الآخر، سرّ بزيارتهم وابتهج؛ لكن حين دخلن زميلاته خفق قلبه بعنف وهو يتخيل بأن ضياء ستكون معهن لتطمئن عليه، شكرهن على الزيارة وبصره يبحث عن وجهها بينهن فلم يجدها، قال في نفسه ساخراً:

- يا لي من شخص غريب، كنت أكره رؤية وجهها فإذا بي أبحث عنه الآن؟ وما أغباني حقاً، كيف أفكر بأنها قد تأتي لزيارتي وأنا من تفنن بجرحها وإهانتها؟

لم تهدأ أوجاع نفسه ولم يستطع تهدئتها حتى بعد أن ودعه زملاؤه وزميلاته جميعهم، بقي صامتاً واجماً لفترة يعدد المواقف التي جمعتها بها فلم يجد فيها ما يسكن آلامه؛ بل فاقمتها، استلقى على فراشه وهو يتحدث في نفسه:

- ضياء تكرهني، ماذا ستكون نتيجة الكراهية إلا مثلها؟ كيف أسمح لفناة كنت أكرهها بأن تستحوذ على قلبي وتشغل فكري هكذا مهما كان خلقها وطبيعتها وتعاملها؟ لم تردني إلا ألماً

بمساعدها ليتها لم تفعل، هل يمكنني نسيانها ونسيان كل ما حدث؟ كيف سيتم لي ذلك؟
بت تائه لا أدري ما أريد.

انتبه الوالدان لعودته إلى شروده الغريب ذاك، نظرا لبعضهما في قلق، وعائشة في حيرة كبيرة
لتصرفاته، توقعت أن تتغير نفسيته بعد رؤيته لكل زملائه، أما عبد الكريم فقد أيقن بأن
ضياء قد احتلت مكانة في نفسه ولهذا افتقدها بين زميلاته لتحتمل معركة العقل والقلب من
جديد، أشفق عليه، وهو يقول في نفسه:

- غريب أن يتعلق قلبك بها بعد كل ما بدر منك، أرجوك لا تحاول ذلك.
إلا أن رُبا -التي لم تدرك شيئا- أسرع تقترب منه، وقالت في مرح وهي تبحث عن شيء في
حقيبتها:

- نسيْتُ أن أريك شيئا يا طارق.

أعرض بوجهه عنها، وهو يقول في ضيق:

-أريد أن أنام، ابتعدي عني.

قالت متجاهلة طلبه:

-وسام الشجاعة.

انتبه لها ونظر إلى القلادة المصنوعة من الصوف حيكت خيوطها ذات اللون الأصفر
والوردي بعناية لتكون على شكل زهرة، كتبت بقلبها (الشجاعة رُبا) وأحاطتها ببعض

الحبات الكريستالية الصغيرة، أدرك بأن ضياء هي من صنعتها لأجلها، ارتدتها في زهو، وهي تقول:

- أخبرني ضياء بأن الشجاع هو من يستطيع أن يحفظ أسرار غيره وكافأني بها.
قال عبد الكريم:

- إنها جميلة يا ابنتي، وضياء على حق فيما قالته لك.
ابتسمت له؛ لكنها فوجئت بطارق يضحك بصوت عالٍ فعقدت حاجبيها، وقالت في غضب:

- أفسخر مني؟
تمالك نفسه وهو يتحمل ألمه أيضاً لانفعاله المفاجئ:
- لا أبداً، بل سخرت من طريقة تفكيري حين أغريتك لكي...
قطع عبارته حين انتبه بأن والديه سيعرفان بأمره، فقال لها:
- إنها جميلة جداً يا رُبا، لقد نجحت.

عادت ترسم الابتسامة على وجهها وتقول:
- شكراً لك، كما أن ضياء طلبت مني أن أبلغك تحياتها وتمنى لك الشفاء.
وجم حين سمع ذلك، بينما ابتسم عبد الكريم وهو يقول:
- معلمتك فتاة طيبة يا رُبا.
- هي كذلك يا أبي.

هزت ربا رأسها مؤيدة، بينما ابتسم طارق ابتسامة صغيرة مشوبة بالحزن وهو يقول في نفسه:

- لم يا ضياء؟ لم؟ لم أكن إلا أؤذك ومع ذلك...

ثم نظر لأخته وقال:

- أشكركم نيابة عني.

ردت في حماس:

- سأفعل.

عاد ليسترخي على فراشه ويغمض عينيه وهو يشعر بأن ضياء قد كبرت في أعماقه، فقال في نفسه:

- رائعة أنت يا ضياء، أما أنا، فلن أكون سوى شهاب يختفي في سماءك، لن أصل إليك كما وصلت إلي، هل سأعيش الآن يا ترى بقلب لم يعد لي؟

وحلت بركات السماء في أمسيات ليالٍ مليئة بالخير والعطاء..

ليالي شهر رمضان الذي أزف على بلوغ النهاية، ومعه وفي نفس اليوم تحل الذكرى الأولى التي تمر بقلب ضياء؛ بل بقلوب كل أهل عدن، ففي هذا اليوم من العام الماضي أعلن تحرير عدن وانتصار المقاومة، كانت تشعر بالسعادة لذلك، وبالحزن لعجزهم عن العودة إلى أحضانها؛ لكن الحياة يجب أن تستمر بما سيتناسب مع ظروفهم، وما زاد فرحتها اتصال سحر بها لتبشرها بنجاحها وحصولها على درجة الامتياز والمرتبة الأولى، شكرتها ثم أسرعت تبشر

أمها التي هنأتها وفرحت كفرحها، وانتظرت قدوم شادي الذي استأنف عمله بالورشة والسوق المركزي بعد إجازة إصابته، انتظرت به فارغ الصبر لتبشره أيضاً وتريه أن جهوده معها لم تضع هباءً.

ومع وقت السحور عاد إلى البيت، كانت إصابته لا تزال مضمدة وقد أزيلت الجبيرة منها، وهو يحاول قدر المستطاع أن يقوم بما يستطيع القيام به بيده الأخرى، وبذل جهده لأجل ذلك، استقبلته على الفور وهي تقول في فرح:

-بارك لي يا أخي.

ابتسم وقال:

-مبارك يا ضياء، لكن لم؟ هل ظهرت نتائجكم؟

-نعم، وقد نجحت بتقدير امتياز.

تهلل فرحاً وقَبَّلَ جبينها وهو يهتف:

-مُبارك مبارك يا أختي.

-شكراً لك، أشعر بسعادة كبيرة أن استطعت التفوق رغم كل ما مررنا به، لقد بقي نصف عام فقط.

-الحمد لله، كنتُ أتوقع لك ذلك.

-وماذا عنك يا أخي؟ كيف سير عملك مع إصابتك؟

بادلها الابتسامة وهو يقول:

-إني في مرحلة التأهيل، ورئيسي بالعمل قدرا وضعي، بفضل استطعت أن أعيد ما استدنته من مالك الورشة بفضل مساعدتك لي يا ضياء ولم يتبق إلا دين السيد عبد الكريم.

ابتسمت في سعادة، بينما تابع:

-أتدريين من جاني اليوم بالسوق؟ كان طارق.

بدت المفاجأة على وجهها، وسألت:

-هل خرج من المستشفى؟

-قال بأنه قد خرج منذ أكثر من أسبوع، بدالي متعباً لكنه بخير.

- ماذا كان يريد منك؟

- شكرني على مساعدتي إياه في ذلك اليوم واعتذر عما بدر منه حينها.

ذهلت لقول أخيها، بينما سألت مها قائلة وهي تقترب منها:

-هل كان جاداً؟

- لا أخفيك سراً، لم أعد أرى ملامح وجهه المغرورة التي عرفتة بها في ذلك اليوم، شعرت بأنه قد تغير كثيراً، لا أدري، هل الحادثة التي أرقدته المستشفى سبب ذلك؟..

ازدادت دهشة ضياء وذهولها وهي تفكر، لقد التمسست تغيراً في حديثه معها في آخر يوم له بالكلية، ما الذي غيره هكذا؟ وتذكرت رُبما حين أخبرتها عن سبب إصابة وجهها وأجابتها

لكنها نقلت حديثها لأخيها، فقالت لها بعصية:

-لم أخبركِ أخاك بذلك؟

قالت رُباً في ارتباك:

-لم تخبريني بأن هذا الأمر سر، ظننته أمراً عادياً..

تنهدت بعمق، بينما قالت رُباً:

-لكن طارق حزن لذلك، لم يسبق لي أن رأيته حزيناً هكذا من قبل.

ذهلت لقولها، لم يكن طارق يكثر بشيء إلا بنفسه، هل حقاً سيتغير؟ عليها أيضاً ألا تطمئن لجانبه بعد كل ما بدر منه نحوها، أرادت فقط أن تعامله كأخي زميل لها دون تساهل بسبب ذلك فوافقت على نصيحة سحر؛ لكنها أرسلت له سلامها مع رُباً.

ثم قطعت بحر تفكيرها حين سمعت أمها وهي تقول في ابتسامة:

-أسأل الله أن يهديه ويكون عوناً لوالده الطيب..

قال شادي:

-وأنا أتمنى ذلك أيضاً.

ثم رن هاتفه في تلك اللحظة فأجاب:

-السلام عليكم.

-وعليكم السلام، عزيزي شادي، كيف حالك؟

قال شادي في فرح:

-خالي نبيل!! كيف حالك؟

بدا السرور على وجهها وأسرت تترنح هاتفه من يده فاجأته لكنه ابتسم لتصرفها، ورأى دموع فرح في عينيها وهي تقول:

- أخي، كيف حالك وحال أسرتك؟ أين أنتم الآن؟

-لقد عدنا إلى بيتنا منذ شهر، تعثر بعض أمور في المملكة فلم نتمكن من العودة إلى عدن؛ لكن الحمد لله كلنا بخير، ماذا عنكم؟

- الحمد لله نحن بخير، موجودون في مدينة المكلا.

-عرفت هذا من بعض من هم موجودين عندكم من عدن، لم لا تعودون يا אחتي؟ لقد عاد الكثيرون، المحافظة تحررت منذ مدة.

بدا الحزن على وجهها وهي تقول:

- أعلم هذا يا אחتي؛ لكن أين سنعود وقد تهدم بيتنا؟

- إلى منزلي يا אחتي، أهلا بكم، لا يمكنك أن تظلي بعيدة عنا هكذا.

- ولكن سنثقل عليكم.

- ما هذا الكلام؟ ما كنا لتتفرق لولا الحرب يا אחتي، عودوا وكل الأمور ستكون على خير

ما يرام، والجامعة قد عادت للعمل واتصل بي رئيسها طالباً أن يلتحق شادي بهيئة التدريس وضياء ستكمل دراستها بيننا.

ابتسمت وهي تقول في اقتناع:

-الحمد لله، حسناً إذن، ضياء على وشك إنهاء سنتها الدراسية، سنعود إليكم بعد أن تتممها إن شاء الله.

نظر الشقيقان لبعضهما في فرحة عامرة، أن يعودوا لمدينتهم بعد هذا الغياب، ثم سمعت مها نبيل يقول:

-كما تريدن، أعطيني ضياء لأحدثها.

ناولت مها الهاتف لابنتها، وسلمت ضياء على خالها فرحة، ثم قال لها بألم:

-لا بأس على ما أصابك يا ابنتي.

-هل علمت بها؟

-نعم علمتُ عنكم كل شيء.

قالت لتطمئنه:

-لا تقلق، الحمد لله أنا بخير.

رد بحزم:

-عندما تعودون وتستقر أمورنا جميعاً سأخذك إلى السعودية، سمعتُ من أحد أصدقائي بأن

هناك طبيباً جراح مميز بإمكانه علاج إصابتك ستعودين كما كنت إن شاء الله.

-هذا كثير يا خالي، يكفي أن...

قاطعها وهو يقول في حزن:

-ابنتي، أشعر بالذنب لأنني قصرت بحققكم، ما كان علي مغادرة المدينة من دونكم.. لكن خففوا عبء هذا الذنب بقدمكم.

-شكرا خالي.

أشار شادي لها فناولته الهاتف وهو يقول في لهفة:

-خال، هل هنالك أمل في إجراء الجراحة لضيء؟ لقد مضت أكثر من سنة على إصابتها.

-أعلم يا بني؛ لكنني سأبذل ما في وسعي لأجلها ولنسلم أمرنا لله المهم ألا نياس.

هدأ نفسه وأجابه في امتنان:

-ونعم بالله، شكراً لك يا خال.

وحين انتهت المكالمة، دخلت السعادة أعماق قلوبهم ورأوا تباشير الفرح تلوح لهم بعد كل ما مروا بهم ولاح فجر الأمل من ظلمة اليأس والألم والحرمان، كان أجمل شعور وليج صدور نازحين شردوا من أرضهم وبيتهم قسراً لتلوح لهم الفرحة بالعودة للديار بعد كل تلك الأحزان، مداوية جراح أيام طال اندماها.

ثم أقبلت أيام الفصل الدراسي الجديد الأولى، ومعها عاد طارق وبرفقته رفاقه الأربعة إلى القاعة، هتف زملاؤه الشباب بصوت واحد عالٍ مرحبين به في سرور، كان يرتدي قبعة على رأسه بعد أن تم حلق شعره بسبب العملية، لم يكن يحب منظر شعره القصير الذي جعله يبدو أصلعاً فواراه بها، ورغم أن ملامح وجهه بدت مختلفة وجسده ضعف قليلاً، وطبعه

صار أكثر هدوءً، إلا أنه استقبلهم بابتسامة مثل ما استقبلوه بكل بشاشة، وعزوا تغيره بسبب
تغييه فترة طويلة وبسبب ما واجهه من إصابته ومرضه.

أما هو، فقد كان يتذكر رجاء والده في أن يجعل الدراسة جل اهتمامه وأنه سيتابعه و يبذل
جهده لأجله، قرر أن يلبي طلبه رغم أن عبدالكريم لم يطلعه على معرفته بما فعله مع ضياء
راجياً تغيره حين أحس بدمه، واصل دراسته وأكمل امتحاناته وحاول بجهد فيها حتى
استطاع النجاح بتقدير جيد فرح بذلك كما أسعد والديه أيضاً، ثم عاد لينتظم في مقاعد
الدرس بعد ذلك يعوض ما فاته خلال فترة الامتحانات؛ لكن ما يربكه هو مواجهته لضياء
بالقاعة كل يوم.

لم يكن يدري ما هي حقيقة شعورها نحوه، هل تكرهه كما كان يكرهها وبسبب ما بدر منه في
الماضي؟ هل تحاول تناسي ما كان منه لأجل عملها في تعليم ربا؟ إنه ولا شك لا شيء بالنسبة
لها، أما هو فقد أدرك مكانتها في نفسه، فكيف يصلح أخطاءه أو أن يطمح بأن تسامحه بعد كل
ما بدر منه؟ كان يتحاشى حتى النظر إلى حيث تجلس رغم أن قلبه يراها كل يوم فلا تفصلها
إلا أمتار قليلة، لقد أظلت سماء قلبها أرض قلبه دون أن يستطيع السمو لها، هل هناك أمل
له؟ ظل حائراً في معاملته لها، وغير قادر على مصارحة أحد بما في نفسه، إنه بحاجة إلى فتاة
مثلها أو امرأة تكون وسيطاً بينهما حتى يدرك جلية شعورها نحوه؛ لكن من تلك يا ترى؟ لا
أحد أمامه سوى أمه التي أخبرته بأنها لا تحبها وتخاف من وجهها ولم ترتح لها بسبب ذلك

مثل ما كان يكرهها، حاول أن يغير فكرها ولم يستطع، إنها الشخص الوحيد التي يمكن أن تساعد، ظلت أعماقه مضطربة لم يصل إلى حل ينهي ما يعتمل في نفسه.

أما رفاقه الأربعة فقد أزعجهم هدوءه، لم يعد ينسجم معهم في أحاديثهم المعتادة عن المحاضرين والطلاب مثل ما كان يفعل كل مرة في أثناء المحاضرات، ولم يلاحظوا ذلك إلا حين عاد إلى الجامعة، بعد خروجه من المستشفى وبقائه في المنزل كانوا يزورونه يوميا ولم يلاحظوا عليه أي تغيير إلا الآن، تسائلوا في أنفسهم:

-ماذا حدث له؟

فاجأهم مرة حين طلب إليهم أن يقللوا حديثهم ويتقدموا إلى المقاعد الأمامية، لم يصغوا لطلبه وماطلوه، حينها ترك الجلوس بقرهم منتقلاً من مقعده، لفت هذا التصرف كل زملائه وزميلاته، قالت سحر لضيء في همس ساخرة:

-لن يستطيع فهم شيء حتى لو جلس بأول مقعد.

ابتسمت لها وهي تقول في سرور:

-لا يا سحر، يبدو لي بأن طارق جاد في سعيه نحو التغيير مثل ما حدث في آخر يوم، أسأل الله أن يهديه ويوفقه.

نظرت إليها وقالت بشيء من الحدة:

-لن يتغير وسيعود إلى سابق عهده بعد أن يتأقلم بعد غيابه.

-دوام الحال من المحال، وسنرى ذلك.

نظر الرفاق الأربعة لبعضهم البعض في حيرة واستغراب لتصرفاته، ثم تبعوه في تغيير مواقعهم إلا وليد الذي كان المدرج الأخير ملاذه للنوم، وحين كانوا بمقصف الكلية مجتمعين حول أحد الطاولات يتناولون فطائرهم، قال له محمود في سخرية:

-هل سمعت جواب المزدوجة عن...

قاطع طارق في حدة وهو يقول:

-غير هذا الحديث.

قال صبري في حيرة:

-ما بك يا طارق؟ نريد أن نلهو ببعض الحديث عن...

نهض وهو يقول:

-افعلوا هذا لو حدكم، اسمحوا لي.

تركهم ودفع ما عليه وغادر المكان، قال صبري في ضيق:

-أهكذا يعاملنا ونحن أصدقاءه منذ الثانوية؟

قال وليد في ضيق مماثل:

-شيء ما أصاب عقله بعد العملية.

قال محمود في حدة:

-جميعكم تدركون ما هو الشيء الذي يزعج طارق، وجود ضياء، لاشك بأنها مسرورة بعد غيابه الطويل وإعادته لامتحاناته، بينما هو يشعر بالهزيمة لذلك ولا يدري ماذا يفعل ليستعيد هيئته.

-أعتقد بأنك على حق، إنه يتحاشى حتى النظر إلى حيث تجلس.

قال ناصر بعد تفكير:

-طارق لا يشعر بالهزيمة وحسب، بل شيء داخل نفسه قد تغير يدفعه لتجنب ضياء، أثناء فترة رقوده سألتني والده عما حدث بينه وبين ضياء من مواقف فأخبرته، لا بد أنه قد عنفه بسببها وسيعود طارق الذي نعرفه إن غادرت ضياء هذه الكلية.

سأل محمود:

-وما هو هذا التغيير يا فاهيم؟

-لا أعرف؛ ولكن الحل هو أن ترحل ضياء من هنا..

قال في مكر:

- إذن، لدي خطة مناسبة و سنجعل طارق بنفسه ينفذها لترحل ضياء و يعود لنا طارق الذي نعرفه.

و أخبرهم بخطته واتفقوا على تنفيذها، وحين خرجوا من المقصف واتجهوا لقاعة رأوا ضياء تنادي طارقاً بالممر، فانتظرها ولما وصلت إليه قال:

-ما الأمر ضياء؟

بدا الارتباك عليه وهو يتجنب النظر إلى وجهها، بينما أجابته:

- اعطني هذا الدفتر لوالدتك، لقد نستته رُباً ليلة أمس.

تناول الدفتر منها وابتعد سريعاً، كان مرتبكاً في نفسه متألماً مما بدر منه نحوها وفي دوامة

صراع لا يدري كيف ينهيها، بينما بدت الحيرة على وجهها من تصرفه.

قال وليد لرفاقه:

-نحن معك يا محمود، يجب أن نعيد طارق إلى سابق عهده.

هزوا رؤوسهم ودخلوا القاعة وانتظروا نهاية الدوام بفارغ الصبر، ولما انتهى أحاطوا به حين

كان جالسا بالمدرج الثاني يرتب أدواته في حقيبتته استعداداً للمغادرة، قال له محمود:

-هناك أمرٌ يجب أن نتحدث فيه عند مغادرة الجميع.

فوجئ بتصرفهم - وهو يتطلع في وجوههم محاولاً اكتشاف ما يريدون- لكنه لم يستطع

وانصاع لطلبهم، ولما خلت القاعة لهم، جلس محمود عن يمينه وناصر عن يسار ووليد

وصبري خلفهم، سألهم في حيرة:

-ما الأمر؟

قال محمود في حدة:

-ما بك مهزوم هكذا يا طارق؟

دُهِش وقال:

- مهزوم؟!

قال ناصر في حدة أيضاً:

-نعم، أنت ضعيف جداً، كيف تسمح لضياء بأن تؤثر فيك هكذا؟..

-تؤثر في؟!

فقال وليد وهو يمسك بأعلى ظهر كرسيه :

-نعم، منذ أن غبت عنا بسبب إصابتك عدتُ إلينا منكسراً بدل أن تسعى للانتقام ممن

اعتدى عليك ومما فعلت، لا تنسى بأنها أهانتك أمام الجميع.

أجابه بحزم:

-لقد كنتُ مخطئاً حينها..

قال صبري ساخراً:

-ألم يقل لك محمود بأنك قد عدت إلينا مهزوماً! منذ متى صرت تعترف بالخطأ؟

رد بغضب:

-ليس هذا من شأنكم.

- لقد قلت لنا وقتها بأنك لم تخطئ والآن تقول لنا بأنك مخطئ؟! عجيب أمرك.

قال بنفاذ صبر:

-ما الذي تريدونه مني؟

قال محمود وهو يعقد حاجبيه وينظر في عينيه:

- نريد عودة طارق الذي نعرفه، صاحب الشخصية القوية الفريدة التي لا تعباً لأي شيء إلا بنفسها.

رد متجاهلاً قوله:

-أعتقد بأن طارق الذي تعرفونه قد رحل.

وكاد ينهض إلا أنهم جميعاً أمسكوه من كتفيه وأجلسوه بقوة، قال بغضب:

-دعوني وشأني.

قال ناصر في حزم وهو يضع طرف إصبعه على صدره:

- لا، في أعماقك لا يزال صديقنا الذي نعرفه موجوداً.

قال صبري ساخراً:

-لم تعد رجلاً؛ بل صرت ضعيف الشخصية.

قال محمود في سخرية ممائلة:

-أصبحت محل شفقة الجميع بسبب ضياء.

ارتبك من كل أقوال رفاقه، فصرخ بوجوههم قائلاً:

-توقفوا... أنا لست...

قال وليد بسخرية مقاطعاً إياه:

-ترى، هل ستسمح لتلك المزدوجة بالسخرية منك؟

- لم يسخر مني أحد.

قال محمود:

-هه، من أخبرك بأنها لم تسخر منك؟ كانت في قمة السعادة لغيابك.

بدت الصدمة على وجهه، في حين قال ناصر في سخط:

- هذا صحيح، حتى أنها قالت الدفعة صارت أفضل من دون طارق..

لم يستطع أن يستوعب ما سمعه، قال ناصر متابعاً حين أعجبته ملامح الصدمة على وجهه:

- لقد سمعتها أيضاً تقول: لقد ارتحنا من إزعاجه ووجوده.

فقال طارق في حيرة:

-كيف يمكنها قول ذلك وهي من ساعدني؟

فسأل محمود في اهتمام:

-متى ذلك؟

فروى له ما حدث في ذلك اليوم حين فقد وعيه بسبب مرضه، رد عليه في سخرية:

- هل أنت غبي؟ ضياء تساعدك! هل تظننها فعلت ذلك لأجلك؟ بل فعلته لأجل أختك،

هل تريدونها أن تظهر وجهها الشرير أمامها؟ لقد كانت مضطرة لذلك، يا لها من خبيثة.

ذُهل لما سمع، لم يفكر أبداً بتلك الطريقة، هل يمكن أن تكون مساعدة ضياء له هو لأجل

أخته فقط؟ فتمتم في نفسه:

-مستحيل، وأنا أعتقد...

قطع تفكيره حين ربت محمود على كتفه وهو يقول في حزم:

-نحن أصدقاؤك منذ سنوات يا طارق وكل ما يهمننا هو أن نراك كما عهدناك، ولا نريدك أن تكون سخرية أحد وسنبذل كل جهدنا لأجلك، ألم تلاحظ بأنك لا تستطيع حتى النظر إلى ضياء ولا حتى إلى حيث تجلس؟ ألسنت تشعر بأنها قد انتصرت عليك؟
تلبك وهو يقول:

- بل...

رد ناصر وهو يربت على كتفه الآخر ويقول في رفق:

- بل أنت تشعر بأن شيء بداخلك قد انكسر ولا تستطيع إعادته ونحن سنساعدك يا صديقي..

نظر إليه في دهشة، نعم شيء في داخله انكسر، شيء بداخله تبعثر ولا يدري ما هو حقيقته سوى أنه يدرك بأنه أخطأ في حق ضياء ومع ذلك ساعدته ولم يستطع أن يعتذر لها عن كل ما بدر منه طوال السنة الدراسية، لقد كبرت في نفسه بينما هو شعر بأنه أقل منها بكثير بسبب ما قابلته من خير مقابل ما قدمه لها من إساءة، حتى أنه لا يستطيع أن يبوح بمشاعره لأحد، أما الآن، فقد صدمه ما سمعه عنها، وهل ما سمعه كانت جنابات الحقيقة التي استترت بما رأى من رقي خلقها، قال محمود متابعاً:

- إن رحلت ضياء من الكلية فستنسى كل ما مررت به وستظفر لنفسك منها إزاء سخريتها وشماتها بك.

اتسعت عيناه وزادت صدمته وهو يقول:

- ترحل!!

هز الأربعة رؤوسهم، وقال ناصر بحزم:

-هزيمتك لن تجربها إلا انتصارك بهذه الطريقة، ولدى محمود خطة مناسبة لذلك، لن نؤذيها وفي الوقت ذاته ستستعيد نفسك السابقة.

تخبطت نفس طارق هنا أكثر مما كانت عليه، إن رحلت ضياء هل سيعود كما كان؟ هو يشعر بأنه غير قادر على الوصول إليها ولا الابتعاد عنها ونسيان كل ما بدر منه، هل سينهي ذلك كل دوامة الصراع التي داخله؟ وفوق هذا كانت ساهرة شامته منه بسبب مرضه؟ هز رأسه في قوة مبعدا كل ما في قلبه من صراع حين اجتاحه الغضب، قال في نفسه:

- وضعت لها مكانة في نفسي فإذا بها تهزأ بي! بئس اختيارك أيها القلب، لن أهين نفسي بسببها وأربكها أكثر من هذا.

نظر لمحمود وهو يعقد حاجبيه ويقول في حزم:

-أنا معكم، ما هي خطتك يا محمود؟

ابتسموا جميعهم حين رأوا نظرات طارق التي ألفوها تشع من جديد، وأطلععه محمود على خطته اتفقوا على أن ينفذوها صباح الغد.

الفصل السادس والعشرون

نصر على...

عند عتبة بوابة الكلية، كانت الأحلام تتراقص أمام عينيها دائماً، تغازل فكرها، وتحتضنها بكل شوق، فتسعى نحوها، ضيأؤها يمنحها الأمل، ويهبها القوة للمضي قدماً رغم كل عقبة قد تعترض دربها، انعكاسة شعاع الشمس من المبنى يجعل وجهها يشرق بابتسامة التفاؤل دائماً، إن كل ظلمة للعناء لا بد أن تختفي وتتفتق عنه نور الطمأنينة بين ثناياه. ما أن دلفته حتى رأت سحر وصفاء وسوسن وندى في انتظارها، سلمت عليهن في ابتسامة وسرور، ثم مضين في طريقهن نحو القاعة، حين قالت سوسن في ابتسامة:

-هل علمت بما جد مع سحر يا ضياء؟

هزت رأسها وهي تقول:

-لا، وماذا حدث؟

قالت سحر في ارتباك:

-ليس هذا وقته يا سوسن.

اتسعت ابتسامة سوسن حين رأت ارتباكها وهي تقول:

-بل وقته يا سحر، أم أنك لا تريدني أن أخبر ضياء؟

زاد ارتباكها ولم تعقب، فعادت سوسن تلتفت لضياء وهي تقول:

-لقد تمت خطبة سحر ليلة أمس.

هتفت ضياء في فرح وهي تقول:

-حقاً يا سحر؟ لم لم تخبريني؟

بدا الخجل على وجهها رغم أنه لم يظهر على وجهها كثيراً بسبب النقاب ، اكتفت بهز رأسها،

لحظتها عانقتها ضياء بفرح مهيئة وهي تقول:

-مبارك يا عزيزتي، ألف مبارك.

ثم غمزت بعينها وهي تقول:

-من سعيد الحظ هذا؟

علت وجوه الفتيات الابتسامات وهن ينتظرن إجابة سحر التي ردت بتلعثم وخجل:

-إنه ... أحد أبناء جيراننا.

هتفت ندى:

-مبارك سحر، لاشك بأنه يراك كل يوم و...

زادت حمرة الخجل على وجهها رغم أنها حاولت أن تقاطع كلامها بقول حزم:

-أصممت يا ندى.

تصاحك الفتيات من زيادة خجلها الذي سبب لها ارتجافاً واضحاً، ارتعاشة القلب من

الفرط السعادة كانت تبان على الجسد، وقالت لها سوسن وهي تربت على كتفها:

-أدام الله سعادتك يا رفيقتينا الغالية.

شكرتهن سحر بامتنان وبنفس متقطع، ثم قالت صفاء:

- ما رأيكِ بتهنئة لك نعلقها لأجلك بلوحة إعلانات الطلاب؟ أريد كل من في الكلية أن يعلم بهذا الخبر السار.

هزت رأسها وقالت محاولة إبعاد خجلها:

- ليس لدي مانع.

ضحكت سوسن وهي تقول:

- لا مانع لديكِ وأنتِ خجلة من مجرد حديثنا فقط، فما بالك لو صار الخبر حديث الطالبات؟ مؤكد بأنكِ لن تأتي أبداً إلى هنا.

عاد الفتيات يتصاحكن ويداعبنها ليفلتن الاتزان منها وتغرق في الخجل حوارهن، أما ضياء فقد ظلت تتأملهن بصمت والابتسامة على وجهها وهي ترى السعادة في عيني سحر، لا يمكن لها أن تحظى بهذه السعادة ذات يوم مع قبح وجهها، من سيلتفت إليها أو حتى يفكر في الارتباط بها، لم تكن إلا موضعا للسخرية منذ أول يوم دلفت فيه إلى الكلية، كادت أن تتخيل نفسها للحظة ترتدي ذلك الفستان الأبيض التي تحلم كل فتاة في مثل سنّها أن ترتديه وأن يهنيها الجميع بقدوم شريك السعادة لدرها، إلا أنها نفضت سراب الخيال البهيج بسرعة وعادت للواقع، لن تأمل في شيء إلا إذا قدرت ما سيؤول إليه مصير العملية التي اعتزم خالها أن يسهل أمر إجرائها لها مع أن سنة قد مضت وصارت الندبة مجمدة داكنة ثابتة لم تتغير، كان مصير مستقبلها هذا مجهولاً.

هي على كل حال ستسافر إلى مدينتها وستلتقي بكل أهلها هناك، فهل ستحظى بالقبول من أحدهم وهي بهذه الهيئة وهي لم تحظ من الغرباء إلا بالسخرية؟ تمتت في نفسها محاولة إبعاد تلك الأفكار:

-علي ألا أفكر في هذا الأمر الآن وأشغل نفسي بما هو حاضر وأترك المستقبل لمشئئة الله.
وأوقفت تفكيرها حين هتفت بالفتيات قائلة:

-اليوم لدينا تجربتان بالمعمل، لابد أن نقوم بها قبل اكتظاظه بالطلاب.
قالت سحر وهي تتنفس الصعداء في سرور لتغيير ضياء لموضوع خطوبتها وإنقاذها من دوامة الخجل:

-لقد أبلغت الأستاذ قاسم مسؤول المعمل بذلك، وأيضا أخبرت الدكتور سامي أننا سنجرها أثناء المحاضرة واستأذنت منه لأجلها، كل الأمور معدة كما خططنا لها.
ابتسمت ضياء وقالت :

-حسناً، سنقوم بها خمستنا، لابد أن ننجزها بأسرع وقت و بإتقان.
واتفقن على ذلك، مع بداية الدوام توجه مباشرة إلى المختبر مرتديات معاطفن البيضاء، وضياء هي من تقودهن وتشرف عليهن وتدير التجربة، كان المختبر بالطابق الأرضي من مبنى الكلية، فقد كان طلاب الدفعة يعملون كمجموعات وتقع على عاتق القائد الانتباه لمعايير المحاليل المواد الكيميائية المستخدمة وتكون محددة وفق التجربة المراد إنجازها

ويجدها لهم الدكتور سامي، قام الفتيات الخمس بتجربتهن، وحين أوشكت عقارب الساعة على الاقتراب من الثامنة والنصف دخل قاسم وهو يقول لهن:

-ألم تنتهين يا فتيات؟ وقتكن على وشك النفاذ.

فردت عليه ضياء:

-نوشك أن ننتهي أستاذ قاسم، دقائق فقط..

فسمح لهن إلى أن انتهين ودون النتائج في أوراقهن، فقالت لهن ضياء:

-ستبقى التجربة الثانية وسنجريها بعد مناقشة الدكتور بنصف ساعة.

وهز رفيقاتها رؤوسهن مؤيدات ثم عدن سريعاً إلى القاعة لمناقشة ما قمن به، في تلك اللحظة، كان طارق وناصر و محمود خارج قاعة المحاضرة يراقبون المختبر من بعيد حين خرج الفتيات، بينما كان صبري و وليد من جهة أخرى يراقبون المختبر كذلك فقد تعمدا التأخير ليتم طردهم خارج من المحاضرة ويخلو لهم المكان لانشغال الطلاب بالمحاضرة الأولى.

و حين رأى طارق ضياء وهي تحدث رفيقاتها بين الابتسامة والجد تذكر ابتسامتها له في ذلك اليوم ثم معاملتها لأختها، ثم اطمئناتها عليه، شعر بألم في قلبه وهو يتذكر بأن ضياء سترحل وسينسى معها كل شيء حدث معها، تلبك وهو يقول في نفسه:

-ماذا يحدث لي الآن؟ لم هذا التردد الآن وقت التنفيذ رغم كل ما أخبرني به رفاقي عنها وبعد أن قررت إبعادها عن دربي؟ لم أنا مرتبك حتى من رؤيتها.

استيقظ من شروده حين قال محمود هامساً له ولناصر:

-سيقوم صبري ووليد بإشغال الأستاذ قاسم بينما ندخل نحن الثلاثة وتخلصان من كل المحاليل التي استخدمتها مجموعة ضياء فقط.

فقال ناصر بخبث:

-وهذا تلقى المسؤولية على ضياء ورفيقاتها لإهمالهن ويغرمن على ذلك.

هز طارق رأسه مؤيداً، فقال ناصر وهو يمسك بكتفه بقوة حين رأى الارتباك في عينيه:

-كن قوياً يا طارق، لن يحدث شيء، وستدفع ضياء إزاء اهانتها لك.

لم يقل شيئاً بل هز رأسه مؤيداً ما قاله مرة أخرى محاولاً إبعاد ارتبائه، لحظتها رأى الثلاثة صبري ووليد يدخلون إلى المعمل ثم يخرجان منه برفقتها الأستاذ قاسم الذي قال في قلق:

-وأين تركتما طارق؟

فأجاب وليد في قلق:

-في المصلى؛ لكنه لم يستيقظ حتى الآن ولا نعرف السبب.

فقال صبري في قلق مماثل:

-أستاذ، أرجوك ساعدنا، لا ندري ما به، أخشى أن يكون شيء قد أصابه بسبب العملية الأخيرة التي أجراها.

ازداد قلق قاسم، فالجميع يعلم ما أصاب طارق في الآونة الأخيرة، فأسرع معها، بينما جعل صبري الباب شبة مغلق مستغلاً قلق أستاذه ليندس طارق ورقيقه من ورائهم ويدخلون المعمل خلصة.

كان المعمل قاعة شبة واسعة بها باب واحد وأطلت عليها أربعة نوافذ زجاجية متوسطة الحجم، ويتوسطها ثلاث طاولات معدة لإجراء التجارب ملتصقة بالأرض وبها مغسلة وموقدان خاصة بكل واحدة، وعلى بعض الجدران عددٌ من الرفوف ليكون تحتها طاولات جانبية كذلك وضعت عليها بعض الأجهزة كما حوت دواليب بها بعض المواد الكيميائية كذلك، ودولابان حديديان بأبواب زجاجية حوى أحدهما على الأدوات المستخدمة من دوارق وقوارير وغيرها، وآخر حوى بعض المواد الكيميائية.

حين دخل الثلاثة، ظل محمود قرب الباب مراقباً في حذر، بينما أسرع طارق وناصر يقتربان من ورقة التجربة السابقة المعلقة بلائحة التجارب الخاصة بهم ليقرأها، كان أهم محلول في التجربة هو حمض النيتريك، فوضع طارق هاتفه الذي كان بيده على الطاولة ثم أسرع بعد ناصر نحو الدولاب الأرضي والتقط قوارير الحمض بعد تردد، ثم سكبها في المغسلة واحدة بعد الأخرى وناصر يفعل مثله، وهو يتذكر ما قاله محمود:

-سيتتهي كل شيء وستعود كما كنت.

فقال في نفسه:

-أتمنى فعلاً أن أعود كما كنت وأنسى كل شيء.

واستيقظ من شروده على أنه ألم خافتة صدرت من ناصر فنظر إليه، حين نقل آخر قارورة كادت تنزلق من يده فانسكب بعض ما بها على الأرض على طول خط سيره ولسعت بسائلها أطراف أصابعه، وفي أثناء انشغالهما لما حدث، أسرع محمود يتعد من الباب ويقول:

-أحدهم قادم.

أسرع الثلاثة بالاختباء، ثم رأوا أحد أساتذتهم يدخل وهو يقول متلفتاً حوله:

-أين ذهب قاسم؟

ثم سمعوا صوت إغلاق الباب، فأسرع الثلاثة في الخروج بعد لحظات، لم يكن هناك أي شخص بالممر، فالجميع بقاعات الدرس، تنفسوا بعمق، ثم ابتسم طارق لنفسه وقال:

- و أخيراً، نجحت وسينتهي كل ما يؤرقني قريباً.

وابتسم محمود مثله، بينما كان ناصر يهز يده في ألم فانتبها له، لقد أصيب بحرق طفيف في أطراف أصابعه، قال محمود في ضيق:

-غبي، كيف سمحت بحدوث ذلك؟ عليك الذهاب إلى المستشفى.

زفر ناصر في ضيق وقال:

-لا أحتاج لذلك، سأذهب لأغسل يدي وأحضر مرهماً له، المهم أن خطتك نجحت.

ثم ابتعد عنهما، بينما قال محمود لطارق:

-سأنتظرك مع صبري ووليد بمقصف الكلية حتى تنجح خطتهما في البحث عنك، فليذهب الدكتور سامي ومحاضرتي إلى الجحيم.

هز رأسه مؤيداً وهو يتسم له، ثم اتجه إلى المصلى وهو يفكر فيما أقدم عليه، ستغرم ضياء على عدم اتزانها لما استخدمته مع فريقها في التجربة ولن تستطيع دفع شيء وبهذا ستوقف عن دراستها وترحل ويعود كل شيء كما كان قبل قدومها، توقف للحظات وهو يشعر بشيء يخز قلبه، قال وهو يضع يده على صدره:

-لم أشعر بالحزن والألم هكذا؟ هل لما سيصيب ضياء ورفيقاتها... أم... لأنني لن أراها بعد ذلك؟

ثم قال لنفسه بحزم:

-لا يهمني ما سيحدث بعد الآن يجب علي نسيان كل...

ثم قطع عبارته حين أقبل عليه قاسم ووليد وصبري، فسأله الأستاذ في قلق:

-هل أنت بخير يا بني؟

وأسرع يمسك به وهو يقول:

-كان يجب عليك أن تبقى في المصلى، لنذهب للمستشفى.

ابتسم وليد وصبري ابتسامة سخرية وهما يسيران خلفها، بينما قال طارق مبتسماً ابتسامة صغيرة:

-أنا بخير يا أستاذ وإلا لما غادرت مكاني.

-أأنت متأكد؟

هز رأسه مطمئناً إياه، فقال وليد متظاهراً بالقلق:

-أرعبتنا.

رد طارق:

-لا تقلقوا رجاء أنا بخير.

قال صبري وهو يمسك بطارق ويقول للأستاذ:

-سنرافقه للمقصف، وإن جد شيء سأخبرك، لا تقلق أستاذ، شكراً لمساعدتك.

فابتسم الأستاذ وتركهم، بينما أسرع الثلاثة نحو المقصف، فابتسم وليد وهو يشير لطارق، فرد عليه بنجاح عمله، ثم قال صبري وهو يرى بأن الطلاب قد غادروا القاعات مع انتهاء وقت المحاضرات:

-لقد انتهت المحاضرة لنكمل نزهتنا اليوم....

وما أن سار معهم خطوات حتى تذكر أمراً فارتبك وهو يدس يده في جيب بنطاله، لم يجد هاتفه، عاد يبحث عنه لكنه لم يجده فارتعب، لقد نسيه بالمعمل، عاد مبتعداً، استغرب رفيقه تصرفه، فقال لهما:

-اسبقاني وسألحق بكما.

أسرع يعدو بأقصى ما يستطيع، إن وُجد هاتفه وهو ليس لديه أي عمل أو تجربة هناك فسيكون مشتتاً فيها سيقع لضياء ورفيقاتها، ازداد رعباً وهو يفكر في ذلك؛ لكنه ما كاد يصل درجات الدور الأرضي الذي به المعمل حتى سمع صرخة عالية مدوية، تلاها صوت قوي كان أشبه بصوت انفجار.

بعد مضي نصف الساعة المحددة، عادت ضياء ومن معها إلى المختبر، واتجهن مباشرة إلى
لائحة التجربة وبدأن بقراءة ما فيها، قالت سحر لضياء:
- أنتِ اقراي علينا أسماء الأدوات المطلوبة ونحن سنجهزها.
- حسناً.

أسرعت سحر وزميلاتها الثلاث مبتعدات عنها، وتوجهت نحو الموقد لتشعله، بينما أسرعت
ندى وسوسن في إحضار الأدوات من الدولاب، واتجهت صفاء لانتقاء المحاليل المطلوبة
وارتدت قفازيها لذلك، وضياء تلقي عليهن ما يحتجن لتجربتهن، قامت سحر بفتح موقد
الإشعال لكنه لم يعمل فاستخدمت عود ثقاب وأشعلته في اللحظة التي أحست فيها بحرارة
أسفل قدمها نظرت نحو الأسفل، فذعرت، قالت صفاء:
- سحر، ما هذا السائل الذي تحت قدمك على الأرض؟
أجابتها برعب:

- إنه، إنه يذيب حذائي.

ورفعت قدمها بسرعة حين أحسته وقد نفذ عبر جزء من حذائها ولسع أخمص قدمها والتهتم
طرف عباءتها احتملت الألم وهي تقوم بذلك؛ لكن الأمر لم يقف هنا حين لسع إصبعيها عود
الثقاب المشتعل، وقد التهمته النار ليفلت من بينهما وتهوي الشعلة نحو الأرض لتشعل
السائل وطرف عباءتها، صاحت مذعورة، ارتعب الفتيات الأربع لما حدث والنيران لم تتح
لهن فرصة، امتدت على طول وجود الحمض ملتهمة كل ما في طريقها مقتربة من أحد

الطاولة التي كان بها بعض المواد الكيميائية، ازداد خوفهن حين اشتعل الدولاب بكل ما فيه بعد لحظات محدثاً صوتاً صوت الانفجار، لتتقد النار بكل سرعة ممتدة على كل ما هو قابلاً للاشتعال في طريقها، صارت النيران حاجزاً بين ضياء ورقيقاتها الأربع وارتعبت لما حدث وهي ترى النار تمتد إلى قدم سحر وطرف عباها، وأسرع زميلاتها الثلاث نحوها، ثم حال امتداد النار السريع دون رؤيتها لما فعلن زميلاتها فصرخت في رعب، أما الفتيات فبالرغم من خوفهن، إلا أن ندى قامت بخلع معطفها الأبيض لتخمد النار من سحر، وصفاء وسوسن تجذبنها بعيداً؛ لكن اشتعال النيران ضاعف خوفهن وزاد ارتباكهن وبدأت تشتت تركيزهن وهي تلسعن قليلاً فيحاولن الهرب منها وإنقاذ رفيقتهن.

في تلك اللحظة، دخل الأستاذ قاسم وفوجئ بالحريق يمتد في جدران المكان نحو كل ما قد يزيد في لهيبها وتلتهمه بشراسة و ألسنة اللهب تندلع بين طاولتين حيث سحر وزميلاتها، مر مسرعاً وهو يناديهن، أسرعت ندى وسوسن إليه لتلقته، وأشار إليهما بالخروج ففعلتا، بينما أسرع نحو سحر وصفاء ليعبداها ويساعدهما على الخروج.

لم تمض سوى دقائق حتى أطل طارق من الباب وهو يلتقط أنفاسه لجريه، دعر لما حدث حين خرجت ندى وسوسن، دخل وأسرع نحو النافذة القريبة منه ليخفف من الاختناق الذي بدأ يطغى على المكان بسبب الحريق ودخانه، حمل عدد من دلاء رمل قريبة منه وألقاها على النار، لمح صفاء تقف وتسند سحر إليها والجميع قد أصابتهم نوبة سعال من روائح المحاليل

المحترقة، فانتبه إلى أن الدولاب الذي أخذ منه الحمض هو المشتعل وخط النار كحاجز
بوسط المعمل وممتد من جهته، تتم في ذعر:

-هل... ناصر سبب هذا الحريق؟!

لحظتها رأى قاسم يساعد سحر التي كانت تشعر بالألم والاختناق وهو يحثها على الإسراع،
وحين أخرجها لحق بهم طارق، ورآه يجلس سحر على مسافة من باب المختبر ويسندها إلى
جدار بالممر، كان الفتيات قد أصبن بحروق خفيفة وكذلك قاسم الذي لم يكثرث بما أصابه
وأسرع يتصل بسرعة من هاتفه، قالت سوسن مذعورة:

- ضياء، أين هي؟

تطلع الفتيات إلى بعضهن في خوف، فقالت سحر في ألم:
-إنها بالداخل.

- يا إلهي!

ارتعب طارق لقولهن بل ارتجف، هل أراد إبعادها أم قتلها ورحيلها إلى الأبد؟ لقد ساعدته
ولم يرد جميلها إلا بالإساءة، كيف أعماه غضبه لسخريتها وهو من كان يسخر منها دائماً؟
أسرع يعود إلى المختبر وهو يقول في نفسه مذعوراً:

-لن أسامح نفسي، لن أسامح نفسي إن أصابها شيء.

لكن قاسم أمسك به من ذراعه في تلك اللحظة وهو يقول وقد أنهى مكالمته:

-ستصل المساعدة، هيا لنخمد الحريق، أحضر أسطوانة الإطفاء.

إلا أن طارق قال صارخا في خوف وهو يحاول إفلات ذراعه:

- لا وقت لها، ستموت الفتاة في الداخل، دعني.

قاومه وهو يقول له في حزم:

- يا مجنون توقف، سنحاول إنقاذها معاً.

لكن طارق لم يستمع إليه بل انتزع ذراعه بالقوة، ودخل مقتحماً الدخان المتصاعد نحوه، تطلع الفتيات الأربع لبعضهن في ذهول واندهاش لتصرفه وشجاعته، هل ينوي إنقاذ ضياء وجميعهن يدركن كرهه لها؟

حين شب الحريق كانت زوبعة خبره قد عصفت بالجميع، أسرع الأساتذة في إخلاء المبنى من الطلاب، بينما أسرع بعض الأساتذة إلى مكان المختبر، ورأوا الفتيات الأربع وقد أصبن بحروق خفيفة وكذلك الأستاذ قاسم أشدهم إصابة كانت سحر، فتم نقلهم إلى المستشفى وأسرعوا في محاولة إخماد الحريق، في تلك اللحظة، سأل محمود ورفاقه عن طارق، وفوجئوا بخبر مساعدته للفتيات، قال صبري في ضيق وهو يهز رأسه:

- لم أعد أفهم طارق أبداً، ما حدث سيدين ضياء ومجموعتها.

ابتسم محمود ابتسامة مائلة وهو يقول في مكر:

- دعوه يفعل ما يريد، ستنجح الخطة أكثر من المتوقع.

وأسرع مع رفاقه خارجين من المبنى مع من خرج من الطلاب بسبب الحريق.

حين دخل طارق، اندفعت ألسنة الدخان نحوه، حرقت عيناه وخنقته فسعل لمدة، ثم كمم أنفه وفمه بيده بين لحظة وأخرى وهو ينادي على ضياء، كانت ألسنة اللهب قد استفحلت والأساتذة وبعض الطلاب يحاولون إخماد الحريق وراءه فلم يسمع إلا أصواتهم وأصوات إخماد النيران ولم يرَ إلا النيران والدخان، وأخذ يحمد النار بأي دلاء رمل يصادفها أمامه، واستمر في نداءه حتى سمع صوت ضياء الباكي اقترب من مكانها. رآها جالسة منكشمة في مكانها تبكي مرتجفة في خوف قرب لائحة التجربة، اقترب منها وهو يتأمل ملامحها الخائفة المرتجفة، كانت تلك هي الملامح التي أراد أن يراها منذ زمن، تتم لنفسه:

-هل ظفر عليها الآن؟ ... لا، ما آل إليه الحال لم يشعره بحلاوة انتصاره أبداً؛ بل بفضاعة ما فعله مع رفاقه.

عقد حاجبيه وهو يقول لها في حزم:

-ضياء، ماذا تفعلين هنا؟ هيا انهضي.

لم تجبه بل حتى أنها لم تدرك وجوده ولا وجود أي شيء مما حولها، كانت تتخيل عالماً غير عالمها مع صوت الانفجار واندلاع الحريق، تراءى أمام عينيها نيران الحرب وأصوات الانفجارات والرعب الذي عاشته في حينها تحاصرها في كل مكان وهي تتمتم باسم أخيها ووالدتها وكأنها بقيت في ذلك الخطر لتواجهه لوحدها، تذكرت تلك القذيفة التي اندفعت

نحو منزلها ودمرت ما دمرته وأحرقت بنيرانها ما طالته قبل أن تفقد وعيها من الألم قوة الرمي التي ألقت بها أرضاً قبل أن ينقذها شادي لاحقاً.

لم تستيقظ من خيالاتها إلا حين سمعت صراخ طارق وهو يقول بصوت عالٍ:

-أتريدين أن تموتي هنا؟! هيا انهضي.

نظرت إليه ذاهلة قبل أن تدرك شخصه وانتبهت للخطر المحدق حولها، تساءلت:

-ما الذي أتى به إلى هنا؟ هل أتى لينقذها وهو يكرهها كرهاً شديداً؟

هدأت روعها قليلاً مما كانت تتذكره، وحين كادت أن تنهض تحطمت أبواب الدولاب الحديدي الزجاجية بفعل الحرارة والنيران ساقطة كالرذاذ عليها، فغطى الاثنان وجهيهما منه إلا أن الدولاب لحق بها ليتهاوى عليها معاً.

الفصل السابع العشرون

حين عاد قلبي

ثوانٍ مرت سريعة لم تستطع ضياء فيها أن تستوعب ما جرى حولها، شعرت وكأنها فقدت وعيها للحظات وكل ما أدركته وشعرت به هو سقوطها وارتطام جسدها بالأرض، ثم انتهت لما حولها وجدت النيران لا تزال تحاصرها وبعض شظايا الزجاج الذي تناثر من الدولاب قد خدشت يديها، واعتدلت جالسة لتحاول إدراك ما حدث.

- أخيراً أفقت.

التفت خلفها حيث الصوت الذي كان متألماً، ولما نظرت ناحيته جحظت عيناها وشهقت في فزع.

رأت طارق منبطحاً وقد سقط الدولاب الحديدي بثقله على ساقه فعلمت تحته وهو يحاول سحبها وعلى وجهه بدا الألم الذي يحاول احتماله من الدولاب ومن شظايا الزجاج المتناثرة حوله وجرحته ذراعيه، عندها تذكرت ما حدث، حين هوى الدولاب عليها بزجاجه المتناثر أمسك طارق بذراعها وجذبها بسرعة مبعداً إياها عن طريقه وأنقذها؛ لكنه لم يستطع الابتعاد عنه كثيراً فسقط على ساقه. رغم الدخان وألسنة اللهب رآته يحاول سحب ساقه، نهضت بسرعة لتقترب منه وأمسكت بطرف الدولاب محاولة رفعه، قال لها صارخاً:

- هل أنت غبية؟ لا يمكنك رفع شيء ثقيل كهذا.

سعلت للحظة وقد أصابها الاختناق قليلاً، هتف بها بحزم: غادري.



قالت مقاومة لنوبة السعال التي أصابتها:

- سأحاول رفعه قليلاً، حاول أن تسحب ساقك.

رد في انفعال:

- قلت لك غادري، لا يمكنك فعل شيء، اطلبي المساعدة وحسب.

شعرت بالعجز فعلاً فنهضت وهي تتلفت حولها، ظن للحظة بأنها تبحث عن منفذ للهرب من النيران، فإذا بها تسرع نحو الزاوية المقابلة لها بصالة المعمل، كان بها ممسحة ذات عمود حديدي ودلو لم تصل النيران إليهما، أسرعت تحملهما وتحضرهما إليه، دهش لتصرفها، كانت تفكر في انقاذه، زادت حيرته، لم تصر على مساعدته رغم كل ما فعله بها؟

ثم أبعد حيرته حين وصلت إليه، لم يعقب، ووضع الدلو بمساعدتها في موضع قريب من ساقه العالقة والدلو أسفل منتصفه، وضغطا عليه معاً، ارتفع الدولاب قليلاً ليتمكن من سحب ساقه؛ لكنه ظل متألماً لفترة وقد جرحها الزجاج وتسربل بنطاله الممزق بالدماء، انتبه من ألمه حين أصابتها نوبة سعال حادة وهي لا تزال جالسة مكانها، زحف واستند للجدار محاولاً الوقوف وهو يشعر بالدوار من اختناق المكان، ثم قال لها في وهن:

- هيا لنخرج من هنا.

نهضت ضياءً بثقال، متجهة ناحية الباب ولحق بها وهو يعرج متألماً في مشيته، وقبل أن يخرجها أطل عدد من الأساتذة ورجال الإطفاء لإخماد الحريق، وساعدهما على الخروج من المكان

ثم نقلوهما بسيارة إسعاف إلى المستشفى مع من أصيب من الحريق وتكاثفت الجهود لأجل إخماده وإنقاذ المبنى من الهلاك.

كان صباح يوم من أصعب الأيام التي مرت على تاريخ الكلية .

الرعب عمّ الجميع حين شاهدوا ألسنة اللهب تتعالى من نوافذ المعمل، ثم آثار الحريق عليها بعد إخماده والسيطرة عليه من قبل بعض الأساتذة ورجال الإطفاء تغطي بسوادها كل نوافذه فلم يمتد إلى مكان آخر وحضرت الأضرار فيه، أما أكثر بلبلة قيلت عنه هو إهمال ضياء ورفيقاتها والذي أدى إلى نشوبه وإلى هذه النتيجة المرعبة، وهذا ما كان يساور خاطرهن جميعاً، كن يدركن بأن أصابع الاتهام ستمتد إليهن دون أي شك، وما من دليل لبراءتهن مما حدث، لا شك بأن عقاباً كبيراً سيكون في انتظارهن.

بعد أن تم إسعاف ضياء وسوسن وصفاء وندى من حروقهن وجروحهن الطفيفة في أحد المستوصفات بمنطقة (بويش) القريبة من (فلك) بقسم الطوارئ وتحسناً قليلاً، توجهن إلى قسم ترقيده حيث تم نقل سحر إليه بعد أن عُولجت إصابتهما لتبقى لفترة حين نقلها إلى مستشفى آخر بالمكلا، وقد نال الحريق من قدمها اليسرى وجزء من ساقها، فوجدنها جالسة على السرير وقد ضمدت إصابتهما وإلى جانبها والدتها، جلسن إلى جوارها واطمئن عليهما، ثم سادهن الصمت المشحون بالخوف، واصفرت وجوههن وأطبق القلق عليهن جميعاً وكاد يخنقهن ونظاراتهن مملوءة بالجزع، إلى أن قاطعته سحر وهي تقول في حدة وعصية مقاومة أَلَمها:

- ما بكن خائفات هكذا؟ نحن لم نقدم على حرق المعمل.

قالت ضياء وهي تنكس رأسها:

-ومن سيصدقنا يا سحر ونحن الوحيدات اللاتي عملنا فيه منذ الصباح؟

عقدت حاجبيها وقالت:

-أولاً لم قد تسكب إحدانا محلولاً قابلاً للاشتعال؟ ثانياً لو كنا فعلنا لم تركتني أدوس عليه

ويصيبني ما أصابني؟

بدا الذهول على وجوههن، قالت صفاء لها:

-هل سيقتنعون بهذا؟

هزت رأسها وقالت:

-سنقول الحقيقة ولن نخفي شيئاً.

قالت سوسن في قلق:

-تم الآن السماح للطلاب بالعودة إلى بيوتهم، ربما غداً سيتم التحقيق في ذلك، أو ربما اليوم،

لا أدري، المهم أننا لن نعرف شيئاً إلا في الغد.

قالت ضياء وهي تسبل جفنيها:

-أسأل الله أن ننجو من هذه التهمة.

وعلى خلاف القلق، سكنت الطمأنينة قلب محمود ورفاقه الثلاثة لما حدث حين كانوا بقسم الطوارئ وهم يحيطون بطارق الذي استلقى على سرير به، ولحسن حظه لم تصب ساقه إلا رضة قوية وجرحت جرحاً عميقاً بعض الشيء بسبب شظايا الزجاج الذي تغلغت به، كان حوله أيضاً عدد من زملائه يتحدثون مع رفاقه وقد غلب حديثهم الزهو والسرور والتباهي ببطولته في إنقاذ ضياء ورفيقاتها، فكانوا يبادلونهم ذلك، يؤيدونهم والسرور في أعماقهم أكثر من ذلك.

أما طارق، فقد ظل صامتاً وفكره يتعد عنهم بين فينة وأخرى وهو يفكر فيما حدث، لقد أدرك نبل خلق ضياء وصفاء سريرتها رغم كل ما بدر منه، رأى مساعدتها له رغم الخطر الداهم فأنكر ما نقله له رفاقه بل استحالته، لا يمكن لشخص يخاطر لأجل آخر أن يتحدث بتلك السخرية التي نُقلت إليه، ليست هذه إلا وسيلة شخص ضعيف وضياء ليست كذلك؛ قوية في أعماقها ومنطلقة نحو هدفها، أدرك جلياً بأن مشاعر كرهه نحوها قد تبددت مع اندفاعه لإنقاذها، وأنه لا يستطيع أن يتخيل ابتعادها عنه.

لقد صار قلبه يبصر حبه لها.

واستيقظ من بحر أفكاره حين ودعه زملاؤه، فقال له الطبيب:

-تلمك الراحة لثلاثة أيام، يمكنك المغادرة إلى منزلك الآن، هل أصدقاؤك سيراقتونك؟
رد محمود مسرعاً:

-نعم سيدي سنفعل ذلك.

شكر طارق الطبيب ثم أحضروا له عكازاً ليمشي به ونهض بواسطته، خرجوا من المستوصف، قال ناصر:

-لقد أحضرت لك سيارتك يا طارق.

أجابه في اقتضاب:

-شكراً لك.

قال محمود:

- ما الذي دفعك لدخول المعمل؟ إن ما حدث كان فوق ما نتمنى، ستلقى ضياء ورفيقاتها عقوبة أشد.

عقد حاجبيه، وقال في حدة:

-هل أنت مسرور لذلك؟

بدا الاستغراب على وجوههم، إلا أنه أجابه في ابتسامة قائلاً:

-أليس هذا هو هدفنا؟!

أجابه في ضيق:

-هل تعلم بأن ناصر سبب الحريق؟

ارتعب الأربعة لقوله، بينما تابع وقال:

-لو أنه لم يسكب شيئاً على الأرض لما حدث ما حدث، كان من الممكن أن تكون الأمور أسوأ من هذا.

فابتسم محمود، وقال محاولاً صرف نظره عن الأمر :

- لا عليك، لقد انتهى الأمر و...

فرد بغضب:

-يا للسخافة! انتهى الأمر؟! كيف ذلك وما آل إليه أسوأ مما خططنا له؟

-طارق المهم...

-دعوني وشأني.

صاح في وجهه في حدة مقاطعاً إياه، فزاد استغرابهم ، قال صبري:

-اهدأ يا طارق إصابتك ليست خطيرة وستتحسن.

-لستُ غاضباً ولا متألماً لما أصابني، أتركوني لوحدي فقط.

قال وليد:

-سنوصلك إلى البيت.

قال طارق في سخرية:

-شكراً، لا داعي.

و مضى مبتعداً عنهم متجههم الوجه وهو يتجه إلى سيارته في فكره خواطر كثيرة، بينما بدا

الضيق على وجوههم، فقال ناصر في غضب:

-أهذا جزاؤنا بدل أن يشكرنا؟

قال محمود بنفس غضبه:

-سنحتمل ما بدر منه الآن لاشك من أنه منزعج لما أصابه، سنلتقيه غداً في منزله وسنجد مزاجه قد تعدل.

ومضى الأربعة في طريقهم ليوقفوا سيارة توصلهم إلى بيوتهم.

صباح اليوم التالي لم يكن عادياً كأى يوم، ظلت حادثة الحريق الشغل الشاغل لمعظم أحاديث الطلاب، بل أن التحقيقات حوله منذ لحظة إخماده بالتحري في المكان واستدعاء الفتيات الأربع من قبل عميد الكلية زادهم شوقاً لمعرفة ما سيجري بعدها، سكتوا للحظات حين دلف القاعة الأستاذ قاسم ليستدعي ضياء وندى وسوسن وصفاء ورأوا الخوف على وجوههن، ورغم حديث سحر -التي كانت غائبة- وتشجيعها لصديقاتها إلا أن القلق ظل يساورهن من نتائج ذلك وما سيؤول إليه قرار العمادة، وهل ستلصق التهمة عليهن ويتهي الأمر؟

ولما خرجن زادت همهمة الطلاب، العقاب مدركهن لا محالة، في تلك اللحظة دخل محمود ورفاقه الثلاثة لاحظوا ذلك، سألوا عن سبب ذلك، فأجابهم أحد زملائهم: -لقد تم استدعاء ضياء ورفيقاتها إلى مكتب العمادة قبل لحظات، يبدو بأنهم سيقرون عقوبة لهن، إهمالهن واضح وإلا لما أصيبت زميلتهن.

تبادل محمود ورفاقه النظرات، سيتحقق ما يريدون بأسرع مما يتصورون، وانجهوا نحو مقاعدهم بالصف الأخير - تلك المقاعد التي حرمهم منها طارق لأيام- ثم جلسوا والسرور يدغدغ أفكارهم.

بعد لحظات من قدومهم، لمحوا طارقاً يدلف إلى القاعة وهو يمشي بعكازه، استغربوا قدومه فقد منح إجازة بسبب إصابته، رأوه يتحدث إلى أحد زملائه قرب الباب، ثم بدا الخوف والقلق عليه، ثم شكر زميله وغادر القاعة مسرعاً، نظر رفاقه لبعضهم في حيرة وأسرعوا ينهضون من أماكنهم ليلحقوا به، ولما وصلوا إليه استوقفوه بالمر، فقال لهم في لا مبالاة: -ماذا تريدون؟

سأله محمود:

-ما الذي أتى بك؟ أنت في إجازة.

أجابه في حدة:

- لا شأن لك بي.

رد عليه في حدة:

-ما بك تحتد فينا هكذا منذ الأمس؟

- ابتعد عني فقط ولن تلقى أي شيء يزعجك.

بدا الضيق على وجوه رفاقه، فقال صبري:

-إلى أين تريد الذهاب الآن يا طارق؟

رد بحدة:

-إلى مكتب العمادة.

- لماذا؟

- لأعترف لهم بكل ما حدث.

صعق رفاقه لقوله، فقال وليد في غضب:

-يا مجنون، ستودي بنا ونحن لم نقصد إلا مساعدتك لكي...

صاح مقاطعاً إياه:

-اخرس، ما كان علي أن أسعى لأذية أحد والأخذ بكلامكم لأجل أن أطفئ غضباً في نفسي.

قال ناصر مهدئاً:

-طارق حاول أن تهدأ، سيتحقق هدفنا قريباً و...

- ناصر، لو أن الحمض الذي انسكب عليك أصاب قدمي سحر معاً ولم تقوَ على المشي

بعدها أو اضطروا للبترها، هل ستستمر سعادتك هذه؟

فاجأ قوله فصمت، بينما تابع موجهاً خطابه لمحمود:

-وأنت يا محمود، لو أن الأستاذ قاسم أو أحد الفتيات لقي حتفه بالحريق، أكنت ستفرح

بنجاح خطتك؟

بدت الصدمة على الشباب الأربعة وهم يستمعون للوم طارق الذي تابع قائلاً:

-وأنتما أيضاً يا وليد وصبري، هل ستستمرون في السخرية والضحك على خدعاكما للأستاذ قاسم لو أنه لقي حتفه؟
فقال وليد:

- لم تضع أسوأ الاحتمالات وقد نجحت خطتنا؟
في تلك اللحظة، رأى الشباب الخمسة ضياء ورفيقاتها متجهات إلى القاعة والحزن يطفو على وجوههن، قال محمود في سرور:
- يبدو بأن التهمة قد التصقت بهن، أخيراً، لقد نجحت خطتنا.
أما طارق، فما أن رأى حزن ضياء حتى ازداد ألمه واتقد مرجل غضبه، فاحتقن وجهه وهو يقول لرفاقه:

-نجحت من وجهة نظركم، أما أنا فأرى بأنكم ستدمرون مستقبل الفتيات الخمس و...
قال محمود مقاطعاً بحزم:

-ألم تكن هذه خطتنا، أن ترحل ضياء؟
- لم أعد أتفق معكم على هذا، لن أرد الإساءة بمثلها بعد الآن أبداً، وهدفي الآن هو أن أزيح الحمل الجاثم على صدري وأريح ضميري، سأعترف للعميد بكل شيء.
أمسكه بتلابيبه وهو يهزه ويقول بغضب:

-أهذا هو جزاء مساعدتنا لك؟ أن تدمرنا نحن بدل ضياء!
فأمسك طارق بيده وأبعده بقوة، وترنح جسده قليلاً وهو يتألم من إصابته، ثم قال في حدة:

-أليس هذا خطأنا؟ ثم أنتم لم تساعدوني؛ بل زدتم الألم داخل صدري وهو كلما ازداد ازدت يقظة ويقين بأنه ما كنت أفعله هو أبشع خطأ ولن أعود إليه بعد أن صحا ضميري.

بهت الأربعة وحاولوا منعه، ثم قال بصرامة:

-إن منعمتموني من إخبار العميد، فسأخبر كل زملائي بدل عنه بتفاصيل ما حدث وأشهركم للجميع.

استجمع محمود هدوءه وهو يقول في مكر:

-ليس لديك أي دليل ضدنا.

أمسك طارق بذراع ناصر وقال:

-هذا هو الدليل.

صدم الأربعة وشحبت وجوههم لقوله وهم يتطلعون باللصاقات الطبية التي غطت راحة يد ناصر، بينما تابع طارق:

- بنفس نمط الحرق ووقته اللذان أصيبت به سحر، وأيضاً إبعاد وليد وصبري للأستاذ

قاسم وهاتفي الذي نسيت به بالمعمل، كل هذا مع حديثي كافٍ جداً لإبعاد الشبهة عن الفتيات رغم أننا لم نكن نقصد حدوث الحريق؛ لكننا للأسف لنا يد فيه.

ارتبك الأربعة بينما حدجهم طارق بنظرات نارية، وهو يصرخ في صرامة:

-ابتعدوا عن طريقي.

تملكهم الارتباك وكادوا يتعدون عن طريقه لولا أن محمود ركل عكازه بقوة فاجأه بتصرفه ولم يستطع الحفاظ على توازنه بسبب إصابته فوقع أرضاً متألماً ووضع يده على ساقه محاولاً مقاومة الألم، في اللحظة التي وقف فيها عدد من الطلاب ينظرون إليهم وقد لفتهم جداهم، وتصرف محمود وسقوط طارق، زاد ارتباك الشباب الثلاثة لنظرات التساؤل نحوهم في حين جثى محمود قرب طارق وقال بغضب وبصوت منخفض:

-أعلم بأننا لن نستطيع منعك بداخل حرم الكلية وستفعل ما تريد مستعيناً بهؤلاء الشهود، لكن ثق بأنك إن أخبرت العميد فسنكون أعداء لك منذ الآن.

ثم نهض وابتعد عنه وتبعه بقية رفاقه، بينما أسرع طالبان نحو طارق وساعده على الوقوف فشكرهما، ونظر لرفاقه وهم يتعدون عنه، رغم ألمه من ابتعادهم وعدم تأييده لقراره وهم أصدقاؤه منذ سنوات إلا أنه قرر عدم التراجع، سار محتماً أمله بحزم وثقة وهو يشعر في أعماقه براحة كبيرة لخطوته تلك، وبقوة غريبة لم يعهدها، روحه تسامت فوق رغباته ونزاعات شره، انتابه ذلك الشعور وهو في طريقه نحو مكتب العميد، فقال لنفسه:

-لا يهمني ما قد يحدث لي بعدها، قد أعاقب، أطرّد أو أغرم؛ لكنني لن أكون سبباً في ظلم أحد ولن أظلم نفسي، لن أحمّد عن هذا الطريق الذي أبصرته، لن أحمّد.. لن أحمّد أبداً، ففي أعماقي شيء قد حطم نزعه الشر تلك حين عاد قلبي.

الفصل الثامن والعشرون

رحيلٌ إلى الأبد

انتهت المحاضرة الأولى ولم يتتبع ما بدأ داخل نفس ضياء ورفيقاتها منذ الأمس، الحزن والخوف ظل على وجوههن منذ لحظة استدعائهن لمكتب العمادة، ولما خرج الأستاذ من القاعة أسرع بقية الفتيات نحوهن وتحلقن حولهن، وسألوهن عما حدث، قالت ضياء بحزن: -للأسف الاتهام واقعٌ علينا بحجة أن أحداً لم يدخل المعمل أو يستخدمه غيرنا في ذلك الوقت، وسندفع غرامة كبيرة جزاء ما حدث، سحر هي من أفلتت الشعلة؛ لكن الأمر لم يكن بيدها، كيف انسكبت تلك المادة على الأرض؟ نحن لم نفعل ذلك، أخشى أن أحداً قد فعلها عامداً لنقع في هذه المشكلة.

هز صفاء يديها بغضب وقالت:

-لنقع في المشكلة؟! من عديم الشعور هذا؟ كدنا نهلك.

ردت سوسن بغضب مماثل:

-صاحب الجوال المحترق، لا شك في أنه هو.

قالت أحد الفتيات في دهشة:

-جوال!!

قالت ضياء في ضيق:

-نعم، عشروا في المعمل على جوال وللأسف احترق، ليته فقط ظل سليماً لنعرف من صاحبه، النيران اتهمت معظم أدوات المعمل.

ردت عليها ندى في استياء وعبرة خوف تخنق كلماتها:

-أمل فقط أن يصدقوا أقوالنا وأن ذلك الهاتف ليس لإحدانا.

في تلك اللحظة، دلف طارق إلى القاعة واقترب قليلاً من جمعتهم وهو يقول:

- ضياء، دقائق من وقتك إذا سمحت.

استغربت نداء لها وهو من يتجنبها منذ عودته، كما أنها علمت أثناء استجواب العميد لهن

أنه مُنح إجازة بسبب إصابته، نهضت من مكانها واقتربت منه، وهي تقول:

- كيف هي إصابتك الآن؟ ألم تُمنح إجازة؟

- نعم، الحمد لله أنا بخير، هناك أمر دفعني للحضور.

ابتسمت وهي تقول:

-أعتقد بأنها فرصتي لأشكرك على مساعدتك لي يوم أمس، كنت أود فعل هذا؛ لكن الوضع كان سيئاً، شكراً جزيلاً لك.

ارتبك حين شكرته مبتسمة، تلك الابتسامة التي أربكته أول مرة وقرعت باب قلبه لتدلف

إليه على عجل بعدها، صمت واجماً للحظات مدارياً ارتباكاً، ثم قال بحزم:

-لم أقم إلا بما يتوجب علي فعله، ثم لم ساعدتني أنا أيضاً يا ضياء مع أي أسأت إليك،

جرحتك وأهنتك؟ لم أفهم لم؟!

أجابته بحزم:

- لم يكن يهمني ما كان بيننا، لم تكن تهمني نظرتك إليّ ولا رأيك فيّ وفيما أفعله، إن كان هناك شخص يحتاج للمساعدة حتى لو أساء إليّ وأستطيع فعل ذلك فلن أتردد.

ذهل لقولها، ألهذا السبب ساعدته في ذلك اليوم؟! لم تكن تهتم بشيء سوى مساعدة الآخرين رغم كل إساءاتهم، أسبل جفنيه قليلاً وتمتم في نفسه:

- كان يجب علي أن أدرك ذلك؟ يلزمني الكثير ليصل مستوى تفكيري إلى مستوى تفكيرك. قطع تفكيره حين سمعها وهي تقول:

- أخبرني الآن، ما الذي تريده يا طارق؟

بدا التردد يخالجه أعماقه فيما يود قوله، إلا أنه لم يظهر ذلك، فقال بعد أن استجمع شجاعته:

- في الواقع... كنت أود الاعتذار منك عن كل ما بدر مني تجاهك منذ بداية السنة.

ذهلت لقوله، بينما تابع قائلاً:

- أنت أكثر شخصٍ أخطأتُ في حقه يا ضياء، آذيتك قولاً وفعلاً ولا أجد أن كلمة (أعتذر) كافية لإصلاح خطأي.

- وأنت من أنقذني وساعدني.

قال في ألم وهو يسبل جفنيه:

- ومع ذلك...

حاولت إبعاد ما بدا عليه وهي تقول:

- لا تقلق، أنا أقبل اعتذارك وأتمنى لك التوفيق وأن تتغير نحو الأفضل.
- فابتسم وقال:
- كما أني أود أن أشكرك.
- قالت في استغراب:
- تشكرني؟! على ماذا؟
- ثم قالت مستدركة وقد تذكرت أمراً:
- إن كنت تقصد مساعدتي لك في أثناء الحريق فلا داعي للشكر؛ بل أنا مدينة لك بإنقاذك لحياتي.
- هز رأسه نافياً وهو يقول:
- لا، ليس هذا؛ بل لأشياء جعلتني أبصرها يا ضياء، أنا لم أقدم لك إلا الألم بمقابله غرست في نفسي أشياء فقدت معانيها وتركت بصمة في أعماقي من الصعب أن تزال.
- ارتبكت في خجل لكلماته ولمحت في عينيه مرة أخرى نظرات تقدير وإعجاب الكبيرين، فأبعدت بصرها عنه وهي تقول:
- لا تبالغ، لست كهذا النوع من البشر.
- ثم نظرت إليه، وقالت وهي تهم بالانصراف:
- اسمح لي الآن فلدينا مشكلة يجب أن نحلها قبل أن نفصل من امتحانات النهائية.
- لن نتحدث أية مشكلة نحوكن.

بدت الحيرة على وجهها، فسألت:

-كيف ذلك؟

-لا عليك ولا تشغلي بالك، ما يهمني هو أنك قبلتِ اعتذاري، فأنا لا أعرف ماذا ينتظرنني.

ازدادت حيرة من أقواله فعادت تسأله:

-ماذا تعني؟

قال في حزم:

- رجائي لك يا ضياء إذا سمعتِ أي شيء ما قد يزعجك عني، أن تثقي بأن طارق الذي

أذاك يوماً قد رحل إلى الأبد.

وانصرف دون زيادة كلمة وغير منتظر لشيء، تاركاً إياها في بحر الحيرة التي لم تطعَ عليها

وحدها؛ بل بمكتب العمادة أيضاً.

فحين خرج منه بعد أن روى للعميد والأستاذ قاسم تفاصيل ما فعل مع رفاقه بالمعمل، قال

قاسم بحزم:

-إني أيضاً أتحمّل المسؤولية مثل طارق ورفاقه.

رد العميد في انفعال:

-ما بك يا قاسم؟ أنت لا ذنب لك، أتريد أن تزيد حيرتي؟!

-لا سيدي، وإنما سرتني من طارق اعترافه بما قاموا به، لكن الحقيقة هي أن المسؤولية لا تقع

على عاتقهم وحدهم، بل علي أيضاً، لم أبرئ ساحتي؟ لولا إهمالي لما استغفلني الشباب.

- لقد خدعوك.

فقال قاسم بحزم:

- نعم؛ لكنه ليس مبرراً، لو أني انتبهت لإغلاق المختبر لما حدث ما حدث.

- لقد استغلوا إصابته السابقة لتشتيت انتباهك، ولو أن الحمض لم ينسكب على الأرض لما حدث أيضاً ما حدث.

- ولو أن الفتيات انتبهن لوجوده من البداية لما حدث ذلك أيضاً؛ لكنهن لم يميزن وجوده لانعدام لونه ورغبتهن في إنجاز العمل بسرعة، سيدي رغم أننا جميعاً لم نقصد حدوث ما حدث إلا أن هذا لن يعفينا من تحمل المسؤولية.

تنهد العميد في عمق وهو يفكر، وران صمت قصير عليهما حتى قاطعه قاسم قائلاً:

- سيادة العميد، إهمال الفتيات كان من الممكن أن يبعدي عن سبب الحريق، لكن بعد ما سمعنا أعتقد بأن القضية قد تغيرت الآن، ليس على الفتيات لوم فيما حدث.

- أظن هذا أيضاً.

- وما فعله الشباب بمحاليل المختبر عبث لا بد أن يعاقبوا عليه مع أنهم لم يتعمدوا افتعال الحريق؛ لكن ما أريد قوله هو أن تأخذ في عين الاعتبار أن طارق اعترف بخطأه وخاطر بحياته لأجل إنقاذ الفتيات ومساعدتنا في إخماد الحريق ولم يتبق على موعد انطلاق الامتحانات الشهرية إلا أيام.

هز رأسه مفكراً وهو يستمع لحديثه، ثم قال:

- سأقرر عقوبتهم وأجتمع بمشرفهم الدكتور سامي وأستدعي أولياء أمورهم ونهني هذا الأمر اليوم.

ثم أضاف مبتسماً:

-وعقوبتك كذلك.

ضحك من قوله ، فقال وهو يهز رأسه:

-كما تريد سيدي.

في المساء، دلف عبد الكريم إلى منزله غاضباً، أرعب بولوجه غير المعتاد زوجته وابنته اللتان كانتا جالستين بالصالة، ثم سأل زوجته بعصبية:

-أين طارق؟

ردت بارتباك:

-خرج من البيت للاستحمام قليلاً وسيعود بعد لحظات، ما الأمر؟

حرق أسنانه في غضب شديد، وهو يصرخ:

- ما الأمر؟! ابنك المدلل يا سيدة تسبب مع رفاقه بإحراق معمل الكلية وكاد يودي بحياة زميلاته.

شهقت في خوف وقالت:

-ماذا تقول؟!!

هز رأسه وهو يقول في حسرة ممتزجة بالغضب:

- لم أصدق ذلك أبداً وأنا أستمع للعميد وهو يخبرني به، روى لي سعي طارق ورفاقه لإفساد عمل ضياء وزميلاتها، نصحته بأن يتنبه لدراسته؛ لكن... ها هو يصدمني بمصيبة بعد أن أنهى امتحاناته وعاد إلى لمواصلة الدراسة، لا أدري أي سبب يدفعه ليكره ضياء كل تلك الكراهية، أشعر أن كل آمالي فيه قد خابت.

قالت في ذهول:

- طارق يكره ضياء؟!!

زفر وهو يقول ضيق:

- نعم، ولكنني لم أعرف سبباً لذلك، لم أتخيل أن تصل كراهيته إلى هذه الدرجة المشينة مع أنني أحسست خلاف ذلك حين كان بالمستشفى، شعرت بأنه يقدرها ويحترمها؛ لكن اتضح لي عكس ظنوني.

قالت رُبا:

- ضياء فتاة طيبة وأنا أحبها.

- وأنا أحترمها لأنها مميزة وخلوقة؛ لكن لا أدري ما الذي يدور في فكر أخيك.

في تلك اللحظة، دخل طارق وهو لا يزال يمشي بعكازه، فرأى الأنظار تتجه نحوه مباشرة، أدرك بأن خبر ما فعل قد وصلهم، ارتبكت نفسه ووقف مكانه مضطرباً، إلا أنه قرر المواجهة

مهما كانت النتيجة فتتهدد بعمق ومنح نفسه الشجاعة ثم اقترب منهم وسلم عليهم؛ لكن عبد الكريم لم يرد عليه بل صفعه وهو يصيح في وجهه غاضباً:

- ما ذاك الذي فعلته يا طارق؟

صمت دون أن يرد، قالت عائشة وهي تمسك بذراعه محاولة تهدئته:

- عبد الكريم دعنا نستمع إليه أولاً.

ارتفعت رُبا وهي ترى والدها بكل هذا الغضب وبكت في خوف، أمرتها عائشة بمغادرة

المكان وأسرت بالمغادرة، بينما قال عبد الكريم صارخاً في وجه طارق:

- هلا أخبرتي لم تكره ضياء ليدفعك ذلك لما فعلت يوم أمس بمعمل الكلية؟

نكس رأسه، ثم قال في ندم:

- أبي، أنا أدرك كل أخطائي، واعترفت للعميد بكل ما شيء رغم أن رفاقي رفضوا الاعتراف

وتركوا صداقتي بسبب ما فعلته، أنا مقر بذلك، لم أفعل شيئاً جيداً أبداً، بالنسبة لضياء فقد

كنتُ أكرهها لنفس السبب الذي لم تحبها به أمي، غريبة وقبيحة، أما الآن فقد تغير موقفني

نحوها وأدركتُ خطأي تجاهها واعتذرت لها عن كل ما بدر مني من إساءة.

ذهلت عائشة وهي تستمع لكللمات ابنها، أما عبد الكريم فقد وجم للحظات وقد نسي كلياً

مع عنفوان غضبه بأن العميد قد أخبره باعتزافه وهرب زملائه الأربعة ومواجهته الأمر

لوحده، وأيضا سعيه لإنقاذ زميلاته وهذا سبب إصابته، فجلس على الأريكة وانحنى للأمام

وهو يضع يده على جبينه ليخفف من حمى الغضب:

- أعود بالله من الشيطان الرجيم، أستغفر الله العظيم.
- أسبل طارق جفنيه قليلاً ثم قال في ألم:
- آسف أبي لأنني لم أقدم لك أي شيء يسرك رغم كل ما قدمته لي.
- نظر إليه، وقال وهو يشير له بالجلوس قربة فجلس:
- كنتُ أمل ألا تقدم على ما فعلت أنت وإياهم.
- للأسف، أوغروا صدري ضد ضياء وأيدتهم في خطتهم وحدث ما حدث مع إننا لم نقصد حدوث الحريق.
- هل أمل أن تتغير بعد اعترافك هذا؟
- قرر أية عقوبة لي أنا مستعد لتحمل كل أخطائي.
- لقد استدعاني العميد مع آباء رفاقك الأربعة وتقرر طردكم لثلاثة أيام ودفع غرامة لإفسادكم ملكية الكلية.
- تنهد بعمق وهو يقول في نفسه :
- الحمد لله بأنهم لم يفصلوني، لكن كيف سأتدارك كل ذاك الكم الهائل من المحاضرات التي فاتتني أثناء الامتحانات والعقوبة الآن؟
- واستيقظ من شروده حين أمسك والده به من كتفيه، وهزه وهو يقول في قوة:
- طارق، لا يهمني كم سأخسر لأجلك، ما يهمني هو عودتك إلى جادة الصواب.
- ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يتذكر قول ضياء:

(تزداد قيمة الحياة في النفس عندما نستشعر بأن هناك أناس يضحون من أجلنا)

قال في نفسه :

-كم ضحيت من أجلي يا أبي وتحملت أخطائي، بينما أنا لم أكن أسعى إلا لإرضاء نفسي.

ثم قال لوالده بحزم:

-سأبذل جهدي يا أبي ثق بذلك.

بدا السرور والاطمئنان على وجه عائشة، بينما ابتسم عبد الكريم وقال:

-هذه هي تلك النظرات التي رأيتها في ذلك اليوم.

سأله في استغراب:

-أية نظرات؟

وضع يده على صدره وهو يقول:

- أتذكر ذلك اليوم الذي فعلت فيه هكذا؟

- في المستشفى؟!

فهز رأسه وقال وعيناه تلتمعان أملًا:

- نعم، إن جعلت لنفسك هدفًا ذا قيمة تسعى لتحقيقه يا بني ستتغير للأفضل، أنا واثق منذ

ذلك اليوم بأن شيئًا قد تغير في أعماقك، ولا أعرف ما هو، ولن أبحث عنه بل سأنتظر حتى

تخبرني به.

ابتسم له وهز رأسه مؤيداً قوله، وشيء آخر يتقاذف في أعماقه، كيف سيفيض بسيال حبه
لإنسانة لم يمنحها إلا الألم والوجع؛ بل كيف سيستطيع نسيانها بعد أن جادت عليه بسخاء
الحُلق حتى سرقت قلبه وصار ملكاً لها، كيف تضيع الأبصار وتتلاشى العقول حين تبصر
القلوب وحدها وهج الأحبة وصفاء الحب، ويتغلغل المعشوق وتُفتح له الأبواب دون وعي
أو إدراك، تتم في نفسه:

- بماذا سأخبرك يا أبي؟ بحبي لضياء! هذا الأمر مستحيل التحقيق رغم أنها قبلت اعتذارى،
لست قادراً على الوصول إليها أو حتى نسيانها، ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

في اليوم التالي وبعد المحاضرة الأولى، لفت انتباه ضياء ستة طلاب يجلسون بالمدرج الأول
ويتساءلون في حيرة عن تغيب محمود ورفاقه مع طارق، لم يكن لديهم عذر معلوم مثله،
قررت تجاهل تلك المهمة والخروج من القاعة إلى أن استوقفها قول أحدهم وهو يقول
لرفاقه في حدة:

- هؤلاء الخمسة لهم يد في حدوث الحريق.

فاجأهم جميعاً وأسرعت تعود لتتقدم نحوه حيث يجلس معهم وسألته قائلة:

- كيف ذلك؟

نظر إليها وقال:

- انسكب حمض على أحدهم وحدث معكن ما حدث.

ارتعبت لما سمعت، وعادت تقول سائلة في حيرة:

- لم يكن لديهم أي عمل هناك، لم أخذوا حمضاً من المعمل؟

رد في ضيق وغضب:

- لا أدري ما هو هدفهم من الأساس.

قالت ندى بغضب وهي تقترب منهم وتلحق بها بقية الطالبات:

- إذن فأحدهم صاحب ذلك الجوال، وماذا سيكون هدف هؤلاء غير الأذية والعبث.

ثم التفتت لضياء وقالت:

- ثم لا تنسي يا ضياء بأن طارق لم يضمرك الخير يوماً، لقد بلغ به الشر هو ورفاقه مبلغاً

كبيراً ليقدموا على هذا، سحر غائبة ومصابة بسببهم.

قالت سوسن بغضب مماثل:

- لن أسامحهم على ما فعلوه أبداً.

قالت صفاء:

- كان من الممكن أن تحدث أمور أسوأ من هذه.

قال الشاب :

- ولهذا السبب طردوا وحرّموا من المحاضرات.

سألته صفاء قائلة:

- ولكن، متى وكيف عرفت كل ذلك؟

- بقيت متأخراً في الكلية بعد نهاية الدوام يوم أمس، لقد رأيت آباءهم يخرجون من مكتب العمادة وسمعتهم يتهايمسون بهذا، صدمت لما سمعت وتيقنت بأن الأمر واقع لغيابهم الآن، المهم...

و التفت لضيء وبقية رفيقاتها وقال:

-ربما سيتم استدعاؤكن لأجل ذلك أيضاً.

- وهل ستبرأ ساحتنا بعد هذا؟

- أعتقد نعم، فليس أمر الحريق بأيديكن.

بدت السعادة على وجوه الفتيات، أما ضياء فقد كانت في صدمة لما سمعت والأصوات قد علت حولها تتقاذف عبارات الضيق والغضب والشتم لما فعله طارق ورفاقه، قالت في نفسها في ضيق:

- اعتقدتُ بأنه تغير؛ لكن...

- ضياء!

بهتت وهي تسمع صوتاً يناديها، كان صوت طارق، تلفتت حولها ولم تره، وعاد صوته يتردد في أذنيها حين قال لها:

- رجائي لك إذا سمعتِ أي شيء ما قد يزعجك عني أن تثقي بأن طارق الذي آذاك يوماً قد رحل إلى الأبد.. إلى الأبد.

وجت للحظات وهي تتذكر تلك الكلمات.

أمر متوقع أن ينزعج الجميع منه ومما فعله هو ورفاقه لهذا طلب منها ذلك، لم لم يطلب ذلك من الجميع؟ لو أراد ذلك لفعل أمامهم ولكنه رجاها هي دون غيرها، لأنه أخطأ في حقها؟! لقد انتهى الأمر باعتذاره، فلم هذا الرجاء؟
لم هي بالذات؟

تذكرت نظراته الغريبة نحوها وتغير معاملته لها منذ ذلك اليوم قبل رقوده بالمستشفى ثم مخاطرته لأجل إنقاذها من الحريق، وأخيراً، رجاؤه لها، تملكها الارتباك وخفق قلبها في سرعة، واضطربت أنفاسها حين أدركت بأنه يكن لها مكانة في نفسه دفعته لكل ذلك، مكانة تعدت مجرد الرغبة في إصلاح الخطأ؛ بل بلغت آفاق التضحية، ازداد الاضطراب في أعماقها وهي تقول في نفسها في ألم:

- ما هذا الذي تفكرين فيه يا ضياء؟ من سيفسح لفتاة قبيحة مشوهة مكانة في قلبه؟ ماذا قدمت له ليتباني هذا الشعور بأنه...

ازدادت خفقات قلبها تسارعاً وهي تقول:

- لا أريد أن أفتح باب قلبي لأوهام جميلة ليصفعني الواقع بكوايبسه... لم أنا يا طارق؟ لا أريد لهذه المشاعر أن تلج قلبي وأتجرع بعدها ويلات ألم لن أجد لها مداوياً، لا يا ضياء، ما تفكرين فيه مجرد خيالات لا أكثر، فلاغلق باب قلبي حتى أستطيع المضي في درب الحياة وتحمل كل صعابها.

ثم استيقظت من بحر فكرها حين سمعت أحد الشباب وهو يدخل القاعة ويقول في حدة:

-من أخبرك بأن طارق ورفاقه قد طردوا؟ لقد رأيته قبل لحظات بالمكتبة.

- ماذا تقول؟!!

قالها الشاب غاضباً وانطلق خارج القاعة، نظر زملائه لبعضهم البعض في قلق وأسرعوا

يلحقون به، قالت أحد الفتيات في خوف:

-تري ماذا ينوي أن يفعل؟

فأجابتها أخرى في قلق:

-لا أدري، لنرى ما سيحدث.

تبعنهم ليشاهد الجميع زميلهم متجهاً بخطى مسرعة نحو المكتبة، في اللحظة التي أطل فيها

طارق خارجاً منها ممسكاً بعكازه بيد والأخرى تحمل كتابين، فانتبه للشاب يقترب منه وشرر

الغضب يتطاير من عينيه وقبل أن يسأله عن شيء فوجئ به يلكمه ويوقعه وهو وعكازه

أرضاً، وسقط الكتابين من يده، فتألم لسقوطه ولإصابته، وحين انتبه له ولملم وعيه هتف به

في حدة:

-لم فعلت هذا؟

رد وقد احتقن وجهه غضباً:

-ومتلك الجرأة لتسأل؟ كدت تقتل زميلانك وتعرض الجميع للخطر بسبب طيشك أنت

ورفاقك الحمقى، كيف تجرؤ على القدوم إلى هنا؟

أمسك بعكازه ونهض من مكانه محتملاً ما به، وقال في غضب مائل:

- لقد أخذت الأذن من الإدارة، هل لديك مانع؟

وكاد يهجم عليه مرة أخرى لولا أن رفاقه أمسكوا به، وارتعب الفتيات الواقفات من بعيد لما يحدث، فقال الشاب دون أن يخمد غضبه:

- ليتك لم تكن من دفعتنا أنت وشلتك العابثة، يا لك من قليل الإحساس عديم المسؤولية، ثق بأنك لن تجد مكاناً بيننا بعد الآن.

حاول رفاقه تهدئته؛ لكنه استطاع الإفلات منهم وكاد يضرب طارق لولا أنه أمسك يده بقوة وهو يقول في حدة:

-لقد فعلتُ ما في وسعي لأصلح خطأي فابتعد عن طريقي ودعني في شأني.
قال ساخراً:

-حقاً!! إذا مات أحد زملاءك، ترى كيف ستصلح خطأك؟

بهت لقوله، سيعيش لحظتها في ندم طول حياته ولن يغفر له ضميره وزر استماعه لرفاقه، فاستغل الشاب شروده وأفلت يده منه ودفعه ناحية الجدار، في تلك اللحظة أطل الأستاذ قاسم من الجهة الثانية من الممر، صاح بهما:

-ماذا تفعلان؟

توقف الشاب وتأمل قاسم وجهيهما فقط ليفهم ما جرى في لحظات، فقال:

- وإذا اعتذر عما بدر منه واعترف بخطأه، هل ستظل تلصق التهمة به إلى الأبد؟

بدا الذهول على وجوه الجميع وهم يتساءلون في أنفسهم، منذ متى اعترف طارق بخطأه؟
بينما تابع قاسم بحدة:

- لقد اعترف طارق بخطئه وبذل ما في وسعه لإنقاذ زميلاته وإخماد الحريق ولا أعتقد بأن
عليكم معاملته بهذه الطريقة، كل منا قد يقع في الخطأ والطيش وليس علينا ألا ندع ذلك
يخلق عداوة فيما بيننا.

بدا على الشاب عدم اقتناعه بما سمع واعتذر لطارق لأجل أستاذه وحسب، وغادر المكان مع
بعض رفاقه، بينما أسرع أحدهم ليناول طارق الكتابين الذين سقطا منه، وقال له في ابتسامة:
- لن يتقبلك الجميع بسهولة بعد ما حدث؛ لذا اصبر، وأتمنى لك التوفيق.
فابتسم له وقال :

- أشكرك.

والتفت لأستاذه وشكره لمساعدته، ثم غادر الجميع المكان حين لمح ضياء واقفة مع زميلاتها
اللاتي شاهدن ما حدث، طفى الحزن على وجهه وابتعد وهو يتمتم لنفسه ناكساً رأسه:
- آسف جداً يا ضياء، لقد خيبت ظنك.

لكنها ابتسمت لنفسها ابتسامة صغيرة مشوبة بالسرور والحزن لم يلاحظها، أدركت صدق
نواياه بعد معرفتها بكل ما تحمله في سبيل أن يتغير سرت لذلك رغم أن الأمر لن يكون
سهلاً عليه أبداً وسيجد الكثير من العوائق والألم التي ستعرض طريقه.

وبالفعل لم يكن القادم سهلاً، بمجرد انقضاء الأيام الثلاثة، حتى عاد طارق ورفاقه إلى مقاعد الدرس، وصار غالبية الطلاب يتجنبونهم، ومحمود ورفاقه قطعوا علاقتهم به نهائياً وصاروا يعادونه بكل مقام يجمعهم، أصبح وحيداً منعزلاً عن الجميع لا يختلط مع أحد إلا أوقات المناقشات الجماعية والتجارب، كما أنه حرم من المشاركة من المنافسات الرياضية التي يحبها، وفي حقل التجارب كان حظه مع رفاقه الأربعة منذ بداية العام الدراسي، فكانوا هم من يقومون بالعمل دون طلب مساعدته أو إتاحة الفرصة له للمشاركة أو يضايقونه ليخفق فيها إلا إذا تواجد أحد أساتذتهم فتمنعهم مراقبته من فعل ما يريدون، قرر تجاهلهم والصبر ليمضي ما تبقى من السنة على خير.

كان يحاول أيضاً إثبات جدارته نحو التغيير بالمشاركة في مناقشة أساتذته بالقاعة والإجابة عن أسئلتهم رغم أن معظم إجاباته تكون خاطئة فيخجل من ذلك ويبتسم زملاؤه ساخرين منه، أما أساتذته فقد سروا بنشاطه رغم ذلك، حتى قال له الدكتور سامي يوماً حين استطاع الإجابة عن سؤاله:

- أول الغيث قطرة، وهذه المسألة التي أجبت عنها بشكل صحيح بداية مشجعة وآمل أن تتفوق في امتحاناتك.

سر بتشجيعه رغم أنه أكثر الأساتذة سخرية منه، كان أيضاً لا يتردد في رد طلب لأحد من زملائه ويبادر بكل ما في وسعه ليفعله.

ومشكلته الحالية التي يواجهها هي أن محاضرات كثيرة قد فاتته فتعسر عليه فهم ما تغيب عنها، حاول أن يسأل زملاءه لكن بسبب تجنب معظمهم له ونظرات اللوم والاتهم التي يمنحوها له يجد نفسه مضطراً لتجاهلهم، وحين لا يلقي قبولاً من أحد يتوجه إلى أساتذته الذين أثار باهتمامه إعجابهم.

أما ضياء، فقد رأت نفسها في طارق حين كانت في بداية السنة ونفر منها الجميع، وها هو الآن يقاتل بنفس نمط قاتلها، عاد مرة أخرى ليتجنب الحديث إليها إلا بما يخص دراسة أخته بعد عودته لتولي مسؤوليتها في إرسالها إليها أو بما يخص موضوع دراستهم، ابتسمت متعجبة من تغير حاله، كيف كان بالأمس وكيف صار، وشعرت بأنه قد نال إعجابها بتغيره ذاك وقد أدركت جلياً احترامه الكبير لها.

وحين كان بالمكتبة ذات يوم جالساً يكتب إحدى الواجبات، انهمك في حل إحدى المسائل، وأخذ يفكر عميقاً فيها وهو يحك رأسه بقوة، وحين تعسر عليه حلها بدا عليه الضيق، نهض من كرسيه ليسأل أستاذه؛ لكنه جلس بسرعة وهو يقول بعد أن تنفس الصعداء:

- نسيت أن الأستاذ غائب، ماذا سأفعل؟

وعاد مرة أخرى لها محاولاً حلها فصار يكتب مرات ليمسح مرات مثلها، فقال:

- يبدو أنه لا مفر من البحث عن مساعدني.

- هل في إمكاني ذلك؟

نظر لصاحبة الصوت فذهل وخفق قلبه.

كانت ضياء واقفة قرب الطاولة وإلى جانبها سحر التي كانت نظرات الغضب في عينيها وهي تستند إلى عكازها، قال بتلعثم:

- لا... ضياء.... أعني سأكون ممتن لمساعدتك.

جلست على الكرسي المقابل وإلى جانبها جلست سحر، وطلبت منه مذكرته ناو لها إياها وبدت تشرح له المسألة وهو في قمة ارتباكها، لم ينظر إليها بل ركز على صوتها وما تدونه، مع إن صوتها لا ينفذ إلى أذنيه بل إلى قلبه ليخفق مع كل كلمة، حاول مقاومة ما به وفهم ما تقوله، وسحر تراقبها وقد ازداد ضيقها وهي تجلس إلى جانبها، فلما انتهت، قال:

-شكرا جزيلا لك.

- العفو، أنا مدينة لك بإنقاذ حياتي وأرجو منك إن احتجت شيئا في شأن الدراسة أن تخبرني سيكون من دواعي سروري مساعدتك.

- لم أكن أريدك أن تشكريني ضياء فهذا واجبي.

ثم نظر لسحر وقال:

-حمدا لله على سلامتك، يا سحر.

قالت بغضب وحدة:

-الحمد لله وكفانا الله شر الأشرار.

رد بأسف:

-أنا آسف لما أصابك.

لكنها لم تصغ إليه بل أعرضت بوجهها وغادرت لتلحق بضياء ثم قالت لها:

-ضياء لماذا أنتِ مصرة على مساعدته؟

- لقد ذكرت السبب، وإن طلب أحد مني شيئاً سأساعده يا سحر.

-ولكنه أساء إليك.

- لقد اعتذر وأنا قبلت اعتذاره بعد كل ما قدمه لأجل أن يثبت لنا سعيه نحو التغيير.

زفرت في ضيق وهي تقول:

-لا أنكر مساعدته لنا، وأفضل الابتعاد عنه.

قالت في ابتسامة :

-لا داعي للقلق سحر.

ومضتا في طريقهما ..

أما طارق، فقد تعلق بصره بهما حتى خرجتا، شعر بالآلم والاستياء لعدم تقبل معظم زملائه وزميلاته له رغم اعتذاره عما فعل واعترافه به، ثم هز رأسه وأيقن أن الاستسلام لخيبة الأمل لن يعثره سواه، تجاهل كل ما خطر بباله وهو يعود لتفكير بحبيته.

أية لحظات قصيرة تلك مرت عليه؛ بل في كل مرة يستمع لحديثها يصغي لها بقلبه، بطرب أذناه لصوتها، صوتٌ كشذا عصفور ألهمه ليعزف على ترانيم القلب إيقاعاته التي تأخذه كلياً من أرض واقعه، إطلالتها كإطالة ملائكة يخفق الشوق للقياء، فيأنس بوجودها، لحظات تمر عليه كنسمة في فصل الربيع، تلك الحبيبة القريبة منه بكيانها، البعيدة عنه بقلبها، كيف

استحكم نفوذها على سلطان قلبه المتحجر ليتفتق ربيعاً في كل مرة تزوره، ويعيش نشوة السعادة في تلك اللحظات، وما أن تغادره حتى تنبت أشواك الشوق والحنين فتوجعه بوخز الانتظار لعودتها.

احتار طويلاً، كيف يحول ذلك الربيع الأسير بين أضلاع صدره إلى ربيع يأسر العيون ويذهل الأبواب؟

لو أنها تعلم شيئاً مما في نفسه لربما أشفقت عليه من آلام قلبه وصرخته التي لا يسمعها أحدٌ سواه، لم يجد بعد من يصارحه بحقيقة مشاعره نحوها، ولا من يسعى من أجله ليعرف حقيقة مشاعرها نحوه، وربما لو علم أحدهم بها في نفسه لسأله حائراً:

-لم اخترتها هي دون غيرها؟ ألا تراها مشوهة؟
يتمتم مبتسماً:

-وهل يُسأل العاشق لم يختار حبيبته؟

القلب حين يبصر يرى ما لا تراه العين، وقد يحب ما لا تحبه، هي بمظهرها عادية لا يميزها عن أترابها إلا تلك الندبة التي تنفر من حولها عنها، فإذا بها تجذبه برفق إليها ليكتشف أن خلف ما خلفته مأساة الحرب جوهرة ثمينة لا تقارن بكل جواهر الأرض حوله. وجم للحظات طويلة، لا بد أن يجد طريقة يفك بها أسر قلبه العاشق ويضع للصراع المحتدم فيه نهاية، أخذ يفكر بصمت كيف سيتم له ذلك؟

الفصل التاسع والعشرون

عناق روح

استرق النظرات لوجوه أهله وهم يتناولون عشاءهم ويتحدثون في أمور العمل والبيت والدراسة، وعد اللحظات بنفاذ صبر إلى أن انتهوا، صدره الملتهب لم يعد يحتمل ما به، فصار يبحث عن دواء يخمد حماء المتقدة المشتتة بكل تركيزه عما حوله إلا نحو قلبه الذي خفق حباً، ما من سبيل للمداواة علتة إلا بالتخاذ خطوة للأمام تحدد طريقه نحو مبتغاه.

بعد أن نهضت عائشة لترتب المطبخ، جلس عبد الكريم يشاهد التلفاز، بينما استلقت رُبا على أريكة الصالة واستسلمت للنوم من فورها، وألقى طارق نظرة طويلة على وجهها ليتأكد من أنها نائمة، ثم اقترب من والده وجلس إلى جواره، وقال بهدوء:

- أبي، هناك أمرٌ أود محادثتك فيه أنت وأمي.

نظر إليه في اهتمام، وقال:

- تفضل يا بني.

- لحظة سأنادي أُمي.

وأسرع يناديها فانضمت إلى مجلسهما لتجلس عن يسار عبد الكريم، بينما جلس طارق عن

يمينه، وقد بدا القلق عليها من طلبه لها معاً، سألته قائلة:

- ما بك يا طارق؟ أقلقتنى.

بدا الارتباك على وجهه وهو يشعر بأنفاسه تضطرب حين قال:

- لا تقلقي، كل ما في الأمر... أني...

وصمت لبرهة ليأخذ نفساً عميقاً ويبدأ نفسه قبل أن يستطرد:

- أفكر في الزواج.

علت الابتسامات وجهي والديه، هتفت في سرور:

- حقاً؟! كم أسعدني حديثك يا بني، سأبحث عن فتاة مناسبة لك.

بينما قال عبد الكريم والابتسامة لم تفارق وجهه:

- الوقت لا يزال مبكراً على الزواج، أنت لم تعمل بعد ولم تنه دراستك.

رد طارق:

- ليس بالضرورة أن يتم الآن، من الممكن أن يتم بعد أن أنهى دراستي.

أردفت عائشة بحماس:

- لا يهم يا عبد الكريم، المهم هو أن أجد الفتاة المناسبة لولدي وستتفق على كل شيء وقتها.

قال طارق وقلبه يخفق بعنف مزيداً من ارتبائه وتلعثم كلامه:

- ولكن... هناك فتاة أريدها بعينها.

بدت الحيرة على وجهها، ثم سألت:

- ومن هي؟

- ضياء.

عندما نطق باسمها تضرع وجهه كله بحمرة الخجل، واتسعت ابتسامه عبد الكريم حين سمع ذلك ورأى قسماً وجهه، أيقن هذه الكلمات صدق ظنونه، بينما قالت عائشة بغضب: -نعم!! من قلت؟! أما وجدت إلا تلك الفتاة القبيحة لترتبط بها؟!

وخزته كلمة (قبيحة) رغم إدراكه بما في نفس أمه، انتفض جسده قليلاً وهو يلقي ببصره ناحية أبيه، خشي أن يوافقها ويردد ما قالت، ولما رأى صمته وابتسامته ورغبة الاستماع إليه تلوح في عينيه، تشجع لأن يكمل حديثه، وأجابها مبتسماً:

-كنت أكرهها لذلك؛ بل أزعجني وجود أناس تتعامل معها بكل لطف، أردت إبعادها أو جعلها سخرية الجميع، ثم تبين لي خطأ ما كنت أفكر فيه وسوء ما قمت به نحوها، هي لم تكن كذلك قبل قدومها إلينا؛ بل الحرب هي من شوهت وجهها، أتخيلها لو لم يصبها ما أصابها لكانت جميلة الوجه.

ظل عبد الكريم يتطلع في وجهه في سرور متنقلاً بين ملامح وجهه المفعمة بحرارة العشق ونظرات التيم، تبدلت تلك الملامح التي يعرفها، كان طفلاً بطيشه وغروره وسعي للعبث مع رفاهه وحديثه عما يريده لنفسه وما يرغب به، شعر بأنه أمام شخص آخر بتغير سلوكه ثم طريقة تفكيره بسبب ضياء، كل ذلك كفيل بأن يجعل قلبه يتعلق بها ويخطط لخطوات كبرى في المستقبل، بل يطلب أن تكون قربه، ظل يراقب حركاته وسكناته ويستمتع لحديثه مصغياً إليه، بينما احتقن وجه عائشة في ضيق وغضب، لم تكن تتصور أن تدخل فتاة قبيحة لا تحبها

إلى بيتها وتنظر لوجهها ليل نهار، كان ذلك يفاقم الغيظ بقلبها وقد أثرت الصمت بدورها وهي تستمع لحديثه وهو يتابع وعيناه تنظران نحو الأعلى وقد شرد بخياله بعيداً عنها:
 -لقد التمسيت طيبة تلك الفتاة صبرها، أدبها، عفائها، رقي أخلاقها، ورقة تعاملها؛ بل قوة شخصيتها رغم كل الظروف التي مرت بها؛ إنها فتاة قوية تدرك هدفها طموحة إليه، ساعدتني رغم كل إساءاتي نحوها، تعلمت منها الكثير...
 وقطع عبارته حين انتبه بأنه يحدث والديه وشعر بأنه قد أفاض بدون وعي ما دفنه في صدره لمدة طويلة، لم يتخيل أن نظرات والده قد تدفعه لكل ذلك، فنظر إليهما مرتبكاً دون أن يضيف كلمة، ضحك عبد الكريم لردة فعله في سعادة، بينما قالت عائشة في ضيق:
 -أكمل، ولهذا أحببتها بل وعشقتها فلم أر قبح وجهها، أليس هذا ما أردت قوله؟
 ازدادت حمرة الخجل على وجهه ولم يستطع قول شيء، بينما قال عبد الكريم لها مبتسماً:
 -وماذا في ذلك؟ أليسوا يقولون أن الحب أعمى؟ بينما أنا أحببتك وعيناى مفتوحتان ولم أفلح.

حدجته بنظرات ساخطة وهي تقول:

-ماذا تعني؟

تجاهل سؤالها وهو يقول:

-دعي القلوب تجتمع على الحب في ظل شرع الله، ليس هناك شيء أجمل من ذلك يا عائشة.
 اعتدلت وهي تحرك يدها، وتقول في غضب:

- يا سلام، هذا يعني أنك توافق ابنك على اختياره؟

قال بحزم:

- أنا أرى بأنها مناسبة لطارق، كما أنها هي من غيرت شخصيته وأثرت فيه وهي لا تزال بعيدة عنه، فما بالك لو صارت زوجة له، ستكون مصدر سعادته بإذن الله، أحسست بذلك منه حين كان في المستشفى.

ابتسم ابتسامة صغيرة حين قال والده ذلك، بينما قالت وهي تضع يدها أسفل ذقنها مفكرة ثم قالت دون أن يتبدد غضبها:

- أها... لهذا السبب كان يسألني في ذلك اليوم عن ضياء وأمها ورأيي فيهما.

هز رأسه إيجاباً، قالت في عصبية وهي تحرك يديها معاً:

- وإن كان ما قلت، تلك الفتاة لا أحبها، لا أحبها، هي غريبة عن مدينتنا وقبيحة أيضاً، ماذا سيقول الناس عنا؟ انقضت الفتيات الجميلات من المكلا لنفكر بفتاة مثلها؟

عاد عبد الكريم يقول لها بحزم وهو يربت على فخذه محاولاً تهدئة غضبها:

- ما يهمننا من حديث الناس يا عائشة، المهم أخلاق الفتاة وسنحاول أن نتعرف على أهلها

أكثر مع أي أعرف شادي وأحترمه كثيراً، ولو كانت رُباً كبيرة وتقدم لها لزوجتها إياه، إنهم أناس طيبون وذو أخلاق راقية ومع ذلك سأسأل لأجلك.

أبعدت يده في انفعال ونهضت وهي تقول في غضب:

- لا، لستُ موافقة.

قال طارق في رجاء:

-أرجوك أمي، تعاملني مع ضياء و ...

قاطعته قائلة وهي تنظر إليه بحدة:

-ربما يكون ما ذكرته صحيحاً عنها؛ لكنني لا أحب تلك الفتاة ولا أريدها أن تكون في

بيتي ...

ثم وضعت يديها على رأسها وهي تقول:

-آآآ.... آخ، حتى مجرد تذكري لوجهها القبيح يشعرني بالنفر، كيف سأدخلها بيتي؟

عقد عبد الكريم حاجبيه وقال بحدة:

-إذا كان حكمك على المظاهر وحدها فلن تغلحي أبداً، الإنسان بجوهره، لن تجدي فتاة

بمثل خلق ضياء وجوهرها الرائع.

ردت بانفعال زائد وهي تهز يدها وتهتم بالابتعاد:

- لا يهمني، لا يهمني.

أسرع يمسك بيدها ويجلسها في مكانها برفق:

-إذن لدي حلٌ لذلك وهو أن تطلبي من والدتها صورة لها قبل إصابتها وتحكمي عليها.

أطلقت من جوفها زفرة ضيق حارة متقدمة، بينما عاد طارق يقول لها في رجاء:

-أمي، أرجوك تعاملني مع ضياء وستحبيها.

زمت شفيتها وهي تهز رأسها ثم قالت:

- لا أدري كيف سحرتك تلك الفتاة.

تجاهل كلمتها وهو يقول:

- أرجوك لي طلبتي.

ثم حدجته بنظرة حادة، وهي تقول:

- ألم تقل بأنك أسأت إليها؟ فكيف ستوافق عليك؟ أنت تحبها وهي قد لا تبادل ذلك..

صمت للحظات ونكس رأسه وهو يقول:

- لقد اعتذرت لها وحاولت إصلاح أخطائي وقد قبلت اعتذاري؛ لكنني لن ألومها إن

رفضتني وسأدرك لحظتها بأنها سامحتني بلسانها وليس بقلبها.

قال عبد الكريم:

- لم يتبقَ على موعد امتحاناتكم النهائية إلا أسبوعان، اقترح بأن تؤجل هذا الأمر إلى نهاية السنة.

أجابه بحزم:

- لا يا أبي، أريد أن أعرف رأيها فيّ، هل تقبل الزواج بي أم لا؟

بدا القلق على وجهه، ماذا لو رفضته ضياء؟ هل سيظل على ما هو عليه من تغير نحو الأفضل

أم سيتكس و قد تعلق قلبه بها؟ فقال بحزم:

- لا يا طارق، يجب أن تقدر وضع ضياء أيضاً، فهي مشغولة بتعليم أختك وبدراستها

وامتحاناتها المقبلة، لا تكن عجولاً، فهذه الأمور ليست سهلة ويلزمها التأني، إنه مصير حياة.

بدا عدم الاقتناع على وجهه وهو يتراجع ليسند ظهره إلى ظهر الأريكة ويهز رأسه مدعناً لأمره، وهو يقول:

-كما تريد أبي.

ثم قال عبد الكريم وهو ينظر لزوجته:

-في هذا الوقت، سأحاول السؤال عن عائلتهم والدتك تتعرف عليها أكثر وعلى أمها.

هتفت في ضيق مجدداً وهي تضرب ظهر الأريكة بيمنها في انفعال زائد:

-وكانكما ستفرضان علي، قلتُ (لا) يعني (لا).

عاد يقول لها طارق في رجاء:

-أرجوكِ أمي.

نهضت بسرعة وهي تحرك يدها بانفعال وتقول بصرامة:

-لن يحدث هذا الأمر إطلاقاً.

وانصرفت عنها بسرعة فتملكه الحزن، واتجه بنظرات الرجاء لوالده الذي ربت على كتفه

وقال له مبتسماً:

- لا تقلق، سأحاول إقناعها في الغد إن شاء الله.

ابتسم له وشكره، ثم طلب منه أن ينقل أخته إلى سريرها فحملها وغادر الصالة بها، ظل

ينظر إليه حتى توارى عن أمام ناظره ثم قال:

- أسأل الله أن يرزقك السعادة وينير دربك.

لثلاثة أيام، حاولا تغيير رأيها فلم تزدد إلا عناداً وتشبثاً بموقفها، شرحا لها، حاولا إقناعها بدماثة خلقها وصبرها وسلوكها ولم يفلحا، شعر طارق باليأس وأن ما يسعى لأجله بعيد المنال منه، إلا أن والده يطمئنه بأنه معه ثم قال:

- سأتحري عنهم من قبل عدد من النازحين لأعرف أكثر عن أسرتها، وعندما تصلني المعلومات الوافية سأخذ ما أراه مناسباً فلا تقلق.
ويطمئن مع كلماته ويشكره لذلك.

وفي عصر يوم التقت ضياء بربا - كما هي العادة - في منزلها لتعلمها في غرفتها، جلستا على الحصيرة وفتحت دفترها ثم وجهتها لتكتب أحد الحروف اللغة الانجليزية فيه، تناولت القلم وانحنت لتكتب إلا أنها لاحظت عليها ارتباكاً، تارة تدون جزء من الحرف ثم تقطعه لترفع القلم وتهزه دون أن تعود للكتابة، وتارة ترفع بصرها عنه لتنظر إليها وكأنها تود قول شيء لها، سألتها:

- رُبا، ما بك؟ ألا تستطيعين كتابة هذا الحرف؟

قالت في تردد:

- في الواقع، أريد إخبارك أمراً؛ لكنني مترددة في ذلك.

- لم؟

- لأن الأمر لا يخصني، بل سمعت والداي وأخي يتحدثون فيه.

- إذن فهذا الأمر سر ولا يجب أن تخبري أحدا به.

- ولكن...

أشارت لها بحزم:

- لا يا رُبا، ليس جميلاً أن تخبريني خصوصيات بيتكم، لن تكوني شجاعة بتصرفك هذا.

صمتت للحظات ثم قالت:

- حسناً، هناك سؤال أود أن أسألك إياه؟

- تفضلي عزيزتي.

- هل تحبين أخي طارق؟

صدمت لسؤالها، وقالت متلعثمة:

- لم هذا السؤال يا رُبا؟

- لأن هذا الأمر متعلق بذاك، فأخي يحبك ويريد الزواج منك.

اضطربت لقولها وهي تقول في ذهول:

- طارق... يريد... الزواج...؟!

هزت رُبا رأسها وهي تقول بطلاقتها المعتادة:

- نعم، سمعته يحدث والداي منذ أيام، كنتُ نائمة بالصالة ثم استيقظت حين سمعته يحدث

أبي، وظللت متظاهرة بذلك لأني كنت متعبة حتى أنه نقلني إلى فراشي معتقداً أنني نائمة.

قالت عبارتها الأخيرة في ابتسامة، بينما ازداد ارتباك ضياء.

هل طارق حقاً يفكر بها؟ ذلك الشاب الذي لم يكن إلا يكرهها ويؤذيها، أصبح يحبها؟ أهذه الدرجة زاد إعجابه بها؟ لم تستطع أن تصدق ذلك، هل ما شعرت به وفكرت فيه في ذلك اليوم كان حقيقياً وليس وهماً أو خيلاً؟ هل هناك من يفكر بها ويهتم لأمرها حقاً على الرغم من تشوّه وجهها؟

تطلعت في وجه رُبا، قرأت ملامح البراءة ورأت شعاع الصدق في عينيها، لا يمكن لها أن تكذب، ازدادت ارتباكاً وخفق قلبها في اضطراب فتصبب جبينها وتدفقت الدماء في وجهها وغرقت في لجة الخجل حتى شعرت بأنها ستقع مغشياً عليها، قالت رُبا وهي تتأمل اضطرابها في حيرة:

- ما بك يا ضياء؟ وأنا أيضاً أحبك.

انتبهت لها حين انتشلتها من أفكارها وابتسمت لبراءتها، وقالت وهي تحتضنها في سرور:

- عزيزتي، وأنا أيضاً أحبك.

- وأخي؟!

خفق قلبها بعنف هذه المرة فضمتها إليها أكثر وقالت محاولاً أن تكون نبرتها متزنة:

- أنا أحترمه وأقدّره تماماً فقد أنقذ حياتي ذات يوم.

هتفت في فرح وهي تتباعد عنها:

- هذا يعني بأنك ستتزوجينه.

ضربت جبهتها بكفها ضاحكة في خجل زائد، وهي تقول:

-رُبما كفي عن هذا، أعتقد بأن أخاك سيغضب إن علم بما قلته لي، ما كان عليك قول ذلك.
قالت في سعادة:

-لم أحتمل إبقاء هذا الأمر سرّاً لشدة سعادتي، كم سأكون سعيدة إن تزوجت أخي وعشت في منزلنا.

عادت لتصمت للحظات محاولة استيعاب كل ما سمعت، كان آخر ما تتوقع أن يفكر بها طارق، ذلك الشاب الوسيم مقارنة بها، ما الذي أعجبه فيها؟!
ثم عادت لواقعها لتقول لرُبا:

-هيا لنكمل الدرس قبل انتهاء الوقت.
ردت بتعنت:

-لم تجيبي عن سُؤالي؟
-دعي هذا الأمر للكبار ليتحدثوا فيه، لا أستطيع إجابتك عنه الآن.
بدا اليأس والازعاج على وجهها فقبلت جبينها وهي تقول في نبرة جمعت بين الحنان والحزم:
-صغيرتي، لا تتحدثي في هذا الأمر بعد الآن فهو سر وسيغضب والداك وطارق إن علما بما قلته، لذا لنتنظر حتى يتحدث الكبار فيه، اتفقنا؟

هزت رأسها ثم قالت:

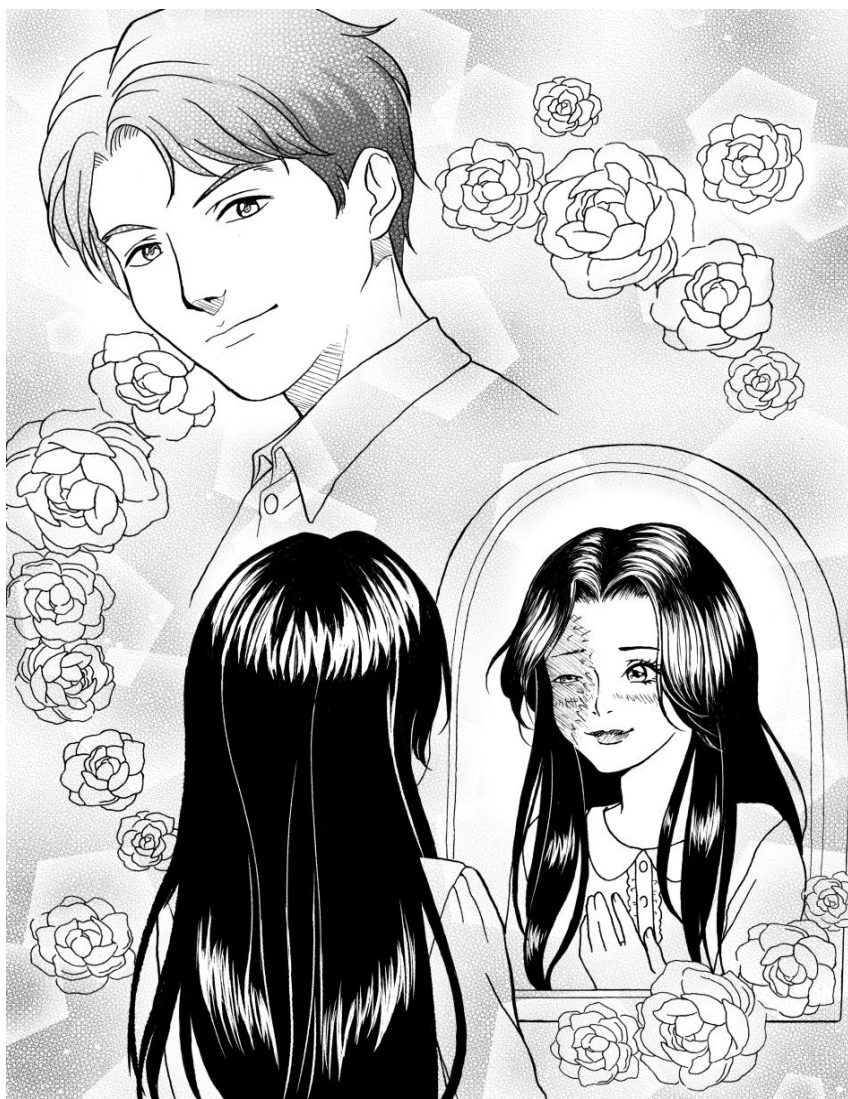
-عندها ستجيبين عن سُؤالي؟
-مؤكد، هيا لنعد للدرس.

هزت ربا رأسها وعادت لتكمل دروسها، حمدت ضياء ربهما أن استطاعت للممة اضطرابها وإظهار الجد أمامها، وعاصفة كبيرة كانت تعصف بأعماقها، لم تهدأ إلا قليلاً حين انشغلت بعملها ثم عادت مجدداً حين سمعت بوق سيارة طارق، لقد أتى بنفسه لاصطحاب رُبا من منزلها، فازدادت العاصفة عنفاً لتبعثر ما في نفسها، أخذها بحر خيالها المتلاطم موجه ليعيد لها ما سمعته مرات ومرات، أكانت في حلم أم في يقظة؟ هل ما سمعته كان حقيقاً؟ هل هنالك حقاً هناك من يريد التقدم لها؟

بعد مغادرة رُبا، أسرعَت تتجه نحو المرأة المعلقة بالغرفة لتأمل الندبة، عليها اختفت دون أن تدري؛ لكنها لا تزال موجودة، تساءلت كيف أحبها رغم تشوهاها؟! خفق قلبها عند هذه الكلمة...

(الحب)

ما أروعها كلمة حين يزينها الشرع فيخفق القلب بنبض مختلف، تتجسد عبره رقي الخلق وسمو النفس وارتفاع مكانة المحبين، لم تستطع أن تصدق بأن من يريد التقدم لها هو طارق، ألهذه الدرجة احتلت مكانة في نفسه؟ ازداد خجلها وارتعش قلبها بارتعاش الحب، فوضعت يدها على صدرها لتطمئنه وتهدأ رجفته إلا أنه أبى حين تراءت أمام عينيها كل الأحداث التي جمعتها، حديثه لها بكلمات التقدير والامتنان وما قدمه لأجلها، شعرت بأن هنالك أمل أن تفتح أبواب السعادة لها يوماً رغم كل ما بها، تجسد فيها مشاعر أنوثتها التي أرادت سجنها



مع ذكريات الحرب القابعة بفكرها ونسيان كل لغة للعشق من قلبها، فأتى بصيص الأمل ليطلق العنان لكل جمال بروحها ويجعلها تحلق في سماء حب صافي.

السعادة بأشكالها المختلفة المرسومة بأعين البشر، وبأوجهها العديدة تعتمد على طريقة نظرتهم للحياة طموحاتهم وآمالهم، أما هي لم تكن تراها إلا في سعادة أهلها واطمئنانها لقرينهم منها وتحقيقها لطموحها الدراسي، أما الآن فقد تراءت لها بشكل آخر، تجسدت لها بصورة إنسان اختارها دون سواها لتكون قربى ويمضيان في طريق الحياة معاً، تمثلت لها بهيئة طارق الذي رأته يمد يمينه إليها بابتسامة على وجهه الوضاء ليخرجها من أسر ندبة الحرب التي أذبلت روحها؛ بل ويجتاز تجاعيدها ليصل لقلبها المليء برييع الحياة وجمالها، فتختفي عنها وتعود تلك الفتاة الجميلة المرححة التي عرفها جميع أهلها في عدن، وجدته يأخذها إلى عالم بهيج يتراقصان فيه فتنسى به كل مأساة مرت بها.

استرسلت في مشاعرها وتخيلاتهما وهي تشعر بسعادة كبيرة دفنتها منذ إصابتها، ولم تستيقظ إلا على صوت مها وهي تسألها في حيرة:

-ضياء، ماذا تفعلين؟

انتبهت لها وجدت إنها لا تزال واقفة عن المرأة، يبدو بأنها بدت لأمرها كمن يتحدث لنفسه، ارتبكت وقالت:

-لا شيء أمي.

هزت رأسها في عدم اقتناع وهي تقول:

- لا شيء وأنت تقفين مكانك هنا منذ ربع الساعة، ما الذي يشغل بالك؟

ضحكت مدارية ارتباكها، ثم قالت وهي تقترب منها وتعانقها:

- لا شيء يا أمي، فقط حين رأيت الندبة تذكرت ما مررنا به، وها نحن ذا سنعود لمدينتنا.

ابتسمت لها وقالت:

- الحمد لله، نسأل الله أن ييسر أمورنا ويوفقك في دراستك لتكون عودتنا حميدة إن شاء الله.

بادلتها الابتسامة وفي أعماقها أمل، أن تكون الفرحة أكبر من هذا أيضاً، ثم أرسلتها حين

اطمأنت أنها استطاعت مداراة ما في نفسها عنها لتعود لدراستها ومذكراتها، لحظات ولم تلبث

أن شعرت بالارتباك يعود لها مجدداً وهي تقول لنفسها:

- كيف... سأقابله أو أتحدث إليه بعد الآن في الكلية؟

على الرغم من بهجة سعادتها بما كان، إلا أنها خشت أن يملكها الحياء إن طلب مساعدتها في

درس ما، أو اضطر للحديث معها حول ما يخص دراسة رُبا، هي الآن بدورها قررت أن

تتحاشى مصادفته حتى لا تقع عينيها على عينيه فتستلما لسكرهما وتبوحان له -على الرغم

منها- بكل ما عرفته عنه، عندها سيبحث عن الإجابة التي يبتغيها بين جنبات قلبها، العين

هي نافذة القلب، اهتزت أعماقها للأمر وهي تحاول إخفاء ما في نفسها عن حوّلها حين

جلست بمقعدها بالمدرج الثاني في القاعة صباح اليوم التالي وبرفقتها سحر ورفيقاتها، ثم رآته

يجلس بالمدرج الأول يقرأ في مذكرة بين يديه، بدا هادئاً مشغولاً بها فيها، ابتسمت في خلدّها،

لم يعد ذلك الإنسان الذي عرفته أول مرة؛ بل صار أمامها شخصاً آخر يسعى قدماً نحو رقي نفسه، دعت له بالتوفيق ثم انشغلت بالحديث لرفيقاتها.

لم تكن تدري بأن ما في نفسه أكبر مما بدا عليه، معركة محتدمة تأججت بنيران الحب كل ما رآها، وعاصفة الألم لا اعتراض أمه لرغبته، ظل ينتظر في لهفة ما سيتخذه والده لأجله.

عند الظهر وبعد أن تناول طعام الغداء، قال عبد الكريم له:

-لقد سألت عن عائلة شادي من بعض النازحين، وجدتهم بالفعل أنهم أناس طيبون وذو سمعة طيبة بمدينتهم، كما أنهم أسرة متعلمة ومثقفة.
قال طارق مبتسماً:

-كنت أشعر بأنهم كذلك.

تقلصت تعابير وجه عائشة في ضيق وهي تقول بحدة:

-لم أنتما مصريين على إقناعي؟ قلتُ لكم لا، لا أرى...

وقطعت حديثها حين انتبهت لوجود رُبا بالصالة تشاهد التلفاز وصمتت، بينما قال طارق مدارياً الموضوع عن أخته:

-قابليها لأجلي أُمي، أرجوك.

-وأنت، أَلن تفعل شيئاً لأجلي؟

عندها فكر عبد الكريم للحظات ثم نظر إلى طارق، وقال:

-قلتُ لك لا تتعجل وانتبه لدراستك.

فقال طارق في استياء:

-ولكن...

قاطعوه وهو ينظر إليه نظرة ذات معنى:

-أمك معها حق، لطالما قدمت لأجلك، فما الذي ستقدمه لأجلها؟

أدرك مراد والده، فطأ رأسه معتذراً:

-اعتذر أُمي، وأعدك بأنني سأحاول أن أفعل ما في وسعي لأجلك، ولكني..

ولم يستطع إكمال جملته بعد أن خنقته العبرات، فتدارك عبد الكريم الموقف، وهو يربت على فخذه ويقول:

- لا تشغل نفسك بشيء يا بني، وانتبه لما أنت فيه.

ثم نهض من مجلسه وهو يقول:

- الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا من غير حول منا ولا قوة، سلمت يمينك يا عائشة.

ابتسمت له وقالت:

-سلمك المولى.

ثم التفت نحو طارق وقال:

-سيحين وقت صلاة العصر بعد قليل، ومن الأفضل أن نستعد للذهاب إلى المسجد الآن،

هيا بنا.

نهض طارق ممثلاً لأمر أبيه، بينما لم يخف على عائشة نية عبد الكريم، إنه يريد الانفراد بالحديث معه، لكن هل سيسعى بكل جهده لتنفيذ أمر الزواج رغم عدم موافقتها؟ فنهضت لترفع صحنون الغداء من السفرة وهي تفكر في ذلك.

حين خرجا نحو المسجد، انتبه طارق بأن والده يسلك طريق الجامع البعيد وليس المسجد القريب الذي يذهبان إليه عادة في الصلوات الأخرى غير صلاة الجمعة، كما أن أذان العصر لم يُرفع بعد، أدرك بأنه يريد أن ينفرد به ويحدثه حديثاً لا يحتمل التأجيل، فبدا متلهفاً لسماع ما سيخبره به والده الحنون الذي تفهم موقفه، وطمأنه بأنه سيكون إلى جانبه، التقط عبد الكريم نفساً عميقاً قبل أن يقول برفق:

-إني أثق من حسن اختيارك يا بني، ولست أعيب ضياء بشيء، فهي فتاة رائعة بلا شك، ولو كنتُ أعلم أن ارتباطك بها دون موافقة أمك ورضاها سي جلب لك السعادة؛ لما ترددت بخطبتها لك بنفسى، وحسبُ الأمر بمقابلة شادي وحدي دون تدخلها! ولكن، حتى وإن كنتُ غير راضٍ عن تصرفات أمك، ولم يعجبني كلامها، ولا حتى اقتنعت بحجتها، فهي زوجتي وشريكتي في النهاية، ومن الطبيعي أن نختلف، أما بالنسبة لك، فالأمر مختلف، إنها أمك، وأنت تعلم ماذا تعني الأم، عليك أن تجتهد في كسب رضاها قدر استطاعتك!

بدا اليأس على وجه طارق وهو يتنهد بعمق، ثم يقول:

-ولكن أمي...

عقد عبد الكريم حاجبيه قائلاً بحزم:

-قد يبدو لك الأمر صعب الاحتمال مع رفضها، ولكن ثق برحمة الله وعدله، ولو علم الله أن ارتباطك بضيء في هذا الوقت خير لك؛ لشرح صدر أمك له.

-أبي لم أعد أفهم، هل ما زلت معي؟ أم أنك ترى زواجي من ضياء بعيد المنال بسبب رفض أمي؟

وربّت على كتفه بحنو وقال:

- أنا لم أقل ذلك، فما زلتُ عند وعدي لك بل أني سعيد بقرار زواجك منها، وسأبذل كل جهدي من أجل إقناع أمك، فلا تستسلم، الله موجود وهو وحده مقلب القلوب، فبثّ شكواك إليه.

أسبل طارق جفنيه وقال محتملاً آلام نفسه:

-ونعم بالله، ونعم بالله.

منذ تلك اللحظة وحتى المساء، ظلت كلمات أبيه تتردد في فكره، لم يغمض له جفن تلك الليلة، هاجت عواصف الحب بقلبه وآلمته لوعة العشق حتى أودت بكل وصايا والده أمام تذكره لتعنّت أمه، لم تهدئه إلا آخر كلماته:

(الله موجود، فبثّ شكواك إليه)

ترددت تلك الجملة في ذهنه، شعر بأنه يصارع جاهداً للعثور على قشة يتشبث بها من بين تلك الكلمات، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة الغارقة في بحر اليأس والألم، نهض من فراشه وتوضاً ليصلي ركعتين أطال سجودهما وهو يقول:

-يا رب، لا أعرف بماذا أدعوك، أو ماذا أقول لك، لكنك أعلم بحالي مني.

لحظات روحانية عاشتها نفسه، جاشت نفسه وانهمرت دموعه لتبلل موضع سجوده، وبث معها مكنونات قلبه بصمت، مكنوناتٍ فاقت حجم القلب وأثقلته، وعجز اللسان أن يعبر عنها أو يحمل شيئاً منها، ما أعظمها من لحظة تلك التي ترمي فيها النفس كل أعباء الدنيا بين يدي بارئها فيهبها الطمأنينة، ولم يأوي لفراشه إلا بعد أن شعر بأن أعماقه قد هدأت وأخذته سنة النوم إلى أعماق السكينة.

في تلك الأثناء، وحين كان يستعد عبد الكريم للنوم على سريريه، أسرعت عائشة تقترب منه وهي تسأله بلهفة:

-لم تخبرني عن حديثك مع طارق قبيل العصر، هل استطعت إقناعه بالتخلي عن ضياء؟
بدا التعجب على وجهه وهو يقول:

-ومن قال بأنني أريده أن يتخلى عنها؟!

كتمت شهقة كادت أن تغلت من بين شفثيها وهي تقول في خيبة أمل:

- هل كنت تشجعه على موقفه إذن؟

- لأن طارق لم يخطئ، وما يقدم عليه هو في صالحه، لقد بذلتُ ما في وسعي لأجل أن يقنعك، ومع ذلك لا تريدني ذلك.

- لأنني لستُ موافقة، وقد أخبرتكما بالسبب.

- أرجوك يا عائشة، أنا أتفهم موقفك، ولكن من أجل طارق، من أجل سعادته قابليها وحسب في الوقت الحالي قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه.

ارتعبت لقوله، فقالت:

- ماذا تعني؟ حتى وإن لم أوافق!

أجابها بحزم:

- لأنه ما من خطأ في هذا الأمر بل هو صلاح لولدك، أما أنتِ فلا تريدني إلا إرضاء رغبتك وما يريده فكرك وحسب.

تأملت وجهه وقرأت في عينيه ملامح الجذ، ازدادت خيبة أمل في نفسها فتنهدت بعمق ثم قالت في إذعان:

- حسناً، سأقابليها.

أما عبد الكريم فلم تتبدد نظراته الحازمة وهو يقول:

- عائشة، كوني حكيمة فيما ستحاولين معرفته..

- سأفعل.

فابتسم وقال:

- أسأل الله أن يكتب ما فيه الخير، وسأخبر طارق بأمر مقابلتك لها في الصباح إن شاء الله، سيسعد كثيراً.

بادلته عائشة ابتسامة صغيرة نحتها على وجهها نحتاً ثم استلقت على الفراش وهي تتمتم في حقد وغضب:

- حسنا يا طارق، تريد الزواج من تلك القبيحة؟! لن ينفذ أمرٌ في هذا المنزل إلا بي وسأجعلك تنساها إلى الأبد؛ بل سأجعلها تكره نفسها على لقاءها بك.

قدمت إلى منزل شادي برفقة ابنتها في عصر اليوم التالي، رحبت بهما ضياء ومها، وأيقنت ضياء مع قدومها جدية ما قالته ربا ففرحت، لا شك في أنها قادمة لأجل خطبتها فملأت قلبها بأزهار الفرح والأمل، وجلست معها قليلاً بغرفة الضيوف ثم غادرت مع رُبا إلى الغرفة الأخرى لتعلمها، بينما قالت عائشة في نفسها بضيق وعيناها تطالعانها حتى غادرت: - لم أتخيل أن يكون اختيارك بهذا السوء يا طارق، لا أستطيع حتى تصور وجودها في بيتي. ثم التفتت لمها وسألتها مبتسمة :

- حدثيني عنكم يا مها، نحن لم نعرف جيداً إلا زيارات قليلة، كنت مشغولة ببعض الأمور، ترى ماذا يعمل زوجك، وأين هو الآن؟

استغربت مها سؤالها وهي تتمتم في نفسها في ضيق:

- لست تخافين من المنزل ومن ضياء؟ فكيف ستتعرف؟

ثم قالت لها:

- زوجي رحمه الله توفي بعد تخرج ضياء من الثانوية، كان يعمل مدرساً، حياتنا كانت هادئة قبل الحرب، والحمد لله أن شادي استطاع أن يكمل تعليمه قبل أن يضطرب الوضع هكذا ليكون سندنا في هذه الحياة.

- آه أسفة، رحمه الله، والحمد لله أن تيسر أموركم، أما زوجي فأعتقد بأنك تعرفين عنه الكثير. شعرت بأنها ستستهل بقولها هذا حديثاً لن يعجبها، رغم ذلك قالت:

- نعم، إنه رجلٌ شهيم وكريم.

ردت عليها بتباهي:

- ليس رقي خلقه وحسب؛ بل ثراؤه كذلك، إنه يملك نحو ستة عمارات ومؤسسة مقاولات يعمل بها في نطاق واسع بالبلاد وخارجها، أشعر بالفخر كل ما تذكرت إنجازاته وصيته الواسع.

رغم ضيقها من تباهيها إلا أنها ابتسمت لها وقالت:

- أسأل الله أن يبارك له ويرزقه من حيث لا يحتسب، إنه رجل يستحق كل خير على ما قدمه للناس..

فاتسعت ابتسامة عائشة وهي تقول في زهو:

- وسيحذو طارق حذوه ويكون نار على علم مثله إن شاء الله.

- سيكون كذلك بإذن الله، فكل ما سمعت عنه من تغيير يبشر بخير.

- سمعت عنه؟!

- نعم، من ابني شادي وابنتي ضياء، إنها تمتدح تعامله وحسن سلوكه مع زملائه.

شعرت بالضيق وهي تقول في نفسها:

-أتمنى ألا تفكر مثل طارق فقط..

ثم قالت لمها:

-تري كيف أصيبت ضياء يا مها؟ وهل كانت إصابتها خطيرة وقتها؟

بدا الحزن على وجهها وهي تقول:

- نعم، كان ذلك بسبب قذيفة دمرت منزلنا وأصابتها، اعتقدت وقتها بأنها ستموت.

أبدت عائشة علامات خوف مصطنعة وهي تقول:

- يا إلهي، الحمد لله أنها بخير، هل تسمحين لي بأن أرى صورة لها قبل أن تُصاب؟

استغربت طلبها؛ لكنها لبته ونهضت لتخرج من الغرفة ثم عادت وهي تحملها وأعطتها لها،

كانت تلك صورتها مع والدها بعد تخرجها من الثانوية، الصورة التي خاطرت ضياء لأجلها

لتحتفظ بذكرى لوالدها، فذهلت عائشة حين رأتها، كانت ضياء بالفعل جميلة جداً ببشرتها

البيضاء وشعرها الفاحم الطويل الذي أرسلته خلف ظهرها وابتسامتها المرححة التي زادت

وجهاً جمالاً ورقة، شعرت بالضيق لصدق فكر طارق، ألهذه الدرجة طغى عليه الحب حتى

رسم معالم وجهها قبل إصابتها؟

ثم انتبهت لمها وهي تقول:

-ستحتاج ضياء لإجراء عملية جراحية لإصابتها حتى تعود كما كانت، والحمد لله أن يسر لها أمر ذلك، وأسأل الله أن تنجح.

سألتها مستفهمة:

- ماذا تعنين؟

- بعد أن تنهي ضياء سنتها الدراسية هذه سنعود إلى عدن، قبلاً لم يكن في مقدورنا ذلك بسبب تدمير منزلنا، أما الآن سنعود لمنزل أخي، وقد تكفل بأمر العملية لأجلها.

دغدغ السرور عائشة وغمرتها السعادة، ما دامت ضياء سترحل فلا فائدة من التقدم لخطبتها، وحتى إن تقدمت لها لاشك في أن أمها سترفض ذلك، إذن فما الداعي لأن تتقدم لها أصلاً، قالت في نفسها بحزم:

- لا بد أن أماطل طارق ووالده حتى موعد رحيلهم من هنا ثم سينسيان أمرها مع الوقت. ثم قالت لمها في ابتسام وهي تناو لها الصورة:

- مسرورة لأجلكم، أخيراً ستلتقون بأهلكم بعد هذا الغياب.

- الحمد لله.

- كيف هي أوضاع المدينة هناك؟

-الأمور لم تستقر كثيراً إلى الآن؛ لكن الناس تبحث عن الحياة.

هزت رأسها وقالت:

-أسأل الله أن تستقر وضع البلاد كلها، كلنا مضطربون.

أمنت على كلامها، ثم قالت:

-اعذريني، أخذنا الحديث ولم أقم بواجب الضيافة.

-لا بأس.

ونادت على ضياء لأجل أن تقدم واجب الضيافة لعائشة وابنتها، فطلبت ضياء من رُبا أن تكتب بعض الحروف ريثما تعود فأطاعتها، ثم نهضت لتنفذ أمر أمها دالفة إلى المطبخ، كانت تشعر بأنها في حاجة لتلك البرهة في الابتعاد عن رُبا، فمئذ أن دخلت والدتها الغرفة لتأخذ صورتها ارتبكت واضطربت نفسها، عادت لتغوص في بحر خيالها الجميل الذي كانت به بالأمس، كل ما يحدث من واقع أمامها يؤكد لها أن وهج الخيال لا بد أن يتجسد أمامها لتغدو الأميرة التي سيُشار لها بالبنان بعد أن كان يهرب الجميع منها. عادت أطياف السعادة لتزفها وهي تحمل أكواب العصير والحلويات إلى غرفة الضيوف، وما أن دخلت الغرفة حتى سمعت عائشة تقول وعلى وجهها الحزن:

-هناك أمر أود مساعدتك فيه يا مها.

- وما هو؟

- ولدي طارق يريد الزواج من فتاة قبيحة غريبة لا أعرف عنها شيئاً.

ظل الوجوم على وجه ضياء وهي تستمع لكلمات عائشة التي تابعت بصوت أقرب للبكاء:

- ليس هذا وحسب؛ بل أنه مصر على اختياره ويريد أن يفرض رأيه علي وعلى والده، آه... كم يؤلمني أن تسحر ابني الوحيد فتاة لا تمتلك أي جمال، ترى كيف سأتمكن من إخراج هذا الأمر من فكره؟

اكتست وجهها سحنة حزن، شيء في أعماقها تهشم كما يتهشم الزجاج، دوى في أرجائه حتى ارتدت أصداؤه لكل بقعة من جسدها فبان ارتعاشة طفيفة عليها وهي تقول في نفسها:
- لم تكذب رُباً إذن، لكن، يالي من حمقاء، كنتُ أعلم بأنها تخاف من وجهي، فإذا بي أتوهم بأنها...

أسرعت تجو على ركبتها وتوزع الأكواب والأطباق على السفرة الصغيرة محاولة إخفاء ما بدا عليها إلا أن عائشة لاحظتها وهي تقول في نفسها باحتقار:
- يجب أن تدركي بأن المغفل وحده هو من سيتقدم لأمثالك، اعر في حقيقة مكانتك ونفسك. أما مها فلم يخطر ببالها أنها تقصد ضياء؛ لكنها فهمت مغزى قولها فانزعجت في خلدتها، بينما تابعت عائشة وهي تقول بلهفة لمها:

- خبريني بالله عليك، ما الذي أستطيع فعله؟ كيف أقنعه بعدم الزواج منها؟
ردت ضياء عليها في هدوء مبتسمة:
- أخبريه بأن رضى الله من رضا الوالدين، فإن كنتما راضيين سعيدين بذلك فسيهنئ بزواجه وحياته.

رغم أنها قصدت بحديثها إيذائها إلا أنها ذهلت لردّها، وقالت لها متابعة:

- على طارق أن يسعدكما كما تريدان إسعاده، لا أن يحزنكما مقابل ذلك.
- تأملت عيناها، كان حديثها صادقا من أعماق قلبها، شعرت بأن تلميحها قد بلغها؛ لكنها لم تتوقع هذا الرد منها، تخيلتها ستغضب منها أو ترد عليها بحديث لا يليق أو تلوي مبتعدة باكية في ألم وتكره نفسها لأن أحداً لن يقبل الزواج من مشوهة مثلها، أدركت لحظتها حكمتها ورزانة عقلها، كيف لا وهي من تمكنت من التعامل مع ابنتها التي لم تستطع تغيير سلوكها أو تعليمها، وخلال سنة دراسية أثرت في شخصية ابنها المغرور الذي لم تسلم من إيذائه، وكيف صار الآن يسعى لأجل دراسته وتحقيق هدفه والسعي نحو مستقبله، لكنها سرعان ما تجاهلت تلك الأفكار التي راودتها ونفضتها وهي تقول في نفسها بسخرية:
- امتلكت الجرأة لتتكلمي لأنك لم تدرك بأن الحديث عنك وحدك.
- ثم قالت لضياء مبتسمة في سرور:
- سأخبره بذلك وعساه يقتنع، شكراً لك.
- بادلتها الابتسامة ونهضت خارجة لتعود لربها، أما مها فقد تعلق بصرها بابنتها خوفاً من أن يؤثر فيها كلامها تأملت وجهها حتى غادرت الغرفة، لمحت حزن في عينيها، ولما اختفت، قالت لعائشة بحزم:
- المهم هي أخلاق الفتاة، كم من جميلة هدمت بيوتاً كانت مستقرة.
- أنت على حق، يجب أن أبحث عن فتاة تجمع الجمال والأخلاق معاً..
- ازداد ضيق مها لعدم إدراكها لمقصدها، أما عائشة فقد قالت في نفسها بحزم:

- لا بد أن أجد طريقة أضع فيها حداً لطلب عبد الكريم وولده، هذه الزيارة يجب ألا تتكرر أبداً.

أما ضياء، فقبل بلوغها الغرفة الأخرى انهمرت دموع الألم من عينيها غارقة في صدوع قلبها الجريح وتغلغلت في أعماقه لتزيد آلام جراحها بعد أن كادت أن تضع للسعادة مكاناً في قلبها، لقد نفرت أطيافها منها، واحتقرت أزهار ربيعها فجأة، روحها المفعمة ببهجة الحياة تلاشت، أدركت أن حلمها بعيد المنال عنها مع كل ما بها، ثم كفكت دمعها محاولة الاتزان حتى تستأنف عملها، وهي تقول في نفسها:

- أشكرك يا طارق، أشكرك، لقد أعدت لروحي شيئاً فقدت معناه منذ زمن، وبقدر ما أحببتني رغم كل ما بي فقد... أحبتك.

الفصل الثلاثون

لأجلك...

لحظات وجود عائشة بيّتهم مرت ثقيلة على قلب مها التي كانت قلقة على ابنتها من حديثها الجارح منذ أن تركتها لتكمل تعليم رُبا، فما أن غادرتا، حتى قالت لها في حزم:

- إياك أن يؤثر فيك كلام تلك المتعجرفة.

نكست رأسها، وقالت في حزن:

- أليست هذه هي الحقيقة يا أمي؟ وإلا ما كنت سخرية زملائي ولا ميداناً لحديث أحدٍ يوماً رغم أن بعضهم توقف عن ذلك بتعاملي معهم و... قاطعتها وهي تختضنها وتقول في حزن وألم:

- حبيبي، لا تدعي اليأس والحزن يسيطران عليك هكذا، ستجربين العملية وتعودين كما كنتِ بإذن الله.

أرخت رأسها على صدرها لتحاول الشعور بالطمأنينة وهي تسبل جفניה وتقول مقاومة ألماً:

- لن أفقد الأمل يا أمي وقد لاح أمامي؛ لكن هو ألم أصاب قلبي منذ أن أصبت ولا أستطيع نسيانه.

أمسكت بكتفيها وأرسلتها ثم نظرت إليها مستفهمة، وروت لها كل ما نقلته رُبا، صدمت ثم عقدت حاجبيها قالت بغضب:

- تلك المتعجرفة كانت تقصدك بكلامها إذن؟ أخبرتها بأن المهم هو أخلاق الفتاة ولم أدرك بأنها ستشتبك أمامي، سأرد عليها إن عادت إلى هذا الحديث مرة أخرى.
هزت رأسها وهي تزم شفيتها للحظات ثم قالت وعبرات تحنق كلماتها:
- لا تكوني بمستوى حديثها يا أمي، ولا تسمح لي للألم أو الغضب بأن يدفعك لتبادل ما لا يليق معها، أما أنا فلا تقلقي بشأنني، ولا أريد أن أسبب الأذى لأحد بسبب إصابتي.
- لكن طارق...

- وإن كان يريد خطبتي رغم ما بي فليس من العدل أن أؤذيه معي، ثم إننا على كل حال مغادرون لهذه المدينة، ولا بد أن ننسى أحزاننا لنواصل هذه الحياة.
- عزيزتي.

عادت لتضمها إليها، وهي تقول في حزن:

- ستأتي السعادة لدربك يوماً وستفرحين، دعواتي لك ولأخيك تحيطان بكما.
رغم كل محاولات صمودها إلا أن الدموع أبت إلا أن تهرب من عينيها، فهربت في حسرة وحزن وبأس، حسرة لعدم بلوغها السعادة بمن غرس كل جمال بقلبها وأحبها من كل قلبه، وحزن على نفسها من قسوة المجتمع التي لا ترحم أحد، ويئس من تحقيق أحلامها ككل فتاة بمثل عمرها، دفنت وجهها بصدر أمها، وسمحت لدموعها بالهرب، علّ ذلك ينتشلها من كل تيارات الحزن المضطربة وخيبات الأمل التي أرادت أن تهوي بقلبها، فلا تمنع الغوص من لجته المظلمة.

حين عادت عائشة مع ربا وحدهما إلى البيت بعد المغرب، وجدت طارق في الصالة يذاكر في إحدى محاضراته، وابتسم لهما، كان يعلم بأمر زيارتها لمنزل ضياء، بادلته الابتسامة وهمت لتغادر الصالة عائدة إلى غرفتها، إلا أنه استوقفها وهو يسألها قائلاً:

-هل تحدثتِ إلى ضياء؟

صمتت للحظات وهي تشير لربا بمغادرة الصالة لتبدل ملابسها ففعلت، ثم التفتت إليه وهي ترم شفيتها وتقول في الضيق:

-لا رغبة لي في لقائها بعد الآن.

بهت لقولها ونهض قلقاً وهو يسألها:

-لم يا أمي؟ هل حدث شيء بينكما؟

أشاحت بوجهها عنه وهي تعدل حقيبتها على كتفها، وتقول:

-قلت لك بأني لم أحب تلك الفتاة ولن أحبها، منظر وجهها يزعجني، ومنزلها يصبني بالنفر والاختناق، لن أذهب إليهم بعد الآن، إني لا أحتمل حتى رؤيتها.

بدا الألم على وجهه وهو يستمع لكلماتها فنكس رأسه، يائساً، فلما لاحظت عليه ذلك تذكرت ما قالته ضياء لها، لا بد أن تقنعه برأيها بعيداً عن عبد الكريم، وألا تخبره بأمر رحيلها حتى لا يبادر بحلول سريعة لأجل ذلك، اقتربت منه، وأمسكت بيده أجلسته إلى جوارها على

الأريكة، وهي تقول محاولة استجماع هدوئها:

- بني، ألسنت تريدني أن أفرح وأسعد بزواجك؟ كيف تريد تحقيق ذلك وأنا لست سعيدة حتى بمجرد رؤيتها؟ في وسع والدك أن يزوجك إياها رغماً عني؛ لكنك لن تكون سعيداً إن ظللتُ أنا حزينة، أليس كذلك يا بني؟

شعر بأن كلماتها قد أصابت قلبه في مقتل، ازداد وجعاً، وهي لا تزال تمسك بيده وتهزها وتقول في رجاء محاولة حثه على تأييد قولها:

- بني، أرجوك انسى أمر ضياء، وأعدك بأني سأجد لك فتاة أفضل منها ستسعد معها بإذن الله، اهتم بدراستك وحسب الآن ولا تشغل نفسك بأي أمر آخر.

ابتلع غصة الألم بصعوبة وهو يراها تخيره بين سعادته وسعادتها، كيف له أن ينسى من أعادت له قلبه وصارت هي قلبه؟ من أعادت له روحه التي سلبها منه غروره وتكبره، كيف يستطيع أن يحطم قلعة الحب التي سكنت فيها حبيبته في لحظات قليلة ولمجرد كلمات، كيف يستطيع أن يعيش قلبه بعيداً عن ملاذه الآمن؟

لو أنها شعرت بشيء يسير من آلام قلبه أو رأت جراحه الذي افتعلتها خناجر كلماتها لعدلت عما قالت له، لم تكن تدري أنها تعذبه بقسوة وتقتل أعماقه ببطء، أي عذاب هذا الذي يسكن العاشق ويجعله ينازع روحه بين واقعه ورغبته؟ استحوذت قسوة الأفكار على نفسه، أنسته كل وصايا أبيه؛ لكن صدى جملة واحدة تردد عميقاً في وجدانه:

(ثق برحمة الله وعدله)

فلم يجر جواباً، ولم يستيقظ من دوامة حزنه إلا حين أقبلت رُباً بعد أن استبدلت ملابسها وهي تقول في رجاء:

- لم لا تحين ضياء يا أمي؟ أنا أحبها وسأكون سعيدة إذا تزوجت أخي وعاشت بيننا. فوجئاً بقولها، فقالت عائشة في غضب:

- متى سمعتِ هذا الكلام يا رُباً؟

صمتت حين رأت ملامح الغضب في وجهها، وبدا الخوف عليها وهي تضع يدها على فمها، ما كان عليها أن تفلت تلك الكلمات من فيها، بينما انتشل الموقف طارق مما كان فيه، وقال في عصبية وانفعال:

- ألم تسمعي سؤالها أيتها الفضولية؟

غرقت في بحر الصمت من شدة خوفها حين انتقلت عدوى الغضب إليه، ونهضت عائشة وقالت وهي تقترب منها:

- هيا، تكلمي.

انهمرت الدموع في خوف من عينيها، وقالت متلعثمة مرتجفة:

- منذ ... أيام.

أمسكتها من أذننها وهي تقول في سخط:

- لن تذهبي إلى ضياء بعد الآن، لقد انتهت دراستك معها، وإياك أن تخبري أحداً بهذا.

هزت رأسها وهي تقول باكية في ألم وخوف:

- أرجوك أُمي، لا تحرمني من رؤية ضياء، وأعدك بأني لن أخبر أحداً بعد الآن.

انتبها إلى آخر كلمات قالتها، فقال طارق في حدة وهو ينظر في عينيها:

- من أخبرته؟ لا تقولي لي بأنك أخبرتِ ضياء؟

ازدردت ريقها بصعوبة، وصاح بها في نفاذ صبر:

-أجيب.

قالت مرتجفة :

-نعم، أخبرتها .

- مشاغبة، هذه الأمور يجب ألا تخرج خارج حدود البيت.

قال ذلك صارخاً في غضب، هربت من أمامه مبتعدة حين أحست بأن أصابع عائشة قد

ارتخت حول أذنها، ثم تنهد بعمق وقال وهو يحك رأسه في انفعال وخجل:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، يا إلهي ... ضياء تعلم الآن بجلية مشاعري نحوها، كيف

سأتمكن من مواجهتها أو طلب شيء منها بعد الآن؟ تباً لتلك الصغيرة المشاكسة.

أما عائشة، فقد شردت كل الشroud عن ولديها حين أصابتها صدمةٌ مما سمعت، ضياء حين

ردت عليها كانت تدرك بأنها تقصدها بحديثها، ازدادت ذهولاً من رصانة ردها وهدوئها

رغم الحديث الجارح الموجه إليها، كيف لا تحتمل حديثها وهي من تحملت حديث زملائها

أمامها في سبيل المضي في دراستها؟ احتملت دون أن ترد على إساءتها بمثلها! شعرت بصدق امتداح عبد الكريم وطارق لها ولجوهر روحها الفريدة.

أية روح تلك كانت روحها، روح تقاوم أمواج الألم بصبر كبير.

اجتمع بقلبها ألم الذنب الذي اقترفته بحقها، وألم الحسرة الذي لا بد قد أصابها، لاشك من أنها كانت تقول لنفسها:

- ما ذنبي أن شوهت الحرب وجهي وقد كنت جميلة قبل قدومها حتى تنفروا مني وتكرهوني هكذا؟

غصت بعبرة حزنها، وجثم وزر ما اقترفته على صدرها بشدة، حين تنطلق سهام الكلمات دون هدفٍ فلا رجعة لها وتصيب بطيش؛ بل وترتد آلام الندم لمطلقها بعد فوات الأوان، انهارت على الأريكة وظلت عيناها ساهمة واجمة تحديقان للبعيد، وانتبه طارق لردة فعلها، فعاد يسألها في قلق:

- أمي، ما بك؟ هل حدث بينك وبين ضياء شيء؟

تنهدت بعمق ثم نظرت إليه وقالت بهدوء:

- لا تقلق، دعني أسترح قليلا.

ازداد شعوره بالقلق وهو يتبعها ببصره حين نهضت لتغادر الصالة متجهة نحو غرفتها وهي تتمتم لنفسها في حزن:

-ليتني لم أقل شيئاً، ليتني سألتُ وحسب، ليتني فعلت ما قال لي عبد الكريم، ماذا سأفعل الآن؟ يالفضاعة ما فعلتُ يا عائشة.

ثم أردفت قائلة في حيرة:

-ضياء، أي نوع من الفتيات أنت؟

لم تستطع أبداً نسيان ما كان طوال تلك الليلة، وظل عالقاً بفكرها، حتى بعد أن عاد عبد الكريم للمنزل وأخبره طارق حين اجتمع به في الصلاة قبيل موعد العشاء، بينما كانت تجهز السفرة بغرفة المعيشة وتستمتع لهما، ثم قال لربا في ضيق:

-ما كان عليك فعل ذلك يا ربا.

قال طارق في ضيق مماثل:

-فتاة مشاغبة، لن تتغير.

نكست ربا رأسها، وقالت في ندم:

-أسفة أبي، أنا أحب ضياء وسررت كثيراً لما سمعت، فلم أحتمل كتمان ذلك وأخبرتها، وأيضاً لا أريد لأمي أن تمنعني من زيارتها.

اقتربت عائشة منهم، وقالت بهدوء:

-ربا، ضياء الآن مشغولة بامتحاناتها لن تكون قادرة على تعليمك.

بدا الحزن على وجهها، في حين قال عبد الكريم مبتسماً وهو يربت على كتفها ويقول:

-لا تقلقي يا ربا، ستتحقق رغبتك ورغبة أخيك وتصبح ضياء فرداً من عائلتنا بإذن الله.

ابتسمت في سعادة وعانقت والدها، فقبلها وهو يقول لها:

- لكن إياك أن تتحدثي مع أحد حول هذا بعد الآن.

هزت رأسها موافقة، أما طارق فقد تأمل سعادتها وعلى وجهه ابتسامة باهتة وهو يتذكر ما

قالت له أمه، فقال في نفسه:

-ليت السعادة تكون براءتك وبساطتك يا رُبّا.

سأله عبد الكريم حين انتبه لشروده:

- ما بك يا طارق؟

استيقظ من شروده وهو يقول مبتسماً:

- لا شيء أبي.

ثم نظر لزوجته وهو يقول:

- ترى، هل عرفت ما تريدن يا عائشة من زيارتك لمنزل ضياء؟

قالت محاولة إخفاء ألمها فتعثرت كلماتها:

- ليس بعد؛ لكن.. سأحاول.

انتبه لما بدا عليها، قال لها في قلق:

- ما الأمر عائشة؟

هزت رأسها وهي تقول:

- لا شيء، هيا لتتناول العشاء.

- لم أنتِ حزينة هكذا؟ هل حدث شيء؟

هزت رأسها، وقالت:

- قلت لك لا شيء.

نهض طارق من مجلسه وقال في قلق:

- لا يا أمي، هناك أمر ما يسبب لك كل هذا الحزن، أخبرينا.

التزمت الصمت لبرهة وهي تنظر لربا، فأدركا مقصدها ثم قالت:

- سأخبركما في الوقت المناسب.

قال عبد الكريم:

- حسنا لاحقاً نتحدث.

ارتبكت قليلاً ثم قالت مبتسمة:

- لا شيء لأخبركما به الآن، سأذهب لزيارة عائلة ضياء بعد انتهاء امتحاناتها، أشعر بأن

زيارتي لهم في هذا الوقت غير مناسبة، سأربك الفتاة وأزعجها في هذا الوقت ولا سيما وبأنها

تعرف بالأمر.

هز عبد الكريم رأسه، وثم قال وهو ينهض:

- حسناً كما تريدن.

أما طارق فلم يبدُ عليه الاقتناع بما قالتة وخصوصاً أنها تريده أن ينساها، لكن الأمر الأهم الآن وقد عرفت بأن ضياء تعلم بأنه يريد الزواج بها، فكيف سيكون تصرفها معها؟ هذا ما دار في خلده، ازداد قلقه وهو يدرك تماماً بأن أمه لن تحبها بل تريد إبعادها عنه. أما عائشة، فألم ما اقترفته كان يلزمها، شعرت بضرورة معالجة ما فعلت بطريقتها، فضياء وعائلتها مغادرون من المدينة، ولا بد لها أن تصلح خطأها؛ لكن كيف سيتم لها ذلك؟ وهل يجب عليها أن تعدل عن رأيها بعد أن رأت حب كل أفراد عائلتها لها، وما رآته من دماثة خلقها رغم وقاحتها؟ هل ستوافق على هذا الزواج إن ربط هذا الأمر بإجرائها العملية لإصابة وجهها؟ وهل ستعود جميلة حتى تمنع كل الألسن التي قد تحيط بها وتمسهم جميعاً بسببها؟ كان ذلك أقسى خاطر يمر بها، قررت أن تفكر في الأمر بروية حتى تستطيع اتخاذ القرار المناسب.

منذ ذلك اليوم، رافق الارتباك والاضطراب نفسه كلما رآها أو سمع صوتها، ليس لما يشعر به نحوها وحسب، بل لإدراكها بحقيقة مشاعره نحوها؛ لكن ما هي مشاعرها نحوه بعد معرفتها بما في نفسه؟ هل ستقبل الزواج به أم إن هذا الأمر سيزعجها ولا سيما بأنه لم يقدم لها منذ بداية السنة إلا الإساءة؟

لم يكن يدري كيف يستطيع معرفة ذلك، كان يراها كل يوم هادئة على عاداتها ولا يبدو عليها شيء، ربما هي أيضاً لا ترى عليه أية انفعالات تبدي ما يعتمل من اضطراب في أعماق نفسه.

وبدأت الامتحانات النهائية، فبذل جهده لأجل طموحه والسعي لتحسين مستواه الدراسي .
ولما خرج من القاعة بعد الامتحان رآها تسير مع بعض زميلاتنا وهي تحدثن مبسمة
كعادتها، تذكر محاضرة كانت قد وعدته بإحضارها له، تردد في محادثتها إلا أنه قال في نفسه:
- لا بد علي ألا أرتبك، أنا بحاجة لتلك المحاضرة لأجل الامتحان القادم.

ثم أبعد ارتباكها واقتراب منها وهو يقول:

- ضياء إذا سمحت.

توقفت للحظة ملتفتة إليه وهي تقول في سرعة:

-اعذرنى.

وتابعت خطاها مع زميلاتنا، فظل واقفاً مكانه والوجوم يعتليه لتصرفها.
هل أبدى ما أزعجها، أم أنها منزوعة من معرفتها بما في نفسه نحوها، أم أن أمراً حدث بينها
وبين أمه؟ كان يود طلب المحاضرة منها لا أكثر، فإذا بها لا تصغي إليه ولو قليلاً كما مضى،
شعر بالقلق والحيرة حين مرت تلك الخواطر بفكره، فتمتم:

-ما الذي حدث بالضبط؟

واستيقظ من حالته حين سمع صوتها وهي تقول بهدوء وحزم:

- آسفة، هذه المحاضرة التي طلبتها في آخر يوم من الدراسة.

رآها قد عادت إليه وهي تناوله بعض الأوراق وتقول متابعة:

-لست بحاجة لها، بإمكانك أخذها.

تناول منها الأوراق وهو يقول:

-هل هناك ما أساءك مني يا ضياء؟ أراك منزعة.

- لا، لا شيء، لا تشغل بالك.

-آسف لأن طلبتي بلغك بطريقة لا تليق عن طريق رُبا.

اضطربت نفسها هنا، وارتبكت وهي تشعر بعبء حزن تكاد تخنقها، فردت بسرعة وبلهجة متلعثمة:

-لا تقلق، لم يحدث شيء، الأفضل لك أن تتبه لما هو قادم.

ثم ابتعدت عنه بسرعة، فهتف:

-ضياء، لحظة من فضلك.

أراد أن يستوقفها، وانصرفت من فورها دون انتظار أية كلمات أخرى، تملكه القلق للهجتها وتصرفها، ود لو أن في استطاعته الحصول على إجابتها في تلك اللحظة؛ لكن الأمر صعب، شعر بارتباك في أعماقها لم يفهمه، وربما لم تعد ترغب بمحادثته بعد ما عرفت بما يكنه نحوها. أما هي، فقد دمعت عيناها ورافقها الألم بعد السعادة التي غرستها بقلبيها، وأدركت أن قربها منه لن يزيده إلا ألماً خصوصاً أن والدته ترفضها وتكره رؤيتها، قالت بحزن في نفسها وهي تمسح دموعها:

-الأفضل لك أن تنساني لتواصل لحياتك، فارتباطنا ضربٌ من المستحيل.

عاد إلى البيت مبكراً، ووجد والدته وأخته جالستين بالصالة، سلم عليهما ثم جلس على الأريكة المقابلة لوالدته، وقال في حزم:

-أمي، ماذا حدث بينك وبين ضياء؟

فوجئت بحزم قوله، قالت:

-قلتُ لك بأنني سأخبرك في حينه.

هز رأسه وهو يقول في إصرار:

- لا أمي أخبريني، تركتني رُباً في دوامة الارتباك التي منعتني عن محادثة ضياء لأيام، واليوم حين حادثتها وطلبتُ منها بعض الأوراق شعرت بأن الفتاة منزعة من شيء ما، أمي أخبريني.

صمتت للحظة ثم قالت:

-حسناً، أمهلني إلى المساء وسأخبرك أنت ووالدك.

قال في انفعال:

-ولم إلى المساء؟ أمي لم أعد أحتمل ذلك.

قالت بحزم وهدوء:

-قلتُ لك سأخبرك، اصبر إلى المساء وحسب...لم يكن يريد ذلك؛ لكنه هز رأسه مؤيداً والقلقي يعتصر فكره، وأطلق تنهيدة قوية قبل أن ينهض عائداً إلى غرفته، أما عائشة فقد كانت ترقبه وتفكر فيما يتوجب عليها فعله لتنتهي هذا الأمر.

أيام قليلة وستكون هذه المدينة محطة من محطات الحياة وجزء من ذاكرة الزمن، جمعتها بأجل

اللحظات وأتعسها، أناسٌ ساعدوها وكانوا لها سنداً، وأناسٌ كانوا لها عثرة أرادوا أن تقع في مستنقع الأخطاء تارة واليأس تارة.

أما هو، فكان مزيجاً من الاثنين، بداية ترافقت بالكرهية والألم والشهامة لتنتهي بشعورها بالسعادة والتضحية والحب، كانت تذاكر في محاضرتها وهي تشرّد بفكرها بين الفينة والأخرى حين تشعر بوخز جراح قلبها، تنهدت، عليها تجاوز الألم مهما كان.

استيقظت من شرودها على قرعٍ الباب نهضت وهي تتوقع قدوم رُبا لتدرسها فهي لأيام لم تأت، فلما نظرت من النافذة وجدت عائشة وحدها، استغربت ووجلت من قدومها دون رُبا، وتساءلت عما تريد، ثم أسرع وأخبرت والدتها، قالت مها في ضيق:

-أبقي مكانك، أنا سأفتح لها الباب.

أمسكت بيدها وقالت بحزم:

- أُمي، إياك أن يملكك الغضب.

- سأفعل يا ابنتي، لستُ من يحب افتعال المشكلات مع الآخرين.

ثم أسرعت تنزل الدرجات لتفتح الباب لها مرحبة، فشكرتها ثم دلفت معها إلى حجرة الضيوف، وبعد لحظات قالت عائشة:

-أين ضياء يا مها؟ أريد أن أحادثها قليلاً.

أحست بأن طلبها لابتتها لن يكون لخير، فقال بلهجة لم تخل من الحدة:

-ولم تريدني ضياء؟ أرى بأن رُباً ليست معك، إذن فلا حاجة لوجود ابنتي.

قالت في رجاء:

-أريد أن أحادثها قليلاً فقط، أرجوك.

اندهشت لرجائها ومع ذلك لم تطمئن لها، نادى على ابنتها، ولما دلفت ضياء مرحبة بها، تأملت عائشة وجهها للحظات، لم يبدُ عليها الغضب أو الانفعال منها؛ بل كانت عادية تماماً، ازداد الألم الجاثم في صدرها وهي ترى ذلك، ولما جلست سألتها قائلة:

-هل رُباً بخير؟

- نعم لا تقلقي، أجلت أمر دراستها لأجل امتحاناتك.

فابتسمت وقالت:

-الحمد لله، أرجو أن تهتمي بها...

قاطعتها عائشة وهي تقول:

-لم آتِ إلى هنا لأجل رُباً، أريد أن...

وصمتت ضياء لقولها في حيرة فهي لا تتوقع منها حديثاً حسناً بعد كلامها الجارح ذاك، بينما

ازداد الضيق على وجهها وهي تعتقد بأنها ستعيد حديثها الجارح مرة أخرى، فقالت:

- ابنتي، أنا أعتذر عما بدر مني تجاهك.

ذهلتا لقولها وهي تتابع قائلة في ندم وألم:

-كنتِ تدركين بأنّي أقصدك بكلامي في آخر يوم قابلتك فيه، أخبرتني رُبّا بكل ما قالته لك،
ومع ذلك لم ترددي علي بسوء، بينما أنا تماديت في إساءتي، أرجوك سامحيني..
قالت مها بحدة:

-الأسوء ليست الإساءة وحدها؛ بل أن تأتيك إلى عقر دارك.
طفى الحزن على وجهها، وهي تقول:

-أنتِ على حق.

ثم صمتت للحظات قبل أن تستطرد قائلة:

-أرجوكما سامحاني على ما بدر مني.

ابتسمت ضياء وقالت:

-لا عليكِ سيدتي، لقد سامحتك.

- حقاً؟؟

هزت رأسها وكذلك مها التي قالت مبتسمة:

-والأجل هو أن يعترف الانسان بخطأه، سامحتك يا عائشة.

ابتسمت عائشة لهما في سرور، وقالت:

-أشكركما.

ثم ران صمت قصير عليهن قبل أن تقطعه عائشة وهي تقول في تردد:

-أما بالنسبة لطلب طارق فقد...

وصمتت للحظات بدا جليا لهما عدم موافقتها وتردها في إعلان رغبته بنفسها، قالت مها موقظة إياها من شرودها:

- ألم تقل لك ضياء أن عليه ألا يحزنكما مقابل سعادته؟ عزيزتي، يجب أن تكونوا جميعاً سعداء باختيار طارق وإلا فإن سعادته لن تتم.

دارت دوامة الصراع بين ضمير عائشة وقلبها وهي تقول متلثمة:

- في الواقع...

قالت ضياء:

يجب أن نحاولا معه، فوجهة نظركما حكيمة، وأنا على كل حال غير مناسبة لطارق.

ظل الوجوم على وجه مها وعائشة وهما تحدقان بها وهي تقول ناكسة رأسها:

- أنا أحترم طارق وأقدره كثيراً، ولكنه سيُظلم معي، فهو له مستقبل كبير بعد والده حفظه الله وأطال عمره، أما أنا، فتاة ظلت ألسن السخرية تجري وراءها بسبب تشوه وجهها، لا أدري، لم الفتاة دون غيرها عرضة لأن يعلن عن نقصها بكل سهولة وتكون ميداناً للحديث، ويجب أن تكون كاملة في كل شيء مع إن الكمال لله وحده، لهذا...

قطعت عبارتها حين خنقتها عبرة حزن لم تستطع أن تحبس دموع الألم في عينيها وهي تقول:

- أخبريه بأن مصلحته ليست في الارتباط بواحدة مثلي، وسيقتنع بهذا.

ظل الوجوم على وجه مها لقلول ابنتها، في حين ازدادت عائشة صدمة من ردها وارتعبت في آن واحد.

أكانت دموعها حزناً على نفسها، أم أن قرار رفضها لطلب طارق كان يؤلمها؟
 هل أحبته كنت له في قلبها مثل ما كنه لها في قلبه؟
 رغم كل أحزانها، أكانت تضحى بسعادة قلبها بقولها هذا وأثرهم على نفسها رغم علمها
 بحبه لها؟

شعرت بأن ألم ضميرها التي أزاحتها قبل لحظات قد عاد مجدداً وهي تستمع لحديثها، لقد
 كانت مترددة في قرارها، فإذا بضياء تحسمه لها وتقرأ كل ما في فكرها وتصفعها بصفاء قلبها
 مجدداً.

وحين كادت تهم بمغادرة الغرفة أمسكت بها واحتضنتها وهي تبكي وتقول والدموع رقراقة
 في عينيها:

- يا لجمال ما في أعماقك يا ضياء، يا لي من امرأة غبية.

ذهلت لتصرفها وهي تقول متابعة:

- ابنتي، عرفتُ الآن كيف بضياء قلبك أحبتك ابنتي رُبا، وكيف أضأت لولدي طارق درباً
 أبصر به للحياة لوناً آخر وفتح قلبه على أشياء لم أعرفها إياه.
 أبعدها قليلاً عنها، وقالت وهي تنظر في عينيها:

- وهل أخبرتك بأنني لست موافقة على اختيار طارق؟ لم تقولين هذا عن نفسك؟ طارق لم يخطئ أبداً في اختياره.

بدت الدهشة على وجهها وعائشة تقول:

- ضياء، لم أعد أحكم على ما أصاب وجهك، بل على ضياء قلبك الذي علمني الآن كيف تسمو الروح وكيف تضيء للآخرين الدرب دون انتظار جزاء، لذا أرجو منك أن تفكري في طلب ولدي طارق بروية، سأفرح كثيراً بهذا.

ابتسمت رغم دموع ألمها التي انهمرت على خديها وهزت رأسها نافية، وهي تقول:

- أرجوك سيدتي، لأجله ولأجل أن أرد جميله الذي توجني يوماً...

ولم تكمل عبارتها وهي تمسح دموعها ثم نهضت من فورها مستأذنة، علقت نظرها بها بحزن منتظرة أن تقول شيئاً غير هذا، كانت تأمل أن تعدل عن قرارها، لكنها غادرت الغرفة بصمت وأنين قلبها الحزين كان يتردد في أذنيها، شعرت بالألم لأجلها وبثقل خيبة الأمل التي ستحملها معها، فتحول بصرها إلى مها التي رأتها وهي تكفكف دموعها، قالت عائشة:

- مها، أرجوك، دعيها تتريث في قرارها، أعلم أنني تسرعت فيما قلت، أرجوك.

هزت رأسها وهي تقول:

- للأسف كان هذا قرارها منذ أن علمت برغبته في التقدم لها، سيعاني طارق وكذلك أنتم مثل ما عانت هي من أحاديث الناس، هكذا أخبرتني.

- لكن ضياء ستجري عملية لتعود كما كانت، ألم تقولي هذا لي؟

- بلى ستفعل؛ لكننا لا ندري ما هي نتائجها خصوصاً أنه قد مضى على إصابتها أكثر من عام، لهذا حسمت ضياء أمرها، لم تكن تريد أن تربط مصيره مستقبله بها.

تنهدت عائشة في ألم، ثم قالت:

-أرجو ألا أكون سبب ذلك.

عادت تهز رأسها وهي تقول:

- لا تقلقي، ذاك هو قرارها، ولو أنها لم تكن تحترم طارق وتقدر مكانته لما رفضت طلبه لأجله، ووافقت مهما كان الأذى الذي سيتعرض له.

ثم نكست رأسها وقالت بحزن متابعة:

-للأسف، نحن نعيش بمجتمع يحكم على المرء بظاهره لا باطنه وبمكانته لا بأخلاقه فيسنون ألسنتهم بالحديث في أعراض الناس، من النادر أن نجد أناساً تقدر ذلك مثلكم.
- تأخرتُ جداً حتى أدرك ذلك.

ربتت على كفها وقالت محاولة الابتسامة ومقاومة حزنها:

- لا عليك يا عائشة، سيكتب الله الخير لطارق في مكانٍ ما، وأنا متفائلة لأجله، حاولي إقناعه فقط.

هزت عائشة رأسها والهَم الكبير يحتاج صدرها من كل ما حدث، وكيف سيكون موقف طارق عند سماعه لقرار ضياء.

حين حل المساء، كان طارق قد بدأ يعد الدقائق ويتحين لحظة اجتماع والدته به وبوالده، وبعد العشاء أمرت عائشة رُبا أن تستعد للنوم و تذهب لغرفتها فأطاعتها، في حين قالت له بحزم: -انتظرنا في غرفتك وسأتي إليك بعد أن أتحدث لوالدك.

تطلع إليها بدهشة وقلق، وازدرد ريقه بانفعال حين رآها تطلب من والده أن يدخل غرفتهما، كان بدوره مستغرباً؛ لكنه امتثل لها، ودخل معها، ظل يراقبهما في توتر حتى أغلقا الباب خلفهما، وبقي مكانه في الصالة دون أن يستطيع الجلوس أو الاستقرار بمكان لشدة توتره. ولما صارا بمفرديهما وجلسا على سريرهما، قال عبد الكريم قلقاً:

-هذا لا يبدو مبشراً، ما الأمر يا عائشة؟

صمتت وهي تحاول مقاومة ألمها، ثم روت له تفاصيل ما حدث والندم بادٍ على وجهها، قال بعصبية:

-ألم أطلب إليك ألا تتقدمي لها الآن؟

- نعم، ولكن الفتاة عرفت من ابتك وأردت إصلاح خطأي.

- قلت لك ضياء فتاة من جوهر رائع، ها هي تعلمك كيف تتعاملين، كيف تريدين منها أن توافق بعد أن كسرت قلبها بكل ما فعلته، لا حول ولا قوة إلا بالله، هداك الله. ردت في استياء:

-حاولت معها يا عبد الكريم، حاولت، رغم أنها قبلت اعتذاري؛ لكنها رفضت طلب طارق، أخبرني والدتها بذلك، كما أنهم سيرحلون من المدينة.

زفر في ضيق وغضب وهو ينهض من مكانه، وأخذ يفكر وهو يدور بالغرفة، بينما ظلت عائشة تنظر إليه، وحين طال صمته سألت في قلق:

-ماذا سنفعل لطارق يا عبد الكريم؟

ضرب كفيه وهو يقول في انفعال:

-هذه هي المشكلة، والمشكلة أيضاً أنهم سيرحلون حتى نتدارك الأمر لبعض الوقت، لو أن الأمر سار بيسر كنا انتظرنا ضياء حين إجراءها للعملية، حتى إن فشلت، لم يكن يهمني شيء فيها إلا خلقها، والأهم حب طارق لها.

أخذت تضغط على أصابع يديها في توتر وتقول:

-ما الحل؟ أنا خائفة على طارق.

هز رأسه وهو يقول في تحسر:

-ما عاد الخوف يجدي الآن.

اقترب من الباب وفتحه لينادي على طارق، فوجده بالصالة وأسرع نحوه فور فتحه للباب،

كان ينتظر نداءه بلهفة بل رآه ينظر إلى عينيه ليحاول معرفة ما حدث، وحين لم يستطع الوصول لشيء نظر لأمه فرأى سحنة الحزن عليها، انقبض قلبه، وتألّم في أعماقه لما سيواجهه؛ لكن الأمر لا بد أن يحسم، أجلسه إلى جوارها وظل واقفاً، فسألها مباشرة في قلق:

-أمي، ماذا حدث بينك وبين ضياء؟

نظرت لعبد الكريم الذي أشار لها بالحديث فارتبكت، لم يعد لها مهرب من ذلك، وحاولت أن تكون نبرتها حازمة وهي تربت على فخذه وتقول محاولة منحه الشجاعة والاستعداد لما ستقوله له:

-اسمعي، مهما يكون ما سأقوله لك فعليك أن تكون راضياً.

ازداد توتره وهو يستمع لكلماتها تلك، وما تلاها كان الصاعقة التي حطمت قلبه حين قالت له:

-ضياء، ليست موافقة.

ثم أخبرته بما روته لها مها، وهو في حالة صدمة، هل ما تزال ضياء حزينة لما بدر منه وتضع مصلحته عذراً لها؟ شرد حزناً بفكره عنها وقد داهمها القلق لخرسه، قالت له قاطعة شروده:

- بني، أرجوك لا تحزن، أنا واثقة من أن ضياء تحبك وتكن لك مكانة في نفسها كما فعلت أنت، ولكن...

أجابها وهو يحاول مقاومة حزنه وتيارات دموعه:

-إذا كانت تحبني مثل ما ذكرت، فلم سترفضني؟

-فعلت هذا لأجلك، كانت خائفة أن تصبح ميداناً لأحاديث الناس مثل ما كانت هي.

تهدم سد دموعه وانهمرت على خديه دون وعي منه، لم يحتمل الألم المضرم في نفسه وهو يقول والعبرات تغص به:

-إنها مستعدة للتضحية يا أُمي لأجل من تحبهم، أنا أدرك ذلك، فلماذا لا نستطيع أن نفعل مثلها؟ لماذا لا نكون مثلها؟ لا يهمني أحاديث الناس، أو إلى أي وقت ستظل تطاردني حتى ولو إلى أرذل العمر، لم يكن يهمني نجاح العملية التي سيجريها خالها أم لا، كل ما يهمني هي ذاتها.

ازدادت وجعاً بحزنه، لم تكن تدري كيف تخفف عنه وطأة الحزن وانكسار القلب، أمسكت بيده وقالت بهدوء :

-لا تبك هكذا، عليك احترام قرارها.

زم شفتيه ليكبث هيجان حزنه وهو يهز رأسه في أسى، وعبد الكريم يراقبه والحرقة تأكل قلبه، أية كلمات يمكن أن تجدي معه بعد الآن؛ بل ربما حتى الأيام والسنون لن تستطيع محوها عن فكره وقلبه، قالت له في رجاء:

-طارق، أرجوك اهدأ.

مسح وجهه وتنفس بعمق لفرط اختناقفه وجذب يده برفق، ثم نهض بصمت متوجهاً إلى غرفته وهو يسير مترنحاً وبخطوات وثيدة، نهضت من مكانها وأمسكت بيد عبد الكريم وقالت في قلق:

-عبد الكريم، أرجوك افعل شيئاً.

هز رأسه وقال في يأس:

-وماذا عساي أن أفعل، لا يمكنني فعل شيء، وما حدث لا بد أن يحدث وقد رأيت تعلقه بها.

-تحدث إلى شادي، ربما...

قاطعها غاضباً:

-لم يعد الوقت مناسباً لإعادة المحاولة؛ ولكن إذا...

لكنه قطع كلماته وكظم غيظه وهو يقول:

-أستغفر الله العظيم، قدر الله وما شاء فعل، قدر الله وما شاء فعل.

وخرج من الغرفة محاولاً تهدئة غضبه، تاركاً إياها تصارع الندم والألم والقلق.

أما طارق، فما أن خلا بنفسه في غرفته حتى تهاوى على كرسيه وأسند ظهره إليه وهو يفكر، لقد فقد الأمل، تمت في حزن:

-لستُ ألوّمك يا ضياء، أنتِ غرستِ في نفسي أشياء جعلت قلبي يزهر بريبعك، أما أنا، فماذا

قدمتُ لك؟ لم أقدم لك إلا أشواكه لتجرح قلبك وتسيل أنهار الألم، هل فات الأوان

لأداوئها؟ لا يهم إن أحببتي أم لا، ما يهمني هو ألا أجعلك تحزين مني أبداً.

لم يستطع أن يكبت حزنه طويلاً فعادت دموعه تنهمر بحرقة مجدداً، لتلهب وجعه أكثر من أن

تحمده وتنطلق من صدره زفرات الألم، فاضطربت أنفاسه واحتقن وجهه لفرط بكائه، لقد

ترك روحه المكلومة تفعل ما بدا لها، بكى ما شاء له البكاء، إلا أن الدموع وإن طال أمدّها لا

تستطيع جرف ذكريات حبيب احتل القلب واستوطنه، هز رأسه في حسرة وهو يقول:

-هل ساعد ساعات الفراق منذ الآن؟

عدت الأيام سويعاتها التي كانت تجري مسرعة، يتنافس فيها عقرباها مترقبين لحظة التقائهما بكل شوق، أما هو فكان يرى الزمن عدوه الأول ليعلن له في القريب رحيل حبيبته إلى الأبد. الامتحانات تمر عليه سريعة جداً كأن الأيام تريد التخلص منها، بينما كان هو يرتجفها ليستوعب عقله ما يتوجب عليه تجاهها من مذاكرة وتقديم أفضل ما لديه ليفرح والديه، ووقتاً ليرتاح قلبه من مكابدة ما هو فيه من آلام وشجن اشتد قلق عبد الكريم وهو يرى طارق صامتاً واجماً منذ ذلك اليوم يعيش في السكون والهدوء والعزلة مقلقة، أما رباً فقد سمح لها والدها بزيارة ضياء لوداعها قبيل يوم من موعد رحيلها، كانت هي الأخرى حزينة كحزن أخيها، فلم يدر ماذا يجب أن يفعل لأجلها. أما في الكلية، كان طارق يرى ضياء على عاداتها هادئة في تصرفاتها وحديثها مع زميلاتها، لكنها حين تنتبه لنظراته نحوها يبدو عليها الارتباك، فتبعد بصرها وترحل من المكان مسرعة..

بقدر ما كان الألم في أعماقها، كانت رغبته في أن تراه يمضي في دربه بعيداً عنها أفضل له فصارت تتجنب محادثته.

أما هو، فبمجرد أن تقع عيناه على عينيها تبوحان له بشجون ألمها الأسير بصدرها، أدرك بهذا مشاعرها نحوه..

لقد امتزجت روحيهما في مكانين مختلفين، فكانت كلا منهما تسمع أنين الأخرى محاولة مواساتها لكن بروح الحب حين عجزتا عن اللقاء تحت سائه.

وفي صباح اليوم الأخير، وحين كان عبد الكريم بمكتبه قدم شادي إليه، رحب به بأحلى ترحيب، ثم قال له:

-كيف إصابتك؟ أرى أنك قد أزلت الضماد.

حرك شادي ذراعه وهو يقول:

الحمد لله لقد شفيت تماماً.

-الحمد لله..

قال مبتسماً وهو يناوله ظرف:

- كنت أود شكرك على كل ما قدمته لأجلنا وهذه كل الديون الذي علينا و هأنذا أسددها إليك.

فابتسم وقال وهو يأخذ ظرف النقود:

-لم أكن أتمنى أن تعيدها؛ لكن لأجل أختك ووعدتي لها بأن أجعله ديناً عليكم.

-شكراً لك سيدي، كما أني وددت أن أودعك قبل رحيلي الذي سيكون بعد ساعات.

هنا اختفت ابتسامته، وهو يقول:

-منذ زيارة رُبا ليلة أمس لكم، لم تستطع أن تهذاً، كنتُ أتمنى أن تطول فترة إقامتكم بيننا.

- لا تقلق، سنكون على تواصل بإذن الله، سأجعل ضياء تتحدث معها دائماً.

- بني، هل لي أن أسأل سؤالاً؟

- تفضل..

- هل هناك ما أساءكم في ولدي طارق لتردوا طلبه في التقدم لخطبة أختك؟

هز رأسه وهو يقول مبتسماً:

- سيدي.. ليس في خلق طارق ما يسيء لأحد بعد ما تغير؛ بل يسرنا، وأتمنى أن يستمر على

ما هو عليه، ولكن لأجل مصلحته وألا يتعرض للأذية التي تعرضت لها أختي.

- لم يكن هذا الأمر يهمننا كثيراً، بقدر ما يهمننا معدن أختك الفريد ورقي خلقها، فأحاديث

الناس لن تنتهي لسبب أو بدونه.

- أشكر لك كلماتك سيدي، سيكون لطارق شأن كبير في المستقبل ونحن في انتظار سماعه عما

قريب.

نهض مثله وصافحه وهو يقول:

- بإذن الله، وأتمنى ذلك حقاً، شكراً لكل ما قلته يا ولدي.

ثم نهض شادي وصافحه مودعاً إياه وهو يقول ويمد يده:

- أسعدني التعرف عليك وأشكرك على كل شيء.

صافحه عبد الكريم بحرارة وهو يقول مودعاً:

- وأنا كذلك بني.

حطت الامتحانات رحالها أخيراً، وطوت صفحاتها حين دقت لحظة انتهاء وقت الامتحان الأخير، فرح الجميع بذلك، فصاروا يتحادثون عن خططهم لأجل الإجازة وقضائها بمرح، إلا طارق الذي كان يدرك أن نهايتها تعني آخر يوم سيلقاها فيه.

شاهد الفتيات يجذبنها إلى خارج القاعة مبتسمات وكانت سحر معهن وقد تحسنت إصابتها كثيراً، فقالت لهن مبتسمة:

-رويدكن، ما الأمر؟

قالت إحدهن وهي تغمز لها:

-هناك مفاجأة لك؟

- مفاجأة؟!!

- هيا بسرعة.

وأسرعن خارجات وعلى وجوههن الابتسامات، وأراد طارق الخروج وهو يضع أوراق محاضراته في حقيبته حين سمع أحد زملائه وهو يقول لآخر:

-الفتيات سيقمن حفلة لوداع لضياء.

هز رأسه وهو يقول:

- صحيح، سمعت بأنها ستغادر اليوم..

-إنها حقاً فتاة متميزة منذ أن عرفناها هنا؛ لكنني لم أرتح لتعاملها أبداً، خيفة حقاً.

ابتسم صديقه وقال في سخرية:

-تقصد مزدوجة.

وضحك الشابان معا وهما ينصرفان، تملكه الغضب من حديثها وأراد أن يعاتبها؛ لكن الألم سرعان ما احتواه وأوقفه مكانه، أليس هذا هو القلب الذي منحه لها منذ أول يوم؟ وها هي راحلة ولازال البعض يذكر السيئ منها ويستمر في السخرية منها..

بقى طارق لوحده صامتاً أثقله الكدر وخدره الألم.

- أردتُ إبعادها بنفسي فإذا بها تبتعد رغماً عني، لم هذا؟؟ هل أودعها هكذا بكل بساطة؟ أأودع قلبي؟... يا إلهي.. ما هذا الأمر الصعب.

شعر بألم كبير في صدره وهو يقول في حزن:

- ليتني ما عرفتها أو قابلتها، ليت قلبي لم يعرف شيئاً اسمه حب، ضياء، لماذا؟ سقطت دمعة من عينه حين هب من مكانه وهو يغادر القاعة ..

وفي قاعة أخرى كان أجواء الفرح، إذ دخلتها ضياء فرأت كل زميلاتها قد أقمن لأجلها

مائدة احتفال صغيرة، فابتسمن لها جميعهن، وقالت إحداهن وهي ترحب بها:

- أهلاً بك يا ضياء، سررنا بوجودك بيننا.

- شكراً لكنّ.

فقال أخرى:

-أسوأ شيء يمكن أن يحدث هو أن يتبع المرء المظاهر متجاهلاً جوهر الأشياء، وهذا للأسف ما حصل معنا وواجهناك به يا ضياء، نعتذر لك عن كل إساءة بدرت منا ومن الجميع ونرجو أن تتقبلي هديتنا المتواضعة لك هنا.

ابتسمت لهن وقالت:

-لا عليكم، ما مضى قد انتهى، لعلني في البداية تأثرت بذلك، لكن ما قدمتن لي من مساعدة وتعامل يشعرني بالسعادة، وستكون هذه السنة وجميعكم من الذكريات التي لا يمكن أن تنسى.

قالت سحر:

-ليتكم تبقيين خلال فترة الإجازة لتقضيها معا.

-عله خير يا عزيزتي، لكن سنظل على تواصل جميعنا.

فابتسم الفتيات في سرور، وبدأ الحفل والجميع يتحدث عما في نفسه تارة، ومنهم من ألقى شعرا وخواطر وطرف روجا فيها وابتهجن جميعهن، ظلت الابتسامات مشرقة والضحكات تصدح وصفت الأجواء ونفسن عما في أنفسهن وقدم بعضهن هدايا تذكارية لها، ولما انتهى الحفل ودعتهن ثم ودعت أساتذتها برفقة سحر وقد كان لقاءها الأخير بهم. وحين كانوا على وشك مغادرة الكلية، قالت سحر لها بحزن:

-ستغادرين مباشرة إلى عدن؟

هزت رأسها فعانقتها بقوة وهي تقول ودموعها تنهمر من عينيها:

- سأشتاق إليك كثيراً ولكل أيامنا هنا، لن أنساك.

دمعت عينها وقالت:

-وأنا كذلك، سنظل على اتصال دائم عزيزتي، لا تقلقي.

وبعد وداع حار، أرسلتها سحر ثم غادرت الكلية حين وصلت سيارة والدها وهي لا تزال تلوح بيدها وتودع ضياء التي جلست على كرسي انتظار بساحتها منتظرة قدوم سيارة أخيها بدورها.

بينما هي كذلك، كان شريط الذكريات يمر سريعاً أمامها وهي تتأمل المكان حولها، منذ أول يوم وطأت قدماها الكلية وها هي على وشك مغادرتها، لاح أمامها موقف طارق حين أسقط العم صلاح وكانت النتيجة أن صفعته، دوت صدى صفعتها تلك اللحظة في أذنيها وصوت عتابها له، فارتبكت في خلدتها وشعرت بالخنجل من تصرفها بعد أن علمت بحبه لها، ثم تذكرت حين أنقذها من الحريق، ومعرفتها بما في قلبه نحوها ليدفعه ذلك لتقدم لخطبتها، مرت ذكرياتها معه كطيف سريع، قالت لنفسها مبتسمة:

- مواقف كثيرة جمعتني به واحتوى معظمها الألم؛ لكنني سعيدة لأنه تغيره إلى الأفضل.

- هذا لأنك أعدت إلي إنسانية قلبي.

انفطخت على صوت قريب منها فنظرت نحوه لتجد طارق يقف على مقربة منها ناحية يسار الكرسي، لقد سمع حديثها، وحين التقت عيونهما ازداد ارتباكها وازدادت حمرة الخجل على وجهها، بينما قال هو متابعاً بحزم:

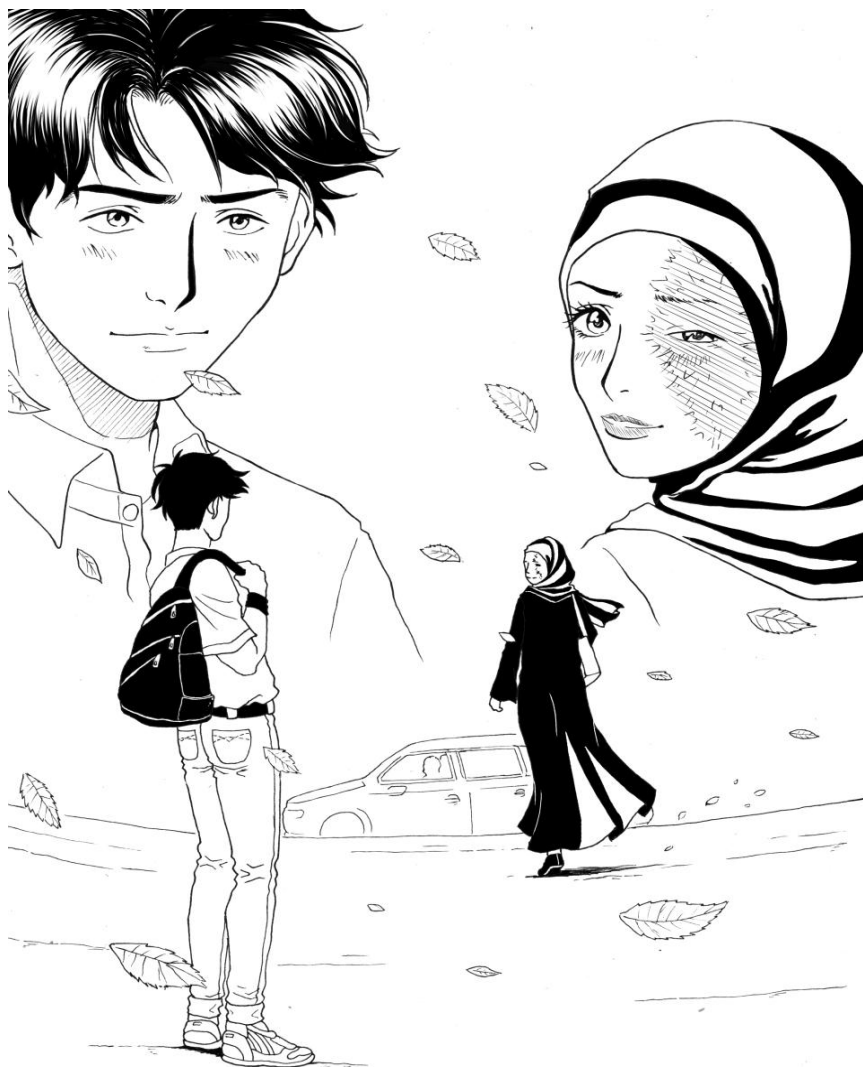
- لم أكن أفكر إلا بنفسي وما يرضيني، وحين رأيتُ كل تحدياتك عرفتُ كيف تكون الإنسانية، وكيف تكون التضحيات لأجل من تحب، وأخبرتُك بأنك تركت بصمة من الصعب أن تزال، كنتُ على استعداد للتضحية لأجلك، وعلمتُ بمكانتك عندي ومع ذلك...

هدأت ضياء قليلاً من انفعال نفسها وهي تقول بحزم:

- لأجلك ولأجل أن تستمر فيما أنت فيه عليك أن تواجه الحياة بنفسك، أقدر لك ما تحمله نحوي من مكانة، لكن مصلحتك تكمن في رحيلي، فأكمل دربك الجديد الذي بدأت به. أخفض رأسه قليلاً حين بدأ الألم يكوّي قلبه، كم كان يتمنى لو يستطيع منعها، أن تتمهل في قرارها ولا تضحي بقلبيها معاً، تمنى لو أنه يستطيع مصارحتها بصراعات نفسه لكن الحياء منعه، وأدب العرف يقيدته، ليست هذه طريقة تليق بحبيبة توجهها ملكة لقلبه.

ولم يكن الألم يعتصره وحده؛ بل هي أيضاً، حبه لها رغم ما بها جعل شخصه يستحوذ قلبها ويكون منارة للسعادة في قلبها وبهجة لحياتها القادمة، ثم يصطدم خيالها بالواقع المؤلم، أي حبٍ هذا الذي لن يزيده إلا وجعاً بسببها؟ وتنزل مكانته أمام أقرانه وأهله بسبب تشوئها ويكون ميداناً للأذى كما كانت هي؟ خافت عليه من المستقبل المؤلم الذي سيعيشه بسببها، حاولت إغلاق باب قلبها بهدوء وتناسي ما كان فإذا به يأبى ذلك، ويظل بين جنباته خالداً عصي النسيان أو الهجر، تجاوزت ألمها حين رأتَه يهز رأسه ويقول لها بحزم:

- نعم، لن أحيّد عنه بعد أن أبصرتَه بإذن الله.



ابتسمت محاولة مقاومة ألمها هي الأخرى، وتقول:

- أتمنى لك كل التوفيق يا طارق، وأن أسمع بأنك قد صرت رجلاً له شهرته مثل أبيه.

ابتسم وقال:

- وأتمنى لك ذلك أيضاً وأن تكوني متفوقة كما عرفناك..

هزت رأسها، ثم سمعت صوت بوق سيارة نهضت لتلمح سيارة أخيها قرب مبنى الكلية،

فودعت طارق وهي تقول في حزم:

-امض، فالحياة ستعلمك الكثير.

فهز رأسه وهو يقول مبتسماً:

-أشكرك على كل شيء.

وغادرت الكلية ومع أهلها، حاملة حقيبة ذكريات لها هنا بهذا المكان، غادرت لا تدري هل

ستعود ذات يوم أم لا، غادرت وهي تقول في نفسها في حزن حين هربت دمعة من عينيها

وهي تنظر إليه من النافذة وتقول:

- لن أنسى أنك أعدت لي روحي ذات يوم، لن أنسى ذلك ما حييت، أتمنى لك كل خير..

أما طارق، فقد ظل في مكانه واقفاً حتى اختفت من أمامه، هب النسيم لحظتها طاوياً صفحة

شخص عزيز من ناظريه كأنها هو من حملها بعيداً عنه، فقال لنفسه:

- تأخذ الحياة أرواحنا المؤطرة بأجسادنا، بين سهولها ووديانها، بين سرائرها وأرضها، صعوداً وهبوطاً، لتختبر بحكمتها صبرنا، تمسكنا بوجداننا وعواطفنا.
زوابعك قاسية أيتها الحياة، لا تنفضين المشاعر إلا من تلك الأجساد ذات الأرواح الهشة.
أيها القلب، أين كنت حين كانت أمامك؟ تغرس خصالها في صحراءك، لم لم تزهر ربيعاً في أوانه؟

لقد رحت.. رحت.. حين عاد ربيع قلبي..

ثم ابتسم لنفسه رغم حزنه وهو يقول:

- سيبقى كل ما تعلمته منك، سيبقى حياتي تزهر بربيعك إلى الأبد، سيبقى حبك وحيي وتضحيتي لأجل أهلي حتى ولو رحلت؛ لكنك لن ترحلي عن قلبي.

تمت بحمد الله

صيف ٢٠١٦

الفهرس

هذلاء

٥

بسم الله الرحمن الرحيم

٦

٩ الفصل الأول

٩ المزدوجة

٣٤ الفصل الثاني

٣٤ جعجة العجز

٤٤ الفصل الثالث

٤٤ موت مفاجئ

٥٧ الفصل الرابع

٥٧ صراع

٧٤ الفصل الخامس

٧٤ مقاومة عارية

٨٩	الفصل السادس
٨٩	ما يسمونه
١٠٣	الفصل السابع
١٠٣	حاضنة الوجع
١٢٤	الفصل الثامن
١٢٤	مؤامرة و لكن
١٤٨	الفصل التاسع
١٤٨	بين أمل وألم
١٦٢	الفصل العاشر
١٦٢	اجتثاث
١٨٠	الفصل الحادي عشر
١٨٠	اللجوء إلى
٢٠٥	الفصل الثاني عشر
٢٠٥	أطماع .. وسط العاصفة
٢٢٧	الفصل الثالث عشر

لعزة النفس مكان	٢٢٧
الفصل الرابع عشر	٢٥٤
الجزء	٢٥٤
الفصل الخامس عشر	٢٧٨
رد فعل	٢٧٨
الفصل السادس عشر	٣٠٩
نداء صامت	٣٠٩
الفصل السابع عشر	٣٢٥
جحيم من الشمال	٣٢٥
الفصل الثامن عشر	٣٤٢
نكوص	٣٤٢
الفصل التاسع عشر	٣٦٥
كبرياء ناقص	٣٦٥
الفصل العشرون	٣٨١
العرض	٣٨١

٤٠٠	الفصل الحادي والعشرون
٤٠٠	صمود
٤٢١	الفصل الثاني والعشرون
٤٢١	خطة ضياء
٤٣٥	الفصل الثالث والعشرون
٤٣٥	العودة
٤٥٢	الفصل الرابع والعشرون
٤٥٢	تيه
٤٧٢	الفصل الخامس والعشرون
٤٧٢	لم يعد لي
٤٩٥	الفصل السادس والعشرون
٤٩٥	نصر على
٥١١	الفصل السابع والعشرون
٥١١	حين عاد قلبي
٥٢٥	الفصل الثامن والعشرون

٥٢٥	رحيلٌ إلى الأبد
٥٤٨	الفصل التاسع والعشرون
٥٤٨	عناق روح
٥٧٨	الفصل الثلاثون
٥٧٨	لأجلك
٦١٥	الفهرس

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع



ببلومانيا
للنشر والتوزيع

